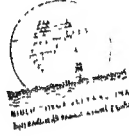


تاريخ الدولة الفاطمية



تأليف
الدكتور محمد جمال الدين سرور
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة: ٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر

ت : ٢٦٣٨٦٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدير ووفاء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وبعد؛ فهذا كتاب يتناول تاريخ الدولة الفاطمية وسياساتها الخارجية يتجلى لنا فيه مدى نجاح الفاطميين فى نشر دعوتهم وإقامة خلافتهم فى المغرب والأحوال الداخلية فى مصر قبل أن يمتد إليها سلطان الدولة الفاطمية والجهود التى بذلها الفاطميون فى سبيل بسط سيادتهم على مصر واتخاذها مقراً لخلافتهم، والحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى العصر الفاطمى الأول بمصر، وازدياد نفوذ الوزراء وما ترتب عليه من نتائج فى العصر الفاطمى الثانى وتطور نظم الحكم والحضارة فى مصر على عهد الدولة الفاطمية.

وأوضح المؤلف فى هذا الكتاب أن الفاطميين تطلعوا إلى زعامة العالم الإسلامى، ووجهوا جهودهم إلى توسيع رقعة دولتهم، ومد نفوذهم إلى أراضى الدولة العباسية، فلما أصبحت القاهرة مقراً لخلافتهم تطلعوا إلى بسط سلطانهم على بلاد الحجاز، ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامى؛ ذلك أن السيادة على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، صار ينظر إليها على أنها من مستلزمات الخلافة، وأن من يظفر بها يعد الخليفة الحقيقى للمسلمين.

وعلى الرغم أنهم واجهوا منافسة العباسيين لهم فى بسط سيادتهم على البلاد المقدسة فى الحجاز، فإنهم استطاعوا فى خلال الفترات التى اقتصر فيها نفوذهم أن ينشروا فيها الأمن، كما أظهروا قدرتهم على درء الأخطار عنها، وتأمين الوافدين إليها من المسلمين على أرواحهم وأموالهم.

وكانت بلاد البحرين من بين أقطار جزيرة العرب التى خضعت لسيادة الفاطميين فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، وقد حرص أمراؤها من القرامطة على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الخلفاء الفاطميين بالمغرب، لكن صلة المودة بين الفاطميين والقرامطة ما لبثت أن تبددت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بسبب طموح أمير القرامطة الحسن بن أحمد إلى استعادة سلطتهم على بلاد الشام، وأدى هذا إلى قيام العداء بين هذا الأمير وبين الفاطميين، ثم ضعف أمر القرامطة ببلاد البحرين بسبب الخلافات الداخلية بينهم

حتى لم يبق لهم فى أواخر القرن الرابع إلا ولاية صغيرة على الساحل الشرقى للجزيرة العربية .

ومن ولايات الجزيرة العربية التى انتشرت فيها الدعوة الفاطمية الإمامة وعمان ، وقد تولى نشر هذه الدعوة بالإمامة دعاة الإسماعيلية باليمن أثناء قيام دولة بنى الأخضر العلوية بها ، أما ولاية عمان فلإن بعض أمراء الصليحيين باليمن بعثوا إليها دعاة لنشر الدعوة الفاطمية حتى أصبح بها عدد كبير من أنصار الدعوة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى .

وكانت بلاد اليمن من أهم مراكز الدعوة الفاطمية ؛ فاتخذها دعاة الإسماعيلية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى مقراً لنشر دعوتهم وحرص هؤلاء الدعاة على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين ، وظل النفوذ الفاطمى فى اليمن رغم ذلك - يتأرجح بين القوة والضعف حتى قام بأمر الدعوة الفاطمية الأمراء الصليحيون باليمن فبذل كل منهم قصارى جهده فى سبيل توثيق عرى الصداقة مع الخلفاء الفاطميين فى مصر ، مما كان له أثر كبير فى احتفاظ الفاطميين بمركز مرموق فى بلادهم ، وخاصة فى عهد السيدة الحرة الصليحية .

على أن الدعوة الفاطمية أخذت فى الضعف بعد وفاة هذه الملكة إذ لم يكن هناك من الصليحيين شخصية قوية ، تستطيع أن تخلفها وتسير سيرتها فى نشر تلك الدعوة . ولم يلبث أن زال النفوذ الفاطمى من اليمن باستيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب على اليمن .

وكانت الضرورة السياسية والعسكرية تقضى على الفاطميين أن يمدوا نفوذهم إلى بلاد الشام ، بعد أن استقروا فى مصر . لكن الفاطميين واجهوا صعوبات كثيرة فى سبيل سيطرتهم على بلاد الشام ؛ فإلى جانب استيلاء أهالى دمشق من سياسة الفاطميين القائمة على التعصب للمذهب الشيعى ، قام قرامطة بلاد البحرين بدور هام فى مناهضة نفوذهم فى بلاد الشام ، كما أن الحركات الاستقلالية التى تزعمها أمراء العرب فى هذه البلاد أدت إلى إضعاف سلطة الفاطميين وقد أدى ضعف الفاطميين فى بلاد الشام إلى مهاجمة السلاجقة لهذه البلاد ، فبذلوا جهدهم فى بسط سيطرتهم عليها ، وتصدى لهم الفاطميون حتى أصبحوا هم والسلاجقة يتقاسمون النفوذ فى بلاد الشام .

وكانت بلاد العراق محط أنظار الفاطميين ، على اعتبار أنها مقر الخلافة العباسية . لذلك عهد الفاطميون إلى دعائهم بنشر الدعوة فيها ونجح الدعاة

الفاطيون في العراق وفارس نجاحاً كبيراً حتى انضم إليها العديد من الديالمة أنصار بنى بويه والترك، بل أقيمت الدعوة الفاطمية في بغداد نفسها، وقد تصدى السلاحقة للشيعة في العراق وفارس، كما حاول الفاطميون بسط سيادتهم على الأندلس وصقلية أيضاً.

وكان الفاطميون يرون أن بلاد المغرب لا تصلح أن تكون مركزاً لدولتهم ومن ثم اتجهت أنظارهم إلى مصر، فأنفذوا إليها في مستهل القرن الرابع الهجري عدة حملات أخفقت جميعها في تحقيق غايتها، ثم لجأ الفاطميون إلى كسب صداقة الإخشيديين في سبيل ذلك، حتى إذا ما ولى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، حاول الاستيلاء على البلاد المصرية وقوى عزمه على غزوها، حين استنجد به أولو الرأي في هذه البلد، لينقذهم من الفوضى التي انتشرت في بلادهم فأعد حملة بقيادة جوهر الصقلي، تمكنت من ضم مصر إلى حوزة الفاطميين، ثم أسس جوهر مدينة القاهرة، كما بنى الجامع الأزهر، ومهد لاتخاذ القاهرة مقراً للخلافة الفاطمية، فقضى على الدعوة العباسية، وأحل محلها الدعوة الفاطمية وأصبحت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة .

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى قسمين:
القسم الأول الدعوة الإسماعيلية وقيام الدولة الفاطمية في المغرب والعقبات التي واجهتها، وانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، واتخاذ الفاطميين القاهرة حاضرة لدولتهم، والجامع الأزهر مركزاً لنشر دعوتهم.
وتحدث المؤلف عن الأحوال الداخلية في مصر؛ التنظيمات الإدارية والمالية، الحركات السياسية والدينية في مصر الفاطمية؛ سياسة الفاطميين مع أهل الذمة - الحاكم بأمر الله ودعوى ألوهيته - العناصر الأجنبية وأثرها في الوضع الداخلي في مصر - عصر نفوذ الوزراء في مصر - زوال الخلافة الفاطمية.

وفي القسم الثاني من الكتاب كتب المؤلف عن علاقة الفاطميين بولايات الجزيرة العربية، اليمامة والبحرين وعمان واليمن والحجاز وبلاد الشام والعراق والأندلس والمغرب.

وأثر ضعف الفاطميين في مصر في ضعف المذهب الإسماعيلي في مصر وخارجها.

تعرض دار الفكر العربى مشكورة للقراء هذا الكتاب القيم، وتعيد طبعه، بعد أن اشتد الطلب عليه من الطلاب، ومن القارئ المثقف لأن هذا الكتاب عظيم القيمة، يعرض لفترة تاريخية هامة جداً فى تاريخ مصر الإسلامية، ويعطى للقارئ مادة دسمة بأسلوب ممتع.

ونعرض هذا الكتاب بمناسبة الذكرى الثالثة لأستاذ الجيل وأستاذ أساتذة التاريخ الإسلامى والفكر الإسلامى أستاذنا المرحوم جمال الدين سرور فى ذكره الثالثة تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

لقد ترك فى نفوس تلاميذه آثار كبيرة - وأنا أحد أوائل تلاميذه.

كان لا يكتفى بتعليمنا المادة العلمية وإنما يحاول جاهداً أن يغرس فىنا مكارم الأخلاق ومثله العليا.

د. عصام عبد الرؤوف الفقى

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب جامعة القاهرة

القاهرة فى ٢٣ / ١ / ١٩٩٥

محتويات القسم الأول

١١

المقدمة

الباب الأول

١٧

قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب

١٩

١ - الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الخلافة الفاطمية

جهود الإسماعيلية فى نشر دعوتهم بالمغرب - رحيل عبيد الله (المهدى) من سلمية إلى المغرب
بيعة عبيد الله المهدى بالخلافة

٢٧

٢ - سياسة الفاطميين فى توطيد سلطانهم بالمغرب

اهتمام عبيد الله المهدى بتوطيد نفوذه بالمغرب - حالة المغرب فى عهد القائم والمنصور
سياسة المعز لدين الله فى بلاد المغرب

٣٥

الباب الثانى

٣٧

الأحوال الداخلية فى مصر قبل أن يستقر فيها سلطان الفاطميين

١ - التنظيمات الإدارية والمالية فى مصر إلى نهاية العهد الإخشيدى

التنظيم الإدارى - الإدارة المالية

٤٣

٢ - العلاقات السياسية بين مصر والخلافة فى عهد الطولونيين والإخشيديين

الطولونيون والخلافة - عودة مصر إلى الخلافة العباسية - الإخشيديون والخلافة

٥٧

الباب الثالث

٥٩

السيادة الفاطمية فى مصر

١ - امتداد سلطان الفاطميين إلى مصر

الحملة الفاطمية على مصر - جهود المعز فى فتح مصر - تأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر

٦٩

٢ - اتخاذ مصر مقرا للخلافة الفاطمية

إقامة الدعوة الفاطمية محل الدعوة العباسية - قدوم المعز إلى مصر واتخاذ القاهرة حاضرة لخلافته

الباب الرابع

٧٣

الحركات السياسية والدينية فى العصر الفاطمى

٧٥

١ - موقف الفاطميين من أهل السنة فى مصر

أهل السنة فى مصر قبل الفتح الفاطمى - اهتمام الفاطميين بتحويل المصريين إلى مذهبهم الشيعى

٨١

٢ - سياسة الفاطميين مع أهل الذمة

الذميون فى أوائل العهد الفاطمى بمصر - سياسة الظاهر والمتنصر نحو أهل الذمة

٣ - الحاكم بأمر الله، ودعوى ألوهيته

سياسة الحاكم فى إصلاح المجتمع وتنظيم شئون دولته - دعوة تأليه الحاكم، وموقف المصريين منها

٤ - العناصر الأجنبية وأثر التنافس بينها فى حالة مصر الداخلية

استعانة الفاطميين بالعناصر الأجنبية - الحروب العنصرية وأثرها فى حالة مصر الداخلية

جهود بدر الجمالى فى إعادة الأمن والرخاء إلى البلاد المصرية

الباب الخامس

عصر نفوذ الوزراء الفاطميين

١ - ازدياد سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى

تدخل الوزير الأفضل فى تولية المستعلى، وإقصاء نزار عن الخلافة - ظهور طائفتى النزارية والمستعلية

استئثار الأفضل وابنه أبى على أحمد بالسلطة أثناء توليهما الوزارة - التنافس بين رجال الدولة على

تقلد الوزارة

٢ - زوال الخلافة الفاطمية

استعانة بعض الطامعين فى الوزارة بأمراء الدول المجاورة وأثرها فى مصر - دخول قوات الفرنجة البلاد المصرية - استنجد الخليفة العاضد بنور الدين صاحب دمشق - قدوم شيركوه على رأس الحملة الثالثة التى أعدها نور الدين وتقلده الوزارة - تولية صلاح الدين وزارة العاضد الفاطمى - سياسة صلاح الدين فى القضاء على المذهب الشيعى - والخلافة الفاطمية فى مصر

الباب السادس

النظم والحضارة فى العصر الفاطمى بحصر

١ - نظم الحكم والإدارة

نظام الخلافة الفاطمية - الوزارة فى عهد الفاطميين - النظام الإدارى - التنظيم الحربى

٢ - الحالة الاقتصادية

الثروة الزراعية - مظاهر تقدم الصناعة - نشاط حركة التجارة الداخلية والخارجية

نظم المعاملات التجارية

٣ - مظاهر الحياة الاجتماعية

ترف الخلفاء وكبار رجال الدولة - الاحتفال بالأعياد والمواسم - الغناء والموسيقى والمجالس الاجتماعية

٤ - الحياة الثقافية

اهتمام الفاطميين بنشر الثقافة العلمية والأدبية والمذهبية - مراكز نشر الثقافة (مكتبة القصر

الفاطمى . دار الحكمة) - نشاط الحركة العقلية فى مصر

مصادر القسم الأول

القسم الأول

الدولة الفاطمية في مصر
سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها

- ١ - قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب.
- ٢ - الأحوال الداخلية في مصر قبل أن يستقر فيها سلطان الفاطميين.
- ٣ - السيادة الفاطمية في مصر.
- ٤ - الحركات السياسية والدينية في العصر الفاطمي.
- ٥ - عصر نفوذ الوزراء الفاطميين.
- ٦ - النظم والحضارة في العصر الفاطمي بمصر.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وبعد؛ فهذا القسم يتناول تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، يتجلى لنا فيه: مدى نجاح الفاطميين في نشر دعوتهم وإقامة خلافتهم بالمغرب، والأحوال الداخلية في مصر قبل أن يمتد إليها سلطان الدولة الفاطمية، والجهود التي بذلها الفاطميون في سبيل بسط سيادتهم على مصر واتخاذها مقراً لخلافتهم، والحركات السياسية والدينية التي ظهرت في العصر الفاطمي الأول بمصر، وازدياد نفوذ الوزراء وما ترتب عليه من نتائج في العصر الفاطمي الثاني، وتطور نظم الحكم والحضارة في مصر على عهد الدولة الفاطمية.

أخذ أئمة الإسماعيلية منذ منتصف القرن الثاني الهجري يوجهون جهودهم إلى نشر دعوتهم في كثير من أرجاء العالم الإسلامي. وقد لقيت الدعوة نجاحاً كبيراً في بلاد المغرب، كان من ثماره خضوع كثير من مدن شمال إفريقيا لدعاتهم، ثم قيام الخلافة الفاطمية بتلك البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري.

ولم يكن سلطان الفاطميين موطداً في بلاد المغرب في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، ولذلك اتجهت جهود خلفائهم إلى العمل على ضبط الأمور في تلك البلاد، وبخاصة في المغرب الأقصى، على أن ما بذلوه من جهد في هذا

السبيل لم يمهأ الاضطراب الذى ساد المغرب، فسرعان ما قامت فيه بعض الثورات بعد انتقال المعز لدين الله إلى مصر. مما ترتب عليه ضعف النفوذ الفاطمى فى المغرب.

وكانت مصر فى الوقت الذى أخذ فيه الأئمة الإسماعيلية فى نشر دعوتهم، ولاية إسلامية، خاضعة لسلطان الخلافة فى بغداد، وكثيرا ما تأثرت أحوالها الداخلية بالسياسة العامة للعباسيين، فوليتها ولاية من الأتراك بعد أن ازداد نفوذ العنصر التركى فى العراق فى مستهل القرن الثالث الهجرى، ثم عمد بعض النواب والولاة إلى الاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية بعد أن تطرق الضعف إليها؛ فحاول أحمد بن طولون - الذى حكم مصر نائبا عن واليها التركى - توطيد سلطته فى هذه الولاية. ثم لم يلبث أن انفرد بتدبير شئونها، وأقام بها دولة مستقلة، عرفت باسم الدولة الطولونية، ظلت نحو ثمانية وثلاثين عاما (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ)، ثم عادت مصر إلى سلطان العباسيين.

لم تنعم البلاد المصرية بالهدوء والاستقرار فى الفترة التى عادت فيها إلى الخلافة العباسية بسبب السياسة التى اتبعت فى تعيين الولاة وعزل بعضهم مرارا، فضلا عن النزاع والتنافس على حكمها. وكان سوء الأحوال فى مصر مما شجع الفاطميين فى بلاد المغرب على التطلع لغزوها، فوجهوا إليها عدة حملات، تصدت لها قوات من جند العراق ومصر.

على أن تلك الفترة التى عادت فيها مصر إلى حكم العباسيين لم تستمر طويلا، فقد انتهت منذ أن قلد الخليفة الراضى محمد بن طنج الإخشيد ولايتها سنة ٣٢٣هـ لبلائه فى صد الجيش الفاطمى عن البلاد المصرية، واستطاع الإخشيد بفضل الوفاق الذى ساد علاقته بالخلافة العباسية أن يوطد سلطته فى مصر، فأصبح له حق توريث إمارتها لأبنائه من بعده مدة ثلاثين سنة. غير أن أولاد الإخشيد لم يتيسر لهم إدارة شئون الولاية بأنفسهم، فولى الوصاية عليهم كافور الإخشيدى الذى باشر أمور البلاد المصرية مع أعوانه؛ وما لبث أن استأثر بالسلطة فيها، ثم اضطربت الحالة السياسية فى مصر بعد وفاة كافور؛ فاستغل هذه الفرصة الفاطميون لتحقيق أمنيته فى بسط سلطانهم على تلك البلاد.

وكان الفاطميون يرون أن بلاد المغرب لا تصلح لتكون مركزا لدولتهم، ومن ثم اتجهت أنظارهم إلى مصر؛ فأنفذوا إليها في مستهل القرن الرابع الهجري عدة حملات أخفقت جميعها في تحقيق غايتها؛ ثم لجأ الفاطميون إلى كسب صداقة الإخشيديين، حتى إذا ما جاء الخليفة المعز لدين الله حاول إعادة الكرة للاستيلاء على البلاد المصرية؛ وقوى عزمه على غزوها حين استنجد به أولو الرأي في تلك البلاد لينقذ بلادهم من الفوضى التي انتشرت فيها؛ فأعد حملة بقيادة جوهر الصقلي، تمكنت من ضم مصر إلى حوزة الفاطميين، ثم أسس جوهر مدينة القاهرة، كما بنى الجامع الأزهر. ولم يكتف بذلك، بل أخذ يمهّد لاتخاذ القاهرة مقرا للخلافة الفاطمية، ففضى على الدعوة العباسية، وأحل محلها الدعوة الفاطمية ورسومها، وما لبثت ولاية مصر أن أصبحت بعد قدوم المعز إليها دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب.

اتخذ الفاطميون - بعد أن استقر سلطانهم في مصر - وسائل مختلفة في معاملة سكانها من الطوائف الدينية والعناصر الأجنبية، فركزوا اهتمامهم في تحويل المصريين السنيين إلى المذهب الشيعي، لكنهم لم ينجحوا في ذلك السبيل، فظل المذهب السني محتفظا ببعض مظاهر قوته في مصر، أما فيما يتعلق بأهل الذمة، فإن الفاطميين قربوهم إليهم وأحاطوهم برعايتهم وتسامحهم بعد أن أيقنوا من تعذر اعتمادهم على السنيين، غير أنهم لم يتمسكوا طيلة عهدهم بهذه السياسة، فكثيرا ما اضطروا إلى العدول عنها، ولم يعمل الفاطميون على مفاجأة العناصر الأجنبية، بل ساروا على طريقة العباسيين في الاستعانة بهم، وكان لتزايد عددهم وتنافس طوائفهم أثر سيئ في حالة مصر الداخلية.

وكانت مصر في مستهل العصر الفاطمي تحتل مكانا مرموقا بين الدول المعاصرة لها وتنعم بالرخاء والاستقرار، غير أن الأحداث التي طرأت على هذه البلاد منذ أواخر القرن الخامس الهجري أضعفت من شأنها، فقد اضمحل سلطان الخلافة الفاطمية وأخذ نفوذ الوزراء في الازدياد، وأصبح في أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم، بل انصرف بعضهم عن الاحتفاظ بمظاهر المذهب الفاطمي، وحاول البعض الآخر إحياء المذهب السني. كما تنافس كبار رجال الحكومة الفاطمية على منصب الوزراء؛ واستعان بعض الطامعين في هذا المنصب بأمراء

الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى السيطرة على مصر، الأمر الذى مهد السبيل لزوال الخلافة الفاطمية.

على أن أهم ما اتصف به العصر الفاطمى فى مصر هو النهضة التى ظهرت آثارها فى جميع نواحي الحياة المصرية؛ فإلى جانب ما نلمسه من تطور فى نظم الحكم والإدارة، نلاحظ اهتمام الفاطميين بتنمية الثروة مما ساعد على انتشار الرخاء فى البلاد؛ وفضلا عن ذلك فقد اتخذت الحياة الاجتماعية فى هذا العصر عدة مظاهر؛ فبلغ الترف والبذخ أقصاه فى بلاط الخلفاء والوزراء، كما تجلت قوة الشعور الإسلامى فى مواكبهم ورسومهم أيام الأعياد والمواسم الدينية.

وكان من مظاهر تطور الحضارة فى العصر الفاطمى نشر الثقافة العلمية والأدبية، فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصل بالمذهب الإسماعيلى؛ فعنى الفاطميون بإنشاء المكتبات والمعاهد العلمية، كما شجعوا العلماء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب مما كان له أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية فى مصر فى ذلك العصر؛ فأصبح كثير من أبنائها طلابا للعلم وأنصارا للأدب، كما وفد إلى معاهدها بالقاهرة كثير من أعلام المشرق.

* * *

وقد بدأت هذا القسم يبحث قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب، والسياسة التى اتبعها الفاطميون لتوطيد نفوذهم فى تلك البلاد حتى منتصف القرن الرابع الهجرى، ثم تحدثت عن الأحوال الداخلية فى مصر إبان الفترة التى قضاها الفاطميون فى تأسيس دولتهم فى الشرق وبسط سيادتهم على المغرب، وبينت سياسة هذه الدولة الجديدة فى مد سلطانها إلى مصر واتخاذ القاهرة مقرا لها.

كذلك تناولت بالبحث الحركات السياسية والدينية فى مصر فى العصر الفاطمى الأول؛ فوضحت سياسة الفاطميين مع المصريين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم، وشرحت أسباب كثرة العناصر الأجنبية فى مصر وقتذاك، ومدى تأثير حالة مصر الداخلية من جراء استعانة الفاطميين بهذه العناصر.

وعنيت، أيضا بتوضيح الظروف التى أدت إلى ازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء فى العصر الفاطمى الثانى؛ كما تحدثت عن انصراف بعض

وزراء هذا العصر عن تأييد المذهب الفاطمي، وتنافس كبار رجال الدولة على منصب الوزراء، وما كان لذلك من أثر في القضاء على الخلافة الفاطمية.

ومن الموضوعات التي أوليتها اهتمامي: حضارة مصر في العصر الفاطمي، فبحثت التطورات التي طرأت على نظم الحكم والإدارة في ذلك العصر، وبينت مدى ما وصلت إليه مصر من تقدم في ميدان الزراعة والصناعة والتجارة، وما تجلّى فيها من رقي الحياة الاجتماعية وازدهار الحركة العلمية والأدبية.

والله أسأل أن يوفقني لمتابعة البحث في تاريخ الدولة الإسلامية وحضارتها.

الباب الأول

قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب

- ١ - الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الخلافة الفاطمية.
- ٢ - سياسة الفاطميين في توطيد سلطانهم بالمغرب.

١ - الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الخلافة الفاطمية:

لما ظفر العباسيون بالخلافة لم يرحب بهم العلويون من أبناء الحسن بن علي والحسين بن علي بن أبي طالب، واستمر النزاع بين الفريقين طوال العصر العباسي الأول حتى أصبحنا لا نجد تاريخ خليفة عباسي خاليا من الحروب ضد العلويين.

غير أن أحفاد الحسن بن علي المعروفين بالحسينيين لم يكونوا في أوائل العصر العباسي الأول متفقين مع أحفاد الحسين بن علي الذين عرفوا بالحسينيين، فقد تخلى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين عن محمد ابن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية، وأخذ يعمل في الخفاء ليمهد السبيل لأبنائه من بعده للوصول إلى الخلافة، واستطاع جعفر الصادق بحسن سياسته أن يقنع بقايا العلويين من أحفاد الحسن بن علي الذين التفوا حوله - بعد أن بدد العباسيون شملهم - أنه الوارث الحقيقي لعلی وفاطمة.

انحصرت زعامة العلويين منذ أواخر العصر الأموي، وأوائل العصر العباسي في جعفر الصادق - وهو الإمام السادس عند طائفة الإمامية - وكانت هذه الطائفة تذهب إلى أن الإمامة تكون في سلالة علي عن طريق ابنه الحسين، وأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين، ولا تكون إلا في الأئمة^(١). وقد خرج بعض الإمامية على هذه التعاليم بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ، وانقسموا إلى طائفتين:

(١) انظر: كتاب فرق الشيعة لأبي محمد الحسن النوبختي، ص ٥٧ - ٥٨، ٧١ - ٧٢.

١ - الإمامية الموسوية وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الإمامية الاثنا عشرية. وقد قالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع.

٢ - الإمامية الإسماعيلية وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وكان أكبر أولاد أبيه جعفر.

ويروى أن الصادق خلع ابنه إسماعيل من الإمامة وأحل ابنه موسى الكاظم محله لمسائل نسبت إليه. وقد اعترض الشيعة الذين كانوا يميلون إلى إمامة إسماعيل على خلعه، كما لم يعترفوا بأحقية جعفر في نقل الإمامة إلى موسى الكاظم.

ولما توفي إسماعيل في حياة أبيه سنة ١٤٥هـ، رأى أتباعه أن الإمامة يجب أن تنقل بعد وفاة جعفر الصادق إلى حفيده محمد بن إسماعيل طبقاً لتعاليمهم التي تنص على أن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ، بل يجب أن تظل في الألقاب، وبذلك حولوا إليه الإمامة وأصبح الإمام السابع عندهم، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية لتمييزهم عن طائفة الاثنا عشرية.

أما الإمامية الموسوية، فقالوا إن الإمامة بعد موسى الكاظم تنتقل إلى ابنه على الرضا، ثم إلى أعقابه من بعده حتى الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد المنتظر بن الحسن العسكري بن على الهادي بن محمد الجواد بن على الرضا. وعرفت هذه الطائفة باسم الإمامية الاثنا عشرية لانتظارهم إمامهم الثاني عشر، ويقال إن محمداً دخل سرداباً في مدينة سامرا سنة ٢٦٠هـ وأمه تنظر إليه، ولكنه لم يعد ولم يقف له أشياعه على أثر من ذلك الحين.

ولا يزال أنصاره ينتظرون عودته، ويعتقدون أنه سيظهر ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، ومن ثم سمي الإمام المنتظر.

انتقلت إمامة الإسماعيلية، إلى محمد بن إسماعيل بعد وفاة جده جعفر الصادق، وأمعن أنصاره في التخفي ونشر الدعوة^(١) له سرا أيام الخلفاء العباسيين

(١) هذه الدعوة هي التي نبتت منها الخلافة الفاطمية.

المهدى والهادى والرشيد. ولما ذاعت دعوته في خلافة الرشيد أيقن أن بقاءه بالمدينة المنورة سيسهل على العباسيين مهمة تتبع حركاته والتخلص منه، فرحل منها شرقاً، وأخذ ينتقل بين بلاد الدولة الإسلامية، فذهب إلى الرى، ثم انتقل إلى جبل دماوند القريب منها، واستقر هناك بقرية تدعى سملا، أطلق عليها فيما بعد اسم محمد أباد نسبة إليه.

كان محمد بن إسماعيل يعتمد في نشر دعوته على رجل اسمه ميمون القداح، ويقول عنه الإسماعيلية إنه من نسل سلمان الفارسي. ولما توفي محمد خلفه في الإمامة عبد الله الرضى الذى أمعن في التخفى واتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له.

يرجع السبب في اختفاء الأئمة الذين تولوا الإمامة بعد محمد بن إسماعيل إلى ما ذهب إليه الإسماعيلية من أن الإمام يجوز له أن يستتر إذا لم تكن له قوة يظهر بها على أعدائه. ومن المرجح أنهم نهجوا هذه الطريقة خشية أن يلحق بهم ما لحق أتباع طائفة الإمامية الاثنا عشرية من الاضطهاد والقتل.

استقر الإمام عبد الله الرضى سلمية من أعمال حمص، وكان العباسيون قد تتبعوه في عهد المأمون مما اضطره إلى الهرب مع ابنه أحمد ولى عهده في الإمامة، فقصدا مازندران والأهواز ثم رحلا إلى قرية سلمية التى لم تلبث أن أصبحت دار هجرة للأئمة الإسماعيلية، ولما توفي عبد الله تولى ابنه أحمد إمامة الإسماعيلية، فاتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له كما اتخذته أبوه من قبل^(١).

أصبحت سلمية المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية منذ أن اتخذها الأئمة الإسماعيلية دار هجرة في عهد المأمون العباسى، فكان يخرج منها الدعاة لنشر دعوتهم في البلاد الإسلامية، وظلت على هذه الحال أيام الإمام الحسين بن أحمد ابن عبد الله الذى استطاع أن يقيم فى سلمية آمناً مطمئناً دون أن تناله يد العباسيين. والواقع أن كرم الإمام الحسين، وبذله الأموال الكثيرة وتفانيه فى إظهار حبه للهاشميين، وتفانى أنصاره فى طاعته، كل ذلك ساعد على ذبوع الدعوة فى سلمية.

(١) حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب عبيد الله المهدى، ص ٤١ - ٤٤.

اتسمت أيام الإمام الحسين بن أحمد بانتشار الدعوة الإسماعيلية فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى، ففى بلاد اليمن أخذ كل من على بن فضل اليمنى وأبى القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى منذ وصلا إليها سنة ٢٦٨هـ فى نشر الدعوة الإسماعيلية، ونجحوا فى ذلك لنجاحا كبيرا، ثم بنى ابن حوشب حصنا بجبل لاعة (جنوبى صنعاء) وأعد جيشا زحف به على صنعاء وأخرج منها بنى يعفر، وتمكن بمعاونة دعائه من التغلب على كثير من أرجاء اليمن^(١). ثم بعث ابن حوشب الدعوة إلى اليمامة وعمان والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب^(٢). وكان مبعوثاه إلى المغرب أبا سفيان والحلوانى. وقد نصح لهما ابن حوشب بأن يتعد كل منهما عن صاحبه فى نشر دعوة الإسماعيلية ويمهدا بعملهما لظهور المهدي ودولته.

وكان الإمام الحسين بن أحمد يحرص على نشر دعوته فى بلاد المغرب، فأرسل أبا عبد الله الشيعى إلى ابن حوشب باليمن سنة ٢٧٨هـ وأمره بالدخول فى طاعته والاقتراء بسيرته على أن يرحل بعد ذلك إلى المغرب لينشر الدعوة الإسماعيلية، فقدم أبو عبد الله على ابن حوشب وصار من كبار أصحابه، وأقام باليمن عاما واحدا^(٣).

ولما اتصل بابن حوشب نبأ وفاة أبى سفيان والحلوانى بالمغرب، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى القيام بالدعوة إلى المذهب الإسماعيلى فى تلك البلاد وقال له: إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان، وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك^(٤).

غادر أبو عبد الله الشيعى بلاد اليمن قاصدا مكة، فوصلها فى موسم الحج سنة ٢٧٩هـ، وسأل أبو عبد الله عن حجاج كتامة واجتمع بهم، فسمعهم يتحدثون عن فضائل آل البيت، فاشترك معهم فى الحديث، ثم سألوه عن الجهة التى سوف يرحل إليها بعد الحج، فقال إنه يريد مصر، فسروا بصحبته ورحلوا من مكة وهو يخفى عنهم أغراضه، وما لبثوا أن تعلقوا به لما شهدوه من ورعه وزهده.

(١) كتاب النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) ابن خلدون: ج ٤ ص ٣١.

(٣) انظر: كتاب «عبيد الله المهدي» ص ٧٦.

(٤) المقرئى: اتعاط الحنفا، ص ٧٤ - ٧٥.

وقد استطاع أبو عبد الله بما اجتمع إليه من ضروب الخيل أن يقف على جميع أحوال حجاج كتامة، فلما وصلوا مصر أخذ يودعهم، فشق عليهم فراقه وسأله عن حاجته بمصر دون غيرها من البلاد، فقال إنه يريد أن يطلب فيها العلم، فقالوا له: «فأما إذا كنت تقصد هذا، فإن بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ونحن أعرف بحقوقك»، وما زالوا به حتى أجابهم إلى المسير بصحبتهم^(١) ولما أصبحوا على مقربة من بلادهم كتامة، خرج إلى لقائهم أصحابهم الذين انتشرت بينهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الإسماعيلية من قبل.

وكان التشيع قد انتشر في بلاد المغرب على يد الإمام إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي فر من أيدي العباسيين بعد موقعة فخ في عهد الخليفة الهادي سنة ١٦٩هـ، وأقام الأدارسة في المغرب الأقصى دولة علوية سنة ١٧٢هـ، تعرف بدولة الأدارسة التف حولها البربر، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة للدعوة الإسماعيلية، وكان ذلك مما سهل على كل من الداعيين أبي سفيان والحلواني نشر الدعوة للمهدي من آل علي، وصار الناس يتحدثون في تلك البلاد عن قرب ظهور المهدي، فلما ذهب أبو عبد الله الشيعي إلى المغرب في أوائل سنة ٢٨٠هـ وجد الأمور ممهدة له، كما وجد التشيع قد استقر في عقول البربر واعتنقه كثير من وزراء الأغلبية الذين قامت دولتهم في إفريقية (تونس) على يد إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م) وظلت قائمة إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦هـ.

أكرم أهالي كتامة وفادة أبي عبد الله الشيعي وأحلوه من أنفسهم محل الإجلال والإكرام، وتهافت كل منهم على إنزاله في بيته، وازداد التفاف المغاربة حوله بسبب ما كان يخبرهم به من أنه البشير بالمهدي. ولم يلبث أبو عبد الله أن كشف عن نواياه لرجال كتامة، فقال لهم: «أنا صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني، فازدادت محبتهم له، وعظم أمره فيهم وأتته القبائل من كل مكان^(٢)، وظل أبو عبد الله مواليا لإمام الإسماعيلية بسلمية الحسين بن أحمد الذي عرف أيضا باسم محمد الحبيب يرسل إليه رسله وهداياه.

(١) المقرئى: اتعاظ الحنفا، ص ٧٥.

(٢) المقرئى: اتعاظ الحنفا، ص ٧٦ - ٧٧.

لم يكتف أبو عبد الله الشيعي بنشر الدعوة للفاطميين في بلاد المغرب، بل أخذ يعمل منذ سنة ٢٨٩هـ على بسط نفوذهم في شمال إفريقية، ف وقعت في يده عدة مدن، وكان مما ساعد على تقدمه في الفتوح موت إبراهيم الثاني بن أحمد بن الأغلب أمير الأغالبة بإفريقية سنة ٢٩١هـ، ولحاق ابنه أبي العباس عبد الله به الذي لم يبق في الإمارة سوى تسعة أشهر، فخلفه ابنه زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة الذي انصرف إلى اللهو والترف بينما كان وزرائه يعملون على نجاح المذهب الشيعي الذي اعتنقه أهالي هذه البلاد. ولم تنقطع الحرب بين قوات كل من أبي عبد الله الشيعي وزيادة الله الثالث حتى سنة ٢٩٦هـ حيث دارت واقعة الأريس^(١) التي أدت إلى زوال دولة الأغالبة بإفريقية، وامتد نفوذ الفاطميين في ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان^(٢).

* * *

كان دعاة الإسماعيلية باليمن يعتقدون أن دولة المهدي ستظهر في بلادهم، كما حرص رؤسائهم على أن يكون قيامها على أيديهم، وكذلك كانت الحال بين دعاة الإسماعيلية في بلاد المغرب، إذ كانوا يرجون قدوم المهدي إليهم لإقامة دولتهم المنشودة، ولذا أنفذ زعيمهم أبو عبد الله الشيعي - بعد أن استقر به المقام في هذه البلاد وصادفت دعوته شيئاً كثيراً من النجاح - إلى عبيد الله بن الإمام الحسين بن أحمد - وهو بسلمية - وفداً من رجال كتامة يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب^(٣). وكانت بلاد المغرب وقتذاك تشمل عدة دول وإمارات وهي دولة الأغالبة في إفريقية (تونس) ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى، وإمارة مدرار في سجلماسة وإمارة بنى رستم في تاهرت بالمغرب الأوسط^(٤).

كان الخليفة المكتفي العباسي قد وصله إذ ذاك ذبوع الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن والمغرب، فعهد إلى بعض رجاله بتعقب حركات عبيد الله والقبض عليه فخرج عبيد الله من سلمية بعد مقابلته وفداً كتامة ووقوفه على مدى نجاح الدعوة في بلاد المغرب وأخبر أتباعه أنه سيقصد اليمن^(٥).

(١) كانت فيما بعد تعد باب المهديّة.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠ - ٥١.

(٣) المقرئ: المواقظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٢، ص ١١.

(٤) انظر زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج ١ ص ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢.

(٥) النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب للمؤلف ص ٦٤ - ٦٥.

على أن عبيد الله لم يكن راغبا رغبة أكيدة في إقامة دولته ببلاد اليمن، بل أزمع الرحيل إلى بلاد المغرب منذ خرج من سلمية تلبية للدعوة التي وجهها إليه داعيته أبو عبد الله الشيعي. وقد أدى به حرصه على ألا يقع في قبضة العباسيين إلى إخفاء حقيقة الجهة التي سيقصدها؛ فلما وصل إلى مصر اتضح لداعي دعائه فيروز أنه سيقصد المغرب فشق ذلك عليه، وتخلف عن المسير مع الإمام عبيد الله ومضى إلى اليمن^(١). أما عبيد الله فرحب به أتباعه بمصر وعلى رأسهم داعيته أبو علي الذي طلب من ابن عياش أن يسمح له بالإقامة في داره ويكرم وفادته. وكان ابن عياش يخلص للمذهب الإسماعيلي وأنصاره ويتمتع بمنزلة كبيرة عند ولاة مصر.

بذلت الخلافة العباسية جهودا كبيرة للقبض على عبيد الله لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلا بفضل ما قدمه له أنصاره من معونة، ذلك أنه لما جاءت أوامر الخليفة العباسي إلى والي مصر محمد بن سليمان الكاتب بالقبض على المهدي، تمكن أنصاره من إيهام والي أن عبيد الله رجل هاشمي يحترف التجارة وأن الشخص المقصود فر إلى اليمن، كما أن هذا والي نفسه لم يكن وفيا للعباسيين، فأمر بالقبض على بعض غلمان المهدي وضربهم ضربا خفيفا وأهمل شأن المهدي.

لما بلغ العباسيين أن محمد بن سليمان الكاتب تهاون في القبض على عبيد الله المهدي، ولّوا عيسى بن محمد النوشري^(٢) على مصر بدلا منه: فقدم إليها في جمادى الآخرة سنة ٢٩٢هـ وكان كثير من حاشية هذا والي يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلي، فحذروا عبيد الله المهدي مما قد يحيق به من خطر العباسيين الذين كانوا إذ ذاك يتعقبونه ويبشون العيون عليه؛ فقرر الرحيل من مصر.

خرج عبيد الله من الفسطاط مرتديا زي التجار يريد المغرب، غير أن عيسى النوشري لحق به وقبض عليه، لكنه ما لبث أن أطلقه بعد أن رشاه بمال كبير. ولم تقف متاعب عبيد الله عند هذا الحد، فقد هجم على قافلته وهي في طريقها إلى طرابلس جماعة من البربر عند الطاحونة (وهي موضع في برقة) ونهبوها^(٣).

(١) النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب للمؤلف ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) كان عيسى بن محمد النوشري من بين القواد الذين قدموا مع محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر للقضاء

على الدولة الطولونية (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣، ص ١٤٥).

(٣) المقرئ: اتعاظ الحنفا، ص ٨٣.

لما وصل عبيد الله المهدي إلى طرابلس، وبعث رسلا من قبله إلى داعيه أبي عبد الله الشيعي يخبره أنه في طريقه إليه، ومن هؤلاء الرسل الذين أنفذهم عبيد الله إلى المغرب أبو العباس أخو عبد الله الشيعي وجماعة من الكتامين، غير أن زيادة الله الثالث أمير الأغالبة قبض على أبي العباس هذا بالقيروان وعذبه ليدله على الجهة التي يقيم فيها المهدي، فلم يجبه، واستطاع عبيد الله بفضل الأموال التي أعطاها لعامل طرابلس أن يهرب مع أتباعه إلى سجلماسة^(١) بالمغرب الأقصى.

ظل عبيد الله في بداية الأمر طليقا في سجلماسة بسبب إغداقه الأموال على واليها اليسع بن مدرار؛ غير أن معاملة والي سجلماسة لعبيد الله ما لبث أن تبدلت بعد انتصار أبي عبد الله الشيعي على الأغالبة سنة ٢٩٦هـ إذ خشي مما سوف تتطور إليه الحال بعد ذلك؛ فقبض على عبيد الله وزجه هو وأتباعه في السجن.

كان أبو عبد الله إذ ذاك يمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب عن طريق الحرب والفتح، فدخل رقادة مقر إمارة الأغالبة، وحذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة، ثم سار في قوة كبيرة إلى سجلماسة لإطلاق عبيد الله من سجنه، ولما علم اليسع بن مدرار أمير سجلماسة بوصول أبي عبد الله الشيعي إليها، هرب ليلا وخلا الجو لأبي عبد الله، فأطلق داعي الفاطميين سراح عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم^(٢).

أخذت البيعة لعبيد الله المهدي بسجلماسة، وتلا ذلك تقليد أبي عبد الله الشيعي سيفاً ومنحه خلعة للدلالة على مكانته، وأخذ أبو عبد الله يقدم إلى عبيد الله أشياعه وأنصاره ثلاثة أيام كاملة، ثم رحل عبيد الله عن سجلماسة - بعد أن أقام بها أربعين يوما - قاصدا إفريقية في حفل كبير من العساكر - وكان أبو عبد الله الشيعي ورؤساء كتامة مشاة بين يديه وولده خلفه - فلما اقترب من رقادة تلقاه أهلها وأهل القيروان بالترحاب، ثم نزل بقصر من قصور رقادة واتخذها حاضرة له في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ وأمر بذكر اسمه في الخطبة على منابر البلاد وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين^(٣)، وبذلك قامت الخلافة الفاطمية في شمال إفريقية.

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤.

(٢) المقرئزي: اتعاظ الخلفاء، ص ٧٨ - ٩٠.

(٣) المقرئزي: اتعاظ الخلفاء، ص ٩٢.

سياسة الفاطميين فى توطيد سلطانهم بالمغرب

أرسل عبيد الله المهدي بعد إعلان خلافته عمالا إلى الولايات المختلفة واختارهم من زعماء كتامة ومن يثق بهم من المغاربة، وعهد إلى أبي عبد الله الشيعي بإخضاع بلاد المغرب الأوسط والأقصى لأن أهلها لم يدينوا له بالطاعة. فخرج أبو عبد الله سنة ٢٩٧هـ مع بعض قادة كتامة ودعاتهم إلى تلك البلاد، فافتتح مدنها، ثم سار على رأس جيش سنة ٢٩٨هـ لإخضاع قبائل زناتة جنوبى بلاد كتامة، فدخلوا فى طاعته وصار يجبى منهم الأموال^(١).

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها لأبي عبد الله الشيعي، فإن عبيد الله المهدي لم يلبث أن عمل على التخلص منه؛ لأن أبا عبد الله كان موضع ثقة كثير من الكتاميين، كما علت مكانته بين أهالى بلاد المغرب مما أثار حنق عبيد الله المهدي عليه، فخشى أن يفتتن به الناس فيضعف بذلك نفوذه، لذلك أمر بقتل كل من أبي عبد الله وأخيه وأبي العباس فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٨هـ^(٢).

أثار حادث مقتل أبي عبد الله الشيعي أهالى بلاد المغرب، فثار طرابلس، واشتبك الكتاميون مع أهل القيروان، غير أن عبيد الله ما لبث أن تمكن من إخماد تلك الثورات. ثم عهد عبيد الله المهدي إلى ولده أبي القاسم بالخلافة من بعده، وبعثه على رأس حملة لمحاربة الكتاميين الذين عادوا إلى بلادهم وأقاموا طفلا ادعوا أنه المهدي، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت، فقاتلهم أبو القاسم وأوقع بهم الهزيمة وقتل الطفل الذى ولوه باسم المهدي^(٣).

رأى عبيد الله المهدي بعد أن تخلص من أبي عبد الله الشيعي وأخضع الكتاميين أن يستعين فى إدارة دولته بولاة آخرين، يطمئن إليهم، فولى على المغرب الأدنى حباسة بن يوسف، وعين على بلاد المغرب الأوسط والأقصى أخاه عروبة بن يوسف؛ وكان مقره تاهرت.

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١ ص ١٩٢.

(٢) المقرئى: اتعاظ الحنفا، ص ٩٣ - ٩٥.

(٣) المقرئى: اتعاظ الحنفا، ص ٩٧.

كذلك وجه عبيد الله المهدي عنايته إلى إخضاع قبائل صنهاجة، بالمغرب الأقصى والقضاء على نفوذ الأدارسة في فاس، وعهد بذلك إلى قائده مصالة بن حبوس الذي نجح في الاستيلاء على «ناكور» حاضرة الصنهاجيين سنة ٣٠٨هـ، ثم اتجه نحو الأدارسة في فاس والتقى بـ يحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة، فأوقع به الهزيمة واضطر يحيى إلى طلب الصلح على أن يؤدي إليه بعض الأموال ويبيع لعبيد الله المهدي، فولاه مصالة على فاس، كما ولي موسى بن أبي العافية على سائر بلاد المغرب الأقصى، ومالئث موسى أن تغلب على ملك الأدارسة ببلاد المغرب، وقصد يحيى بن إدريس مدينة المهدية حيث قضى بها بقية حياته.

استقرت الأمور لموسى بن أبي العافية في بلاد المغرب الأوسط والأقصى منذ زال نفوذ الأدارسة من فاس في عهد عبيد الله المهدي، وأخذ نفوذه في الازدياد بعد وفاة مصالة بن حبوس القائد الفاطمي سنة ٣١٢هـ حتى أصبح يهدد كيان الفاطميين في بلاد المغرب الأقصى، فخلع طاعة خليفته ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس^(١)، الذي طمع إذ ذاك في امتلاك المغرب الأقصى واستولى على مدينة سبتة وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده. ولما علم عبيد الله المهدي بذلك عهد لولى عهده أبي القاسم سنة ٣١٥هـ بالعمل على توطيد سلطته في هذه البلاد؛ فسار إليها واستطاع أن يعيد للفاطميين كثيرا من نفوذهم^(٢).

* * *

لم تقتصر مجهودات عبيد الله المهدي على توطيد سلطان خلافته، بل رأى أن يبنى حاضرة في مكان يتوسط أجزاء دولته ليتخذها حصنا يعتصم به هو وأنصاره ويوجه منه هجماته إلى الخارجيين عليه، ولتكون مقرا للدعوة الإسماعيلية، فخرج يرتاد موقعا يصلح لتحقيق أغراضه، فوقع اختياره على مكان يقع على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان، حيث وضع أساس مدينة جديدة أسماها المهدية. وقد ذكر أبو عبيد البكري^(٣) أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وأن المهدي اتخذ لهذه المدينة بابين من الحديد زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٤ ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) كتاب عبيد الله المهدي، ص ١٩٨.

(٣) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ٢٩ - ٣١.

ثلاثون شبرا، ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات، وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجاً عدا ما كان يجرى فيها من القنوات. وبنى المهدي بمدينة المهديّة داراً للصناعة تسع أكثر من مائتي مركب. ولما فرغ من إحكام بناء حاضرة خلافته الجديدة سنة ٣٠٥هـ، قال «اليوم أمنت على الفاطميات». يعنى بناته؛ ثم انتقل إليها سنة ٣٠٨هـ، وأنشأ فيها الدكاكين، كما رتب أبواب المهن؛ فجعل كل طائفة في سوق. وبعد أن تم للمهدي تأسيس هذه المدينة أمر ببناء مدينة أخرى بجوارها وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً وأحاطها بسور وأبواب وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل بلاد المغرب وأصدر أوامره إلى أصحاب الدكاكين بأن يقيموا فيها بحرهم وأهاليهم.

* * *

كانت حالة بلاد المغرب بعد وفاة عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢هـ، تتطلب كل جهود ابنه أبي القاسم الذي آلت إليه الخلافة ولقب القائم بأمر الله، فقد ثار في عهده ابن طالوت القرشي بطرابلس وزعم أنه ابن المهدي. ولما ظهر للبربر كذبه قتلوه، كما اشتد خطر الثورة التي أضرم نارها أبو يزيد مخلد بن كيداد وهو من قبيلة زناتة التي خرجت على عبيد الله المهدي وانحاز زعيمها محمد بن خزر إلى عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس. وكانت هذه القبيلة نائمة على الفاطميين لإيثارهم الكتاميين بالمناصب، لذلك عمدوا إلى مناهضتهم في بلاد المغرب الأوسط، واستفحل سلطانهم بهذه البلاد.

وقد تجلّى حقد زناتة على الفاطميين ورغبتهم في القضاء على خلافتهم ببلاد المغرب في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي نشأ في بلد تورز^(١) وتعلم القرآن وخالط جماعة من الخوارج الصفرية^(٢)، فمال إلى مذهبهم واعتنقه^(٣) وكان الخوارج قد التمسوا الأمان في بلاد المغرب بعد أن اشتد اضطهاد الأمويين لهم، فوجدوا أهالي هذه البلاد حانقين على بني أمية وولاتهم، لذلك أصبح من اليسير

(١) وهي ببلاد الجريد في إمارة تونس.

(٢) أتباع زياد بن الأصفر وموطنهم الإقليم الشرقي من الجزيرة. وكان الخوارج قد التمسوا الأمان في بلاد المغرب بعد أن اشتد اضطهاد الأمويين لهم.

(٣) المقرئ: اتعاط الحنفا، ص ١٠٩.

على هؤلاء الخوارج ضم البربر إلى صفوفهم. كما لقيت مذاهبهم قبولا طيبا منهم^(١).

اتخذ أبو يزيد تاهرت محلا لإقامته وصار يعلم الصبيان القرآن ومذاهب الخوارج، وقد عرف أبو يزيد بعدائه للشيعة، فصار يدعو الناس للخروج على الخليفة الفاطمي. وابتدأ نفوذه في الأزدية منذ سنة ٣١٦هـ، وذاعت دعوته بين بعض قبائل البربر، كما قويت شوكته في عهد القائم، واجتمع إليه سائر الخوارج، وأخذ له البيعة عليهم سنة ٣٣١هـ صاحبه أبو عمار: على قتال الشيعة واستباحة الغنائم والسبي، وعلى أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى^(٢).

كان حركة أبي يزيد ذات طابع وطني، الغرض منها إنشاء حكومة من البربر لا يشترك فيها العرب، وذلك أن البربر رأوا أنهم فتحوا بلاد الأندلس بدمائهم وسيوفهم، وبدلوا جهدهم في تولية الفاطميين الخلافة بالقيروان دون أن ينالوا شيئا من ثمار أعمالهم، لذلك تزعم أبو يزيد ثورة هؤلاء البربر ليستعيد سلطانهم^(٣).

رحف أبو يزيد في عهد الخليفة القائم الفاطمي إلى رقادة، فانسحب منها الكتاميون، ثم تقدم إلى القيروان وبعث برسله مع وفد من أهلها إلى عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب قرطبة ليخبروه بدخوله في طاعته، ورغبته في أن يمدّه بقوة لمحاربة الفاطميين؛ فوعدهم الناصر الأموي بإجابة طلبهم؛ وظل أبو يزيد يواصل مهاجمة المدن التي في حوزة الخلافة الفاطمية، ففاجأ أهل المهدية بحملاته حتى اضطروا إلى النزوح عنها إلى طرابلس وصقلية ومصر^(٤).

على أن نفوذ أبي يزيد سرعان ما ضعف على أثر انضمام عدد كبير من رجاله إلى جيوش الفاطميين؛ وكان ذلك مما اضطره إلى الارتداد عن المهدية بقوة صغيرة من رجاله تاركاً خلفه ما كان معه من مؤن وعتاد. ثم تقدم إلى القيروان، فأوقع بأهلها الهزيمة سنة ٣٣٤هـ^(٥).

(١) ابن خلدون: ج٧، ص ١١.

(٢) ابن خلدون: ج٧، ص ١٣.

(٣) O'Leary, A Short History of the Fatimid Khalifate, P. 89.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص ٢٥٠.

(٥) ابن خلدون: ج٧، ص ١٤ - ١٥.

ولما توفي الخليفة القائم في هذه السنة، كتم ابنه وولى عهده إسماعيل الذى تلقب بالمنصور موته خوفاً من أن يطمع فيه أبو يزيد، ولم يتلقب بالخليفة، كما لم يغير السكة ولا الخطبة ولا البنود حتى فرغ من أمر أبى يزيد.

وجه المنصور الفاطمى كل عنايته للقضاء على حركة أبى يزيد؛ وسرعان ما قويت جيوشه بانضمام قبيلة صنهاجة إليها، وأخذت قواته فى مطاردة أبى يزيد حتى عجز عن مقاومتها وحلت به الهزيمة؛ وانتهت فتنة هذا الخارجى بالقبض عليه ووفاته متأثراً بجراحه سنة ٣٢٦هـ^(١).

وقد كشفت ثورة أبى يزيد عن مدى استعداد البربر لتأييد كل خارجى يثور على الدولة الفاطمية، وأخذ النفوذ الفاطمى فى بلاد المغرب يتضاءل منذ قيام هذه الثورة، كما ابتدأت الحكومات المستقلة فى الظهور فى المناطق العربية من الدولة الفاطمية^(٢).

أخذ المنصور الفاطمى بعد قضائه على ثورة أبى يزيد فى تعقب الزناتيين بإفريقية، وكان يعلى بن محمد أحد أمراء زناتة قد استفحل خطره من ناحية المغرب الأوسط، وأقام الخطبة على منابرهما لعبد الرحمن الناصر؛ ولم يزل سلطانه بالمغرب فى ازدياد إلى أن بعث إليه المعز لدين الله الفاطمى قائده جوهر الصقلى سنة ٣٤٧هـ، فبادر يعلى إلى لقائه والإذعان لطاعته^(٣).

ساءت حالة البلاد فى شمال إفريقية من جراء تلك الثورات التى استنفدت كثيراً من أموال الخلافة الفاطمية؛ فرأى المنصور أن يعيد تنظيم هذه البلاد ويعمل على إنعاش مواردها ليعوض ما أنفقته الدولة من الأموال. كذلك شرع المنصور فى إنشاء أسطول كبير، كما أسس سنة ٣٣٧هـ مدينة فى الموضع الذى دارت فيه الواقعة بينه وبين أبى يزيد على مقربة من القيروان وسماها المنصورية، واتخذها حاضرة له. وكان لهذه المدينة خمسة أبواب: الباب القبلى والباب الشرقى، وباب رويلة، وباب كتامة، وباب الفتوح. وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير^(٤).

(١) انظر: المقرئى: اتعاظ الخلفاء، ص ١٢٣ - ١٣٥.

(٢) O'Leary, A Short History of the Fatimid Khalifate, P. 91.

(٣) ابن خلدون: ج ٧، ص ١٧ - ١٨.

(٤) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٢٥.

نقل المنصور إلى هذه المدينة أسواق القيروان، كما رحل إليها كثير من الصناع، فازدهوت فيها الصناعة والتجارة؛ وأصبحت على جانب عظيم من التقدم والرقى، وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الفاطميين إلى أن قدم المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر في ٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ، فحلت محلها مدينة القاهرة^(١).

لما توفي المنصور سنة ٣٤١هـ، آلت الخلافة إلى ابنه المعز؛ وقد أوضح سياسته في خطبة ألقاها على رؤساء كتامة بمدينة المنصورية؛ فقال لهم^(٢): «إنه شغل بكتب ترد عليه من المشرق والمغرب، يجيب عنها بنفسه، كما بين أنه سيوجه عنايته إلى صيانة أرواح رعاياه، وتعمير بلاده وقمع الفتن والثورات حتى يسود الأمن والطمأنينة بين ربوع دولته. وختم بقوله. إنكم إذا لزمتم ما أمركم به، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق، كما قرب أمر المغرب بكم».

كذلك عنى المعز بالعمل على توطيد نفوذ الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب؛ فعهد إلى جوهر الصقلي بإخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمي في هذه البلاد؛ فسار في أوائل سنة ٣٤٧هـ على رأس جيش كبير يضم كثيرا من رجالات المغاربة من بينهم زيري بن مناد الصنهاجي قاصدا تاهرت، فاستولى عليها وقضى على واليها يعلى بن محمد الزناتي الذي عرف بانحرافه عن الفاطميين، وولائه لعبد الرحمن الناصر الأموي^(٣)، ثم استأنف جوهر السير إلى فاس؛ ولما امتنعت عليه اتجه إلى سجلماسة. وكان قد استبد بحكمها رجل يقال له ابن واسول تلقب بالشاكر بالله وخاطبه الناس بأمير المؤمنين، ونقش اسمه على السكة؛ فطارده جوهر حتى قبض عليه وأخذه أسيرا. واستعاد الفاطميون بذلك سلطانهم على سجلماسة. وبلغ من عناية المعز بفتحها أنه ضرب بها عملة، نقش عليها اسمه^(٤).

أخذ جوهر يتابع السير في بلاد المغرب الأقصى وما زال يفتح مدنه مدينة بعد مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي؛ ولم يمتنع عليه سوى سبتة

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٢٦.

(٢) المقرئ: اتعاظ الحنفاء، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٣) السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ج ١، ص ٨٦.

(٤) انظر: النعمان: المجالس والمسائرات، ج ١ ص ٣١٧ - ٣٢٨.

وطنجة، ثم انصرف راجعا إلى المهديّة بعد نجاحه في إقامة الدعوة للفاطميّين على جميع منابر المغرب^(١).

على الرغم من الجهود التي بذلها كل من جوهر الصقلي، وزيري بن مناد لتوطيد سلطان الفاطميّين على بلاد المغرب، فإن الأمور لم تستقرّ لهم في هذه البلاد، فقد ثار أحد زعماء زناتة على المعز سنة ٣٥٩هـ مما اضطره إلى الخروج إليه بنفسه؛ فلما وصل إلى «باغاية»^(٢) ولى هذا الثائر هاربا، فبعث إليه المعز قائده زيري بن مناد، فقبض عليه، وانتهت ثورته بدخوله في طاعة المعز^(٣). على أن ذلك لم يمهّد الاضطراب الذي ساد المغرب؛ فلم يكفد ينتقل المعز إلى مصر حتى ثار أهالي باغاية وتاهرت، وزناتة في تلمسان؛ فتصدى لهم يوسف بن زيري بن مناد وتمكن من إخماد ثوراتهم^(٤).

(١) حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب المعز لدين الله الفاطمي، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) باغاية، مدينة بأقصى إفريقية وقسنطينة. انظر: ياقوت: معجم البلدان.

(٣) ابن الأثير: ج ٨، ص ١٧٧ - ١٩٨.

(٤) ابن الأثير: ج ٨، ص ٢٠٥.

الباب الثاني

الأحوال الداخلية في مصر قبل أن يستقر فيها سلطان الفاطميين

- ١ - التنظيمات الإدارية والمالية في مصر إلى نهاية العهد الإخشيدي.
- ٢ - العلاقات السياسية بين مصر والخلافة في عهد الطولونيين والإخشيديين.

(أ) الطولونيون والخلافة.

(ب) عودة مصر إلى الخلافة العباسية.

(ج) الإخشيديون والخلافة.

١ - التنظيمات الإدارية والمالية في مصر إلى نهاية العهد الإخشيدى:

لما استقر سلطان العرب في مصر سنة ٢٠هـ (٦٤١م)، أبقوا على الأنظمة القائمة بها واكتفوا بشغل بعض المناصب الرئيسية ليشرفوا بأنفسهم على الإدارة فكان الخليفة يعين في مصر واليا يمثله، يعرف بأمر مصر.

وكان الوالى يؤم المسلمين في صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائبا عن الخليفة، ويعهد إليه في بعض الأحيان جباية الخراج، وأحيانا يعين الخليفة عاملا مستقلا عن الوالى للقيام بهذا العمل يعرف بعامل الخراج^(١). كذلك كان من مهام والى مصر الإشراف على شئون الحامية المقيمة بها وقيادة الجيوش لصد غارات الأعداء عنها، ولتأمين حدودها، فقاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة وطرابلس، كما خرج عبد الله بن سعد بن أبى سرح أثناء ولايته على مصر، على رأس الحملات التى سارت لغزو إفريقية والنوبة^(٢).

كان الخلفاء الراشدون والأمويون يسندون ولاية مصر إلى ولاة من العرب، وقد تمتع هؤلاء الولاة في عهد الأمويين بشيء من الاستقلال، فكانوا لا يرجعون للخليفة إلا في الأمور الهامة؛ فولى معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص صلاة مصر وخراجها وجعلها طعمة له بعد النفقة على إدارتها وتوزيع العطاء على

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ٣٦٢.

(٢) انظر: الكندى: كتاب «الولاة والقضاة» ص ٢٣.

جندھا، وظل مسلمة بن مخلد والیا علی مصر خمس عشرة سنة (٤٧ - ٦٢ھ)، كما طالت ولاية عبد العزيز بن مروان، فاستمر بها إحدى وعشرين سنة (٦٥ - ٨٦ھ). وكان شبه أمير مستقل فی حکم البلاد المصرية.

ولما جاءت الدولة العباسية، تأثرت ولاية مصر بالسياسة العامة لهذه الدولة ذلك أن العباسيين لم يتعصبوا للعرب، بل اعتمدوا على عناصر غير عربية. وكان عنيسة بن إسحق آخر وال عربي على مصر، فقد أسندت إليه ولايتها سنة ٢٣٨ھ، غير أنه لم يلبث أن عزل سنة ٢٤٢ھ وخلفه ولاة من الأتراك^(١).

ظل العرب أصحاب النفوذ في مصر إلى أن ولي الخليفة المعتصم الخلافة (٢١٨ - ٢٢٧ھ)، فحرمهم من المرتبات المقررة لهم في ديوان العطاء وأحل محلهم الأتراك؛ ويرجع السبب في استعانتهم بهم إلى ما اتصفوا به من شدة البأس وحب القتال، هذا إلى ضعف ثقته بالفرس^(٢).

على أن مصر لم تستفد من وراء السياسة التي اتبعها الخلفاء العباسيون في إحلال الأتراك محل الولاة من العرب، لأن هذه البلاد صارت تمنح لهم بصفة إقطاع على أن يؤدوا خراجا معيناً، كما أن الولاة من الأتراك من ناحية أخرى صاروا يؤثرون البقاء في بغداد أو سامرا، ينبون عنهم حكاما يديرون شئون الولايات باسمهم، ويدعون لهم بعد الخليفة في خطبة الجمعة ويرسلون إليهم الخراج. وكان من أثر هذه السياسة أن عمد بعض النواب والولاة إلى الاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية بعد أن تطرق الضعف إليها^(٣)، فحاول أحمد بن طولون الذي قدم إلى مصر سنة ٢٤٥ھ نائبا عن واليها التركي باكبك توطيد سلطته في هذه الولاية وما لبث أن نجح في تأسيس دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية، ظلت نحو ثمانية وثلاثين عاما (٢٥٤ - ٢٩٢ھ).

ولم يكن في مصر وزراء في عصر الولاة، بل اكتفى الخلفاء بإرسال ولاة إلى هذه البلاد يديرونها باسمهم، فلما استقل أحمد بن طولون بولاية مصر، اتخذ

(١) المقرئى: خطط ج٢، ص ٢٤٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٢ ص ٣٠٨.

(٢) انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق للمؤلف، ص ٢٢.

(٣) انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية في مصر للمؤلف، ص ٦٩.

أحمد بن محمد الواسطي كاتباً له، وكان يقوم بأعباء الوزارة دون أن يلقب بلقب وزير، وحذا أمراء الطولونيين حذوه، فاتخذوا كتاباً لهم^(١)، وفي عهد محمد ابن طغج الإخشيد ولى الوزارة أبو بكر محمد بن علي الماذرائي. وكان هذا الوزير من كبار الموظفين في مصر، ويرعى جانبه أمير البلاد ويخشى بأسه، وإليه يرجع الفضل في إسناد ولاية مصر إلى أنوجور بن الإخشيد بعد وفاة محمد الإخشيد. وقد كوفئ على ذلك بأن أسند إليه الإشراف على جباية الخراج بجانب قيامه بأعمال الوزارة^(٢).

كان لمحمد الإخشيد أعوان آخرون يقومون بأعمال الوزير دون أن يتلقبوا بلقبه، ومن هؤلاء الوزير العباسي الفضل بن جعفر بن الفرات الذي عاون الإخشيد في إدارة الدولة على الرغم من أن الخليفة العباسي ندبه للإشراف على جمع مال الخلافة من خراج مصر والشام، ولما توفي الفضل بن جعفر، كتب الخليفة الراضي إلى الإخشيد يأمره بإرسال ابنه جعفر بن الفضل إلى بغداد ليتقلد منصب الوزارة، لكن الإخشيد لم يجبه إلى طلبه، فعينه الخليفة وزيراً وممثلاً للخلافة في مصر والشام، فصار يراقب أعمال الإخشيد ويبعث بأخباره إلى الخليفة. غير أن الإخشيد استطاع بحسن سياسته أن يقربه إليه ويتنفع بخبرته، ولم يزل جعفر بن الفرات يتمتع بنفوذ كبير في ولاية مصر حتى أيام كافور الإخشيدى^(٣).

وكان الطولونيون والإخشيديون يعتمدون اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولتهم على البريد، فعين أحمد بن طولون أحد المقررين إليه عاملاً للبريد في سامرا التي كانت وقتذاك حاضرة الخلافة العباسية ليوافيه بما يجرى في العراق وبما يدبره له أعداؤه من المؤامرات التي يدبرها له أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة

(١) تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص ٤٤١.

(٢) انظر: المقرئى: خطط، ج١، ص ٣٢٩.

سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيدين، ص ١٥٥، ١٥٨.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص ٤٤١ - ٤٤٢.

العباسي المعتمد^(١). وكان لمحمد بن طغج الإخشيد ممثل في بغداد يأتيه بأخبار الخليفة ودواوين حكومته وما يعنيه من الأمور، ويدافع عن مصالحه^(٢). كذلك اهتم أمراء الطولونيين والإخشيديين بالشرطة، وكان صاحب الشرطة ينوب عن الوالي في عصر الولاية في حكم البلاد ويحل محله إذا تغيب، وكثيرا ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليا على البلاد ويحل محله إذا مات الوالي أو عزل^(٣). أما في العصر الطولوني والإخشيدى فاقترنت مهمة صاحب الشرطة على المحافظة على الأمن وتنفيذ أحكام القضاة.

كان بمصر ديوان خاص، تصدر عنه الرسائل والمكاتبات، يعرف بديوان الإنشاء. وقد أنشأه الطولونيون بعد أن اتسعت دائرة أعمالهم، وازدهر نشاطه في عهدهم، ولم يعمل ولاية مصر قبل العصر الطولوني على إنشائه بل اكتفوا باتخاذ بعض الكتاب لكتابة الرسائل التي يرسلونها إلى الخلفاء وغيرهم، وكان أول من تولى ديوان الإنشاء في عهد أحمد بن طولون: أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود المعروف بابن عبد كان^(٤). ومن الكتاب الذين ظهروا في عهد الطولونيين جعفر بن عبد الغفار المصري الذي اتخذ أحمد بن طولون كاتباً له. ولم يكن لدى هذا الكاتب من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب، فأشار أحمد ابن خاقان على أحمد بن طولون بعزله، فلم يجبه إلى طلبه، وقال له: أنا أحتمله لأنه مصري، فقال ابن خاقان: أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصري على الكاتب البغدادي، قال: لا والله، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه^(٥).

وكان بعض الكتاب الذين أسندت إليهم وظيفة الكتابة في العصر الإخشيدى يشتغلون بالشئون السياسية. وقد خلط الناس بينهم وبين الوزراء. أما الفريق الآخر من الكتاب، فاقترصر عمله على تحرير الرسائل، وهؤلاء كانوا يؤلفون ديوان الإنشاء^(٦).

* * *

(١) انظر: المقرئى: خطط، ج٢، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) انظر: ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص ٢٦.

(٣) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٢٤.

(٤) محمد كامل حسين. أدبنا العربى في عصر الولاية ص ٩٥.

(٥) ابن الداية: سيرة ابن طولون ص ١٥.

(٦) سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ١٦٧.

أما عن الإدارة المالية، فقد عنى ولاية مصر بتنمية موارد بيت المال وتنظيم مصارفه. وكانت تأتى هذه الموارد من الجزية والخراج والضرائب، فقد فرض الولاية الجزية على الذميين ولم يعف منها إلا النساء والأطفال والشيوخ وكانت تتناسب مع ثروة الشخص، وتدفع نقدا بالدنانير. كذلك فرض الخراج على الأرض التي يزرعها أهل مصر. وكان هناك إلى جانب ذلك ضرائب على الصناعات والأجواء وضرائب على التجارة الداخلية وأخرى على التجارة التي تمر بالموانئ والبلاد الواقعة على الحدود المصرية سواء أكانت ترد إليها أم تصدر عنها^(١)؛ فيذكر المقرئى^(٢) أنه كان يجيء من التجار في الثغور المصرية وهي دمياط وتينس ورشيد وعيذاب وأسوان والإسكندرية ضرائب مقررة تعرف بالملكوس.

كان عهد الخلفاء الراشدين والأمويين بصفة عامة عهد عدل وتسامح، فلم يشترط ولاية مصر في جمع الخراج إلا في أواخر العهد الأموي. أما في العصر العباسي، فإننا نلاحظ أن أحمد بن المدبر الذي قلده الخليفة المتوكل خراج مصر، لجأ إلى الشدة في جباية الخراج، كما أثار سخط المصريين بزيادته الضرائب واستعماله القسوة في جبايتها مما حمل ابن طولون على العمل للتخلص منه؛ فصرف عن ولاية مصر وحل محله أحمد بن خالد.

ولما ولي أحمد بن طولون شئون مصر كلها (الإدارية والمالية والعسكرية) زاد الخراج عما كان في أيام ابن المدبر؛ فبلغ ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار. ولم يعرف عنه أنه لجأ إلى العنف في جبايته. غير أن الخراج ما لبث أن نقص في عهد ابنه خمارويه لإسرافه وتبذيره فضلا عن الأموال التي كان يرسلها كل عام إلى دار الخلافة^(٣).

على أن الطولونيين لم يستمروا طويلا في حكم مصر، فقد زالت دولتهم سنة ٢٩٢هـ. وعادت هذه البلاد إلى حكم العباسيين؛ فالتزم الماذرائيون^(٤) خراج

(١) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) المقرئى: خطط، ج ١، ص ١٠٩.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣، ص ٤٨٧.

(٤) أسرة فارسية الأصل، تنسب إلى مازايا أو مادرايا وهي قرية من أعمال البصرة. وقد نزح بعض أفرادها إلى مصر في عهد الطولونيين، وأسندت إليهم الوظائف الرئيسية، وكان على بن محمد الماذرائي زعيم الماذرائيين في ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون، إذ اختاره وزيرا له، وفي سنة ٢٧٢هـ استقدم على بن=

مصر والشام، وصاروا يقومون بجباية الخراج في هذين الإقليمين، ويرسلون سنوياً إلى بيت المال في دار الخلافة - بعد النفقة على الجيش والإدارة وما تحتاجه البلاد من ضروب الإصلاح - مبالغ تختلف بحسب السنين وتتراوح بين مليون وسبعمائة ألف دينار^(١).

أما في عهد الإخشيديين فإن خراج مصر بلغ في أيام محمد بن طغج مليونين من الدينار في السنة^(٢). ولما استأثر كافور في مصر بثل قصارى جهده لتنمية موارد دولته فبلغ خراج مصر في إحدى سنين حكمه ٣, ٢٧٠, ٠٠٠ دينار^(٣). ومما يجدر ذكره أنه في أواخر عهد الدولة الإخشيدية انخفض ماء النيل انخفاضاً استمر تسع سنوات (٢٥٢ - ٣٦٠هـ)، أدى إلى اشتداد الغلاء وانتشار المجاعات والأوبئة، كما ترتب عليه اضطراب الأعمال الحكومية^(٤).

= أحمد إلى مصر ولديه أبا بكر محمد وأبا الطيب أحمد. وتولى كل منهما خراج مصر بين سنتي ٣٠١, ٣٠٤هـ. (سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ٣٨، ٣٩) ويذكر عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٣١، ١٠٥) أن أبا بكر بن محمد بن الماذني تمتع بسلطة كبيرة في مصر، فتقلد أعمالها فضلاً عن أعمال الشام وتدير الجيوش منذ قدم إليها سنة ٣٠١هـ ثم عين عاملاً على خراج مصر في جمادى الأولى سنة ٣١٨هـ.

(١) هلال بن الصائبي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٩٠.

(٢) المقرئ: خطط ج ١، ص ٩٩.

(٣) انظر (أبو صالح الأرمني) كنائس وأديرة مصر، ص ٣٠، سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، ص ٣٤٣.

(٤) انظر (المقرئ) إغاثة الأمة، ص ١٢ - ١٣.

٢- العلاقات السياسية بين مصر والخلافة فى عهد الطولونيين والإخشيديين:

(أ) الطولونيون والخلافة:

لما تقلد باكبك التركي ولاية مصر من قبل الخليفة المعتز، استخلف عليها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ وقصر اختصاصه على مدينة العسكر دون غيرها من البلاد. وكان ولاية مصر فى ذلك العهد يقسمون أعمال هذه الولاية بين عدة أشخاص حتى لا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بما فى يده^(١). ومن ذلك نرى أن أحمد بن طولون لم يكن يتمتع بنفوذ كبير فى ولاية مصر، بل واجه عدة صعوبات فى سبيل تثبيت مركزه وخاصة منافسه أحمد بن المدبر عامل الخراج الذى أوقع به عند الخليفة العباسى. ثم توفى المعتز وخلفه المهتدى، فأُسند ولاية مصر إلى يارجوخ^(٢)، صهر أحمد بن طولون، فكتب إليه «تسلم من نفسك لنفسك» واستخلفه على مصر كلها، وبذلك زادت سلطة ابن طولون وأصبح واليا على جميع الديار المصرية، وأتيحت له الفرصة للتخلص من ابن المدبر عامل الخراج، فطلب صرفه من خراج مصر، فأجيب طلبه، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن سنة ٢٥٧هـ. ولم يمض غير قليل حتى توفى يارجوخ صاحب إقطاع مصر سنة ٢٥٩هـ. فأصبح أحمد بن طولون واليا على مصر من قبل الخليفة العباسى مباشرة. ثم قلده الخليفة المعتمد سنة ٢٦٣هـ خراج مصر وولاه الثغور الشامية، وبذلك صارت البلاد كلها فى قبضة يده لا ينارعه فيها أحد^(٣).

على أن أحمد بن طولون لم ينعم بالاستقرار فى ولايته، فقد ناصبه العداء أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة العباسى المعتمد، ذلك أنه لما استفحل خطر ثورة الزنج^(٤) فى بعض بلاد العراق، ندب الخليفة أخاه لمحاربتهم، فلم ير الموفق

(١) تاريخ الإسلام السياسى: ج٣، ص ٢٢٠.

(٢) أحد كبار رجال البلاط العباسى.

(٣) المقرئى: خطط، ج١، ص ٣١٩.

(٤) تزعم هذه الثورة رجل فارسى يسمى على بن محمد من أهالى الطالقان ادعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب. ويرى بعض المؤرخين أنه دعى، وأن أصله عربى من عبد قيس.

(انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق للمؤلف، ص ١٦٦).

بدا - بعد أن انقطعت عنه موارد الولايات الشرقية وتقاعد الأهالي عن دفع الخراج الذى كانوا يؤدونه كل عام^(١) - من الالتجاء إلى أحمد بن طولون ليمده بما يساعده على القضاء على رعيم هذه الثورة الذى يعرف بصاحب الزنج، فبعث إليه ابن طولون مليوناً ومائتى ألف دينار. غير أن الموفق استقل هذا المبلغ وبعث إليه بكتاب أظهر له فيه الجفاء. فاستاء منه ابن طولون، وكتب إليه يقول^(٢):

« . . . وصل إلى كتاب الأمير - أيده الله تعالى - وفهمته، وكان - أسعده الله - حقيقاً بحسن التخير لمثلنى وتصييره إياى عمدته التى يعتمد عليها وسيفه الذى يصوله، وسانه الذى يتقى الأعداء بحده . . . واحتملت الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء كل منعوت بغنى . . . ومن كانت هذه سبيله فى الموالاته ومنهجه فى المناصحة فهو حرى أن يعرف له حقه؛ فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما أمر به الجفاء فى المخاطبة بغير حال توجب ذلك . . . وإننى لا أعرف السبب الذى يوجب الوحشة ويوقعها بينى وبين الأمير، ولا ثم معاملة توجب مشاجرة، أو تحدث منافرة؛ لأن العمل الذى أنا بسبيله لغيره والمكاتبة فى أموره إلى من سواه، ولا أنا من قبله، فإنه والأمير جعفر المفوض قد اقتسما الأعمال، وصار لكل واحد منهما قسم، انفرد به دون صاحبه . . . والذى عاملنى به الأمير من محاولة صرفى مرة وإسقاط رسمى أخرى . . . ناقض لشرطه مفسد لعهد، وقد التمس أوليائى وأكثروا الطلب فى إسقاط اسمه وإزالة رسمه، فأثرت الإبقاء وإن لم يؤثره، واستعملت الأناة إذ لم تستعمل معى . . . والأمير أيده الله - أولى من أعاننى على ما أوثره من لزوم عهده . . . وكف الأذى والمضرة، وألاً يضطرنى إلى ما يعلم الله - عز وجل - كرهى له أن أجعل ما قد أعددت له لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة والعساكر المتضاعفة . . . مصروفاً إلى نقضها . . . ، والأمير يعلم . . . أنه لا ناصر له إلا لفيف البصرة وأوباش عامتها، فكيف من يجد ركناً منيعاً وناصراً مطيعاً، وما مثل الأمير فى أصالة رأيه يصرف مائة ألف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك . . . » .

(١) المقرئى: خطط، ج٢، ص ١٧٨.

(٢) المقرئى: خطط، ج٢، ص ١٧٩.

كان لهذا الكتاب أثر سمي في نفس الموفق، فحاول النيل من أحمد بن طولون بعزله عن مصر؛ لكنه فشل في محاولته، فعمد إلى عزله عن ولاية الثغور فأجابه الخليفة إلى ما أراد - وهو مكره - غير أنه ما لبث أن عهد إلى ابن طولون بإدراتها على أثر اضطراب الأمور بها، ورأى ابن طولون أن الفرصة سائحة لمد نفوذه إلى بلاد الشام حين جاءت الأخبار بوفاة واليهما، فسار إليها بجيشه واستطاع الاستيلاء على كثير من مدنها، ثم دعى له على منابرها (٢٦٤ - ٢٦٥هـ) لكنه اضطر إلى العودة إلى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس، ثم خرج ثانية إلى الشام في جمادى الأولى سنة ٢٦٩هـ بعد أن وصله نبأ خروج لؤلؤ والى الرقة عليه وانضمامه إلى الموفق فاستخلف على مصر ابنه خمارويه. وبينما هو في دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسي ينبئه فيه برغبته في المسير إليه والاحتفاء به، فرحب ابن طولون بقدمه وأنفذ إليه كتابا جاء فيه (١):

«قد منعنى الطعام والشراب خوفاً على أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - من مكر يلحقه، . . وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان مؤلفة قلوبهم، مجتمعة أراؤهم، شديد بأسهم، وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين - أدام الله عزه بالنصر والتمكين - الانجذاب إلى مصر، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يكن فيه ما يخافه في كل لحظة منه عليه». لكن الموفق ما لبث أن علم بما عزم عليه الخليفة المعتمد؛ فأرسل إلى ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة يأمره برد الخليفة، فأعاده إلى سامرا (٢).

تطور الخلاف بين الموفق وابن طولون إلى عداة شديدة بينهما، فأرسل ابن طولون إلى أهل مصر كتاباً تضمن أن أبا أحمد الموفق طلحة نكث بيعة أخيه المعتمد وحجر عليه (٣)، كما بعث إلى عامله على دمشق كتاباً أمره فيه بأن يدعو القضاة والفقهاء والأشراف إلى مجلسه ويقرأ عليهم كتابه الذي أعلن فيه خلع الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وحصره إياه (٤)، وطلب منهم لعن الموفق

(١) ابن الداية: كتاب «سيرة أحمد بن طولون» ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) الكندى: كتاب «الولاة والقضاة» ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

Stanley Lane-Pool, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 68-69.

(٣) الكندى: كتاب «الولاة والقضاة»، ص ٢٢٦.

(٤) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٩٥.

على منابر دمشق. ولما بلغ الموفق ما قام به ابن طولون من خلعه من ولاية العهد وحذف اسمه من الخطبة ولعنه على المنابر، طلب من الخليفة المعتمد أن يأمر بلعنه على منابر ولايات الدولة العباسية، فأجابه على كره منه، وولى ابن كنداج على ما كان يليه من البلاد^(١).

كان من أثر الدعاية السيئة التي قام بها الموفق ضد ابن طولون ولعنه على المنابر أن ضعف نفوذه في البلاد التي خضعت لسلطانه، فحلت الهزيمة بجيشه في مكة^(٢)، كما عجز عن إخضاع أهالي طرسوس لسلطته^(٣)، وأخذت الهزائم تتوالى عليه، ثم أصيب بمرض أودى بحياته في ذى القعدة سنة ٢٧٠هـ.

اجتمع الجند بعد وفاة أحمد بن طولون وولوا مكانه ابنه خمارويه ووافق الخليفة العباسي المعتمد على تعيين والي الجديد. غير أن سلطة الطولونيين في ولاية مصر لم تكن موطدة في ذلك الوقت، فأصبح لزاما على خمارويه أن يتغلب على الصعاب التي تعترضه. وكان أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد لا يزال على سياسته في عدائه للطولونيين، فلم يعترف بولاية خمارويه على مصر بحجة أنه لم يأخذ تفويضا شرعيا من الخليفة بهذه الولاية على حين أخذ إسحق ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة تفويضا بحكمها من الخليفة قبل وفاة أحمد بن طولون، ومن ثم اتفق مع ابن كنداج وحليفه محمد بن أبي الساج والي أرمينية على أن يرسلوا بعض القوات إلى الشام، كما أنفذ الموفق قوة أخرى بقيادة ابنه أبي العباس.

ولما علم خمارويه بمسير هذه القوات إلى الشام، أنفذ جيشا إليها بقيادة كاتب أبيه أبي عبد الله أحمد بن محمد الواسطي وعززه بأسطول قوى من البحر^(٤). لكن قوات الموفق وأنصاره أوقعت الهزيمة بالواسطي وتمكنت من الاستيلاء على دمشق، فلم ير خمارويه بدا من المسير بنفسه إلى الشام سنة ٢٧١هـ على رأس جيش كبير واشتبك في معركة على مقربة من الرملة مع قوات الموفق انتهت

(١) تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص ٢٢٧.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص ٩١.

(٣) الكندي: كتاب «الولاة والقضاة»، ص ٢٩٦، الطبري: ج٨ ص ١٠٢.

(٤) المقرئ: خطط ج١ ص ٢٢١.

بهزيمته وعودته إلى مصر^(١). لكن فلول جيشه سرعان ما باغتوا الجند العباسي أثناء انشغالهم في جمع الأسلاب والغنائم وقضوا عليهم قضاء تاما. وعندما وصل إلى خمارويه نبأ هذا الانتصار تجددت في نفسه روح الأمل، فعاد إلى الشام واستولى على مدينة دمشق في أوائل سنة ٢٧٣هـ. ثم واصل السير لمحاربة ابن كنداج وإلى الموصل؛ فأوقع بجيشه الهزيمة واضطره إلى التقهقر حتى سامرا^(٢).

وكان من أثر هذا النصر الذي أحرزه خمارويه أن عقد الصلح بينه وبين الموفق، وأرسل إليه تفويض موقع عليه من الخليفة المعتمد وأخيه الموفق وابنه المفوض، يتضمن توليته وأبنائه من بعده حكم مصر والشام والثغور الشامية ثلاثين سنة^(٣).

على أن نفوذ خمارويه ما لبث أن امتد إلى بعض بلاد الدولة العباسية، فاستولى على الرقة^(٤)، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة، كما قضى على حركة ابن أبي الساج - وإلى أرمينية - الذي خرج عليه وحاول غزو الشام، فالتقى به على مقربة من دمشق وهزمه، ثم أخذ يطارد جيوشه حتى مدينة بلد^(٥). وهناك أقام سريرا من الذهب جلس عليه إشارة إلى انتصاره^(٦).

أما عن حالة الخلافة في ذلك الوقت، فإن الخليفة المعتمد كان مسلوب السلطة مع أخيه أبي أحمد الموفق طلحة. ولما توفي بايع كبار القواد ابنه أبا العباس بولاية العهد ولقبوه المعتضد، فتحولت إليه سلطة أبيه، وسار على سياسته في إضعاف نفوذ الخليفة المعتمد، ولم يلبث أن خلفه بعد وفاته^(٧). واستطاع خمارويه أن يتقرب إليه بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٥٠.

(٢) المقرئ: خطط، ج١ ص ٣٢١.

(٣) الكندي: «كتاب الولاة والقضاة» ص ٢٣٥ - ٢٣٨.

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 73.

(٤) تقع على نهر الفرات.

(٥) تقع على نهر دجلة.

(٦) انظر الكندي: كتاب الولاة والقضاة ص ٢٢٩.

(٧) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك. ج٨. ص ١٦٣.

سنة، وجعلها لأولاده من بعده، وقدم رسول الخليفة على خمارويه يحمل إليه اثنتي عشرة خلعة وسيفا وتاجا وشاحا^(١).

كان من أثر سياسة حسن التفاهم بين خمارويه والخليفة المعتضد، أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن هذا الخليفة، لكنه اختارها زوجة له.

وعلى الرغم من أن هذه المصاهرة أدت إلى توثيق العلاقات بين خمارويه والخليفة العباسي، فإن ما اقترن بها من إسراف^(٢) في النفقات كان له أثر سيئ في بيت المال في مصر مما حمل بعض المؤرخين على القول بأن المعتضد كان يرمى من وراء زواجه بقطر الندى إلى نفاق خزانة مصر^(٣). وبذلك يضعف شأنها ويسهل على العباسيين استعادة سلطانهم عليها.

توفي خمارويه سنة ٢٨٢هـ بدمشق وتعاقب على ولاية مصر من بعده ثلاثة من آل طولون، تجلّى في عهدهم انتشار الفوضى وتنازع السلطة بين المتنافسين على الحكم من أفراد البيت الطولوني، وانتصار الجند لفريق دون فريق مما سهل على الخليفة العباسي المكتفى العمل على إعادة مصر إلى سلطان الخلافة، فعهد إلى محمد بن سليمان الكاتب باستردادها من هارون بن خمارويه فصار إليها على رأس أسطول بحري، والتقى الأسطولان العباسي والمصري في تنيس^(٤)، فحلت الهزيمة

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٣، ص ٧٨.

(٢) أسرف خمارويه في تجهيز ابنته حتى قيل أنه لم يبق تحفة من كل لون إلا حملها معها (المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٣٩١).

وبلغت نفقات الجهاز مليون دينار، ولم يكتف خمارويه بذلك، بل أعطى ابنته مائة ألف دينار لتشتري بها من العراق ما قد تحتاج إليه مما يتعذر وجوده في البلاد المصرية. (السيوطي حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٤٨). كذلك أمر خمارويه أن يبنى لها قصر على رأس كل مرحلة تنزل بها فيما بين مصر وبغداد وأرسل معها أخاه خزرج بن أحمد بن طولون وجماعة من المختصين به، فكانت إذا وافت المرحلة وجدت قصرا به كل ما تحتاج إليه من وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كأنها في قصر أبيها، ولم تزل على ذلك طيلة رحلتها حتى وافت بغداد في أول محرم سنة ٢٨٢هـ (أبو المحاسن جـ ٣ ص ٨٧، تاريخ الإسلام، جـ ٣ ص ٦٦٢).

(٣) ذكر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٣، ص ٥٣.

أن المعتضد أراد (بزواج قطر الندى) أن يفقر أباه خمارويه في جهازها، وكذلك وقع.

(٤) كانت هذه المدينة تقع على جزيرة في بحيرة المنزلة، ولم تزل عامرة إلى سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م) (انظر حاشية رقم ٤ ص ١٣٢ تاريخ الحضارة الإسلامية للمؤلف).

بأسطول مصر، ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن سليمان الكاتب^(١). واضطر هارون بن خمارويه إلى الهرب فقصده العباسية^(٢) حيث قتله عماء شيان وعدى ثم خلفه فى ولاية مصر أحد أعمامه وهو شيان بن أحمد بن طولون، غير أن الأمور لم تستقر له فثار عليه الجند ولم يعترفوا بولايته، وبعثوا إلى محمد بن سليمان الكاتب يطلبون منه المسير إلى مصر، فقدم إلى الفسطاط ودعا لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده بعد أن كان يدعى معه للأمير الطولونى^(٣). ثم دخل مدينة القطائع وألقى فيها النيران، فالتهمت القصر والميدان والدور والأسواق، ولم يبق فيها إلا الجامع، وعاث جنده نهبا وفسادا فى الفسطاط، وأخرج محمد بن سليمان آل طولون وأعوانهم مكبلين فى الحديد إلى بغداد فى رجب سنة ٢٩٢هـ حتى لم يبق بمصر منهم أحد^(٤). وبذلك قضى على الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر مدة ثمان وثلاثين سنة.

(ب) عودة مصر إلى الخلافة العباسية :

عادت مصر إلى سلطان العباسيين بعد أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على حكم الطولونيين فى مصر، وأسند الخليفة العباسى المكتفى ولايتها إلى عيسى ابن محمد النوشرى فقدم إليها فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٢هـ وفى أيامه ثار محمد بن على الخلنجى^(٥) - أحد قواد الطولونيين - وكان من بين الذين خرجوا من مصر مع محمد بن سليمان الكاتب، ثم انصرف عنه بعد وصوله إلى حلب والتف حوله فريق من الجند الذين كانوا فى خدمة الطولونيين وبايعوه، واتفقت كلمتهم على إحياء الدولة الطولونية، ومضى الجميع فى سيرهم إلى مدينة الرملة، فهزموا واليها وأمر ابن الخلنجى بإقامة الدعوة على منابرهم للخليفة العباسى، ومن بعده لإبراهيم بن خمارويه.

(١) تاريخ الإسلام السياسى، ج٣، ص ٢٣٢.

(٢) بلدة صغيرة، تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة بلبيس، سميت بذلك نسبة إلى العباسية بنت أحمد بن طولون (انظر: ياقوت: معجم البلدان).

(٣) الكندى: الولاة والقضاة. ص ٢٤٧.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣، ص ١١٢ - ١١٣، ص ١٣٧ - ١٣٩.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٣، ص ١٤٥ - ١٤٧.

ورد اسمه فى (المقريزى: خطط ج١، ص ٣٢٧) محمد بن الخلنج.

ولما علم عيسى النوشري والى مصر بخروج ابن الخلعجي، جهز جيشا لملاقاته، فلحقته به الهزيمة عند غزة، واضطر إلى التقهقر بقواته حتى وصل الفسطاط، ثم عبر النيل إلى الجيزة، ومهد بذلك السبيل لدخول ابن الخلعجي الفسطاط بدون مقاومة في ٢٦ ذى القعدة سنة ٢٩٢هـ، فرحب به أهالي هذه المدينة ودعى له في الخطبة بعد الخليفة العباسي وإبراهيم بن خمارويه^(١).

وجه ابن الخلعجي اهتمامه بعد دخوله الفسطاط إلى ضبط الأمور في البلاد والقضاء على الفوضى، كما عني بدفع رواتب الموظفين والجند، ولم يكتف بما أحرزه من نصر في حاضرة البلاد المصرية، بل أنفذ قوة برية وأخرى بحرية إلى الإسكندرية، ولم يلبث أن تمكن من الاستيلاء عليها.

ظل ابن الخلعجي يقلق بال الخلافة العباسية ما يقرب من ثمانية شهور حتى أرسل إليه الخليفة المكتفى عدة جيوش؛ وانتهى الأمر أخيرا بهزيمته بعد أن انضم أربعة آلاف من جنده إلى الجيش الذي أرسله الخليفة بقيادة فاتك المعتضدي، واضطر ابن الخلعجي إلى العودة إلى الفسطاط، وهناك قبض عليه في رجب سنة ٢٩٣هـ^(٢)، وأرسل إلى بغداد حيث عنفه الخليفة وطيف به وبأصحابه على ظهور الإبل، ثم قتل^(٣).

آلت ولاية مصر بعد وفاة عيسى النوشري في أواخر شعبان سنة ٢٩٧هـ إلى أبي منصور تكين الذي عينه الخليفة المقتدر؛ وفي عهده شرع الفاطميون يوجهون حملاتهم إلى مصر؛ لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، بل حلت بهم الهزيمة واضطروا إلى العودة إلى المغرب.

وعلى الرغم من انتصار تكين على الجيش الفاطمي فإن القائد مؤنس الخادم الذي أنفذه الخليفة العباسي على رأس جيش من العراق لصد الفاطميين عن مصر عزله عن ولايتها وأمره بالرحيل عنها في ذى الحجة سنة ٣٠٢هـ وكتب إلى الخليفة

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٣، ص ١٤٨.

(٢) سيده كاشف: مصر في عهد الإخشيديين ص ٢١ - ٢٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ ص ١٥٢.

(٤) المقرئ: خطط، ج١، ص ٣٢٧.

العباسي بذلك^(١). وظل مؤنس الخادم يتولى أمور مصر حتى أسند الخليفة المقتدر ولايتها إلى ذكا الرومي في أوائل سنة ٣٠٣هـ؛ فوجه اهتمامه إلى وضع حد للأعمال التي قام بها أنصار الفاطميين في مصر؛ فقبض على كل من اتهم منهم بمراسلتهم، كما مثل ببعضهم، فقطع أيديهم وأرجلهم^(٢). كذلك عني ذكا بتحسين مدينة الإسكندرية والدفاع عنها، فولى عليها ابنه مظفر، وصار يرسل إليها القواد خشية أن يعاود الفاطميون غزوها. ولم يزل هذا الوالي يواصل جهوده في حشد الجنود لصد الحملات الفاطمية حتى توفي في ربيع الآخر سنة ٣٠٧هـ^(٣).

وكانت الحالة الداخلية في مصر وقتذاك يسودها الاضطراب، فقد قاسى أهلها كثيرا من عبث الجنود الذين أوفدهم الخليفة العباسي لصد الفاطميين، كما ساءت الحالة المالية بسبب ما استنفده هؤلاء الجنود من نفقات؛ وفضلا عن ذلك فإن السياسة التي اتبعت في تعيين الولاة وعزل بعضهم مرارا أدت إلى عدم استقرار الأمور في البلاد؛ فعزل القائد العباسي مؤنس الخادم تكين عن ولاية مصر في ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ، ورغم محبة أهل مصر له وتقديرهم لأعماله، وخلفه بعض ولاية ضعاف، ثار في أيامهم فريق من الجند، واضطرب الأمن في البلاد، وعجزت الحكومة المركزية في بغداد عن إخضاع هؤلاء الثوار. واضطر الخليفة المقتدر إلى إعادة تكين واليا على مصر سنة ٣١٢هـ^(٤)، فوجه اهتمامه إلى القضاء على عوامل الاضطراب في هذه البلاد. وقد تكللت جهوده بالنجاح؛ إذ أضعف من شوكة الجند الثائرين ثم أخرجهم من مصر وتيسر له بذلك إعادة الاستقرار والأمن إلى البلاد، وظل تكين واليا على مصر، حتى توفي الخليفة المقتدر سنة ٣٢٠هـ وخلفه أخوه القاهر بالله، فأقره على ولايته وبعث إليه بالخلع^(٥).

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٣ ص ١٧٣.

(٤) الكندي: الولاة والقضاة ص ٢٧٤، كتاب «الفاطميون في مصر» ص ٨٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ ص ١٩٦.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ ص ٢١١، سيده كاشف: مصر في عهد الإخشيديين، ص ٣٥.

لم تنعم البلاد المصرية بالهدوء والاستقرار بعد وفاة تكين سنة ٣٢١هـ، بسبب النزاع والتنافس على حكمها؛ فولى ابنه محمد ولاية هذه البلاد دون أن يمنحه الخليفة تقليداً بذلك؛ ونافسه في تدبير أمورها أبو بكر محمد بن علي الماذرائي، ولم يلبث أن أرغمه على الخروج إلى الشام. وكتب ابن تكين إلى الخليفة يطلب توليته على مصر، فأجابه إلى طلبه، وعهد إلى الماذرائي بتدبير أمور البلاد المالية. غير أن الماذرائي لم يعترف بولاية ابن تكين ومنعه من دخول البلاد. وظل منصب الولاية شاغراً إلى أن ورد كتاب الخليفة العباسي القاهر بتولية محمد ابن طنج في شعبان سنة ٣٢١هـ، وكان وقتذاك في دمشق - فصار يذكر اسمه مع الخليفة على منابر مصر نحو اثنين وثلاثين يوماً^(١)، ثم قلد الخليفة القاهر العباسي ولاية مصر لأحمد بن كيغلف^(٢) للمرة الثانية في شوال سنة ٣٢١هـ^(٣).

اردادت الحالة سوءاً في مصر بعد عودة أحمد بن كيغلف واليا عليها، فقد ثار الجند على أبي بكر محمد بن علي الماذرائي مطالبين برواتبهم، كما قامت فتن ومعارك بين طوائف الجند، وقدم محمد بن تكين من فلسطين في ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ، وأعلن أن الخليفة العباسي الراضي بالله ولاء مصر، فأدى ذلك إلى نشوب القتال بينه وبين ابن كيغلف، وانتهى الأمر بهزيمته. غير أن هذا النصر الذي أحرزه ابن كيغلف لم يترتب عليه توطيد سلطته، فما لبث الخليفة العباسي أن قلد محمد بن طنج ولاية مصر للمرة الثانية سنة ٣٢٣هـ، لبلائه في صد الجيش الفاطمي عن البلاد المصرية.

وكتب محمد بن طنج إلى أحمد بن كيغلف كتاباً جاء فيه^(٤):

«هذا كتاب الراضي بتقليدي، فإن سلمت وإلا انصرفت بعد أن آخذ خطك وأشهد عليك بمنعك إياي، وأسير إلى حضرة السلطان». فرأى ابن كيغلف أن يسلم مقاليد الأمور في مصر لابن طنج بعد أن أيقن من ضعف سلطته وعجزه عن ضبط أمورها^(٥).

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) ولاء الخليفة المقتدر إمرة مصر للمرة الأولى في ربيع الآخر سنة ٣١١هـ. (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٦).

(٣) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٣٢٨.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ص ١٢.

(٥) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٣٢٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٤٤.

(ج) الإخشيديون والخلافة:

كانت العلاقة بين الخليفة الراضى ومحمد بن طغج تنطوى فى بادئ الأمر على الصداقة والود، فقد منحه لقب إخشيد سنة ٣٢٧هـ، ثم لم تلبث أن تبدلت صلة المودة بينهما حين بلغه ازدياد نفوذ محمد بن رائق الخزرى أمير الأمراء ببغداد وأطماعه فى ولاية الشام، فكتب إلى نائبه ببغداد يطلب إليه أن يخبر الخليفة بما وصله عن موقف ابن رائق منه وطموحه إلى مد نفوذه إلى الشام^(١)؛ غير أن الخليفة لم يكن وقتذاك لديه من النفوذ بحيث يستطيع أن يتخذ قرارا يلزم أحد الفريقين باتباعه. ولذلك استقر رأى محمد الإخشيد على إعداد العدة لمحاربة ابن رائق؛ فخرج على رأس جيشه فى أوائل سنة ٣٢٧هـ، ودارت بين الفريقين معركة فى العريش حلت فيها الهزيمة بابن رائق، فمضى منهزما إلى الرملة، ثم تداعيا إلى الصلح، واتفقا على أن تكون طبرية وما فى شمالها من البلاد لمحمد بن رائق^(٢).

على أن ابن رائق لم يلبث أن نقض هذا الصلح، وسار بجيشه من دمشق فى شعبان سنة ٣٢٨هـ، وقصد الرملة فى طريقه إلى مصر. فكتب إليه الإخشيد رغبة فى أن يصل معه إلى اتفاق ينهى الحرب بينهما، لكن محاولته السلمية باءت بالفشل، وعاد القتال بينهما سيرته الأولى؛ فهزم جيش الإخشيد فى بداية الأمر عند العريش، ثم انسحب ابن رائق إلى دمشق، وأرسل الإخشيد جيشا لمطاردته، لكنه لم يتمكن من التغلب عليه، وانتهى النزاع بينهما رغم ذلك بعقد الصلح، على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة، وعلى أن يدفع الإخشيد إليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار^(٣). ومن المحتمل أن الإخشيد اضطر إلى قبول هذا الصلح، خشية أن توجه الخلافة العباسية الحملات ضده، ورغبة فى التفرغ لمواجهة الغزو الفاطمى الذى كان يهدده من ناحية حدود مصر الغربية^(٤).

(١) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ص ٢٦، كتاب «النفوذ الفاطمى فى الشام» للمؤلف ص ١٠.

(٢) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ص ٨٢ - ٨٣.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة ص ٢٨٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٤) انظر: النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام للمؤلف ص ١١.

استطاع الإخشيد أن يعيد بلاد الشام إلى حوزته من غير حرب بعد وفاة ابن رائق سنة ٣٣٠هـ، وبذلك استقر حكمه في هذه البلاد، ولم يلبث أن أصبح من القوة بحيث اضطر الخليفة المتقي إلى الاستنجاد به بعد أن ساءت علاقته بتوزون التركي، فجاءه الإخشيد وهو بالرقّة^(١)، وقال له: «يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وفجورهم وغدرهم، فالله الله في نفسك، سر معي إلى مصر، فهي لك وتؤمن على نفسك» فأبى الخليفة قبول دعوته - وكان قد سعى إلى مصالحة توزون - ورحل من الرقة قاصدا بغداد في المحرم سنة ٣٣٣هـ. وقد سر الخليفة المتقي من إخلاص الإخشيد له، فقلده ولاية مصر وجعل له حق توريث إماراتها لأبنائه من بعده مدة ثلاثين سنة، كما حصل الإخشيد على تقليد من الخليفة المستكفي في جمادى الآخرة من هذه السنة، أقره فيه على ولاية مصر والشام. وقام الإخشيد بالدعاء له على المنابر في أنحاء ولايته^(٢).

ظلت العلاقة بين مصر والخلافة يسودها الوفاق؛ فأقر المطيع الذي خلف المستكفي سنة ٣٣٤هـ الإخشيد على ولايته. وكانت سلطة الإخشيد وقتذاك قد اتسعت، فاستقر له الحكم في مصر والشام، وقلده الخليفة ولاية الحرمين^(٣) واليمن. فيروى ابن سعيد^(٤) أن محمد بن طنج «ما زالت همته تعلو وسعاده تعينه إلى أن ملك مصر والشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن».

ولما توفي الإخشيد بدمشق في أواخر سنة ٣٣٤هـ خلفه بعهد منه ابنه أبو القاسم أنوجور - وكان لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، فقام بتدبير أمره كافور الإخشيد الذي أخذ يترقى في بلاط الإخشيد حتى أصبح مربيا لأولاده وقائدا من قواده، ثم آلت إليه الوصاية على ابنه أنوجور وأبى الحسن على^(٥). وقد توطدت سلطة أبى القاسم أنوجور بعد أن وصله كتاب الخليفة المطيع لله يقره على ولاية

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٣ ص ٤١٨.

(٢) الكندي: الولاية والقضاة ص ٢٩٢.

(٣) كان الخليفة الراضى قد أسند ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طنج الإخشيد، وأيد ذلك أخوه المتقي من بعده، فضم إليه الحجاز، وصارت تقام له الخطبة مع الخليفة العباسى على منابر مكة والمدينة.

انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٣٢٦، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ص ١١.

(٤) المغرب فى حلى المغرب، ص ٤٤.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٢٩١.

مصر والشام وما كان لأبيه من الولاية^(١)، ولما استأثر معز الدولة بن بويه بالسلطة في بغداد دون الخليفة العباسي، بعث إليه أنوجور سنة ٣٣٨هـ يطلب منه الموافقة على أن يشترك معه أخوه في إمرة مصر ويخلفه بعد وفاته؛ فأجابه إلى طلبه^(٢).

أصبح كافور منذ ولي الوصاية على أبي القاسم أنوجور صاحب السلطان المطلق في إدارة الدولة الإخشيدية. وبلغ من ازدياد نفوذه أنه حدد لأبى القاسم راتباً سنوياً قدره أربعمئة ألف دينار^(٣)، كما لم يتح له أى فرصة لإظهار مدى كفايته للحكم، بل انفرد بتدبير أمور الدولة مع أعوانه، وصار يدعى له على المنابر منذ سنة ٣٤٠هـ^(٤).

ولما توفى أبو القاسم أنوجور في ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ، خلفه أخوه أبو الحسن على بن الإخشيد، وأقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين، وعلى الرغم من أن الأمير الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره، فإن كافور ظل يباشر بنفسه أمور الدولة، وحال بينه وبين القيام بأى عمل يتصل بشئون الحكم، بل منعه من الاجتماع بالناس، وحدد له أربعمئة ألف دينار في كل سنة أسوة بأخيه^(٥). واستمر الحال على ذلك حتى توفى الأمير أبو الحسن على بن الإخشيد سنة ٣٥٥هـ وكان الوارث له ولداً صغيراً في التاسعة من عمره يدعى أحمد؛ اعترض كافور على توليته محتجاً بصغر سنه. وبقيت مصر عدة أيام بغير وال حتى ورد كتاب من الخليفة العباسي في المحرم من هذه السنة بتقليد كافور ولاية مصر وما يليها من البلاد؛ فدعى له على المنابر، ومع ذلك فقد احتفظ كافور بلقبه «الأستاذ» ولم يلقب بالأمير^(٦). يقول ابن خلكان^(٧) «إنه لما أشير على كافور بإقامة الدعوة لولد أبى الحسن على بن الإخشيد احتج بصغر سنه، وركب بالمطارد وأظهر خلعا جاءته من العراق، وكتاباً بتكنيته، وركب بالخلع يوم الثلاثاء لعشر خلون من صفر سنة خمس وخمسين وثلاثمائة».

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٣، ص ٢٩١.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٣، ص ٢٩٨.

(٣) المقرئى: خطط جـ ١ ص ٣٢٩.

(٤) المقرئى: خطط، جـ ٢، ص ٢٧.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٣، ص ٣٢٦، سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ١٢٦.

(٦) المقرئى: خطط، جـ ١، ص ٣٣٠، جـ ٢ ص ٢٧.

(٧) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٤٧.

لم يكن كافور من أفراد البيت الإخشيدى، ومع ذلك فقد أسند إليه الخليفة العباسى ولاية مصر لأن مقاليد الأمور فى البلاد كانت بيده منذ وفاة محمد بن طغج الإخشيد، فلما توفى على بن الإخشيد، استقل بحكم مصر؛ غير أنه لم يستمر طويلا فى حكمها، فقد توفى فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧^(١) واجتمع كبار القواد ورجال الدولة، وأسندوا الولاية لأبى الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد - وكان فى الحادية عشرة من عمره - ودعى له على منابر مصر والشام والحرمين، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد على اعتبار أنه سيخلفه^(٢). ولم يلبث الحسن أن قدم إلى مصر منهزما من القرامطة؛ وظل يتولى تدبير أمورها نحو ثلاثة أشهر^(٣)، وأساء خلالها معاملة الأهلين؛ ثم اضطر أخيرا إلى العودة إلى الشام بعد أن تم لجوهر الصقلئ قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فتح مصر فى شعبان سنة ٣٥٨هـ^(٤).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١، ص ٥٤٧.

(٢) المقرئى: خطط ج١، ص ٣٣٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٩.

(٣) كتاب «مصر فى عصر الإخشيديين» ص ١٠٢.

(٤) المقرئى: خطط ج١ ص ٣٣٠.

الباب الثالث

السيادة الفاطمية في مصر

- ١ - امتداد سلطان الفاطميين إلى مصر.
- ٢ - اتخاذ مصر مقرا للخلافة الفاطمية.

١ - امتداد سلطان الفاطميين إلى مصر :

رأى الفاطميون بعد أن امتد نفوذهم في بلاد المغرب أن هذه البلاد لا تصلح لتكون مركزاً لدولتهم، ففضلاً عن ضعف مواردها كان يسودها الاضطراب من حين لآخر. لذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر لوفرة ثروتها وقربها من بلاد المشرق الأمر الذي يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس العباسيين.

كان عبيد الله المهدي يطمح في أن يتخذ مصر قاعدة يوجه منها حملاته إلى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية المتداعية، لذلك وجه نشاطه على أثر تأسيس خلافته بالمغرب إلى وضع الخطط لغزو مصر، فأعد في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣) جيشاً من المغاربة تحت إمرة ابنه وولى عهده أبى القاسم وقائده حباسة بن يوسف، واستولى هذا الجيش على برقة في طريقه إلى مصر؛ ثم واصل السير حتى استولى على الإسكندرية وتوغل في الوجه البحري؛ وأنفذ الخليفة المقتدر العباسي مؤنسا الخادم لدفع المغيرين، واشتبك الفريقان في معركة ببلدة مشتول على مقربة من الجيزة، وانهزم حباسة وعاد إلى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة عبيد الله المهدي على أثر رجوعه^(١).

وقد كشفت هذه الحملة - رغم ما أصابها من فشل - عن ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية بفضل دعاة الإسماعيلية كأبى الداعي الذي بذل مجهوداً كبيراً في دعوة أهالي مصر إلى الدخول في المذهب الإسماعيلي، وقام بمصر بنفس الدور الذي قام به أبو عبد الله الشيعي في بلاد المغرب.

رأى عبيد الله المهدي أن يعاود الكرة لغزو مصر؛ فأخذ في إعداد جيش لفتحها، وأوفد أباً القاسم على رأس هذا الجيش في أواخر سنة ٣٠٦ هـ، فاستولى على الإسكندرية سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩م) دون عناء، ثم سار إلى الجيزة، وأخذ الفاطميون يتوغلون في بلاد الوجه القبلي حتى تمكنوا من الاستيلاء على الأشمونين والفيوم.

(١) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري، ص ٥٣.

على أن الخليفة المقتدر العباسي ما لبث - بعد أن بلغه نجاح الفاطميين في الزحف على مصر - أن أرسل قائده مؤنس الخادم على رأس جيش إلى تلك البلاد، فانتصر على الفاطميين واستولى على سفنهم وأحرقها^(١) وبذلك حلت الهزيمة بالحملة الفاطمية، وكان من أهم عوامل إخفاقها أن الخطة التي وضعها المهدي لغزو مصر لم تنفذ بدقة، ذلك أن أبا طاهر الجنابي أمير القرامطة ببلاد البحرين لم يتقدم بجيشه إلى مصر ليعاون جيش الفاطميين.

ولما اضطربت أحوال الخلافة العباسية ببغداد بعد وفاة الخليفة المقتدر وانقسم القادة الأتراك على أنفسهم؛ اتخذ عبيد الله المهدي من ذلك فرصة سانحة لمعاودة فتح مصر، فاتفق مع أبي طاهر الجنابي على إثارة الاضطراب في بلاد المشرق في الوقت الذي تزحف فيه جيوشه إلى مصر، وأرسل حملة إلى تلك البلاد سنة ٣٢١هـ (٩٢٣م) تحت قيادة حبشي بن أحمد المغربي؛ فحدثت مناوشات بين جنود الفاطميين والمصريين، ثم عقدت هدنة في صفر سنة ٣٢٢هـ بين الطرفين المتحاربين، غير أن هذه الهدنة لم يطل أمدتها، فنشبت عدة وقائع بين المغاربة والمصريين في بعض المدن كالجيزة وبلبيس، ثم أوقع محمد بن طنج (الإخشيد) الهزيمة بالفاطميين في جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ (٤٣٤هـ) فاضطروا إلى العودة إلى بلاد المغرب، وقبل ذلك بشهرين توفي الخليفة عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية وأخفى ابنه أبو القاسم موته ولم يعلنه للناس إلا بعد سنة حيث استقرت أموره في المغرب وتلقب بالقائم.

تابع أبو القاسم سياسة أبيه المهدي في غزو مصر، فأرسل إليها جيوشه في أواخر سنة ٣٢٣هـ، فوصلت الإسكندرية في أوائل سنة ٣٢٤هـ، وانضم إليها بعض رعماء المصريين، مما يدلنا على مدى تأثير الدعاية الفاطمية في تلك البلاد، فأنفذ إليهم الإخشيد قوة كبيرة، استطاعت أن تهزم جند الفاطميين الذين ما لبثوا أن أرغموا على العودة إلى أفريقية^(٢).

لم تثبط تلك الهزائم التي لحقت بالفاطميين من عزمهم على بذل جهودهم لبسط سيادتهم على مصر، فلجأ الخليفة القائم إلى المفاوضات لعله يبلغ بها ما لم

(١) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) الكندي: الرولة والقضاة، ص ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧.

تبلغه الحملات السابقة، وأنفذ إلى محمد الإخشيد رسولا ومعه كتاب يطلب فيه صداقته إيثارا للمسالمة. وكان مما ورد في هذا الكتاب^(١) «أرجو أن تقودك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله على ميلى إليك وإيثارى لك ورغبتي فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى، وليس يتوجه لك العذر فى الخلف عن إجابتي، لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يردون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك، يخلفون وعدك ويحفظون ذمتك، لم يعتقد فيهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة. وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثار من آثرك، إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك، وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق، فإنى أرى منك المودة والأمر والطاعة حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك...».

على أن الإخشيد رأى أن تتاح له فرصة التفكير فى الأمر، لم يسلم رسول الخليفة الفاطمى رد هذا الكتاب، بل «احتج إليه بأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولا يجوز له أن يبوح بما فى نفسه إلى كاتب» ثم قال: «أنا أتدبر الجواب، وأجيب عنه وسيصل مع من أثق به، وأسلك من حسن الموالاة ما لم يكن غيرى يسلكه».

ولا شك أن الإخشيد لم تخف عليه مطامع الخليفة الفاطمى التى تنطوى على دعوته للدخول فى طاعته، لكنه كان يحرص على بقائه تحت لواء الخلافة العباسية؛ إذ أن ضعفها يتيح له التمتع ببعض الاستقلال، وقيل أن الإخشيد فكر فى قطع صلته بالخلافة العباسية، وحذف اسم الخليفة العباسى الراضى من الخطبة وذكر اسم الخليفة القائم الفاطمى بدله حين وصل إليه أن الخليفة العباسى قلد محمد بن رائق الخزرى ولاية الشام سنة ٣٢٨هـ، لكن بعض أخصائه نصحوه بالعدول عن ذلك.

وعلى الرغم من تمسك الإخشيد بالألا يكون تابعا للخليفة القائم الفاطمى فإنه سعى لتوثيق علاقته به، فبعث إليه كتابا يعرض عليه زواج ابنته من ولى عهده المنصور، وأجاب الخليفة الفاطمى على ذلك بكتاب جاء فيه^(٢): «وصل كتابك،

(١) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص ٢٥ - ٢٦.

(٢) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص ٢٧.

وقد قبلنا ما بذلت وهى وديعة لنا عندك، وقد منحناها من بيت مالنا قبلك مائة ألف دينار، فوصل ذلك إليها».

لم يؤد هذا الكتاب إلى زواج ابنة الإخشيد بالمنصور بن القائم، ذلك أن الخليفة الفاطمى - على ما يفهم من كتابه - عامل الإخشيد كأحد ولاته، وأصبح يرى أن فى ذمته إتاوة أو مالا للحكومة الفاطمية، ومن ثم منح ابنته مائة ألف دينار من هذا المال، أما الإخشيد، فكان يظن أن القائم سيرسل إليه من الأموال والهدايا ما يفخر به، فلما لم تتحقق أمنيته فشل مشروع الزواج^(١).

ظل محمد الإخشيد مواليا للخلافة العباسية فى بغداد حتى توفى سنة ٣٣٤هـ (٩٤٦)، ثم واجهت مصر بعد وفاته عدة صعوبات، ذلك أن سيف الدولة الحمدانى أمير حلب أغار على دمشق ثم عول على السير إلى الرملة للاستيلاء على مصر، فنهض كافور الذى كان يقوم بالوصاية على أنوجور بن الإخشيد لدفع ذلك الخطر فرد الجيش الحمدانى منهزما إلى حلب وحال دون مسيره إلى مصر.

أما من ناحية المغرب، فإن المنصور الفاطمى الذى آلت إليه الخلافة، بعد وفاة أبيه القائم سنة ٣٣٤هـ، لم يقم بأية محاولة لغزو مصر، ويرجع سبب ذلك إلى انشغال هذا الخليفة بالعمل على ضبط الأمور فى دولته. لكن الفاطميين رغم ذلك كانوا يرقبون الأمور فى البلاد المصرية، ويأملون أن يتمكنوا من مد سلطانهم عليها.

وقد حرص كافور الذى كان وقتذاك يستأثر بالسلطة فى مصر على تحسين علاقته؛ بكل من الخليفة العباسى والخليفة الفاطمى، فكان - كما قال أبو المحاسن فى كتابه «النجوم الزاهرة»^(٢) - يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء.

وفى عهد ولاية كافور حاول الخليفة المعز إعادة الكرة للاستيلاء على مصر فبعث جموعا من عساكره هاجمت الواحات المصرية؛ فأعد كافور جيشا أجلاهم عنها، كما وجه هذا الخليفة اهتمامه إلى نشر الدعوة الفاطمية فى مصر، فقدمت

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) ج٤، ص ٦.

رسله إلى كافور، تدعوه إلى الاعتراف بسيادته، فرحب بهم ولم يعطهم أى رد حاسم، على حين استطاع دعاة الفاطميين أن يأخذوا البيعة للمعز من رجال بلاد كافور وكبار موظفى دولته^(١).

لما توفي كافور سنة ٣٥٧هـ (٩٦٨م)، اضطربت الحالة السياسية فى مصر فوقع اختيار رجال البلاط على أبى الفوارس أحمد - حفيد الإخشيد - ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، وما لبث أن استقل الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات^(٢) بتدبير أمور ولاية مصر وأصبحت البلاد فى عهده مسرحا للفوضى، فقبض على طائفة من كبار الموظفين وذوى الرأى وصادر أملاكهم، وكان من بينهم يعقوب بن كلس^(٣) الذى ظل معتقلا حتى شفع له الشريف أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى عند الوزير ابن الفرات فأطلق سراحه، ولم يلبث ابن كلس أن هرب إلى بلاد المغرب حيث التقى بالخليفة المعز ودله على وجوه ضعف مصر، كما حثه على النهوض لغزوها.

على أن ابن الفرات لم يفلح فى القضاء على عناصر الفوضى فى أواخر عهد الإخشيديين. بل ساءت فى أيامه الحالة المالية، وحل بالبلاد الوباء والقحط من جراء انخفاض النيل، وفقدت الحكومة كل هبة واستقرار، وعلى الأخص حين عجزت عن دفع رواتب الجند وجمع الضرائب مما حمل كثيرا من أولى الرأى فى مصر على الكتابة إلى المعز لدين الله يطلبون إليه القدوم إلى مصر لإنقاذها من الفوضى التى انتشرت فيها منذ أن توفي كافور^(٤).

وكان الخليفة المعز يعد العدة لفتح مصر قبيل وفاة كافور؛ ففى سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م) أمر بإنشاء الطرق وحفر الآبار فى طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة، ولما وصلت الأخبار بوفاة كافور سنة ٣٥٧هـ أخذ فى إعداد المال اللازم لتجهيز حملة لفتح مصر، كما بعث إلى دعاة بالبلاد المصرية أعلاما وأمرهم أن

(١) المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٢٧.

(٢) كان جعفر بن الفرات مندوبا للخلافة فى مصر والشام.

(٣) كان يعقوب بن كلس يهوديا، نشأ ببغداد، ثم سافر مع أبيه إلى الشام، ورحل منها إلى مصر حيث اتصل بكافور، فأعجب بذكائه وعينه فى ديوانه الخاص، ولما أظهر إسلامه فى شعبان سنة ٣٥٦هـ، رادت حظوته عند كافور (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص ٤٦١).

(٤) سيده كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٢٦٥.

يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر^(١).

عهد المعز لدين الله إلى جوهر الصقلى بقيادة الحملة التى أعدها لفتح مصر وخرج لوداعه يوم رحيله من القيروان فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨هـ فسار جوهر على رأس جيشه حتى وصل برقة فقدم له صاحبها فروض الطاعة واحتفل بلقائه، ثم مضى فى سيره قاصدا الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة ومنع جنده من التعرض للأهلين واستطاع أن يتألف عساكره بما أغدقه عليهم من الأرزاق.

ولما وردت إلى الفسطاط أخبار وصول جوهر إلى الإسكندرية واستيلائه عليها، شاور الوزير جعفر بن الفرات ذوى الرأى والنفوذ من أهلها، فاستقر رأيهم على مفاوضة جوهر فى شروط التسليم وطلب الأمان على أرواح المصريين وأملاكهم، واتفقوا على تأليف وفد للمفاوضة وكان على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم الحسينى والقاضى أبو طاهر الدهلى، فالتقى الوفد بالقائد الفاطمى عند تروجة^(٢) فى ١٨ رجب ٣٥٨هـ، وتصدى أبو جعفر مسلم لمفاوضته، وانتهت المفاوضة بكتاب الأمان^(٣) الذى كتبه جوهر وأعلنه للمصريين. وقد بين جوهر فى هذا الكتاب الذى التمس به وفد أهالى الفسطاط، أن جيوش الفاطميين إنما قدمت لحمايتهم، كما عرض لبرنامج الإصلاح الذى سيقوم به كإقامة شعائر الحج وإصلاح الطرقات، والعمل على استتباب الأمن وتوفير الأقوات وإصلاح العملة، ونشر العدل، كما وعد بترميم المساجد وتأثيثها، وأن تدفع للمؤذنين فيها والأئمة روايتهم من بيت المال. كذلك نص فى كتاب الأمان على أن يظل المصريون على مذهبهم، أى لا يلزمون بالتحول إلى المذهب الشيعى وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على ما ورد فى كتاب الله وسنة رسوله، وتعهد جوهر فى كتاب الأمان بتأمين المصريين على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وضياعهم.

(١) المقرئى: اتعاط الحنفا، ص ١٤٧.

(٢) تروجة: إحدى قرى مركز أبى المطامير بمحافظة البحيرة.

(٣) انظر: المقرئى. اتعاط الحنفا، ص ١٤٨ - ١٥٣.

على أن أهل الفسطاط لم يقبلوا هذا الأمان، كما تبين في الوقت نفسه أن طائفة كبيرة من الجند غير راضية عن عقد الصلح، وقالوا: «ما بيننا وبين جوهر إلا السيف»، وولوا قائدا من بينهم يسمى «نحير» الإمارة، وعلم بذلك جوهر، فقدم بجيشه إلى الجيزة واستطاعت فرقة من جنده عبور النيل عند منية شلقان (شرقي القناطر الخيرية)، ودار القتال بينها وبين الجند المصريين، فقتل منهم عدد كبير، ثم استقر رأى المصريين على مطالبة الشريف أبى جعفر مسلم الحسينى بالكتابة إلى جوهر فى إعادة الأمان، فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد، فأجاب القائد الفاطمى دعوة الشريف وأعاد الأمان، وأذاع على الجند منشورا يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال السلب والنهب، ثم خرج أبو جعفر مسلم وجعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء ووجوه التجار والأعيان إلى الجيزة لاستقبال جوهر. وهدأت الحالة فى الفسطاط وعادت الأعمال التجارية إلى ما كانت عليه^(١) وهكذا بدأ حكم الفاطميين فى مصر وزال عهد الدولة الإخشيدية.

تأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر:

رأى جوهر بعد أن تيسر له ضم مصر إلى حوزة الفاطميين أن يشرع فى إنشاء مدينة جديدة تكون مقرا للخلافة الفاطمية ومركزا لنشر دعوتها الدينية، وعدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له.

ووضع جوهر أساس المدينة التى عزم على إنشائها شمالى الفسطاط فى ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ، كما وضع فى الليلة التالية أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز، وعرف هذا القصر باسم القصر الشرقى الكبير، ثم أقام حول تلك المدينة وقصر الخليفة سورا كبيرا.

أطلق جوهر على مدينته الجديدة اسم المنصورية تقربا إلى خليفته المعز بإحياء ذكرى والده المنصور، وظلت تعرف بذلك حتى قدم المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر بعد أربع سنوات فسمّاها القاهرة^(٢) تفاؤلا بأنها ستقهر الدولة العباسية

(١) المقرئى: اتعاظ الخنفا، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) المقرئى: اتعاظ الخنفا، ص ١٥٨.

المنافسة، وقيل أيضا أنها سميت القاهرة لأنها تقهر من شذ منها وحاول الخروج على أميرها^(١)، كما روى أن اسم القاهرة مأخوذ من قول المعز - وهو يودع جوهر أمام جمع من مشايخ كتامة الذين وجههم معه - «والله لو خرج جوهر هذا وحده، لفتح مصر... ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تسمى القاهرة، تقهر الدنيا^(٢)».

أنشأ جوهر بسور القاهرة^(٣)، أربعة أبواب وهي: باب النصر، وباب الفتوح، وبابا زويلة^(٤)، ويعرف أحد هذين البابين الأخيرين باسم باب القوس، وقد مر منه المعز عند قدومه إلى القاهرة، وصار الناس يتبركون بالمرور به، أما الباب الثاني فقد تشاءم منه الناس وهجروه^(٥).

وكانت القاهرة وقت إنشائها تحد من الشمال بموقع باب النصر، ومن الجنوب بموقع باب زويلة وما يليه، وتحد شرقا بموقع باب البرقية وباب المحروق المشرفين على المقطم، وتعرف هذه المنطقة في أيامنا بالدراسة، وتحد غربا بباب سعادة وما يليه حتى شاطئ النيل.

كان بمصر قبل الفتح الفاطمي ثلاثة مساجد جامعة، هي: جامع عمرو بن العاص الذي أسس سنة ٢١ هـ، وسمى في عهد ازدهاره تاج الجوامع، ثم عرف بعد أن تقادم به العهد بالجامع العتيق، ويقع شمالي حصن بابليون الذي كانت تقيم فيه حامية الروم وقت الفتح الإسلامي، ولما أصبحت مصر تابعة للخلافة العباسية،

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٢٨ - ٥٢٩.

(٢) المقرئى: اتعاظ الخنفا، ص ١٦٢.

(٣) لما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالى منصب الوزارة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى أعاد بناء السور المحيط بالقاهرة المعزية، واستخدم الحجارة فى تجديده سنة ٤٨٠ هـ، كما بنى باب الفتوح أيضا فى هذه السنة فى مكان آخر غير الذى بنى فيه جوهر بابه، وتفيدنا النقوش التى عثر عليها أخيرا بسور القاهرة أن هذا الباب كان يعرف باسم باب الإقبال. كذلك نقل بدر الجمالى باب النصر الذى بناه جوهر إلى المكان الذى يوجد به الآن، وبنى فى سنة ٤٨٤ هـ باب زويلة الكبير، وقد استعان بدر الجمالى فى تجديد بناء هذه الأبواب بثلاثة إخوة من مدينة الرها، بنى كل منهم بابا (انظر المقرئى: خطط ج١، ص ٣٨٠ - ٣٨١).

Stanley Lanc-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, P. 152.

(٤) عرفنا بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التى جاءت مع جوهر من بلاد المغرب (القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٥٢).

(٥) انظر: المقرئى: خطط، ج١ ص ٣٦١، ٣٦٢، ٣٨٠.

بنى واليها الفضل بن صالح سنة ١٦٩هـ مسجد العسكر بجوار دار الإمارة، ثم بنى أحمد بن طولون بعد أن استقل بولاية مصر سنة ٢٦٣هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر في الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية، والجهة الشمالية من العسكر.

وكانت هذه المساجد الجامعة الثلاثة تعتبر رمزا لسيادة الإسلام الروحية ومنبرا للدين الجديد، فجامع عمرو بن العاص كان يمثل ظهور الإسلام في مصر وانضواء تلك البلاد تحت الحكم العربي، أما جامع العسكر فإن تأسيسه إلى جانب جامع عمرو بن العاص أكبر دليل على نجاح الدعوة العباسية في مصر وانضمام تلك البلاد إلى حوزة العباسيين، كذلك الحال فيما يتعلق بجامع أحمد بن طولون، فنستطيع أن نقول أن إقامته ترجع إلى الرغبة في إظهار الدولة الطولونية وسيادتها.

* * *

لما أسس جوهر مدينة القاهرة في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة مصر، رأى ألا يفاجئ السنين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي خشية إثارة حفيظة المصريين عليه، ومن ثم عول على بناء مسجد يكون رمزا لسيادة الدعوة الفاطمية، كما كانت القاهرة رمزا لسيادة الفاطميين على مصر، فشرع في بناء الجامع الأزهر في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩هـ (٧٩٠م)، وتم بناؤه في سنتين تقريبا، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ (٩٧٢م).

وقد سمي هذا الجامع في بادئ الأمر بجامع القاهرة^(٢) نسبة إلى العاصمة الجديدة التي أنشأها جوهر. وهناك ما يدل على أن هذه التسمية هي التي كانت تغلب عليه طوال العصر الفاطمي، وذلك أن معظم مؤرخي هذا العصر يذكرونه دائما باسم جامع القاهرة، أما تسميته بالجامع الأزهر، فيظهر أنها أطلقت عليه في عصر العزيز بعد إنشاء القصور الفاطمية التي كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة. وقال آخرون إنما سمي بذلك لما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه، على أنه ليس ببعيد أن يكون الفاطميون الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول ﷺ سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء، وقد

(١) المقرئى: خطط، ج٢، ص ٢٧٣.

(٢) المقرئى: خطط، ج١، ص ٣٦٢.

استمر هذا الجامع يعرف بهذين الاسمين حتى عصر المقریزی فی أوائل القرن التاسع الهجری، ثم تقلص الاسم القديم وغلب علیه اسم الجامع الأزهر. كان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية الجديدة، ويشتمل على مكان مسقوف للصلاة يسمى المقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحنًا، وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة، وأنشأ بها محرابًا يسمى الآن القبلة القديمة، وكان الخلفاء الفاطميون منذ عهد المعز يحتفلون بإقامة الصلوات يوم الجمعة والأعياد في الجامع الأزهر، وكثيرًا ما كانوا يؤمون الناس في الصلاة ويخطبون فيهم، وكانت تقام بهذا الجامع إلى جانب الصلوات بعض الحفلات الدينية.

٢- اتخاذ مصر مقرا للخلافة الفاطمية :

شرع جوهر الصقلى منذ أن وضع أساس مدينة القاهرة فى التمهيد لاتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية، فأمر بحذف الدعوة لخلفاء بنى العباس التى كانت تقام بمساجد مصر وأقامها للخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى^(١) بدلا من اسم الخليفة العباسى، وعلى أحد وجهيها: «دعا الإمام معد بتوحيد الإله الصمد»، وفى السطر الثانى: «المعز لدين الله أمير المؤمنين»، وفى السطر الثالث: «ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» وعلى الوجه الآخر: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين».

كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وزيد فى الخطبة العبارة الآتية^(٢): «اللهم صل على محمد النبى المصطفى، وعلى على المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا، اللهم صل على الأئمة الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين»، كما أمر جوهر بأن يؤذن فى جميع المساجد بحى على خير العمل^(٣)، وهى من العبارات التى يتميز بها الأذان عند الشيعة، ولم تلبث هذه التغييرات الدينية التى أدخلها جوهر الصقلى رغبة فى نشر الدعوة الفاطمية أن لقيت كثيرا من النجاح مما سر القائد جوهر، فبعث للمعز يخبره بما لقيته دعوته من تأييد.

رأى جوهر بعد أن استقر سلطان الفاطميين فى مصر أن يكتب إلى المعز يستدعيه ليتولى بنفسه زمام الحكم فى البلاد، فلما أيقن المعز أن دعائم ملكه قد توطدت فى مصر عول على الرحيل إليها، فاستخلف يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على إفريقية والمغرب^(٤)، وخرج من المنصورية فى شوال سنة ٣٦١هـ متوجها إلى مصر وبصحبه كثير من أتباعه وجمع كبير من رجالات

(١) المقرئى: اتعاض الحنفا، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) المقرئى: اتعاض الحنفا، ص ١٦٦.

(٣) المقرئى: اتعاض الحنفا، ص ١٦٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٨ ص ٢٠٥.

دولته، من بينهم أولاده وإخوته وأعمامه، كما أحضر معه رفات آبائه^(١) (عبيد الله المهدي، والقائم، والمنصور)، وفضلا عن ذلك فإنه كان فى ركابه خمسمائة حمل من الأموال التى أخرجها من قصور آبائه. وقد تابع المعز سيره مارا ببرقة حتى دخل الإسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢هـ، فاستقبله أعيان البلاد وعلى رأسهم قاضى مصر، وجلس الخليفة عند منارة الإسكندرية حيث ألقى خطبة، قال فيها^(٢): «إنه لم يدخل مصر طمعا فى زيادة ملكه ولا لمال، وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج والجهاد ضد الكفار، وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة، وأن يعمل بما أمر به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وعظ الحاضرين وخلع على القاضى فى أواخر شعبان من هذه السنة، فوصلها فى يوم الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ دون أن يمر على مدينة مصر - وكان أهلها قد أقاموا معالم الزينة على جانبى الطريق ظنا منهم أنه سيزورها - وسار متجها إلى القصر الشرقى الذى بناه له جوهر ولم يكد يصعد إلى إحدى ردهاته حتى سجد شكرا لله تعالى وصلى ركعتين. وفى اليوم التالى لوصوله خرج أشراف مصر وقضاتها وأعيانها ورجال العلم فيها لتهنئته والاحتفاء به، ثم أخذ جوهر بعد ذلك يقدم إليه الناس طائفة بعد أخرى^(٣).

لقى المعز بالقاهرة كثيرا من مظاهر الترحيب، فقدمت إليه الهدايا والتحف بعد أن استقر هو وأسرته وأتباعه بالقصر الشرقى، وقد اشتملت هدية القائد جوهر التى قدمها إلى مولاه المعز على: مائة وخمسين فرسا مسرجة، ملجمة، بعضها مذهب، وبعضها مرصع، والبعض الآخر معبر، وإحدى وثلاثين قبة على نوك بخاتى بالديباج والمناطق والفرش، وثلاث وثلاثين بغلة، وكان منها سبعة مسرجة ملجمة، تتبعها مائة وثلاثون بغلة معدة للنقل. وكانت الهدية تشتمل أيضا على أربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أوانى الذهب والفضة، ومائة سيف محلاة بالذهب والفضة وشاشية مرصعة فى غلاف وتسعمائة آنية فيها طرائف مختلفة، انتخبها جوهر من ذخائر مصر.

(١) المقرئى: اتعاط الحنفا، ص ١٨٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٣٤.

(٣) المقرئى: اتعاط الحنفا، ص ١٧٦، ١٨٨.

كذلك قام أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني بتقديم هدية للمعز وهي أحد عشر سफطا من متاع تونة^(١) وتينيس^(٢) ودمياط، وخيل وبغال، وقال: كنت أشتهى أن يلبس منها المعز لدين الله ثوبا أو يتعمم بالعمامة التي فيها، فما عمل الخليفة قط مثلها.

ولما انتهى المعز من تقبل الهدايا والتحف التي أهديت إليه، أمر بإطلاق سراح المعتقلين من الإخشيدية والكافورية الذين اعتقلهم جوهر، وكانوا نحو الألف^(٣).

أصبحت ولاية مصر بعد قدوم المعز إليها دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب، كما حلت القاهرة محل المنصورية، وغدت عاصمة للدولة الفاطمية، على أن انتقل المعز إلى مصر كان له أثره في بلاد المغرب إذ ضعف نفوذ الفاطميين في هذه البلاد واستقل بولاياتها بعض الأمراء. ولم يأت منتصف القرن الخامس الهجري حتى تقلص منها الحكم الفاطمي، وكانت أمور ولاية مصر قد أسندها المعز إلى جوهر بعد الفتح، فأقر الوزير جعفر ابن الفرات في منصبه، كما أبقى على الموظفين المصريين في وظائفهم وأشرك مع كل موظف مصري موظفا آخر من المغاربة^(٤)، وصار جوهر يشرف على إدارة الدواوين وجباية الخراج حتى أوائل سنة ٣٦٣هـ حيث تسلم المعز منه دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في أحوالها.

وهكذا استأثر المعز بالنفوذ والسلطان في مصر، ولم يشأ أن يترك لجوهر من السلطة ما يساعده على الاستئثار بالحكم، بل أبقاه بجانبه يشير عليه بما تتطلبه أحوال البلاد، وما لبث أن صرفه عن بعض المناصب الإدارية وأسندها إلى يعقوب ابن وعسلوج كلس بن الحسن^(٥)، وبذلك فقد جوهر ما كان يتمتع به من نفوذ.

(١) قرية قديمة كانت على مقربة من تينيس ودمياط.

(٢) مدينة قديمة كانت تقع على جزيرة في بحيرة المنزلة، ولها أهمية كبيرة في تاريخ الصناعات الإسلامية (انظر: ركي حسن: كنوز الفاطميين ص ١٥).

(٣) المقریزی: اتعاظ الخنفا، ص ١٨٩.

(٤) المقریزی: اتعاظ الخنفا، ص ١٦٨، كتاب المعز لدين الله، ص ١٦٠.

(٥) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٤٥.

وليس من شك أن المعز كان يمثل الحاكم المستنير الذى يجمع فى يده جميع السلطات ويعمل فى نفس الوقت على إسعاد شعبه، فبذل قصارى جهده للنهوض بدولته، واستطاع بفضل الأموال الوفيرة التى أحضرها معه من بلاد المغرب، وحسن سياسته، واهتمامه بإعداد قواته الحربية أن يقيم دولة فى مصر تناهض الدولة العباسية.

الباب الرابع

الحركات السياسية والدينية في العصر الفاطمي الأول

- ١ - موقف الفاطميين من أهل السنة في مصر.
- ٢ - سياسة الفاطميين مع أهل الذمة.
- ٣ - الحاكم بأمر الله ودعوي ألوهيته.
- ٤ - العناصر الأجنبية وأثر التنافس بينها في حالة مصر الداخلية.

١ - موقف الفاطميين من أهل السنة فى مصر :

تأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى وهى :
مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ)، ومذهب الإمام مالك بن
أنس (ت ١٧٩هـ) ويتميز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبى حنيفة ومذهب
الإمام محمد بن إدريس الشافعى القرشى (ت ٢٠٤هـ)، ومذهب الإمام أحمد بن
حنبل (ت ٢٤١هـ).

وعلى الرغم من أن مذهب الإمام أبى حنيفة أقدم المذاهب السنية إلا أن
مذهب مالك هو الذى دخل مصر أولاً وانتشر بها، فيذكر المقرئى^(١) أن «أول من
قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمع،
وكان فقيهاً روى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد، وتوفى
بالإسكندرية سنة ١٦٣هـ ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم، فاشتهر مذهب
مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر».

ولم يزل المصريون يتبعون مذهب الإمام مالك إلى أن قدم الإمام أبو عبد
الله محمد بن إدريس الشافعى إلى مصر سنة ١٩٨هـ وأظهر بها مذهبه الجديد
وجعله يلائم الحياة المصرية، فمال إليه عدد كبير وصار لكل من مذهب الإمام
مالك والإمام الشافعى أتباع فى مصر، كما نبغ فيها كثير من فقهاء المالكية
والشافعية.

كان أهل السنة يكونون السواد الأعظم من المصريين المسلمين فى مستهل
القرن الرابع الهجرى حيث شرع الفاطميون يوجهون حملاتهم إلى مصر، وقد

(١) خطط، ج٢، ص ٣٣٤.

استطاع دعائهم نشر المذهب الفاطمي بين عدد قليل من المصريين كانوا خير عون لهم على فتح مصر، فدخل جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الإسكندرية سنة ٣٥٨هـ دون مقاومة، وكتب أمانا أعلنه للمصريين.

لم يعمل الفاطميون - بعد أن انتقل الخليفة المعز إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ - بكتاب الأمان الذي التزم فيه جوهر الصقلي إطلاق الحرية للمصريين في المعتقدات الدينية، بل تركز الاهتمام في تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي، واتبعت الخلافة الفاطمية لذلك عدة وسائل منها: إسناد المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعيين، واتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية وهي وقتذاك مسجد عمرو بن العاص، ومسجد أحمد بن طولون، والجامع الأزهر، واهتمامهم بتعيين أحد كبار المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وكان يعرف بداعي الدعاة. وكانت منزلة هذا الداعي الكبير تلي قاضي القضاة ويتزيا بزيه^(١). وكان يعاونه اثنا عشر نقيباً ونواب في سائر البلاد، واشتروطوا فيه أن يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت وكثيراً ما تقلد رجل واحد منصبى قاضي القضاة والدعوة.

كذلك أمعن الفاطميون في إظهار شعائهم المخالفة لشعائر السنيين كالأذان بحى على خير العمل والاحتفال باليوم العاشر من المحرم وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بكربلاء؛ وعيد الغدير المعروف بغدير خم^(٢) (وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة)، وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة من أن رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة نزل بغدير خم في طريقه إلى المدينة، وأخذ بيد علي بن طالب وقال: أستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى، فقال: من كنت مولاه، فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه^(٣). ويعلق الشيعة أهمية كبرى على هذا الحديث، إذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلي بن أبي طالب^(٤).

(١) انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٣، ص ٤٨٣.

(٢) موضع على ثلاثة أميال من الجحفة، بين مكة والمدينة به غدير وحوله شجر كثير.

(٣) المقرئى: خطط ج١، ص ٣٨٩، أحمد أمين: ظهر الإسلام ج١ ص ١٤٩.

(٤) المقرئى: اتعاظ الحنفا (حاشية رقم، ص ١٩٥).

أثار إحياء الشعائر الشيعية فى مصر استياء المصريين السنيين ، لما كان يقتترن بها فى كثير من الأحيان من اعتداءات الشيعيين والمغاربة عليهم ، فقد حدث عند الاحتفال بعيد غدیر خم (١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢هـ) أن قام المغاربة بإثارة الشغب والاضطرابات ؛ فخرج جوهر ليحول دون تماديهم فى الاعتداء على أموال الأهالى^(١) ، كذلك أصاب المصريين السنيين كثير من الضرر والأذى بسبب إرغام الشيعيين لهم على مشاركتهم فى إظهار شعائرهم ؛ ففى العاشر من المحرم سنة ٣٦٣هـ ، سار جماعة من المصريين الشيعيين والمغاربة فى موكبهم ينوحون ويكفون على الحسين ؛ وصاروا يعتدون على كل من لم يشاركهم فى مظاهر الأسى والحزن مما أدى إلى تعطل حركة الأسواق وقيام القلاقل^(٢).

رأى السنيون المصريون إزاء اهتمام الشيعيين بإظهار شعائرهم أن يتخذوا مناسبة دينية يحتفلون بها مضاهاة لعيد غدیر خم عند الشيعة ونكاية لهم ؛ فاحتفلوا فى سنة ٣٦٢هـ باليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم غار ثور هو وأبو بكر الصديق ، وقالوا إنه يوافق ٢٦ من ذى الحجة ؛ وبالغوا فى هذا اليوم فى إظهار الزينات ونصب القباب وإيقاد النيران ، ورأت الحكومة الفاطمية فى عهد المعز ألا تمنع أهل السنة فى مصر من إحياء هذا العيد حتى لا تثير غضبهم .

لم ينشأ التوتر بين المصريين والمغاربة الشيعيين عن إحياء الشعائر الشيعية وحدها ، بل أدى انحياز الفاطميين إلى المغاربة والاعتماد عليهم فى إدارة شئون دولتهم إلى استغلال نفوذهم فى إلحاق الأذى بالمصريين فقاموا بنهب أملاكهم واغتصبوا الدور وأجلوا السكان عنها مما حمل المصريين على رفع شكاياتهم إلى المعز ؛ فأصدر أوامره إلى المغاربة بإخلاء هذه الدور والانتقال إلى نواحي عين شمس^(٣) . وخرج بنفسه وعين المواضع التى ينزلون فيها ، وأقر المال المطلوب للبناء كما جعل لهم واليا وقاضيا عهد إليهما بالنظر فى أحوالهم^(٤) . ولم يلبث الخليفة -

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ، ص ١٩٥ .

(٢) المقرئى : اتعاظ الخنفا ، ص ١٩٨ ، حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص ١٨٧ .

(٣) المقرئى : اتعاظ الخنفا ، ص ١٩٧ .

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٤٥ .

بعد أن أنشئت الأحياء الخاصة بالمغاربة - أن أمرهم بالخروج من مصر والإقامة بالقاهرة^(١).

لما آلت الخلافة إلى العزيز سنة ٣٦٥هـ عنى كأييه المعز بنشر المذهب الشيعي وحثم على القضاة أن يصدرُوا أحكامهم وفق هذا المذهب، كما قصر المناصب الهامة على الشيعيين، وأصبح لزاماً على الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا طبقاً لأحكام المذهب الإسماعيلي، وإذا ما ثبت على أحدهم التقصير في مراعاتها عزل عن وظيفته، وكان ذلك مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين إلى اعتناق مبادئ المذهب الفاطمي^(٢).

ولما قبض الحاكم بأمر الله على زمام الأمور في مصر بعد تخلصه من وصيه برجوان سنة ٣٩٠هـ (٩٩٩م) عمد إلى إصدار كثير من الأوامر والقوانين المبنية على التعصب الشديد للمذهب الفاطمي؛ فأمر في سنة ٣٩٥هـ بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفي الأسواق والشوارع والدروب؛ وصدرت الأوامر إلى العمال في البلاد المصرية بمراعاة ذلك^(٣).

ثم خفف الحاكم من مظاهر التعصب للمذهب الفاطمي إرضاء لرعاياه السنيين؛ فأبطل سنة ٣٩٧هـ بعض ما أمر به سابقاً من لعن الخلفاء الثلاثة الأول وغيرهم من الصحابة، وأمر بمحو ما نقش في لعنهم، كما منع المؤذنين من إضافة عبارة «حي على خير العمل» إلى الأذان، وأجاز لهم أن يقولوا في أذان الفجر «الصلاة خير من النوم»، وسمح الحاكم بإقامة صلاة الضحى وصلاة التراويح^(٤) بعد أن بطلت بأمره بضع سنين، وأنشأ مدرسة لتعليم المذهب السني، وألحق بها مكتبة، وعين أبا بكر الأنطاكي ناظراً لها ومنحه الخلع هو وأعوانه من مدرسي هذه المدرسة.

كذلك أصدر الحاكم مرسوماً سنة ٣٩٨هـ وفق فيه بين السنيين والشيعيين، وأطلق لكل فريق منهم الحرية في أداء شعائره الدينية، وذلك على أثر ما حدث

(١) المقرئى: اتعاظ الخنفا، ص ٢٠٣.

(٢) المقرئى: خطط، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٢، ص ١٦٦.

(٤) المقرئى: خطط، ج ١، ص ٣٤٢.

بينهم من خلاف على فهم الأحكام وتطبيقها^(١)؛ فأجاز فى هذا المرسوم للشيعة صوم رمضان دون أن يتقيدوا برؤية الهلال، وسمح للسنين بصوم شهر رمضان إذا ثبت لديهم رؤية الهلال، كما أباح للشيعة أن يكبروا فى الصلاة على الميت خمس مرات؛ أما السنون فأجاز لهم أن يكبروا فى صلاة الجنازة أربع تكبيرات. وفضلا عن ذلك فإن الحاكم بأمر الله أطلق الحرية للمؤذنين فى ذكر عبارة حى على خير العمل فى الأذان، ونهى عن سب الصحابة.

ظلت سياسة اللين التى سار عليها الحاكم إزاء ثلاث سنوات غير أنها ما لبثت أن تبدلت على حين غفلة؛ ففي سنة ٤٠١هـ، أمر بإقامة الأذان بحى على خير العمل، كما أبطل صلاة الضحى وصلاة التراويح، ثم اتجهت السياسة الفاطمية زمن الخليفين الظاهر والمستنصر إلى عدم إثارة السنين فتمتعوا بمطلق الحرية فى أداء شعائرتهم، كما أهملت بعض المظاهر الشيعية؛ فصار المؤذنون لا يحرصون على ذكر عبارة حى على خير العمل فى الأذان حتى تقلد بدر الجمالى الوزارة فى أواخر عهد المستنصر - وكان مغاليا فى مذهب الشيعة - فأظهر روح العداء والكراهة إزاء أهل السنة سنة ٤٧٨هـ وأمر بإضافة حى على خير العمل إلى الأذان، كذلك أعاد بدر الجمالى نقش عبارات تتضمن لعن الصحابة على الجدران، وأصدر أوامره بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط طبقا للمذهب الشيعى^(٢).

وعلى الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها الشيعى بين أهالى البلاد التى ضمت إلى حوزتها سعيًا وراء توطيد سلطتها، فإنها لم تنجح فى أداء رسالتها الشيعية فى مصر، فظل المذهب السنى محتفظا بقوته رغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمى خوفا من تطبيق القوانين الجائرة التى فرضها الفاطميون على مخالفهم فى المذهب، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الفاطميين رأوا حين دخولهم مصر واستقرارهم بها، أن يتركوا الفسطاط حاضرة المصريين السنين ويتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون مقرا لأنصارهم ودعاة مذهبهم، كما أنشأوا لهم مسجدا خاصا، وأجازوا لأهل السنة فى مصر إظهار شعائرتهم على

(١) ابن خلدون: ج٤، ص ٦٠، المقرئى، خطط، ج٢، ص ٢٨٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٢٠، وحسن إبراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٢٥.

اختلاف مذاهبهم؛ فصارت تعاليم مذاهب الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل تدرس في دولتهم، بل إنهم صاروا يراعون مذهب الإمام مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه^(١). أما مذهب الإمام أبي حنيفة، فلم يلق تأييدا من الفاطميين لأنه مذهب العباسيين. وظهر في العصر الفاطمي بمصر بعض علماء مذاهب أهل السنة، وكانوا يلقون دروسهم على جمهور المستمعين بجامع عمرو ابن العاص.

كذلك من بين الأسباب التي جعلت أهل السنة في مصر يحتفظون بمذاهبهم وتقاليدهم تشريعات الوراثة التي أدخلها الفاطميون، إذ رأوا فيها ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن وما أثر عن السنة، فيجيز قانون الشيعة للبت أن ترث كل ما تركه أبوها إذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوى العصبة، وهذا يخالف مذهب السنة الذي يقضى بالألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة.

(١) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٢٠.

٢ - سياسة الفاطميين مع أهل الذمة :

رأى بعض خلفاء العصر الفاطمى الأول بعد أن جاءوا إلى مصر بمذهب شيعى خالفوا به جمهور المسلمين أنهم بحاجة إلى من يعاونهم فى تثبيت سلطانهم، ولما أيقنوا أنه من المتعذر عليهم الاعتماد على السنيين فى مصر أنصار الدعوة العباسية، قربوا إليهم أهل الذمة وأظهروا لهم كثيرا من التسامح واستخدموهم فى أهم شئون الدولة، على أن هذه السياسة لم يتمسك بها الفاطميون، فكثيرا ما اضطروا إلى العدول عنها.

استعان المعز لدين الله الفاطمى بكثير من الأطباء اليهود وما لبث أن عظم نفوذهم فى بلاطه، وصار يعقوب بن كلس الذى أسند إليه المعز بعض دواوين دولته يتحيز إلى إخوانه فى الدين من قبل. وارتقى يعقوب فى المناصب حتى أصبح وزيرا للعزیز بن المعز، وإليه يرجع الفضل فى وضع قواعد الدولة ونظمها، كذلك اتسم عهد العزيز بالتسامح مع النصارى، فزاد بلاطه فى إكرامهم لما كان بينه وبينهم من صلة النسب^(١)، إذ تزوج من مسيحية، وكان لها أخوان رفعهما العزيز إلى أرقى مناصب الكنيسة؛ فعين أحدهما بطريركا للملكانيين بيت المقدس سنة ٣٧٥هـ، وعين الثانى مطرانا للقاهرة، ثم رقى فى عهد الحاكم بطريركا للملكانيين بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ^(٢)، وكان لهذه السيدة نفوذ عظيم على العزيز، فقد حملته على انتهاج سياسة التسامح مع المسيحيين وإعادة بعض الكنائس. وبلغ من عطف العزيز على المسيحيين أن احتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية مشاركة لهم فى شعورهم.

وكان من أثر سياسة التسامح التى اتبعها العزيز نحو الذميين أن ازداد نفوذهم فى أيامه، وأصبح بدواوين الدولة كثير من كتابهم وخاصة بعد أن عين هذا الخليفة منشا بن إبراهيم الفرار اليهودى واليا على بلاد الشام وولى عيسى بن نسطورس كتابته.

(١) متن الحضارة الإسلامية، ج١، ص ٩٠ - ٩١.

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ١٤٤ - ١٤٥.

استاء المصريون المسلمون من استئثار الذميين بمناصب الدولة؛ فقدموا للعزیز بالله الفاطمی الاحتجاجات على محاباته المسيحيين واليهود؛ وتبين للخليفة حقيقة استئثار الذميين بمعظم السلطات، فأمر بالقبض على عيسى بن نسطورس وزملائه من الكتاب، كما قبض على منشا وغيره من الموظفين اليهود، وأعاد الكتاب المسلمين إلى أعمالهم بالدواوين.

على أن العزیز لم يلبث أن عفا عن عيسى بن نسطورس بعد أن شفعت له ابنة الخليفة الأميرة ست الملك وزوجه المسيحية؛ وولاه الوزارة بعد أن شرط عليه أن يولى المسلمين فى الدواوين^(١).

أما الخليفة الحاكم بأمر الله، فلم تكدر تستقر له الأمور فى مصر حتى نبذ سياسة التسامح الدينى التى سار عليها كل من المعز والعزیز؛ إذ تقدم إليه الكتاميون وهم عصب الخلافة الفاطمية طالبين عزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبى محمد الحسن بن عمار، فأجاب الحاكم طلبهم وتقلد ابن عمار أمور الدولة، ثم أسند الخليفة إلى ابن نسطورس الديوان الخاص، لكنه لم يتمتع طويلا بهذا المنصب؛ فقد اتهم بالعبث بأموال الدولة، وأعطى بذلك سلاحا لخصمه ابن عمار فقبض عليه وقتله^(٢).

بدأ الحاكم ينتهج سياسة الشدة مع غير المسلمين من رعاياه سنة ٣٩٣هـ، وقد حملة على اتباع هذه السياسة المصريون المسلمون الذين ساءهم استئثار أهل الذمة بالسلطة وإحرازهم الثروات الكبرى، ثم تجلّى عنفه فى معاملتهم سنة ٣٩٥هـ، فحتم عليهم لبس أزياء خاصة، ولم يمض على ذلك ثلاث سنوات حتى اتسع نطاق اضطهاد النصارى واليهود؛ فأمر الحاكم بهدم بعض الكنائس فى القاهرة، وفى الوقت الذى اشتد فيه اضطهاد الذميين، تقلد الوزارة منصور بن عبدون النصرانى، ومن الأمور الهامة التى حدثت فى عهد هذا الوزير إشارته على الخليفة الفاطمى الحاكم بوجوب هدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس، فأصدر

(١) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) انظر: تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ١٨٠.

مرسومًا بهدمها^(١). وكان لهدم هذه الكنيسة أثر كبير فى إذكاء الدعوة الصليبية التى أعلنتها البابوية للاستيلاء على بيت المقدس.

كذلك أمر الحاكم بمنع النصارى من الاحتفال بالنوروز على شاطئ النيل كما حرم الألعاب التى تقام فى هذا العيد لما اقترن بها من الملاحى الباذخة وخاصة على ضفاف النيل والخليج، ولم يقف اضطهاد الحاكم للذميين عند هذا الحد بل ألغى جميع الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة بأعمال مصر وضمت إلى الديوان.

أدت سياسة الحاكم التى انطوت على اضطهاد الذميين إلى دخول كثير من كتابهم فى الإسلام وتبعهم من عامة النصارى، كما هاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة، وأجاز لهم الحاكم هذه الهجرة، وأذن للمهاجرين منهم بحمل أموالهم.

على أن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد، فأصدر قبيل اختفائه سنة ٤١١هـ، عدة مراسيم لإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود، ورد ما أخذ من أوقاف الكنائس والأديرة، وسمح للمسيحيين بتجديد الكنائس، كما منحهم أمانًا جاء فيه^(٢): «هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر عندما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم، والجزع الذى هالهم فأقلقهم...، أنتم جميعًا بأمان الله عز وجل، وأمان نبيه خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ وعلى آله الطاهرين وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب... وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم... وما تحويه أيديكم، أمانًا صريحًا ثابتًا وعقدًا صحيحًا باقيا فثقوا به واسكنوا إليه، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم وعصمته تقيكم، لا يقدم عليكم بسوء أحد...، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته، ومن له وسيلة الثواء فى كنف دولته... وعهده الذى يشرفه طرفكم، وكفى بالله شهيدا».

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ١٩٤.

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٣٢.

كان الخليفة الظاهر على النقيض من أبيه الحاكم فى سياسته نحو أهل الذمة، فلم يكذب يتولى الخلافة حتى عمل على اكتساب عطفهم بأن أصدر بياناً^(١)، أعلن فيه أنهم أحرار فى عقائدهم وشعائهم، وأنه لا إكراه فى الدين، وأن من أثر منهم الدخول فى الإسلام، اختياراً من قلبه وهداية من ربه، فليدخل فيه مقبولا مبرورا، ومن أثر البقاء على دينه من غير ارتداد، كان عليه ذمته وحياطته.

أخذ الشعور العدائى نحو الذميين يقل ويضعف منذ ذلك الوقت، ولم يظهر له أثر إلا فى فترات قصيرة وبخاصة حين يتقلد أحدهم منصبا كبيرا من مناصب الدولة^(٢)، ففى أوائل عهد المستنصر بالله الفاطمى، ارتفع شأن أبى سعد إبراهيم ابن سهل التستري اليهودى لأن والدته ذلك الخليفة كانت من قبل أمة فى بيته، فلما ولى ابنها المستنصر الخلافة قربت التستري وولته ديوانها مما أدى إلى حقد الوزير فخر الدولة أبى منصور صدقة بن يوسف الفلاحى عليه لأنه غدا مسلوب السلطة؛ ولم يبق له من الوزارة إلا الاسم فقط، وتحيز التستري لليهود، فتقلدوا فى أيامه كثيرا من مناصب الدولة مما جعل المسلمين فى مصر يظهرون استياءهم منه، فاستغل الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى هذه الفرصة للإيقاع به، ولم يلبث أن ترصد له بعض الجنود الأتراك وتخلصوا منه سنة ٤٣٩هـ.

وعلى الرغم من تدمير المسلمين فى مصر من إسناد بعض مناصب الدولة إلى اليهود فى عهد المستنصر، فإن هذا الخليفة أظهر عطفاً وتسامحاً نحوهم، فبعد مقتل التستري أسند إلى أخيه أبى نصر هارون ديوان خاصته، كما ثارت حفيظة أم المستنصر على صدقة بن يوسف الفلاحى لتآمره على قتل التستري، وانتهى الأمر بإقالته من الوزارة وقتله فى أوائل سنة ٤٤٠هـ^(٣).

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص ٢٣٥.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٧ - ٣٨، وابن ميسر تاريخ مصر، ص ٢.

٣- الحاكم بأمر الله ودعوى الوهيتة :

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٦هـ، وله من العمر إحدى عشرة سنة ونصف سنة، وقام بالوصاية عليه برجوان الصقلي، وتقلد أبو محمد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة وهى دون الوزارة فى الرتبة^(١)، وكان برجوان يطمح إلى الاستئثار بالسلطة، فأخذ يؤلب زعماء الجند من الأتراك على ابن عمار، فاضطر ابن عمار إلى الهرب مع جماعة من أعوانه بعد أن تفاقم العداء بين الكتاميين والأتراك سنة ٣٨٧هـ، فحل برجوان محله^(٢). واستبد بالسلطة، وعين فهد بن إبراهيم كاتباً له، وعهد إليه بالنظر فى ظلمات الناس ولقبه بالرئيس.

على أن الحاكم شعر رغم حدائته بخطورة منصب الخلافة الذى يتقلده، كما فطن إلى حرص برجوان على الاستئثار بالسلطة وخاصة عندما منعه من الاتصال المباشر برجال دولته، ولذا استدعى الحاكم الحسين بن جوهر وعهد إليه بالعمل على التخلص منه فقتله فى ربيع الثانى سنة ٣٩٠هـ^(٣)، وبذلك استعاد الخليفة الحاكم سلطته، وقلد الحسين بن جوهر أمور الدولة ولقبه قائد القواد^(٤).

لم يكد يقبض الحاكم على زمام الأمور فى البلاد بعد تخلصه من برجوان حتى كون مجلساً يضم كبار الموظفين لبحث شئون الحكم، كما حرص على التجول ليلاً فى المدينة للوقوف على أحوال الناس؛ ولكى يتيسر له تحقيق هذه الغاية وتوطيد الأمن، أمر بتعليق المصاييح على جميع الحوانيت والمحال المختلفة فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط^(٥)، وترتب على ذلك حدوث تغيير كبير فى نظم الحياة المصرية، فصارت جميع الأعمال والمعاملات التجارية تؤدى ليلاً^(٦).

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٨٩.

(٢) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٧.

(٣) المقرئى: خطط ج٢ ص ٤.

(٤) المقرئى: خطط، ج٢، ص ١٤ - ١٥.

(٥) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى، ص ٢٠٥.

(٦) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 125-126

وكانت سياسة الحاكم تتصف في بعض الأحيان بكثير من العنف، مثال ذلك أنه لما بلغه أن بعض العناصر استغلت إضاءة الشوارع والطرق ليلاً للعبث والمجون، فرض قوانين شديدة فمنع النساء من الخروج ليلاً منذ العشاء. كما نهى الرجال عن الجلوس في الحوانيت، ثم منع الناس كافة من التجول في الطرقات من بعد العشاء إلى مطلع الفجر، وأتبع ذلك بإصدار قوانين تحرم على الأهليين فتح محلاتهم التجارية ليلاً^(١).

ولما رأى الحاكم أن أوامره السابقة لم تضع حداً للفوضى الاجتماعية التي سادت البلاد، عمد سنة ٣٩٥هـ إلى إصدار قوانين جديدة، مدفوعاً في ذلك بدافع الشعور الديني وإصلاح الأخلاق وتطهير نفوس المجتمع من الرذائل، فمنع النساء من الظهور سافرات ومن السير خلف الجنازات^(٢)، ثم أصدر في سنة ٤٠٢هـ، أمراً بمنع خروج النساء إلى الأسواق والحمامات، كما حظر عليهن التطلع من نوافذ البيوت والوقوف فوق أسطح المنازل، وبلغ من حرص الحاكم بأمر الله على تنفيذ أوامره أن منع صانعي الأحذية من صنع الأخفاف للنساء حتى يتعذر عليهن الخروج من بيوتهن^(٣)، وكان من أثر هذه السياسة التي اتبعتها الحاكم إزاء النساء أن اعتكفن في بيوتهن.

كذلك حرم الحاكم الاجتماعات للهو على شواطئ الخليج المصري بالقاهرة، فأمر بسد أبواب الدور التي على الخليج والطاقت المظلة عليه^(٤)، وفرض قيوداً على بعض أنواع المأكول والمشرب^(٥). فمنع بيع الزبيب واستيراده حتى لا يصنع خمراً، كما منع شراء أكثر من أربعة أرطال من العنب دفعة واحدة خشية استعماله في صنع النبيذ، ثم أمر الخليفة كذلك بإتلاف أشجار الكروم.

أما فيما يتعلق بالمأكولات، فإنه منع عجن الخبز بالأرجل، كما أمر ألا يصطاد الصيادون سمكا بغير قشر، وألزم المخالفين بالعقاب الشديد، كذلك نهى

(١) المقرئى: خطط، ج٢ ص ١٠٨.

(٢) المقرئى: خطط، ج٢ ص ٣٤٢.

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي: ص ٢٠٨، المقرئى: خطط، ج٢ ص ٢٨٨.

(٤) المقرئى: خطط، ج٢ ص ٢٢٧.

(٥) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 126.

الحاكم عن ذبح البقر إلا فى عيد الأضحى المبارك^(١) رغبة فى الإكثار من نسل الماشية، واتخذ الحاكم أيضا بعض الإجراءات لمكافحة الغلاء فأمر سنة ٣٩٨هـ ألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته، وحدد أسعار القمح والمواد الغذائية وجعل عقوبة من يخالف ذلك القتل.

وحرص الحاكم على الإشراف بنفسه على مصالح دولته، ولزم هذه الخطة طول حياته، ولكنه لجأ إلى إنزال العقوبات الصارمة بمن يعصى أوامره رغبة منه فى فرض هيئته على رعاياه وتأييد حكمه، فإذا أظهر فريق من الناس تدمرا، أسرع إلى التخلص منهم^(٢). وكان لهذه السياسة أكبر الأثر فى توطيد سلطة الحاكم والقضاء على عناصر الثورة. ومع أن أوامر الحاكم كانت موجهة على الأغلب إلى أهالى القاهرة، فإن كل البلاد بوجه عام لقيت الكثير من العنت بسبب شدته وعنفه.

تعرض لقسوة الحاكم أقرب الناس إليه من الوزراء والكتاب والغلمان، وكان رجال الدولة وغيرهم من العمال والطوائف المختلفة يخشون ازدياد عقوباته القاسية، فالتمسوا منه أمانا سنة ٣٩٥هـ فأجابهم، وأصدر أمانا، جاء فيه^(٣) «هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله، إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبيننا على خير الوصيين، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه عليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال، لا خوف عليكم، ولا تمتد يد بسوء إليكم، إلا فى حد يقام بواجبه، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك، وليعول عليه إن شاء الله تعالى...».

على الرغم من سياسة العنف التى سار عليها الحاكم بأمر الله، فإنه كان متقشفا فى حياته العامة والخاصة، فمنع الناس من ذكر عبارة سيدنا ومولانا فى المكاتبات الواردة إليه، وحتم عليهم أن يلقبوه بأمر المؤمنين، كما أصدر أوامره ألا يقبل أحد له الأرض ولا يقبل يده عند السلام عليه فى المواقب، وكانت حجته أن ذلك من رسوم الروم.

(١) المقرئى: خطط، ج٢، ص ٣٤١، ٣٤٢.

(٢) انظر: تاريخ بن سعيد الأنطاكى، ص ٢٢١.

(٣) المقرئى: خطط ج٢ ص ٢١.

لم يقف حب الحاكم للتواضع عند هذا الحد، بل أمر ألا يصلى عليه أحد في الخطب الدينية والمكاتبات والمحادثات الرسمية^(١)، وكان من المعتاد أن يصلى الخطيب على الخليفة كما يصلى على النبي فى خطبة الجمعة، فاقتصر الخطباء على ما نصه: «اللهم صل على محمد المصطفى، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين، آباء أمير المؤمنين، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك». ومنع الحاكم ضرب الطبول والأبواق حول القصر الفاطمى - وكان ذلك من مظاهر سيادة الخلفاء - ونهى عن إقامة الزينات فى طريقه إلى المصلى الذى أنشأه بجبل المقطم وعرف بمصلى العيد، وصار يدخل للصلاة فى أبسط المظاهر^(٢).

وعنى الحاكم عناية خاصة بتنظيم القضاء وتطهيره من الرشوة، كما وجه اهتمامه إلى مطاردة العابثين بالأمن، كذلك كان الحاكم زاهدا فى مال الدولة برغم ما تكسده لديه من الأموال والتحف. وبلغ من تعففه عن أموال الناس أنه إذا صادر أملاك أحد رجاله، أضافها إلى خزائن الدولة^(٣). ومع أن الحاكم كان يؤثر مظاهر البساطة حرصا على مال الدولة، فإنه كثيرا ما يسرف فى العطايا والهبات مما أثار اعتراض بعض وزرائه ورجال دولته^(٤).

وحذا الحاكم حذو أسلافه المعز والعزیز فى الاهتمام برصد النجوم ومعرفة ما وراءها من الأحداث، وصار يشجع الفلكيين والمنجمين ويغدق عليهم المنح والعطايا، وأخذ المنجمون يسيطرون على عقول الكثيرين من الناس حتى اضطّر الحاكم سنة ٤٠٤ هـ إلى إصدار مرسوم بتحريم مهنة التنجيم^(٥). لكنه مع ذلك ظل حريصا على رصد النجوم^(٦)، كما شغف بالتطلع إلى معرفة أخبار رعاياه، ولكى يوهم الناس أنه واقف على حركاتهم، اتخذ جواسيس يطوفون بالأسواق والدور، يرفعون إليه تقاريرهم عما يقع فى نواحي حاضرتهم من الأحداث^(٧).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص ١٦٦.

(٢) المقرئى: خطط ج٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ٢٠٦، المقرئى خطط، ج٢ ص ٥.

(٤) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٢٩.

(٥) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٠٠ - ٢٠٢.

(٦) المقرئى: خطط، ج٢ ص ٢٨٩.

(٧) المكين بن العميد: تاريخ المسلمين، ص ٢٥٩.

وفى الوقت الذى كثر فيه شغف الحاكم بالخروج لزيارة مرصده الذى أقامه بجبل المقطم لرصد النجوم، جاء إلى مصر بعض الفرس، واختلف هؤلاء إلى مجالس الدعوة له، وخرجوا بذلك على تعاليم المعتدلين من الإسماعيلية. وكان أعظم هؤلاء الدعاة تأثيرا فى السنوات الأخيرة من عهد الحاكم: حمزة بن على الزوزنى، وحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى.

كان حمزة بن على فى بادئ أمره عاملا يشتغل بصنع اللباد فى فارس، وقدم إلى مصر سنة ٤٠٥هـ، ثم انضم إلى الدعاة الذين كانوا يتوافدون على دار الحكمة التى أنشأها الحاكم سنة ٣٩٥هـ، وأخذ ينشر سرا الدعوة إلى تأليه الحاكم، ثم جهر بهذه الدعوة سنة ٤٠٨هـ، فاجتمع إليه طائفة من متطرفى الشيعة الإسماعيلية وأولاه الحاكم رعايته حتى إنه كثيرا ما يلتقى به فى القرافة، ويرحب به وبأنصاره أحسن ترحيب^(١).

وكان حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم من أعوان حمزة بن على وقد شجعه على الجهر بتأليه الحاكم سنة ٤٠٩هـ، واستطاع الأخرم بفضل تأييده هذه العقيدة أن يتقرب إلى الحاكم ويكتسب عطفه ورعايته، ولما أعلن حسن الأخرم بجامع عمرو بن العاص أصول دعوة ألوهية الحاكم أثار حديثه غضب السنيين فرفعوا شكواهم إلى القاضى أحمد بن محمد بن أبى العوام بالمسجد، فثار القاضى فى وجه أتباع الأخرم وتبعه فى ذلك الحاضرون، فانقضوا عليهم ثم استقر رأيهم على التخلص من حسن الأخرم الذى تمكن من النجاة بنفسه، فظلوا يتعقبونه حتى تيسر لبعض السنيين القبض عليه وقتله^(٢).

لم تضعف عزيمة أنصار حسن بن حيدرة الفرغانى من متطرفى الإسماعيلية بعد مقتله، فحل محله سنة ٤٠٩هـ الداعى محمد بن إسماعيل الدرزى - وهو أقوى رسل حمزة بن على - وكان من القائلين بألوهية الحاكم. وشرح الدرزى دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها إلى الحاكم، فقربه الحاكم إليه وأجزل له

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ج٣، ص٣٦٥.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٨٣.

العطاء، وجعله محل رعايته وعطفه. كما ارتفعت منزلته عنده، فعهد إليه الإشراف على شئون الدولة «وبلغ منه أعلى المراتب، بحيث إن الوزراء والقواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده»^(١).

أثار إعلان محمد بن إسماعيل الدرزي أصول مذهبه في الجامع الأزهر سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعة، فأخذوا يتعقبونه حتى علموا أنه ملتجئ بقصر الخليفة؛ فذهبوا إلى الحاكم بأمر الله وطالبوه بتسليمه، فظل يماطلهم حتى دبر له سبيل الفرار بعد أن أمدّه بالأموال، وقال له: اخرج إلى الشام وانشر الدعوة في الجبال، فإن أهلها سريعو الانقياد. وسرعان ما رحل محمد بن إسماعيل الدرزي عن مصر ونزل ببعض قرى بانياس^(٢)، وهناك أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، وتمكن بفضل قوة حجته أن يستميل إلى جانبه كثيرا من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية^(٣).

أظهر الخليفة الحاكم استيائه من أهالي الفسطاط الذين جاهروا بتذمرهم من وقوفه موقف التأيد من هؤلاء الدعاة، وعهد إلى جنوده السودانيين بالتنكيل بهم، فأضرموا النيران في أرجاء مدينة الفسطاط. ولما اشتد عسف هؤلاء الجند بأهالي هذه المدينة، اضطر الحاكم إلى إصدار أمره لهم بالتفرق ولزوم السكنية^(٤)، كما اعتذر لأشراف مصر وزعماء الأتراك والمغاربة عما وقع، ولم يكتف بذلك، بل أصدر أمانا لأهالي الفسطاط قرئ على المنابر^(٥).

أكتنف الغموض نهاية حياة الحاكم، فقليل أنه ركب في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) قاصدا جبل المقطم، وأنه لم يعرف بعد ذلك مصيره. وبينما يروى بعض المؤرخين^(٦) أن أخته ست الملك دبرت وقتذاك مؤامرة لقتله لأنه اتهمها في أخلاقها؛ نرى فريقا آخر من المؤرخين يبرئ

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤ ص ١٨٤.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٤. بانياس: بلد صغيرة غربى دمشق.

(٣) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام السياسى ج٣، ص ٣٦٧.

(٤) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 133.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٤، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٤، ص ١٨١ - ١٨٢، ١٩٠.

ست الملك من جريمة قتل أخيها الحاكم، ومن بينهم يحيى بن سعيد الأنطاكي الذي بدأ في كتابة تاريخه سنة ٤٠٥ هـ، إذ تحدث عن مصرع الحاكم دون أن يذكر شيئاً عن صلة أخته بهذا الحادث، ومن ذلك الفريق أيضاً المقرئ^(١) الذي قال إن اتهام ست الملك بقتل أخيها جاءنا من كلام المشاركة، وزاد على ذلك فروى لنا رواية تتلخص في أن رجلاً من إحدى بلاد الصعيد ظهر في سنة ٤١٥ هـ أي بعد اختفاء الحاكم بأربع سنوات وادعى أنه قتل الحاكم.

كان لما أظهره الحاكم في أواخر عصره من ميل كبير إلى إحاطة نفسه بسياج من التقديس رغبة منه في جعل رعاياه طوعاً وإرادته أثره في موقفه من دعاة الفرس، إذ رأى في الدعوة التي نشرها هؤلاء الدعاة ما يساعده على تحقيق هذه الأمنية ويجعله في مقام المهدي الذي يعتقد الإسماعيلية بظهوره في آخر الدنيا ليملأ الأرض عدلاً وأماناً. ومن المحتمل أن يكون الحاكم هداه تفكيره إلى الاعتزال والاختفاء عن أعين الناس ليقضي حياته بعيداً عن الأنظار، وبذلك يعتقد أنصاره أنه سيعود في آخر الزمان في شخص الإمام أو المهدي.

ليس هناك ما يثبت أن الحاكم ذهب في تصرفاته الدينية إلى حد الخروج على قواعد الإسلام على الرغم مما نوه إليه الدعاة في رسائلهم التي أذيع أكثرها بعد اختفائه، وينكر ابن خلدون^(٢) ما قيل عن كفر الحاكم بقوله: «وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك قتل لوقته».

ولم يكن ما ذهب إليه الدعاة من اعتقادهم بغيبة الحاكم ورجعته جديداً بالنسبة لبعض الطوائف الشيعية، فقد بنوا آراءهم على عقيدة متطرفة في الشيعة في المهدي، وأساسها أن العلويين كانوا في عهد الأمويين والعباسيين فئة مظلومة، مضطهدة، لذلك طمعوا في ظهور قائد مخلص يعيد إليهم عهد الأمن والحرية والإخاء، وهذا القائد في نظرهم هو المهدي المنتظر.

(١) خطط ج-٢، ٢٨٩.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر: ج٤، ص ٦٠.

كذلك كانت الحال بالنسبة لعقيدة تأليه الحاكم، فقد استمدت من معتقدات متطرفي الشيعة، فكان بعضهم يعتقد أن عليا وخلفاءه من الأئمة ليسوا بشرا عاديين، فقالت طائفة السبئية^(١) برجة على بن طالب، كما زعمت أنه لم يمت، وأنه مستقر في السحاب، وسينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما^(٢) وغلا فريق من الكيسانية^(٣) في اعتقادهم بإمامة محمد بن الحنفية، وبإحاطته بالعلوم كلها، وأنكروا موته، وقالوا إنه يقيم بجبل رضوى (على مقربة من المدينة)، وأن عودته ستكون من هذا المكان^(٤)، كما كان القرامطة والإسماعيلية ببلاد الفرس يقدسون بعض أحفاد علي ويعتبرونهم حكاما معصومين.

أعلن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد مضي ثلاثة أعوام على وفاة الحاكم براءته من دعوى الألوهية التي قيلت في أبيه وأسلافه، وكان متأثرا في ذلك برغبته الصادقة في تطهير مصر من هذه الفتنة، ولا غرو فقد عرف هذا الخليفة بميله إلى استعمال العنف في مطاردة الخارجين على الدين، فأصدر الأوامر بتتبعهم في سائر البلاد، كما جاهر بإنكار ما ادعاه بعض الناس من تأليه آبائه وهدد بإيقاع الأذى الشديد على كل من تحدّثه نفسه بذلك في رسالة أذاعها على المصريين^(٥).

لم يسهم المصريون في نشر دعوة ألوهية الحاكم، بل كان أغلب القائمين بنشرها من الفرس حيث حاولت بعض الطوائف إحياء نحلها القديمة، واتخذت لها مبادئ كان من أهمها مناوأة سلطان الإسلام السياسي وإعادة مجد الدولة الفارسية مما يحملنا على الظن أن هؤلاء الدعاة الذين وفدوا على مصر وحاولوا نشر دعوة ألوهية الحاكم كانوا ينتمون إلى هذه الطوائف. وقد عمدوا من وراء دعوتهم التي قاموا بنشرها إلى إثارة الفتن والقلق في القاهرة ليمهدوا بذلك للقضاء على الدولة الفاطمية، غير أن محاولتهم سرعان ما باءت بالفشل.

(١) أنصار عبد الله بن سبأ الذي كان يرى أحقية علي بن طالب بالخلافة منذ أيام عثمان بن عفان.

(٢) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل ج-٢، ص ١١.

(٣) عرفت بذلك نسبة إلى كيسان رئيس حرس المختار بن أبي عبيد الثقفي، كما عرفت أيضا بالمختارية، وهي فرقة شيعية كونها المختار من أتباعه.

(٤) البغدادي: الفرق بين الفرق، وحسن إبراهيم: الفاطميون في مصر ص ٣١، ٣٦ الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية.

(٥) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ٢٣٦.

٤ - العناصر الأجنبية وأثر التنافس بينها فى حالة مصر الداخلية :

لما اتخذ الفاطميون مصر مقراً لخلافتهم، وساروا على طريقة العباسيين فى الاعتماد على غير أبناء جنسهم، فصار جيشهم فى عهد المعز يتألف من قبائل كتامة وزويلة وبعض طوائف البربر، ومن الصقالبة^(١). ثم استخدم العزيز الديلم والأتراك. وظل الحال على ذلك إلى أن ولى الحاكم بأمر الله الخلافة، فقرب إليه الكتاميين فى بداية عهده، ثم انحرف عنهم واعتمد فى جيشه على الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين. وحذا حذوه ابنه الظاهر فى الاعتماد على الأتراك فضعف بذلك شأن الكتاميين ثم تلاشى أمرهم فى عهد المستنصر بالله الفاطمى الذى استكثر من الأتراك على حين استكثرت أمه من العبيد حتى بلغ عددهم خمسين ألفاً. وظهر فى أيام هذا الخليفة التنافس والتشاحن بين هاتين الطائفتين مما كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية^(٢).

(أ) المغاربة : قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر وكانوا يدينون بعقائد المذهب الفاطمى. وقد اعتمد الفاطميون على هؤلاء المغاربة وخاصة الكتاميين منهم - وهم عصب الدولة الفاطمية وقوتها فى مصر - ومن رعمائهم أبو محمد الحسن بن عمار الذى ولاه الحاكم بأمر الله الوساطة وخلع عليه سنة ٣٨٦هـ ولقب بأمين الدولة، وبلغ من نفوذه أن ألزم سائر الناس بالترجل له^(٣).

استغل ابن عمار سلطته فى تحقيق مصالح وأطماع الكتاميين، فخصهم ببعض الوظائف وأنفق فيهم الأموال وأعطاهم الخيول، واعتمد على أحداث المغاربة^(٤) ليقضى بذلك على نفوذ الحزب التركى الذى استحدثه العزيز.

وكانت نتيجة هذه السياسة ازدياد جرأة المغاربة، فعاثوا فساداً فى القاهرة ونهبوا المتاجر واشتبكوا مع الأتراك فى بعض المعارك، وتطورت هذه المعارك إلى

(١) انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٩٠.

(٢) المقرئى: خطط، ج٢ ص ١٢.

(٣) المقرئى: خطط، ج٢ ص ٢٦.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر. ص ٥٥.

قتال بين الفريقين، وانتهى الأمر بهزيمة المغاربة^(١)، وقد ضعف نفوذ الكتامين منذ ذلك الوقت حتى صاروا من جملة الرعية فى عهد المستنصر بالله الفاطمى بعد أن كانوا من أكابر رجال الدولة.

(ب) السودانيون : بدأ ظهورهم فى مصر منذ أيام كافور الإخشيدي، وكانوا يجلبون من الجنوب كجنود مرتزقة، ولم يعتمد كل من المعز والعزى إلى استخدامهم فى الجيش، وإنما استعان بهم الحاكم بأمر الله ضد المصريين السنيين بالفسطاط، فهاجموا أرجاء تلك المدينة واقتحموا بيوتها وحماماتها ونهبوا أسواقها^(٢)، ثم ازداد خطرهم على أمن الدولة فى عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، فثاروا بتأسيس سنة ٤١٥هـ مطالبين بأرزاقهم، وعاثوا فى البلد وسلبوا ما فى خزائنها من مال، فبعث إليهم الوزير الفاطمى نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائى من قبض على الجناة، وأخضع ثورتهم^(٣).

(ج) الأتراك : ظهر أمرهم فى عهد العزيز بعد أن استكثر منهم، وقربهم إليه، وأصبحوا منذ ذلك الوقت عنصرا هاما فى الجيش الفاطمى. وقد ثار الجند الأتراك فى عهد الحاكم حين أبطل ابن عمار أعطياتهم وبالغ فى محاباة المغاربة، كما حاصر هؤلاء الجند قصر هذا الخليفة حين بلغهم أن محمد بن إسماعيل الدرزى لجأ إليه، وطالبوه بتسليمه، فاضطر الحاكم أن يخبرهم بنفسه أنه ليس موجودا بقصره^(٤)، وكان قد سهل له سبيل الفرار إلى بلاد الشام.

واجه الأتراك منافسة شديدة من السودانيين فى عهد المستنصر، فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة، وقف منها الجند المغاربة إلى جانب الأتراك، فأوقعوا الهزيمة بالسودانيين رغم المساعدات التى قدمتها لهم أم المستنصر، واستقر خمسة عشر ألفا منهم فى الصعيد حيث عاثوا فى البلاد فسادا، وأخذوا يشنون هجمات متتالية عن طريق البر والنهر على القاهرة رغبة فى الاستيلاء عليها وطرد الأتراك منها.

(١) المقرئى: خطط، جـ ٢ ص ٣٦، ٣٧.

(٢) انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨١ - ١٨٢.

(٣) المقرئى: خطط، جـ ١ ص ١٨١.

(٤) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 132-133.

كان يتولى قيادة الأتراك فى أوائل عهد المستنصر ناصر الدين الحسين بن حمدان التغلبى، وقد ازداد نفوذهم فى القاهرة بعد طرد السودانين إلى الصعيد، وسرعان ما استفحل أمرهم وأخذوا يطالبون الخليفة بزيادة مرتباتهم سنة ٤٦٠هـ، فزاد فى أعطياتهم حتى بلغت أربعمئة ألف دينار فى كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألف دينار.

لم يقنع جند الأتراك بالمرتبات التى قررها لهم المستنصر، بل ألحوا فى زيادة مخصصاتهم، ولما أظهر عجزه عن تلبية طلباتهم لقلّة إيرادات الدولة ألزموه ببيع ذخائره، فأخرجها إليهم وقوموها على أنفسهم بأبخس الأثمان^(١).

واصل ناصر الدولة بن حمدان سياسته فى محاربة العبيد، فسار على رأس جماعة من الأتراك إلى الصعيد لتحقيق هذه الغاية، واشتبك معهم فى قتال عنيف قضى فيه على كثير منهم.

لم يكد يفرغ ناصر الدولة بن حمدان من التغلب على السودانين حتى كشف القناع عن غرضه الأسمى، فجاهر بالإساءة للمستنصر، واستبد بالأمور دون الأتراك، كما استأثر بأموالهم، وكان ذلك مما جعلهم يسعون إلى الخلاص منه، فرفعوا شكاياتهم من تصرفاته إلى خطير الملك وزير المستنصر، ولما تحقق هذا الوزير من صدق قولهم لامهم على انضمامهم إليه أول الأمر، وحسن لهم الخروج عليه ومناهضته، ثم توجهوا إلى المستنصر وأظهروا له استيائهم من ناصر الدولة، كما طلبوا منه أن يخرجهم من الديار المصرية، فبعث إليه المستنصر يأمره بالرحيل عن مصر ويهدده بإلحاق الأذى به إن امتنع عن الخروج منها، فسار ناصر الدولة إلى الجيزة، ثم عاد بعد قليل إلى دار القائد تاج الملوك شاذى بالقاهرة وقدم له فروض الطاعة، وطلب منه أن يعاونه على التخلص من خطير الملك وإلذكر - أحد أمراء الأتراك - لاعتقاده أنهما كانا السبب فى حمل الأتراك على مناهضته واضطهاد المستنصر له، فوعده تاج الملوك بتنفيذ رغبته، وما لبث أن تمكن من قتل الوزير خطير الملك، أما إلذكر فقد التجأ بقصر المستنصر واستجار به، وأخذ يحرضه على

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ١٧.

قتال ناصر الدولة، فلقى هذا القول قبولا من الخليفة، وخرج على رأس فريق كبير من جنده وألحق بناصر الدولة هزيمة ساحقة فمضى منهزما فى نفر قليل من أصحابه إلى البحيرة حيث انضم إليه فريق من الأعراب^(١).

على الرغم من أن الخليفة المستنصر أظهر بعض الجرأة خلال هذه الاضطرابات، وتمكن من هزيمة ناصر الدولة بفضل مساعدة بعض الجند الذين كانوا لا يزالون على ولائهم له، إلا أن سلطته لم تعد تتعدى فى الواقع حدود عاصمته، فبينما كان الجند السودانيون يثيرون الاضطرابات فى الوجه القبلى، كان نحو من أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب تحت زعامة ناصر الدولة يغيرون على الوجه البحرى وينهبون بلاده ويحطمون الجسور والقنوات مما ترتب عليه انقطاع المؤن والإمدادات عن القاهرة والفسطاط^(٢). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن ناصر الدولة بعث سنة ٤٦٢هـ إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من قبله يسأله أن يرسل إليه عسكريا ليقم الدعوة العباسية على أن تثول إليه السيادة على مصر فرحب ألب أرسلان بذلك، غير أنه ما لبث أن شغل بحاربة الروم عن المسير إلى دمشق ثم مصر^(٣).

ولما بلغ المستنصر أن ناصر الدولة أرسل إلى ألب أرسلان يستدعيه إلى الديار المصرية، جهز إليه جندا من الأتراك لمحاربتة بالبحيرة، فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة، وغنم منهم مغانم كثيرة، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الإسكندرية ودمياط وجميع أنحاء الوجه البحرى وحال دون وصول الأقوات إلى القاهرة ومصر^(٤).

وكان مما زاد الحالة سوءا تلك المجاعة التى بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧هـ، واستمرت سبع سنين، فقلت الأقوات بالقاهرة ومصر، وغلت الأسعار، فبلغ ثمن الرغيف من الخبز الذى زنته رطل أربعة عشر درهما، وأردب القمح

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ١٩.

(٢) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 146.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ١٩ - ٢٠.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٢٠ والمقرئى: خطط ج ١ ص ٣٣٦.

ثمانين دينارا^(١) والبيضة الواحدة دينارا، وأصبح المنزل يباع مقابل عشرين مكيالا من القمح، وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل معانة الفقراء تماما^(٢)، واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة مصر والرحيل إلى بلاد الشام والعراق^(٣).

رأى الجند الأتراك بعد ما حل بهم وبالخليفة المستنصر من الشدائد بسبب المجاعة أن يصلحوا ابن حمدان على أن يظل مقيما بالبحيرة ويحمل إليه مبلغ مقرر من المال، ويكون تاج الملوك شاذى نائبا عنه، فرضى بذلك، وأرسل الغلال إلى القاهرة ومصر، مما أدى إلى توافر القوت الضروري للأهالي^(٤).

على أن تاج الملوك شاذى سرعان ما نقض هذا الصلح واستبد بالأمر في القاهرة وصار لا يرسل لابن حمدان إلا القليل من الأموال. فاستاء من ذلك ابن حمدان وسار في جموع العربان إلى الجيزة حيث تمكن من القبض على شاذى، كما أطلق لجنده العنان في الفسطاط، فنهبوا دورها وأشعلوا النيران فيها، ولما استفحل أمرهم عول المستنصر على محاربتهم، فأنفذ إليهم فريقا من جنده، ودارت بين الفريقين عدة معارك انتهى الأمر فيها بهزيمة أتباع ابن حمدان وفرارهم إلى البحيرة.

ظل ناصر الدولة ابن حمدان - على الرغم من الهزيمة التي لحقت به - يعمل على إضعاف شأن الخليفة الفاطمي والاستئثار بالحكم، فحذف في سنة ٤٦٤هـ اسم المستنصر من الخطبة في الوجه البحري، وبعث إلى الخليفة القائم العباسي ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم إلى الفسطاط على رأس جيش كبير وتولى الحكم فيها، وأرسل إلى المستنصر يطلب منه الأموال. «وكان إذ ذاك قد امتنع بقصره^(٥)».

(١) انظر: المقرئى خطط جـ ١ ص ٣٣٧.

(٢) انظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ ١٥ ص ١٧.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 146-147.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٢٠.

(٥) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٢١.

(٥) المقرئى: خطط، جـ ١ ص ٣٣٧.

كانت حالة المستنصر حين وفد إليه رسول ناصر الدولة تنبئ بزوال أبهة الخلافة عنه، فلما علم بذلك ناصر الدولة أطلق للخليفة مائة دينار كل شهر وتولى الحكم فى القاهرة، وأظهر ميله إلى مذهب أهل السنة، واضطر كثير من أقارب المستنصر وأولاده إلى النزوح إلى المغرب والعراق^(١).

خشى الأتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمر فى القاهرة وإقامته الدعوة العباسية وعمله على إزالة خلافة الفاطميين، فاجتمع بهم إلذكر وبلدكوز وأعلماهم أنه إن تم لناصر الدولة تحقيق ما يريد سيقتضى عليهم؛ ومن ثم اتفقوا على تدبير مؤامرة لقتله، فركب إلى داره فريق منهم ذات ليلة وانقضوا عليه بسيوفهم، ولم يكتفوا بذلك، بل تتبعوا كل أفراد أسرة بنى حمدان بمصر وتخلصوا منهم^(٢).

(د) الأرمن: لم تنته الفوضى والاضطرابات التى انتابت مصر بقتل ناصر الدولة بن حمدان، بل سرعان ما ازداد نفوذ إلذكر وأتباعه من الأتراك واستبدوا بالأمر دون المستنصر حتى ضاق بهم ذرعا واضطر سنة ٤٦٦هـ أن يبعث إلى بدر الجمالى^(٣) وإلى عكا يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شئون دولته وإصلاح ما فسد من أمور مصر، فاشتراط أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام ليستعاض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر فوافق المستنصر على طلبه.

ولما أتم بدر الجمالى إعداد عدته للرحيل إلى مصر، أبحر من عكا ومعه جند كثير من الأرمن وغيرهم، غير مبال بأخطار البحر فى فصل الشتاء ونزل مع جنده بدمياط، فاقترض من تجارها بعض المال، ثم تابع سيره حتى وصل قليوب؛ وهناك بعث إلى المستنصر يقول له إنه لن يدخل القاهرة إلا بعد قتل بلدكوز - أحد أمراء الأتراك - فوافقه الخليفة على مطلبه^(٤).

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٢١.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٢.

(٣) كان بدر الجمالى مملوكا أرمنيا للأمير جمال الدولة بن عمار، ثم أخذ يترقى فى المناصب لما أظهره من كفاية خلال الحروب التى قامت فى بلاد الشام حتى ولى إمارة دمشق من قبل المستنصر سنة ٤٥٦هـ وأخذ يحارب الأتراك فى تلك البلاد ولم يلبث أن أصبح من أقوى قوادها، ثم تقلد نيابة عكا سنة ٤٦٠هـ (المقريزى: خطط ج ١ ص ٣٨١).

(٤) المقريزى: خطط، ج ١، ص ٣٨١.

ولما دخل بدر الجمالى مدينة القاهرة على رأس جنده الأرمن، استقبله الجند الأتراك استقبالا وديا لأنهم لا يعلمون شيئا عن نواياه نحوهم، وما لبث أن دبر مؤامرة للتخلص من قوادهم، فعين لكل واحد من ضباطه الأرمن أحد القواد الأتراك ليقتله خلال الليل، ولم يكد يشرق صباح اليوم التالى حتى تقدم ضباطه حاملين رموس قواد الأتراك الذين عهد إليهم بقتلهم^(١). وبذلك تمهدت له الأمور.

رحب الخليفة المستنصر بقدوم بدر الجمالى، وبلغ من تقديره لكفايته أنه حين شرع فى العمل على توطيد الأمن وإصلاح حال البلاد خلع عليه بعقد من الأحجار الكريمة وقلده وزارة السيف والقلم، كما زاد فى ألقابه السيد الأجل أمير الجيش كافل قضاة المسلمين وداعى المؤمنين^(٢).

كان يحيط ببدر الجمالى جنده الأرمن الذين عرفوا بالمشاركة تمييزا لهم عن الأتراك والبربر والسودان^(٣). وقد تفانوا فى الإخلاص له، واحتفظ الكثيرون منهم بديانتهم المسيحية؛ وكان يرافقهم «بطريق» خاص بهم، ولم يظهر هؤلاء الأرمن تدمرا من البقاء فى مصر، بل آثروا الإقامة بوطنهم الجديد على العودة إلى بلادهم لتعذر حصولهم فيها على مقومات الحياة.

اتخذ بدر الجمالى مقرا له بحارة برجوان بالقاهرة^(٤)، وعول على إعادة الأمن والسكينة إلى العاصمة واستعادة كل ما يمكن أن تصل إليه يده من كنوز الخليفة التى نهبت من قصره. وعندما فرغ بدر الجمالى من إعادة الأمور إلى نصابها فى العاصمة والفسطاط بدأ يوجه عنايته إلى بقية الأقاليم، فاتجه أولا نحو الوجه البحرى، فأخضع بنى لواتة، كما توجه إلى دمياط وقتل جماعة المفسدين، ثم سار إلى الصعيد، سنة ٤٦٩هـ حيث كان الجند السودانيون وجماعة من عرب جهينة والشعالة والجعافرة، فانقض عليهم فجأة وأفنى أكثرهم، وغنم منهم كثيرا من الغنائم^(٥)، وأعاد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلى حتى أسوان^(٦).

(١) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 150-151.

(٢) المقرئى: خطط، ج١، ص ٣٨٢.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 150.

(٤) المقرئى: خطط، ج١، ص ٤٦١.

(٥) المقرئى: خطط، ج١، ص ٣٨٢.

(٦) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 151.

لم تكن الحالة بالإسكندرية أحسن منها في غيرها من المدن المصرية، فقد ثار بها سنة ٤٧٧هـ الأوحـد على أبيه بدر الجمالي، والتف حوله جماعة من الأعراب، فسار إليه أبوه وقبض عليه، كما قتل فريقاً من أتباعه، ولم يكتف بذلك، بل صادر كثيراً من أموال أهالي الإسكندرية، وأنفق منها على بناء جامع العطارين^(١) الذي ظلت تقام به الخطبة إلى أن استبد صلاح الدين بالأمور في مصر.

استطاع بدر الجمالي بعزمه ومهارته أن يعيد إلى البلاد المصرية ما كانت تتمتع به من رخاء قبل الشدة العظمى التي حلت بها واستمرت سبع سنوات (٤٥٧ - ٤٦٤هـ)، فزاد خراج مصر في أيامه من ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار إلى ٣,١٠٠,٠٠٠ دينار. وعاد الفلاحون إلى الأرض يزرعونها وتحسنت أحوالهم بعد أن رفع عن كاهلهم بعض الأعباء المالية^(٢).

على أن الأمر الذي يسترعى النظر في سياسة بدر الجمالي في مصر أنه انتهز فرصة استبداده بالسلطة في أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمي، ومهد لابنه الأفضل الاستيلاء على مقاليد الأمور في الدولة، فجعله ولي عهده، ولما توفي بدر الجمالي في جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ، وهو في الثمانين من عمره، خلفه ابنه الأفضل شاهنشاه في الوزارة، وظل المستنصر في عهد وزارته كالمحجور عليه إلى أن توفي في ١٧ ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ^(٣).

(٥) المقرئى: خطط، ج١، ص ٣٨٢

(٢) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp.151..

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٣٠.

(٤) المقرئى: خطط، ج١، ص ٣٥٦، ٣٨٢.

الباب الخامس

عصر نفوذ الوزراء الفاطميين

١ - ازدياد سلطة الوزراء في العصر الفاطمي الثاني.

٢ - زوال الخلافة الفاطمية.

١ - ازدياد سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى :

أخذ نفوذ الوزراء فى الازدياد منذ أواخر عهد المستنصر بالله، وبدأ ذلك باستئثار بدر الجمالى بالسلطة دون الخليفة، وتغالى ابنه الأفضل فى اغتصاب حقوق هذا الخليفة، بل أقدم بعد وفاته سنة ٤٧٨هـ على إقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن العرش، وبايع أخاه الصغير الأمير أبا القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ وكانت أم المستعلى هذا ابنة بدر الجمالى وأخت الأفضل، لذلك كان بدر يحبذ تعيينه خليفة بعد أبيه، كما حرص ابنه الأفضل على تحقيق هذه الأمنية حين أراد المستنصر قبيل وفاته أخذ البيعة لابنه نزار على رجال الدولة فتقاعد الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات^(١). وكان الأفضل يعتقد أن نزارا إذا ولى الخلافة حال بينه وبين مناصب الدولة، على حين كان أبو القاسم أحمد صغير السن، ففى استطاعته إذا ما ولاه الخلافة أن يصبح مطلق التصرف فى شئون الدولة.

أدى إقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها إلى اضطراب الأمور فى بعض البلاد المصرية؛ فخرج أهل الإسكندرية على طاعة الخليفة الفاطمى الجديد وانحازوا إلى نزار بعد أن قدم إليهم مع أخيه عبد الله وبايعوه بالخلافة ولقبوه المصطفى لدين الله، كما رحب به واليها ناصر الدولة أفتكين.

لما وصل إلى الأفضل بن بدر الجمالى نبأ هذه الفتنة التى أثارها نزار سار إلى الإسكندرية على رأس حملة، وهناك دارت معركة بينه وبين واليها ناصر الدولة أفتكين الذى وعده نزار بالوزارة إن ظفر هو بالخلافة، غير أن المعركة انتهت بهزيمة الأفضل وارتداده إلى القاهرة حيث أعد حملة جديدة فى أوائل سنة ٤٨٨هـ، حاصر بها الإسكندرية مدة سبعة أشهر، ارتكب فى أثناءها كثيرا من ضروب القسوة والقتل، حتى اضطر كل من أفتكين ونزار إلى طلب الأمان؛ فأمنهما الأفضل ثم أمر بإنفاذهما إلى القاهرة حيث نكل بهما^(٢).

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٣٥.

(٢) ابن ميسر: تاريخ المستنصر، ص ٣٦ - ٣٧.

ويتبين لنا من الرسالة التى بعث بها الخليفة المستعلى فى صفر سنة ٤٨٩هـ إلى الملكة الحرة السيدة أروى الصليحية - وكانت تتولى إذ ذاك شئون اليمن - الظروف التى قامت فيها ثورة نزار وتغلب الأفضل بن بدر الجمالى عليه. وقد جاء فيها^(١): «من عبد الله ووليه أحمد بن أبى القاسم الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين بن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة السيدة السديدة . . . ولى أمير المؤمنين . . . قد علمت ما كان صدر إليك من حضرة أمير المؤمنين عندما أصاره الله تعالى إليه من إرث خلافته . . . وذلك بالنص الذى كان من مولانا الإمام المستنصر بالله . . . وإن البيعة انتظمت لأمر المؤمنين على أجمل القضايا والأسباب، ودخل الناس فيها من كل باب، بحسن سياسة فتاه وخليله السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضية المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . . . وكان الأمراء إخوة أمير المؤمنين أول من دخلوا فى البيعة مسارعين وانقادوا لأحكامها طائعين. ومن جملتهم نزار وهو الأخ الأكبر سنا . . . ثم إن الشيطان استزله واستغواه . . . ففارق جناب أمير المؤمنين وسار منه متوغلا فى القفار، راكبا الأخطار حتى وصل إلى الإسكندرية وفيها أفتكين - أحد عمالك السيد الأجل أمير الجيوش . . . فقابل هذا العبد العاق . . . نعم مواليه بالكفر . . . ووافق نزارا على ما سعى إليه من الفساد . . . فتقدم أمير المؤمنين إلى فتاه الأمين . . . بأن يكاتبهم معذرا وزاجرا . . . وهم على غلوائهم متمادون . . . إلى أن حملهم العدوان على البروز عن الإسكندرية فيمن انضم إليهم من ليف الأجناد وطوائف العربان والمغاربة والسودان . . . فصدمهم صدمة تززع منها أركان الجبال . . . ولما يسر الله تعالى مفتتح هذا النصر . . . أذن أمير المؤمنين لفتاه السيد الأجل باتباعهم . . . فتوجه يقتص آثارهم . . . واختلف الطعن والضرب حتى خاضت الخيل فى بحر من الدماء . . . ، وكان المخاذيل فى هذه النوبة قد تجمعوا من كل فج وواد، فزادت عدتهم على ثلاثين ألف فارس وراجل، فرمى الله جمعهم بالحتف العاجل . . . وكان الفتح فى هذه الوقعة مثل ما تقدمه بحملات واصلها السيد الأجل بنفسه وغلماؤه . . . فلم تزل السيوف تتحكم فيهم إلى أن سترتهم الظلماء، وقتل وأسر منهم ألوف كثيرة . . . وتوجه نحوهم حتى نزل على البلدة فى خيامه . . .

(١) انظر السجلات المستنصرية رقم ٤٣، ص ١٤٥ - ١٥١.

فحصرها برا وبحرا . . وحضر شهر الصوم فأخر مناجزتهم حفظا لحرمة الشهر الشريف . . . فلما انقضى (هذا الشهر) ولم تنقض غوايتهم وبغيتهم . . رماهم بحجارة المنجنيقات . . فلم تمض إلا أيام قلائل حتى تداعى الحصن من سائر أركانه، فتهافت الرجال مستأمنين وبالعفو لائذين . . . فأيقن أفتكين اللعين انقضاء مدته . . فخرج بغير عهد ولا عقد يتعلق به، ووقف بين يدى مولاه ملتحفاً ثوب الذل والهوان . . فأضرب عنه صفحا . . وتوفر على المهم من الحوطة على نزار، وحفظ الثغر من عوادى النهب والأضرار . . وتنزه عن معالجة ذلك اللعين بالجزاء على ذميم أفعاله، وألقاه فى جانب الاطراح والإذلال إلى أن يأمره أمير المؤمنين بما يرشد بامثاله . . .».

لم يقتصر الأثر الذى أحدثه إقصاء نزار عن الخلافة وقتله على ظهور فريق من الناس يتشيع له بمصر، بل دعا إلى إمامته بعض أهالى بلاد الفرس من الإسماعيلية الذين كانوا يدعون إلى انتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل وبنيه من بعده. وقد بدأ نشاط هذه الطائفة فى بلاد الفرس منذ لجأ محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق إلى دوماوند (قرب الرى) بسبب ما تعرض له العلويون من اضطهاد على يد خلفاء العصر العباسى الأول كما ظهر له أتباع فى بلاد الشام.

تجلت قوة طائفة الإسماعيلية فى بلدة ساوة (بين الرى وهمدان) فى أيام السلطان ملكشاه السلجوقى، وما زال نفوذهم فى ازدياد حتى استولوا على أصبهان ونشروا بها دعوتهم فى عهد زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش. وكان من تلامذته الحسن بن الصباح الذى تقلد رئاسة الدعوة الإسماعيلية فى أصبهان، ثم رحل إلى مصر ليتعمق فى دراسة المذهب الإسماعيلى فى دار الحكمة وفى غيرها من مجالس الدعوة بالقاهرة.

حدث فى أثناء وجود الحسن بن الصباح بالقاهرة أن عين الخليفة المستنصر ابنه الأكبر نزارا ولى عهد. وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار الإمامة بعد أبيه المستنصر تتفق مع تعاليم الإسماعيلية التى تشترط فى الإمام أن يكون أكبر أبناء أبيه. وهذا على خلاف ما رأى بدر الجمالى وابنه الأفضل. ويروى بعض

الكتاب^(١) أن الحسن بن الصباح سأل الخليفة المستنصر يوماً عن ولى عهده بقوله: من الإمام بعدك؟ فقال له: ولدى نزار. غير أن فريقاً آخر^(٢) يذكر أن الحسن بن الصباح لم يحظ فى أثناء إقامته بالقاهرة بمقابلة المستنصر، وأن الخليفة ولى ابنه الصغير أحمد العهد تحت تأثير بدر الجمالى.

أدى الخلاف بين الحسن بن الصباح وبدر الجمالى بشأن ولاية العهد إلى نزاع داخلى، إذ رأى بدر فى وجود الحسن بن الصباح بالقاهرة خطراً يهدد كيانه؛ فأخذ يكيد له ثم رجه فى السجن بمدينة دمياط، ولم يكتف بدر الجمالى بذلك؛ بل عول على إخراجه إلى بلاد المغرب؛ غير أن الريح قذفت بالسفينة التى أبحر عليها من الإسكندرية فى رجب سنة ٤٧٢هـ إلى سواحل الشام، فنزل بثغر عكا وقصد منها إلى حلب فبغداد، ثم اتجه إلى خورستان - وكانت إذ ذاك مركزاً هاماً للإسماعيلية ثم سار الحسن بن الصباح إلى أصبهان حيث أخذ ينادى بإمامة المستنصر وابنه نزار من بعده، ولذلك عرف هو وأتباعه بالنزارية.

ولما توفى المستنصر سنة ٤٨٧هـ، وخلفه ابنه المستعلى، أذاع الحسن بن الصباح بين أنصاره أن المستعلى اغتصب الخلافة والإمامة من نزار؛ وبذل قصارى جهده فى الرد على حجج طائفة المستعلية بمصر، فزود مكاتب قلاع الإسماعيلية ببلاد الفرس بالمؤلفات الكثيرة التى تثبت صحة إمامة نزار وبطلان إمامة المستعلى^(٣).

أما عن الحالة الداخلية فى مصر بعد القضاء على الفتنة التى أثارها نزار فإن الأفضل بن بدر الجمالى قبض على شئون الحكم فى البلاد، واستبد بالسلطة دون المستعلى، ومن ثم دخلت مصر فى عهد نفوذ الوزراء، وصار وزير السيف - كما يقول المقرئى^(٤) - «هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية، وهو الذى يولى المناصب الديوانية والدينية»، كما خلع عليه منذ ذلك الحين بالعقد المنظوم بالجواهر، وزيد له

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٣٧، وابن خلدون: ج ٤ - ص ٦٦.

(٢) Dozy, Essai sur l'Isamisme, p. 301.

(٣) طه شرف: دولة النزارية، ص ٢١٢.

(٤) خطط، ج ١، ص ٤٤٠.

فى ربه الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور وهو زى قاضى القضاة، وغدا يتقلد السيف إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام^(١).

بلغ من نفوذ الأفضل أنه لما توفى المستعلى سنة ٤٩٥هـ أحضر ابنه أبا على وبايعة بالخلافة وأقامه مكان أبيه ولقبه بالأمير بأحكام الله، وعمره وقتذاك خمس سنين^(٢). ويتضح علو شأن الوزير الأفضل ومكانته فى الدولة من سجل تولية الأمر الخلافة الذى جاء فيه^(٣): «... وقد كان الإمام المستعلى - قدس الله روحه - عند نقلته جعل لى عقد الخلافة من بعده، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده وعهد إلى أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والإحسان...، وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرتهم المرضية.

وكان مما ألقاه إلى وأوجه على أن أعلى محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم، وما يحب له من التبجيل والتكريم، وأن الإمام المستنصر بالله كان عندما عهد إليه (إلى المستعلى)، ونص بالخلافة عليه، وأوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل خليفة وخليلا، ويجعله للإمامة زعيما وكفيلا... ويفوض إليه تدبير ما وراء السرير، وأنه عمل بهذه الوصية... وأسند إليه أحوال العساكر والرعية، وناط أمر الكافة بعزمته الماضية وهمته العلية...، فأوصانى أن أجعله لى - كما كان له - صفيا وظهيراً، وألا أستر عنه من الأمور صغيراً ولا كبيراً، وأن أقتدى به فى رد الأحوال إلى تكلفه، وإسناد الأمور إلى تدبيره...».

استغل الأفضل بن بدر الجمالى سلطته فى عهد الأمر، فلم يعن بالاحتفاظ برسوم الفاطميين الدينية، بل أخذ يميل ميل السنين، وقد تجلت هذه الظاهرة فى إلغائه الاحتفال بمولد النبى ﷺ ومولد ابنته فاطمة وعلى - رضى الله عنهما - ومولد الخليفة القائم بالأمر، ولا يخفى علينا أن عمله هذا يؤدى إلى إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم إلى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام.

(١) المقرئى: خطط ج-٢، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٤٠.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة، ج-٢ ص ١٤ - ١٧.

انظر: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٨٣ - ١٩٠.

على أن الخليفة الأمر الذي ضعفت سلطته كثيرا بتدخل الأفضل لم يلبث بعد أن بلغ سن الرشد أن شعر بالحاجة إلى التخلص من وزيره؛ فأوعز إلى أبي عبد الله محمد بن البطائحي - أحد خواص الوزير - بتدبير مؤامرة لاغتياله؛ فقتل الأفضل وخلفه ابن البطائحي في الوزارة سنة ٥١٥هـ^(١).

كذلك حرص الأمر على أن يخلفه أحد أولاده، فلما رزق طفلا في ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ، سماه أبا القاسم الطيب واحتفل بإعلان البشري بولايته وتوليته الإمامة من بعده^(٢)؛ غير أن هذا الخليفة سرعان ما قتل بتدبير فريق من النزارية^(٣) في اليوم الرابع عشر من شهر ذي القعدة من هذه السنة، فقبض على زمام السلطة بعض رجال الجيش، ووقع اختياريهم على الأمير أبي الميمون عبد المجيد ابن عم الأمر ليلي أمور الخلافة؛ فأخفى أمر الإمام الطيب، وباعه الناس بولاية العهد ولقب الحافظ لدين الله، وأقيم كفيلا لحمل منتظر لأن الأمر لما مات ترك إحدى زوجاته حاملا^(٤).

على أن الأمير عبد المجيد لم تتح له الفرصة للاحتفاظ بسلطته في الدولة بسبب ثورة الجند عليه وتوليتهم قائدا يدعى أبا على أحمد بن الأفضل الوزارة. فبدأ هذا الوزير عمله بمنع الحافظ من التصرف في شئون الدولة، كما سجنه في خزانة؛ وصار لا يسمح لأحد بزيارته إلا بإذنه^(٥)، وأمر الخطباء بحذف اسمه من الخطبة، واستولى الوزير على جميع ما في قصر الحافظ من الذخائر والأموال زاعما أن ذلك كان لأبيه؛ واستأثر منذ ذلك الوقت بالسلطة والنفوذ.

لم يكن الوزير أبو على أحمد بن الأفضل إسماعيلي المذهب، بل كان إماميا؛ لهذا شرع على أثر توليته الوزارة في اتخاذ إجراءات غايتها إظهار مذهب الإمامية وإضعاف مذهب الإسماعيلية، فأمر بإسقاط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق - الذي تنتسب إليه الإسماعيلية - من الخطبة والدعاء لمحمد المنتظر الإمام

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٧٢.

(٣) كان لا يزال للنزارية أعوان في مصر، يرون أن الأمر وأباه المستعلى وليا الخلافة دون حق.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٧٤، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ٢٤٠ - ٢٤١.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٤٠.

الثاني عشر عند طائفة الإمامية، وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الإمام المنتظر ونقش عليها «الله الصمد، الإمام محمد» كما أبطل من الأذان «حى على خير العمل»، وقولهم: «محمد وعلى خير البشر»، واختار لنفسه ألقابا يقرن بها اسمه فى الخطبة، وهى «السيد الأجل الأفضل، مالك أصحاب الدول، المحامى عن حوزة الدين، ناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره، والقائم فى نصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتديره، أمين الله على عباده، وهادى القضاة إلى اتباع شرح الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم»^(١).

كذلك أمعن الوزير أبو على أحمد بن الأفضل فى إضعاف المذهب الإسماعيلى بأن عين سنة ٥٢٥هـ أربعة قضاة: اثنين من الشيعة، أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى؛ واثنين من السنين، أحدهما شافعى والآخر مالكى، وأعطى لكل منهم السلطة فى إصدار أحكامه وفق مذهبه، وقد علق المقرئى على هذا النظام بقوله: «ولم يسمع بمثل هذا فى الملة الإسلامية قبل ذلك»^(٢).

وعلى الرغم من أن الوزير أبا على أحمد بن الأفضل قد استقل بحكم البلاد، فإنه كان يرى أن بقاءه فى منصبه مستأثرا بالسلطة يتوقف إلى حد كبير على من يلى أمر الخلافة بعد أن أبعد الحافظ وشدد عليه الرقابة فى سجنه. وكان أهم ما يشغله ذلك المولود الذى وضعته إحدى نساء الأمر، وقد اختلفت أقوال المؤرخين فى شأنه، فبينما يذكر البعض^(٣) أن المرأة التى تركها الأمر حاملا وضعت أنثى. يشير البعض الآخر^(٤) إلى أن المولود كان ذكرا، وأن أمه أخفته فى القرافة خوفا على حياته من الطامعين فى الخلافة، وظل الوزير أبو على أحمد يضيق الخناق على أهل القصر الفاطمى لعله يصل من وراء ذلك لمن قتلهم الخليفة الأمر من إخوته ورغبة فى التخلص من وريث شرعى للخلافة، غير أنه لم يتمكن من العثور عليه.

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٧٥.

(٢) انظر: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٩٠.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٣٨.

(٤) انظر: مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٤٩ - ٩٥.

لم يتمتع الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل طويلا بالحكم، إذ كان لسياسته التي تنطوي على مناهضة المذهب الإسماعيلي أسوأ الأثر في نفوس الإسماعيلية فكونوا معارضة قوية ضده بزعامة الأمير أبي الفتح ناصر الجيوش يانس^(١) الأرمني، وتآمروا على اغتياله، فكمن له جماعة منهم وقتلوه سنة ٥٢٦هـ بعد أن ظل مستأثرا بالسلطة سنة وشهرا، وأخرجوا الحافظ من سجنه، وبذلك قضى بالفشل على محاولة نشر مذهب الإمامية في مصر، واستعاد المذهب الإسماعيلي مكانته، واعتبر اليوم الذي أطلق فيه سراح الحافظ وأعيد إلى الحكم عيداً عرف بعيد النصر، وظل الفاطميون يحتفلون به إلى أن زالت دولتهم.

لم يكن للحافظ حق شرعي في الخلافة، ذلك أنه لم يكن ابناً للأمير، وإنما ابن عمه، فلما أطلق سراحه بعد مقتل الوزير أبي علي أحمد بن الأفضل، رأى رجال الدولة في مصر أن يعيدوه ولياً للعهد وكفيلاً لولد الأمر الذي لم يعرف مقره^(٢).

على أن الحافظ كان يطمع في الاستقلال بالخلافة، ومن ثم أمعن في البحث عن ولد الأمر، فلما اهتدى إلى محل إقامته - بعد شهرين من عودته ولياً للعهد - أسرع إلى التخلص منه، ثم أعلن نفسه خليفة، وقرئ سجل بإمامته في ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ، وأمر الحافظ بأن يدعى له من المنابر بهذه العبارة: «اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت به الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا إمام عصرنا ورمضاننا عبد المجيد أبي ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين»^(٣).

اتخذ الحافظ بعد أن استقرت له الخلافة الأمير يانس الأرمني وزيراً له، غير أن وزارته لم يطل أمدتها، فقد توفي بعد تسعة أشهر، وتولى الحافظ أمور الدولة بنفسه، فلم يستوزر أحداً، وظل منصب الوزارة شاغراً حتى طمع فيه بهرام

(١) يانس هذا مولى أرمني، أهدى إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وترقى في خدمته إلى أن أصبح أميراً. (انظر: المقرئ، خطط ج٢، ص ١٧).

(٢) المقرئ، خطط، ج٢، ص ٣٥٧، مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٩٨.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٧٤ - ٧٥.

الأرمني والى الغربية، فقدم إلى القاهرة فى شهر جمادى الثانية سنة ٥٢٩هـ، وحاصرها يوما فاضطر الحافظ إلى توليته الوزارة على الرغم من عدم دخوله الإسلام.

لم يكثرث بهرام بما أظهره الناس من السخط عليه، بل تغالى فى التحيز لبنى جنسه، فبعث فى طلب كثير من الأرمن إلى مصر حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفا بعد زمن قصير. وكانت سياسة هؤلاء للمسلمين فى مصر لا تنطوى على شىء من الود، بل اتسمت بروح العداء فاشتد جورهم، وصادروهم فى أموالهم، وأكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره مما حمل المسلمين على متابعة الشكاية من أهل بهرام وأقاربه. كما بعث أمراء الجيش وقواده إلى رضوان بن ولخشى والى الغربية يطلبون منه القدوم إليهم لينقذهم مما لحق بهم من سطوة الأرمن، فأجاب رضوان طلبهم وقدم إلى القاهرة على رأس جيش كبير، وانضم إليه الجنود المسلمون فى جيش بهرام، فازدادت بذلك قوته، واضطر بهرام إلى الرحيل عن القاهرة والالتجاء إلى أخيه الباساك والى قوص، فخلفه رضوان فى الوزارة سنة ٥٣٠هـ وتلقب بالسيد الأجل الملك الأفضل، وهو أول من لقب بالملك من وزراء مصر، وصار الوزراء الفاطميون الذين خلفوه يتلقبون بهذا اللقب.

واشتد رضوان فى معاملة أعوان بهرام، فاستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم وهم بخلع الحافظ بحجة أنه ليس إماما، بل هو كفيل لغيره، فاستاء منه الحافظ، واضطر رضوان إلى الخروج إلى بلاد الشام، ثم ما لبث أن عاد إلى مصر على رأس جيش كبير سنة ٥٤٣هـ فتصدى له جند الخليفة وأرغم على المسير إلى الوجه القبلى حيث طارده الأمير أبو الفضائل بن مصال الذى عرض عليه عهد الأمان فاستجاب له وجاء إلى القاهرة، غير أن الحافظ لم يف بهذا العهد، فاعتقله بالقصر، ولم يزل فى معتقله حتى سنة ٥٤٢هـ، حيث تمكن من الفرار وجمع أنصاره حوله، ثم دارت بينه وبين جند الخليفة السودانيين عدة معارك، انتهى الأمر فيها بهزيمته وقتله^(١).

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٨٢ - ٨٣.

لم يتخذ الخليفة الحافظ وزيرا بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين رضوان بن ولخشى، فظل يحكم البلاد بلا وزير حتى توفي في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ، فخلفه بعهد منه ابنه أبو المنصور إسماعيل ولقب بالظافر بأمر الله، وولى الوزارة الأمير نجم الدين بن مصال ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش.

عاد التنافس في عهد الظافر بين رجال الدولة على تقلد منصب الوزارة، فثار الأمير المظفر على بن السلار والى الإسكندرية والبحيرة، وقصد القاهرة على رأس فرقة من أعوانه، فاضطر ابن مصال إلى الفرار وحل ابن السلار محل منافسه في الوزارة وتلقب بالعدل، ثم جهز العساكر لمحاربة ابن مصال، وأخذت قواته تتعقبه حتى أوقعت به الهزيمة في الوجه القبلى وقضت عليه، وبذلك خلا الجو لابن السلار وقام بأعباء الوزارة.

كان ابن السلار شافعى المذهب، فأنشأ سنة ٥٤٦هـ بالإسكندرية مدرسة للشافعية، وأسند إدارتها إلى الحافظ^(١) السلفى الفقيه الشافعى، وذلك هيا السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر، وقد أدى تعصبه لهذا المذهب ورغبته فى إحلاله بمصر محل المذهب الإسماعيلى إلى حقد الخليفة ورجال دولته عليه، فقتل بإيعاز منه سنة ٥٤٨هـ. وفى العام التالى اغتيل الخليفة بتدبير من الوزير أبى الفضل عباس الذى خلف ابن السلار فى الوزارة.

أثار مقتل الخليفة الظافر أهالى القاهرة، فنشبت المعارك فى طرقات المدينة وتعرض أتباع الوزير عباس لكثير من الضر والأذى بسبب سخط الأهلىين عليهم حتى اضطروا إلى الانصراف عنه، كما أن هذا الوزير ما لبث أن لقى حتفه فى أثناء محاولته الفرار إلى سورية.

بويع بالخلافة بعد مقتل الظافر لابنه عيسى وهو فى الخامسة من عمره ولقب بالفائز بنصر الله، وقد ساد الفزع القصر الفاطمى إذ ذاك وأرسل نساء القصر إلى طلائع بن رزيك والى الأشمونين يطلبن منه القدوم لإنقاذهن من الأخطار المحدقة بهن^(٢)؛ فقدم طلائع مرتديا الثياب السوداء ومعه أعلام سود. وقد علق

(١) الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى الاصبهانى.

(٢) المقرئى: خطط، ج ٢ ص ٢٩٣.

المقریزی^(١) على ذلك بقوله: «فكان فألاً عجيباً، فإنه بعد خمس عشرة سنة دخلت أعلام بنى العباس السود من بغداد إلى القاهرة لما مات العاضد واستبد صلاح الدين بملك مصر».

تقلد طلائع بن رزيك الوزارة بعد قضائه على الاضطرابات التي حدثت بالقاهرة على أثر مقتل الخليفة الظافر وتلقب بالملك الصالح؛ غير أنه ما لبث أن استبد بالسلطة، فقد أسند إليه الخليفة جميع أمور الدولة في تقليد توليته الوزارة، وقد جاء فيه: «فقلدك من وزارته وفرض إليك تدبير ممالكه وكفالاته، وجعل لك إمارة جيوشه الميامين وكفالة قضاء المسلمين، وهداية دعاة المؤمنين، وترديد ما هو مردود إليهم من الصلاة والخطابة، وإرشاد الأولياء المستجيبين والنظر في كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين وجنوده وعساكره المؤيدين، وكافة رعاياه بالحضرة وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها وسائر أحوال الدولة باديها وخافيتها^(٢)...».

ظل طلائع بن رزيك قابضاً على زمام الأمور في مصر حتى توفى الفائز في السابع عشر من رجب سنة ٥٥٥هـ، دون أن يوصى لأحد بولاية العهد أو الخلافة من بعده، فأقام الوزير طلائع: العاضد خليفة؛ وفي ذلك يقول المقریزی: «لما مات الخليفة الفائز، ركب الصالح بن رزيك إلى القصر بثياب الحزن، واستدعى زمام القصر، وسأله عمن يصلح في القصر للخلافة فقال: ها هنا جماعة، فقال عرفني أكبرهم: فسمى له واحداً فأمر بإحضاره، فتقدم إليه أمير يقال له، «على بن الزيد»، وقال له سرا، «لا يكن (الوزير) عباس أحزم منك رأياً حيث قبل الصغير وترك الكبير، واستبد بالأمر، فمال (الصالح) إلى قوله، وقال للزمام، أريد منك صغيراً، فقال: عندي ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ فقال (الصالح): على به، فأحضره بعمامة لطيفة وثوب مفسوط... وكان عمره نحو إحدى عشرة سنة، ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء وهي لبس ولي العهد إذا حزن على ما تقدمه، وقام فألبسه إياها...»، وما

(١) خطط: ج٢، ص ٣٠.

(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٥٢ - ١٥٣

لبث أن أخذ الصالح بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه، وأمر بأن يحمل إليه ثياب الخلافة فألبسها، وبايعه وتبعه سائر الناس في مبايعته ولقب بالعاقد لدين الله في يوم الثامن عشر من رجب سنة ٥٥٥ (١).

يتضح لنا مما تقدم إلى أي حد زادت سلطة الوزراء في العصر الفاطمي الأخير حتى أصبحوا يتدخلون في تولية الخلفاء، بل لم يراعوا في توليتهم تعاليم الإسماعيلية، وفضلاً عن ذلك فإن بعضهم انصرف عن تأييد مذهب الخليفة الفاطمي وأهل دولته كما فعل كل من أبي على أحمد بن الأفضل، وطلائع بن رزيق، فقد أظهر مذهب الإمامية، وعملاً على إحلاله في مصر محل مذهب الإسماعيلية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد كان للوزير طلائع بن رزيق مطامع خاصة تجلت في حرصه على زواج ابنته من الخليفة العاقد، وكان يرجو من وراء هذه المصاهرة أن ترزق ابنته منه ولدا «فيجتمع لبنى رزيق الخلافة مع الملك».

(١) راجع مجموعة الوثائق الفاطمية في مصر، ص ١٢٠ - ١٢٢.

٢- زوال الخلافة الفاطمية :

تطور التنافس على الوزارة في مصر في العصر الفاطمي الأخير إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم عليها، فقد انفرد شاور الذي كان واليا على الصعيد بالسلطة بعد تخلصه من الوزير العادل بن طلائع بن رزيق في المحرم من سنة ٥٥٨هـ، غير أن ضرغام - أحد قواد الجيش - ما لبث أن ثار عليه وتقلد الوزارة، فاضطر شاور إلى الالتجاء بنور الدين محمود صاحب دمشق ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، ووعد بأن ينزل له عن ثلث خراج مصر إذا ما عاونه في التغلب على ضرغام وانتزاع الوزارة منه، فتردد نور الدين بادئ الأمر في إجابة طلبه، ثم ما لبث أن قوى عزمه على تحقيق رغبته، فأعانه بحملة أسند قيادتها إلى أسد الدين شيركوه، فلما وصلت هذه الحملة إلى القاهرة تصدت لضرغام وتغلبت عليه، وبذلك خلا الجو لشاور، فأعيد إلى منصبه في الوزارة في رجب سنة ٥٥٩هـ^(١).

على أن شاور سرعان ما تخلى عن حليفه نور الدين، فلم يف بما عاهده عليه، وأرسل إلى أسد الدين شيركوه يطلب منه الرجوع إلى الشام، ولم يكتف بذلك، بل بعث إلى أمليق^(٢) (Amalric) ملك بيت المقدس يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية، فسارع إلى تلبية طلبه، وأرسل جيشا أرغم شيركوه على العودة بجنده إلى الشام، وكان لهذه السياسة أثرها في توجيه أنظار كل من نور الدين صاحب دمشق والفرنجية ببيت المقدس إلى غزو مصر، فأنفذ نور الدين حملة ثانية إلى مصر سنة ٥٦٢هـ بقيادة أسد الدين شيركوه وذلك حين ثبت لديه غدر شاور به ونقضه الاتفاق معه، وسير بصحبته بعض الأمراء، وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا في هذه الحملة^(٣).

رأى شاور أن يستنجد مرة ثانية بالفرنجية، فاستقر رأيهم على تحقيق رغبته خشية أن يستولى جيش نور الدين على مصر ويضمها إلى بلاد الشام فيصبح مركزهم في بيت المقدس مهددا بالأخطار. ولما وصلت عساكر الفرنجة إلى مصر

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٩.

(٢) ورد اسمه في بعض المراجع Amaury

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ١٤٧.

انضمت إلى جيوش شاور والمصريين . وكان شيركوه قد تقدم بعساكره إلى الصعيد فتتبعه الفرنجة والمصريون ، والتقى الفريقان في مكان يعرف بالباين (على مقربة من المنيا) ، فكان النصر حليف شيركوه الذي رأى بعد ذلك أن يسير إلى الإسكندرية ، فدخلها من غير مقاومة وعين ابن أخيه صلاح الدين واليا عليها .

أما قوات الفرنجة والمصريين فعادت إلى القاهرة بعد واقعة الباين ، ثم زحفت إلى الإسكندرية حيث قامت بحصارها برا ، بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحرا ، ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار ، فأسرع أسد الدين شيركوه إلى نجدة . ولم يلبث المصريون والفرنجة أن أرسلوا إليه يطلبون الصلح ، فأجاب طلبهم واشترط ألا يقيم الفرنجة في البلاد المصرية ، ثم عاد إلى دمشق .

على أن جميع قوات الفرنجة لم تغادر مصر تنفيذا لهذا الصلح ، بل عقدت مع شاور معاهدة ، كان من أهم شروطها : أن يكون لهم بالقاهرة شحنة (صليبية) ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن إنفاذ عسكره إليهم ، كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويا من دخل مصر^(١) وقد عقب أبو شامة^(٢) على هذه الشروط بقوله : «هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور ، وأما العاضد - صاحب مصر - فليس له من الأمر شيء ولا يعلم شيئا من ذلك ، قد حكم عليه شاور وحنبه ، وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة» .

أدى دخول الفرنجة البلاد المصرية إلى اطلاعهم على ما وصلت إليه حالة هذه البلاد من الضعف والاضطراب مما جعلهم يطمعون في الاستيلاء عليها ، وذلك أنهم قد تحكموا في شئون أهلها دون أن يقف في وجههم أحد ، وبعثوا إلى ملكهم أمليرك يهونون عليه أمر امتلاك هذه البلاد ، كما أن فئة من أعيان المصريين ممن كانوا يعادون شاور كاتبوا هذا الملك يحبون إليه القدوم إلى مصر - وكان قد وصل إليه من بعض أعوانه أسماء قراها ومقدار خراج كل منها - ، وبذلك تمهد

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٥٢ .

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين ص ١٤٣ .

السبيل لقوات الفرنجة لغزو البلاد المصرية فخرج أمليرك على رأس الحملة التي جهزها في أوائل سنة ٥٦٤هـ. ولما تقدم الفرنجة في رحفهم صوب القاهرة، اضطّر شاور إلى إخلاء القسطنطينية، ثم أشعل النار فيها حتى لا يأوى إليها الصليبيون، وأمر سكانها بالنزوح إلى القاهرة، فحملوا معهم كل ما استطاعوا حمله من متاع وطعام وتركوا مدينتهم، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما.

ولما شدد الفرنجة الحصار على القاهرة وضيقوا على أهلها حتى ضعفت قواهم، رأى شاور بعد أن أيقن من عجزه عن مقاومتهم وضعفه عن ردهم على أعقابهم أن يعتمد إلى أعمال الخيلة، فأرسل إلى أمليرك يذكره بما بينهما من صلة المودة، ويبدى له خوفه من نور الدين، ويشير عليه بالصلح على أن يؤدي إليه ألف ألف دينار، فرحب أمليرك بما عرضه عليه شاور واستقر الرأي بينهما على أن يعجل بدفع مائة ألف دينار للملك الفرنجة، ويؤخر الباقي خشية أن يسارع نور الدين إلى الاستيلاء على البلاد المصرية.

على أن شاور ما لبث أن خدع الفرنجة، فأرسل إلى نور الدين يطلب النجدة، كما بعث إليه أيضا الخليفة العاضد لدين الله يستنجد به، وتعهّد بأن ينزل له عن ثلث بلاد مصر، وأن يأذن لأسد الدين شيركوه بالإقامة عنده مع جنده، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجا عن ثلث البلاد الذي أفرد له نور الدين^(١).

لم تكّد تصل هذه الرسائل إلى نور الدين حتى سارع إلى تجهيز قوة من حرسه الخاص ومن التركمان بقيادة أسد الدين شيركوه، وانضم إليهم عدد كبير من الأمراء وبعض أقاربه ومن بينهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومضوا جميعا في سيرهم نحو مصر. فلما وصلوا إلى القاهرة كان لا يزال أمليرك معسكرا بقواته أمام أسوارها، فرحب بهم المصريون، واضطر أمليرك - بعد أن اتضح له موقف المصريين منه - إلى الرحيل إلى فلسطين من غير حرب ولا قتال، ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ، فرحب به أهلها، واستقبله الخليفة العاضد وخلع عليه.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ص ١٥٨.

أيقن شاور بعد وصول حملة شيركوه الثالثة إلى القاهرة أن غايتها القضاء عليه والاستيلاء على مصر، فظل يوجس خيفة منه، وصار كل منهما يكيد لخصمه. ولما حاول شاور تدبير مؤامرة للقبض على شيركوه ومن معه من الأمراء، نهاه ابنه الكامل وقال: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين» فقال شاور: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا» فرد عليه الكامل بقوله: «صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج»، فعدل شاور عن عزمه، غير أن أسد الدين ما لبث أن اتفق مع أصحابه على التخلص منه واضطلع بعضهم بتنفيذ هذه المؤامرة، فقبضوا عليه وقتلوه، ثم نهبت العامة دوره. وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذى استبد بالسلطة فى أواخر العصر الفاطمى واستعان بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه، ولم يعد للصليبيين بعد مقتلهم من يحفزهم على التطلع إلى غزو مصر.

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلى فى البلاد بعد أن انتهى عهد شاور، فاتخذ العاضد وزيرا له، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وقلده جميع أمور الدولة، فجاء فى سجل تعيينه وزيرا: «وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته، وحيطة ما وراء سرير خلافته، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته، وكفالة قضاة المسلمين، وهداية دعاة المؤمنين^(١)...» كما أوصاه بأن يحسن معاملة رعاياه بقوله: «والرعايا قد علمت ما نالهم من إجحاف الجبايات وإسراف الجنائيات، وتوالى عليهم من ضروب النكايات، فأعمر أوطانهم التى أخربها الجور والأذى، وانف من مواردكم الكدر والقذى، وأحسن حفظ وديعة الله منهم، وخفف الوطأة ما استطعت عنهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا».

استطاع أسد الدين شيركوه فى الفترة القصيرة التى قضاها فى الوزارة أن يقبض على زمام الأمور فى البلاد، كما وزع الإقطاعات على عساكره، وأعاد أهالى الفسطاط إلى بلدهم، وأوصى أصحابه ألا يتركوا القاهرة، ثم توفى بعد أن ظل فى منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر، فتنازع أمراء نور الدين الذين كانوا معه فى طلب الرئاسة والوزارة، غير أن العاضد مال إلى تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب لصغر سنه وضعفه عنهم فاستدعاه وولاه الوزارة.

(١) مجموع الوثائق الفاطمية ص ١٧٢.

شرع صلاح الدين - بعد أن ولى وزارة العاضد الفاطمى - فى استمالة قلوب الناس إليه. وكان لبذله الأموال عليهم أثره فى اكتساب محبتهم مما ساعد على تقوية مركزه فى مصر، بينما أخذت سلطة العاضد فى الضعف، فقد أمر صلاح الدين بذكر اسم نور الدين فى الخطبة بعد الخليفة الفاطمى وأقطع أصحابه البلاد، وأسند إليهم بعض المناصب، وبذلك كشف القناع عن حقيقة نواياه إزاء الخلافة الفاطمية وتجلي حرصه على القضاء عليها.

ولما ثقلت وطأة صلاح الدين على أهل القصر الفاطمى وتجلي استبداده بأمر الدولة وإضعافه جانب الخلافة، حنق عليه رجال القصر ودبروا المكائد للتخلص منه، وكان يتزعمهم جوهر مؤتمن الخلافة. وقد اتفق رأيهم على مكاتبة الفرنجية ودعوتهم إلى مصر، فإذا ما خرج صلاح الدين إلى لقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة وانضموا إلى الفرنجية فى محاربته والقضاء عليه^(١).

على أن صلاح الدين ما لبث أن وقف على ما دبره له أعداؤه، فشدد الرقابة على مؤتمن الخلافة، وأرسل إليه جماعة من أصحابه تمكنوا من اغتياله فى أواخر سنة ٥٦٤هـ^(٢)، فأدى ذلك إلى ثورة جند الخليفة وأكثرهم من السودانين - وكانوا يزيدون على خمسين ألفا. وقد دار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف فى المكان المعروف بين القصرين بالقاهرة أحرقت فيه كثير من المنازل، كما أحرقت حيهم المعروف بالمنصورية، وحلت بهم الهزيمة، ومضت فلولهم إلى الجيزة^(٣). وما زال صلاح الدين يتبعهم فى الصعيد إلى أن قضى على نفوذهم نهائيا سنة ٥٧٢هـ^(٤).

لم تكن الصعاب التى واجهت مصر فى الفترة التى قضاها صلاح الدين وزيرا للعاضد مقصورة على الفتن التى أثارها رجال القصر الفاطمى وأتباعهم من الجند، بل كان الفرنجية فى بيت المقدس يرقبون إذ ذاك ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل فى مصر ويرون فيه خطرا يهدد كيانه، ولذلك استقر رأى ملك بيت

(١) المقرئى: خطط ج ٢ ص ٢.

(٢) المقرئى: خطط ج ٢ ص ٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١، ص ١٧٤ - ١٧٧.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٩٧.

المقدس على الاستتجاد بملوك أوروبا لإحباط أطماع نور الدين، لكن دعوته لم تلق استجابة منهم لانشغال غالبيتهم بمسائل تتعلق بدولهم، فلجأ إلى مانويل إمبراطور الدولة البيزنطية الذى رحب بمد يد المعونة إليه، ومن ثم توجهت قواتهم إلى دمياط يعاونهم أسطول بيزنطى مزود بالمؤن والعتاد الحربى، فوصلوا إليها فى صفر سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م). وكان الإمبراطور البيزنطى يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه فى توسيع رقعة البلاد الداخلة فى دائرة نفوذه^(١).

رأى صلاح الدين بعد أن بلغه خبر الحملة التى أنفذها الفرنجة إلى دمياط أنه لابد من النهوض لصددهم، فأرسل جنده عن طريق النيل بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود، وأمدهما بالسلاح والذخائر والمال. واضطر صلاح الدين للبقاء بالقاهرة خشية أن يقوم رجال القصر الفاطمى وجند السودان الناقمون عليه بتدبير المؤامرات ضده. وبعث إلى نور الدين محمود يطلب منه النجدة، ويشكو إليه ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنجة، وإن سار إليها دبر له أعداؤه من المصريين المكائد، وبذلك يصبح الفرنجة أمامه والمصريون خلفه. فاستجاب نور الدين لدعوة صلاح الدين وبعث إليه الإمداد، وكان كلما جهز فرقة من الجند أرسلها إليه^(٢)، كما حرص الخليفة العاضد على إعانتة بالمال طوال مدة حصار الفرنجة لدمياط. وقد نوه صلاح الدين بمعاونة العاضد له بقوله: ^(٣) «ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى ما أرسله إلى من الثياب وغيرها».

لم يتيسر للمغيرين على دمياط من الفرنجة وحلفائهم البيزنطيين تحقيق غرضهم، فقد تسرب القلق إلى نفوسهم من جراء ما عانوه فى سبيل تموين قواتهم، كما وقع الخلف بين قوادهم على الخطة التى يتبعونها لمهاجمة هذه المدينة، وفضلا عن ذلك، فإن ما بلغهم عن قيام نور الدين بمهاجمة حصن الكرك وغيره من النواحي التى فى أيديهم حملهم على الإسراع فى رفع الحصار عن المدينة

(١) حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، ص ١٣٤ - ١٣٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ١٨١.

(٣) المقرئى: خطط، ج ١ ص ٢١٥.

والرجوع بسجيوشهم إلى بلادهم في ربيع الأول سنة ٥٦٥هـ وبذلك فشلت هذه الحملة في غزو دمياط والاستيلاء على مصر^(١).

كان لإحباط خطة الفرنجة والبيزنطيين في مهاجمة دمياط ورحيلهم إلى بلادهم منهزمين أثره البالغ في توطيد سلطة صلاح الدين في مصر. فقد اعتبره المصريون حاميا لهم واتفقوا معه على محاربة الفرنجة أعدائهم جميعا، كما أن صلاح الدين حرصا منه على تدعيم مركزه، رأى أن يحيط نفسه بأهل بيته، فطلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه، فوصلوا إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)، وما لبث أن أسند إليهم بعض المناصب الهامة، فجعل أباه على بيت المال وأقطع إخوته بعض الأراضى^(٢).

لما أيقن صلاح الدين أن سلطته قد استقرت، وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعى في مصر، فأنشأ سنة ٥٦٦هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى وأخرى لتدريس المذهب المالكى، وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس قاضيا للقضاة في جميع أنحاء البلاد المصرية، فأذاب عنه في سائر البلاد قضاة شافعية، فاستعاد بذلك المذهب السنى قوته، وأخذ المذهب الإسماعيلى في الاختفاء تدريجيا حتى لم يبق له أنصار في مصر^(٣).

كان لسياسة صلاح الدين التى تنطوى على إضعاف المذهب الإسماعيلى أثرها فى زوال الخلافة الفاطمية، فقد انهارت منذ ذلك الوقت سلطة الخليفة العاضد، وكثر القول من صلاح الدين وأصحابه فى ذمه، كما تحدثوا بخلعه وإقامة الدعوة العباسية. لكن صلاح الدين رغم استبداده بأمر مصر لم يسارع إلى إقامة الخطبة للمستضىء بنور الله العباسى، بل أعرض فى بادئ الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين الذى أرسل إليه يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل الخليفة الفاطمى، واعتذر بتخوفه من أن يثير هذا العمل غضب المصريين، غير أن

(١) حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، ص ١٣٧ - ١٤٠.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢٤ - ٣٥، وابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٣) المقرئى: خطط ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

نور الدين أبى قبول هذا العذر وبعث إليه يلزمه بقطع الخطبة للخليفة العاضد، فرأى صلاح الدين أن يشاور الأمراء فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة بدل الخليفة الفاطمى فوافقه بعضهم وأظهروا استعدادهم لمعاونته على تحقيق هذه الرغبة، وخشى آخرون من الإقدام على ذلك، وكان قد وفد إلى القاهرة رجل فارسى يعرف بالأمير العالم، فلما رأى تردد صلاح الدين فى إقامة الخطبة للخليفة العباسى، أبدى حرصه على القيام بنفسه بالدعاء لهذا الخليفة، فصعد المنبر فى أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ قبل الخطيب، ودعا للمضى فلم يعارضه أحد، وفى الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بإسقاط اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه، وكان العاضد إذ ذاك مريضا فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، ثم توفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ^(١). وقيل إنه علم قبل وفاته بحذف اسمه من الخطبة، فاعتل وتوفى بعد خمسة أيام^(٢).

وهكذا سقطت الدولة الفاطمية الشيعية، وظلت الخلافة العباسية قائمة على الرغم مما أصابها من الضعف والانحلال. ويرجع السبب فى ذلك إلى رغبة المسلمين الاحتفاظ بها لاعتقادهم أنها نظام لا بد منه لصلاح العالم الإسلامى واستقامة شئونه.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص ١٩٦.

الباب السادس

النظم والحضارة فى العصر الفاطمى بمصر

- ١ - نظم الحكم والإدارة.
- ٢ - الحالة الاقتصادية.
- ٢ - مظاهر الحياة الاجتماعية.
- ٤ - الحياة الثقافية.

١ - نظم الحكم والإدارة :

تطلب نظام الوراثة عند الإسماعيلية وهو الذى أخذ به الفاطميون منذ نشأة دولتهم أن تنتقل الإمامة من الأب إلى الابن عن طريق التعيين بالنص. وحرص الفاطميون على اتباع هذا النظام منذ أقاموا دولتهم، ولكن بعض الأحداث حملتهم على الخروج عليه، فحاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه أبا الحسن عليا، الذى ولى الخلافة من بعده باسم الظاهر من ولاية العهد، ويعهد بها لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه الظاهر، كذلك خولف هذا النظام بعد وفاة الخليفة الأمر حين ولى الخلافة بعده عمه الحافظ، كما أنه بعد وفاة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله^(١).

وكان الخليفة الفاطمى يعين ولى عهده قبل وفاته ولم يكن له الحق فى أن يعهد بالإمامة من بعده لأكثر من واحد، وهذا يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند الأمويين والعباسيين، فكان الأمويون والعباسيون من بعدهم يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد. وأسرف العباسيون فى تعيين ولاية العهد. فعهدوا بالخلافة من بعدهم إلى ثلاثة أمراء مما أدى إلى قيام المنافسة بين أفراد البيت المالک، كما أدى إلى ضعف كل من البيتين الأموى والعباسى فى النهاية.

أحاط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس، ويتجلى لنا ذلك من حديث الداعى هبة الله الشيرازى الذى وصف فيه مقابلته الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى مجلس الخلافة بالقاهرة، فقال: «فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتني الروعة، وغلبتني العبرة، وتمثل فى نفسى أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين - صلى الله عليهما - مائل، وبوجهى إلى وجهيهما مقابل، واجتهدت عند وقوعى إلى الأرض ساجدا لولى السجود ومستحقه، أن يشفعه لسانى بشفاعته حسنة

(١) انظر: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٢٠ - ٢١.

بنطقه، فوجدته بعجمة المهابة معقولا، وعن مزية الخطابة معزولا. . ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول، وكلما استطرده الحاضرون منى كلاما ازدادت إعجابا. . وهو - خلد الله ملكه - يقول: دعوه يهدأ ويستأنس، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عيني وصدري، وودعت وخرجت(١) . . .».

وكان الخلفاء الفاطميون يرون فى تقديس الناس لهم إعلاء لشأنهم واعتبروا أنفسهم هداة لهم. وكانوا يلقبون أنفسهم بألقاب كثيرة منها: الخليفة الفاطمى أو العلوى أو أمير المؤمنين. وكان السنيون يطلقون عليهم العبيدين نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، كما أطلق عليهم «الفاطيون» نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء(٢).

أما عن الوزارة فى عهد الفاطميين، فإن جوهر الصقلى لما فتح مصر أقر الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات فى منصبه حتى لا يحدث عزله اضطرابا فى شئون ولاية مصر، ولم يقدم على عزل أحد من الموظفين السنيين وإحلال المغاربة وغيرهم من أنصار الفاطميين محلهم لأنه لم يوجد من المغاربة فى أول الأمر خير بالشئون الإدارية فى مصر.

على أن جوهر ما لبث أن أشرك مع كل موظف مصرى آخر مغربيا حتى إذا ما تدرب أنصار الفاطميين على الإدارة انفردوا بالوظائف. كذلك عمل جوهر على إضعاف سلطة الوزير جعفر بن الفرات بأن عين له خادما يلازمه فى داره ويسير فى ركابه ليكون عينا عليه(٣). وساء الوزير ابن الفرات أن يرى نفسه فى هذه الحال. لذلك انتهاز فرصة قدوم الخليفة المعز إلى مصر واعتذر له عن البقاء فى منصب الوزارة، فأظهر له الخليفة رغبته فى ضرورة بقائه فى البلاد المصرية بعد اعتزاله منصبه ليستأنس برأيه فى مهام الأمور، فأجابه إلى ذلك(٤).

(١) سيرة المؤيد، ص ٨٥ - ٨٦.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢١٦.

(٣) المقرئى اتعاظ الحنفا ص ١٦٨ - ١٨٠.

(٤) انظر: كتاب «المعز لدين الله» ص ١٤٩.

ثم عهد الخليفة المعز إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن المغربى فى إدارة شئون الدولة الفاطمية المدنية والحربية، وقلدهما أمور الدولة التى يضطلع بها الوزراء، على أن ابن كلس لم يسند إليه منصب الوزارة، ويلقب بلقب وزير إلا فى عهد الخليفة العزيز بالله.

كانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ - ٤٦٥ هـ) وزارة تنفيذ لأن الخلفاء كانوا على جانب كبير من القوة بحيث استأثروا بإدارة شئون الدولة. وحرص الخلفاء الفاطميون على اختيار وزرائهم من المختصين بتدبير الأموال، كما كان لحكام الولايات وكبار موظفى الدولة على اختلاف درجاتهم الحق فى تقلد منصب الوزارة إذا توافرت عندهم الكفاية اللازمة لهذا المنصب، وبلغ من تسامح الفاطميين أن عهدوا إلى بعض ذوى الشأن من أهل الذمة بتولية الوزارة^(١).

لم تظهر تسمية الوزير وزيرا بوضوح إلا فى أيام الخليفة العزيز مع أن هذا المنصب كان معروفا فى عهد الطولونيين والإخشيديين. ومن وررائه يعقوب بن كلس، وكان يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح، فيدخل عليه الناس بظلامتهم، واتخذ فى قصره عدة دواوين، خص بعضها بالنظر فى شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج، وعين لكل ديوان ما يحتاج إليه من الموظفين^(٢).

ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس وتحولت إلى ما يسمى الوساطة خشية ازدياد نفوذ الوزراء، ففى أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله عزل عيسى بن نسطورس لإسناده مناصب الدولة إلى أهل ملته من المسيحيين، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة وتلقب أمين الدولة.

ومن أشهر رجال العصر الفاطمى الذين تقلدوا الوساطة والوزارة: أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الذى لقب وزير الوزراء ذا الرياستين، وأبو القاسم على ابن أحمد الجرجرائى الذى تقلد بعض المناصب العليا فى عهد الحاكم، ثم أسندت إليه الوساطة فى أوائل خلافة الظاهر الفاطمى، لكنه لم يل الوزارة إلا فى سنة

(١) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ص ٩٢، ٩٣.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٧٢.

٤١٨ هـ وظل شاغلا هذا المنصب إلى أن توفي سنة ٤٣٦ هـ، خلفه في الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى^(١) غير أن هذا الوزير لم يتمتع بما تتمتع به غيره من نفوذ بسبب اتساع سلطة أبي سعد التستري اليهودى الذى تقرب من الخليفة المستنصر بالله وعظم شأنه فى عهده^(٢).

أصبحت الوزارة منذ أواخر عهد المستنصر بالله إلى نهاية العصر الفاطمى وزارة تفويض تقلدها كثير من أرباب السيوف بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو وساطة يرجع من تقلدها إلى أمر الخليفة ونهيه، وبذلك تحولت الوزارة إلى سلطة استبدادية. ومن أشهر وزراء هذا العصر بدر الجمالى الذى كان واليا على عكا، ثم استدعاه المستنصر لينقذ عرش خلافته ويصلح الأمور فى مصر، فلما قدم إلى القاهرة فوض إليه جميع سلطاته، فقد جاء فى سجل توليته الوزارة^(٣): «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره». وبذلك أصبح بدر الجمالى صاحب الحل والعقد، له أن يولى كبار موظفى الدولة ويعزلهم.

ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين كثيرا فى العصر الفاطمى الثانى، بينما زادت سلطة الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمتم ثروتهم، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم. وكان بعضهم يؤثر اختيار أحد أمراء البيت الفاطمى الضعاف حتى يكون ألعوبة فى أيديهم. وقد تجلت هذه الظاهرة فى عهد الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى كان يتمتع بسلطة مطلقة، فأصبحت فى قبضة يده موارد الدولة الواسعة. وقد نقل الدواوين إلى داره التى بناها سنة ٥٠١ هـ، كما جلب إليها كثيرا من الذخائر النفيسة.

وكان من ألقاب وزراء التفويض: أمير الجيوش، وكافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين. ثم أضيف إليها لقب ملك بعد أن ولى الوزارة رضوان بن ولخشى فى عهد الخليفة الحافظ، وفى ذلك يقول المقرئى^(٤): «وأول من لقب

(١) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٣٥ - ٣٨.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٧٦، ١٧٧.

(٣) المقرئى: خطط، ج ١ ص ٤٤.

(٤) خطط، ج ٢ ص ٣٠٥.

بالمملك منهم مضافا إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله، فقيل له: السيد الأجل الملك الأفضل، وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة، وفعل ذلك من بعده، فتلقب طلائع بن رزيك بالمملك المنصور، كما تلقب صلاح الدين بالمملك الناصر.

* * *

كانت مصر تنقسم فى العصر الفاطمى إلى أربع ولايات أو أقاليم كبيرة وهى: ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد، وولاية الشرقية وتشمل على وجه التقريب الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط. وولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعى رشيد ودمياط من الشمال إلى الجنوب. أما الولاية الرابعة فهى ولاية الإسكندرية، ويضاف إليها البحيرة^(١). وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاية هذه الأقاليم الأربعة الحرية فى تعيين العمال على المدن والنواحي والقرى الداخلة فى نطاق ولايته، كما أجازت لهم العناية بمرافق إقليمهم دون الرجوع إليها^(٢).

وكان على القاهرة وال، كما تولى على الفسطاط وال آخر، وتمتع كل منهما بمركز ممتار عند الخليفة، غير أن مرتبة والى القاهرة كانت أعلى من مرتبة والى الفسطاط، وكذلك كان لكل من تنيس وعيذاب وال يحكمهما لأهميتهما التجارية.

أما شئون الإدارة فى العصر الفاطمى بمصر، فكان يشرف عليها عدة دواوين، نذكر من بينها: ديوان الإنشاء، وديوان الإدارة المالية التى تقوم بجباية الأموال وإنفاقها، ودواوين الإدارة المحلية التى تحكم الولايات، وتنقسم الدواوين الرئيسية بدورها إلى عدة دواوين، يختص كل منها بعمل معين.

كان الموظفون فى العهد الفاطمى يتقاضون الرواتب الكبيرة ويمنحون الملابس والهدايا الثمينة فى الأعياد والمواسم؛ وأصبحوا بفضل هذه الرواتب والمنح فى رغد من العيش مما سهل عليهم القيام بواجباتهم على أحسن وجه، فلم يألوا جهدا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ودفع إغارات الأعداء عنها.

(١) القلشندي: صبح الأعشى، ج ٨ ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٢) انظر: كتاب «المعز لدين الله» ص ١٦٠ - ١٦١.

وحرص الفاطميون على أن يكون موظفو الإدارة من بين ذوى الخبرة كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية؛ وأحسن مثل لذلك ابن منجب الصيرفى الذى عمل قبيل توليته ديوان الإنشاء - فى عهد الخليفة الأمر - فى ديوان المكاتب ودواوين الجيش والمالية. وكانت هذه الطريقة تهيم لأرباب الوظائف قدرا كبيرا من الثقافة الإدارية^(١).

كان ديوان الإنشاء أهم دواوين الإدارة فى عهد الفاطميين وهو يلى الوزارة فى الأهمية؛ وأطلق عليه ابن منجب الصيرفى «ديوان الرسائل» وغلبت عليه التسمية الأولى، وازدادت أهمية ديوان الإنشاء فى ذلك العهد عما كان عليه فى عهد الطولونيين والإخشيديين، لأن مصر أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التى امتد نفوذها من بلاد المغرب إلى بلاد الشام وجزيرة العرب، وصارت فى حاجة للقيام بدعاية واسعة لخلفائها مما يتطلب من هذا الديوان مجهودا كبيرا. وكان يتولى شئون هذا الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الإنشاء ويطلق عليه أيضا صاحب الدست الشريف لكتابته على الدست، ومن واجباته تسلم المكاتب الواردة ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها. وكان صاحب الإنشاء يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين دينارا^(٢).

ويلى صاحب الإنشاء فى الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى كان يوقع على المظالم ويجالس الخليفة، وكان يتقاضى مائة دينار كل شهر، ويلى صاحب القلم الدقيق فى الرتبة صاحب القلم الجليل، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على الخليفة^(٣).

وفى بعض الأحيان كان يتولى صاحب ديوان الإنشاء إدارة البريد، فيذكر المقرئى^(٤) أن الخليفة الحاكم بأمر الله قلده الحسين بن جوهر البريد والإنشاء فى شوال سنة ٣٨٦هـ. واهتم الفاطميون بالبريد اهتماما كبيرا، وصار أصحابه يعرفون فى أيامهم بأصحاب الأخبار. وكانوا يوافونهم بكل ما يصل إليهم من الأحداث، وبذلك لم يعد يخفى عليهم شئ من أمور دولتهم.

(١) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ج١ ص ٩٥ - ٩٦، ١٠٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٩٠.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٩١ - ٤٩٢.

(٤) خطط: ج٢ ص ١٤.

وكانت الشرطة من النظم الإدارية الهامة التى عنى بها الفاطميون، وتختص بحفظ النظام واستتباب الأمن، ويتولى رئيسها الذى يعرف بصاحب الشرطة تنفيذ أحكام القضاة. وكان حكام الولايات المصرية يقومون بأعمال صاحب الشرطة فى ولاياتهم ويعاونهم جماعة من الجند.

ومما تجدر ملاحظته أن الشرطة قسمت فى العصر الفاطمى بمصر إلى قسمين وهما، الشرطة العليا فى القاهرة، والشرطة السفلى فى مصر (الفسطاط والعسكر). وكان هذا التقسيم معمولاً به منذ العصر الطولونى، غير أن الشرطة العليا كانت فى مدينة العسكر، والشرطة السفلى كانت فى الفسطاط، فلما تأسست مدينة القاهرة وأصبحت العاصمة، اقتضى ذلك نقل الشرطة العليا إليها، وبقيت الشرطة السفلى فى الفسطاط.

* * *

كذلك كان للتنظيم الحربى نصيب موفور من عناية الفاطميين، فقد رأوا أنهم بحاجة إلى جيش قوى يحمى دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم فى أراضي الدولة الإسلامية، كما اهتموا بإنشاء أسطول لصد الأعداء الذين يغيرون على دولتهم من ناحية البحر وليكون عوناً لقواتهم البرية.

وقد سار الفاطميون فى تحقيق هذه السياسة على ما كان سائداً فى ذلك الوقت، فكونوا جيشهم من عدة أجناس لم يكن بعضها معروفاً فى مصر، وكان المعز منذ استقراره له الأمر فى البلاد المصرية يعتمد على المغاربة - وهم يكونون معظم جيشه - ويشملون عدة طوائف من البربر، نذكر منها، الكتامية والباطلية^(١) والمصادمة والجودرية^(٢). ولما ولى العزيز بالله الخلافة، استخدم الأتراك والديلم، ثم ظهر عنصر السودان فى الجيش فى عهد الحاكم بأمر الله، وتضاعف عدده فى خلافة المستنصر بالله حتى بلغ عدد السودانيين فى الجيش خمسين ألفاً، وظل هذا العنصر يكون فرقة كبيرة فى الجيش الفاطمى حتى زالت الدولة الفاطمية. وقد أدى تعدد العناصر فى الجيش إلى قيام التنافس والتشاحن بين طوائف الجند، وليس أدل على ذلك مما حدث فى عهد المستنصر حيث قام خلاف بين طائفتى الأتراك والسودانيين كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية.

(١) انظر: المقرئى: خطط ج ٢ ص ٨.

(٢) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦.

وكان فى الجيش الفاطمى أيضا عناصر أجنبية، وفدت إلى مصر مع بعض الذين تقلدوا الوزارة، منها جند الأرمن، وقد أحضرهم بدر الجمالى من بلاد الشام، كما عمل بهرام الأرمنى أثناء توليه الوزارة على استجلاب عدد كبير منهم إلى مصر. كذلك أتى الأكراد مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ويوسف بن أيوب فى عهد الخليفة العاضد.

وكان من بين طوائف الجيش فرق من الجند تنسب إلى الخلفاء أو الوزراء، فمن طوائف الخلفاء: الأمرية والحافظية والظافرية والعاضدية. ومن طوائف الوزراء: الوزيرية وتنسب إلى الوزير يعقوب بن كلس. وقد سمح له الخليفة العزيز يتكوين حرس خاص به. وهناك طوائف أخرى ظهرت فى العصر الفاطمى الثانى، منها الجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى والأفضلية نسبة إلى ابنه الأفضل، والبرقية وهم جماعة من أهل برقة، وقد أنشأ الوزير طلائع بن رزيك فرقة منهم وجعل ضرغام مقدمهم^(١).

لم يعمل الفاطميون على إشراك المصريين فى جيشهم، غير أنه فى أواخر العصر الفاطمى حين أصبحت مصر مهددة من جانب الصليبيين اشترك المصريون فى الدفاع عن بلادهم، فأصبح الجيش الفاطمى يتكون من جنود وأمراء مصريين فضلا عن الطوائف الفاطمية الأخرى.

اتخذ الفاطميون للجيش أحياء خاصة، فأنزل جوهر الصقلى عساكر المعز - وكانت تتكون من عدة عناصر - فى مواضع بالقاهرة عرفت بالحارات، وخصص لكل طائفة حارة، يقيم فيها الجند وأسرههم، وبها دكاكين وأسواق. ويرجع السبب فى اتخاذ أماكن معينة لإقامة الجند إلى منعهم من مضايقة سكان القاهرة.

ويتألف الجيش الفاطمى من الأمراء وهم القادة، وطوائف الجند. ويتميز الأمراء بعضهم عن بعض بعلامات فى الأعياد والمواكب الرسمية بحسب مراتبهم، فالأمراء الكبار يحملون حول أعناقهم أطواق الذهب، ويقود كل منهم ألف جندى، وهناك فريق آخر من الأمراء يعرفون بأصحاب القضب، يحملون فى أيديهم قضب الفضة وهى رماح فضية، ويقود كل منهم مائة جندى^(٢).

(١) انظر: خطط جـ ٢ ص ١٢٠٥.

(٢) القلشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٨.

وكان الفاطميون لا يألون جهداً فى سبيل تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج إليه من أسلحة، فأنشأوا خزانة السلاح. وكانت تحتوى على خوذات وسيوف ورماح وسهام ودروع وأقواس مختلفة الأشكال. وهناك خزائن تملك الجيش بمعداته، منها خزانة الخيام، وبها عدة أنواع من خيام الجند، وخزائن لصناعة السروج اللازمة للدواب فى الحرب^(١). ويذكر المقرئى^(٢) أن الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمى لما فكر فى الرحيل إلى المشرق ومهاجمة بغداد، أعد فى هذه الخزائن سروجاً مجوفة ومبطنة بصفائح من قصدير يوضع بداخلها الماء ليشرّب منها الفارس. وكان كل سرج منها يسع سبعة أرتال ماء.

وقد أظهر الجند الفاطمى مهارة فى استخدام أسلحة الحرب التى شاع استعمالها إذ ذاك كالحراب والسيوف وآلات الحرب الضخمة كالمجانيق التى ترمى الأسوار بالحجارة، كما زود الجيش بفرقة من النفاطين^(٣) الذى يقومون بإعداد القوارير المملوءة بالنفط ورميها على قوات الأعداء لتحول دون تقدمها.

كان هناك دواوين لإعداد الجيش وتجهيزه وتنظيم النفقة عليه، ويعمل فيها موظفون مدنيون وهى: ديوان الجيش وديوان الرواتب وديوان الإقطاع، فيشرف ديوان الجيش على الجنود وإعدادهم، ويختص ديوان الرواتب بتسجيل عطاء الجنود وجميع موظفى الدولة. وقد طرأ على العطاء عدة تغييرات فى عهد الدولة الفاطمية. فكان يبلغ عطاء الجندي عشرين ديناراً فى كل شهر. أما ديوان الإقطاع، فكان مختصاً بما هو مقطع للأجناد، ويتولى إثبات الإقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال. ولم تكن هذه الإقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال من الكثرة كما كانت فى عهد الأيوبيين والمماليك فى مصر.

أما فيما يتعلق بالقوات البحرية، فقد اتخذ الفاطميون مراكز لإنشاء السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وجزيرة الروضة التى عرفت فى العصر الفاطمى باسم جزيرة مصر، والمقس التى أنشأ بها المعز لدين الله داراً لصناعة السفن، والإسكندرية ودمياط.

(١) انظر: المقرئى: خطط ج ١ ص ٤٧١ - ٤٢٠.

(٢) خطط: ج ١ ص ٤١٨.

(٣) انظر: المقرئى: خطط ج ٢ ص ٣.

وبذلت الحكومة الفاطمية جهدها للحصول على الخشب الذى يصلح لبناء السفن الحربية، وكان يؤتى ببعضها من مناطق الغابات المغروسة فى كثير من جهات الوجه القبلى. وقد احتكر الفاطميون أجود أنواع الخشب برسم الأسطول والمراكب الديوانية. على أن إنتاج البلاد من الخشب لم يكن كافيا، كما أن بعض أنواعه لا تمتاز بالصلابة اللازمة؛ لذلك كانوا يستوردون الخشب من تجار البندقية، وكثيرا ما تدخل الأباطرة البيزنطيون لمنع المدن الإيطالية من تزويد مصر بما تحتاج إليه من هذه المادة.

وقد تنوعت السفن الحربية التى يتكون منها الأسطول فى العصر الفاطمى فمنها: الشوانى (جمع شينى أو شونى)^(١) التى امتازت بأبراج الدفاع والهجوم واحتوت على أهراء لخن القمح وصهاريج لخن الماء العذب. ومن سفن الأسطول أيضا: الخرايق (جمع حراقة) وهى من المراكب الحربية الكبيرة المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذى يرمى بالمجانيق أو بالسهم. كذلك كان من سفن الأسطول الطرائد (جمع طريدة)، وتستخدم فى نقل الخيول، والشلنديات وهى مراكب مسطحة يستعان بها فى حمل العتاد والجند، والحملات وتستخدم فى حمل الذخيرة^(٢).

ويشرف على الأسطول عشرة قواد بحريين، يختار من بينهم رئيس يعرف بأمر الأسطول، وتحمل كل سفينة حربية عددا من المقاتلة عدا البحارة. وهناك أشخاص معروفون عند ديوان الجهاد يسمون «النقباء» يقومون بجمع المقاتلة من أنحاء البلاد إذا ما تأهب الأسطول للخروج. ولم يكن أحد يجبر على العمل فى السفن الحربية. وكان الناس يقدرون أعمال البحارة فى الأسطول ويسمونهم «المجاهدين فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله»^(٣).

وكان للأسطول ديوان يعرف بديوان الجهاد، يقوم بالإشراف على بناء السفن وتجهيزها بالمعدات الحربية ودفع مرتبات الرجال العاملين فيها. أما عن نفقات الأسطول، فقد خصصت له الحكومة الفاطمية ميزانية ضخمة من مستغلات

(١) المقرئى: خطط ج ١ ص ٤٢٨.

(٢) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣.

(٣) المقرئى: ج ٢ ص ١٩٤.

الإقطاعات المحبوسة. ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى زال حكمهم من مصر سنة ٥٦٧هـ.

وكان من مظاهر اهتمام الفاطميين بقواتهم البرية والبحرية، الاحتفال بتوديعها عند تأهبها للرحيل لمحاربة الأعداء، فإذا ما خرج الجيش الفاطمى جلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح وعلى الأخص حين تكون الحملة متجهة إلى بلاد الشام، وفى هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة فيخلع عليه خلعا مزركشة بالذهب، ثم يأمر الجيش بالمسير^(١)، أما فى حالة خروج الأسطول، فيحضر الخليفة بصحبة الوزير والأعيان إلى منظرة المقس حيث يكون مقدم الأسطول فى انتظاره، وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية يأذن للمقدم بالمثول بين يديه فيخلع عليه^(٢)، ثم يودعه ويبدأ الأسطول فى المسير. وعند عودة الأسطول مظفرا يقام احتفال كالذى أقيم عند رحيله، فيحضر الخليفة بصحبة رجال الدولة ليشهد أسطوله الذى أحرز النصر^(٣).

(١) المقرئى: خطط جـ ١ ص ٤٨١ - ٤٨٢، حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص ٢٢٣.

(٢) المقرئى: خطط جـ ١، ص ٤٨، القلشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٥٢٣ - ٥٢٤.

(٣) المقرئى: خطط، جـ ٢ ص ١٩٣.

٢ - الحالة الاقتصادية :

الزراعة : اهتم الفاطميون بالزراعة على اعتبار أنها من أهم مصادر الثروة فى مصر، وكانت زراعة القمح تشغل الجزء الأكبر من الأراضى المصرية الخصبة التربة - وعلى الأخص أنحاء الدلتا والوجه القبلى - لأنه الغذاء الرئيسى لأهل البلاد. أما الذرة فلم تكن معروفة فى مصر فى ذلك العهد^(١).

وكان الكتان يزرع فى الأراضى المنخفضة التى تظل مغمورة بالمياه مدة طويلة. لذلك انتشرت زراعته فى الدلتا والفيوم. أما قصب السكر، فقد توسع المصريون فى زراعته فى العصر الفاطمى. وليس أدل على ذلك من قول ناصر خسرو الذى زار مصر حوالى سنة ٤٤٠هـ، «وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكرا».

وكانت مصر تشتهر أيضا بإنتاج أنواع مختلفة من الفواكه، ومن أهمها: الكروم، وتزرع فى نواحي مريوط والجيزة والفيوم وقليوب، وبعض جهات الوجهين القبلى والبحر، وكذلك كان شجر النخيل مغروسا فى مختلف أنحاء القطر. وقد ذكر الأدفوى^(٢) أنه كان يفرس بالصعيد أشجار النخيل على شاطئ النيل من الجانبين الشرقى والغربى، كما قال إن محصول إسنا من التمر بلغ فى إحدى السنوات أربعين ألف أردب، وكانت أسوان أكثر نخيلا من غيرها من جهات الصعيد. وقد بلغ مجموع محصولها من التمر فى سنة واحدة ستة وثلاثين ألف أردب.

كذلك اهتمت الحكومة الفاطمية بغرس أشجار الغابات حتى يتسنى لها الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء أسطولها الحربى ومراكبها التجارية ومن أشهر مناطق الغابات فى العصر الفاطمى: البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص.

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالرى والزراعة، فلم يخل عهدهم من أحداث أثرت فى الإنتاج الزراعى: فكثيرا ما نقص فيضان النيل عن المستوى العادى اللازم لرى الأراضى كما حدث سنة ٤٥٧هـ فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، حيث حل بالبلاد المصرية الشدة العظمى التى استمرت سبع سنوات،

(١) متر: الحضارة الإسلامية، ج ٢ ص ٢٦١.

(٢) كتاب «الطالع السعيد»، ص ١٠ - ١١.

وكان من مظاهرها إهمال الزراعة وارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية، وانتشار الوباء. وقد اقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والحروب الأهلية، فلما ولي بدر الجمالي الوزارة سنة ٤٦٦هـ قضى على المفسدين ووجه اهتمامه إلى إصلاح حال البلاد، فسادت الطمأنينة، وعينت الحكومة الفاطمية بالترع والجسور، فزاد خراج مصر في أيامه إلى أكثر من ثلاثة ملايين دينار^(١).

وبلغ من عناية الفاطميين بالزراعة أن أنشأوا إدارة خاصة تشرف على أمورها، كما قاموا بمشروعات عظيمة لتنظيم رى الأراضي نخص بالذكر منها الخليج الذى أشرف على حفره أبو المنجا متولى ديوان جهات الدلتا الشرقية فى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى. وكان هذا الخليج يخرج من النيل لرى الأراضي الواقعة فى شرق فرع دمياط^(٢).

وكان الفاطميون يعاملون الفلاحين معاملة تنطوى على التسامح والرعاية فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين^(٣)، بل حددوا مقداره، كما حرصوا منذ امتد نفوذهم إلى مصر على عدم انتزاع الأراضي من أيدي أصحابها، فقد جاء فى عهد الأمان الذى أعطاه جوهر للمصريين: «ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل، الشامل الكامل، المتحدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم^(٤)» أما الأراضي التى تمتلكها الدولة، فأخذوا فى توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم. وكانت هذه الأراضي إذا نزلت عنها الحكومة صارت ملكا للمقطعين، ولكن إذا منحت الأرض لبعض الأفراد مقابل دفع مبلغ معين من المال تصبح إقطاع استغلال، وهذا النوع من الإقطاع كان يعطى للأجناد فى العصر الفاطمي.

وقد أدخل تعديل كبير على الإقطاعات فى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى، ذلك أنه لما شكا صغار المقطعين من قلة دخل إقطاعاتهم، على حين زاد المتحصل من إقطاعات الأمراء، أمر الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بحل جميع

(١) المقرئى: خطط ج١، ص ١٠٠

(٢) القلشندي: صبح الأعشى ج٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٣) انظر: المقرئى: خطط ج١ ص ٨٥.

(٤) المقرئى: اتعاظ الخفا ص ١٥١ - ١٥٢.

الإقطاعات وإعادة توزيعها، ولم يتعرض للأرض المملوكة، بل أبقاها فى أيدي ملاكها، ومن قوله فى هذا الشأن: «إن كل من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الإقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره». وكان أكثر المقطعين فى ذلك الوقت من الأجناد، وقد سمح لهم الأفضل بن بدر الجمالى بأن يستغلوا فى إقطاعاتهم مدة ثلاثين سنة، وفى ذلك يقول المقرئى^(١): «وكتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد».

وكان المقطع فى أواخر العصر الفاطمى يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان مقدارها دينار وخمسة قراريط، وإذا انقطعت مدة الإقطاع، عليه أن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها، ولا ينقل شيئا من المنشآت التى أقيمت عليها^(٢).

الصناعة: استخدمت أساليب جديدة فى الصناعة فى العصر الفاطمى. وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأمور فى البلاد؛ فضلا عن حياة الترف والبذخ التى سادت المجتمع فى بعض المدن المصرية وبخاصة القاهرة والفسطاط. وكان لهذه الحياة تأثير كبير فى الإنتاج الصناعى، فأصبح عمل المصانع ليس مقصورا على إمداد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى والملابس لطوائف الجند، بل تنوعت لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم.

وكان من الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر وتنوعت أصنافها: صناعة النسيج؛ إذ بلغت من الرقى فى مصر بحيث أصبح من اليسير صنع بعض الأقمشة الصوفية فامتارت بلدة القيس بعمل المنسوجات الصوفية الرفيعة^(٣). وكانت بعض منسوجات الصعيد الصوفية تصدر إلى بلاد الفرس حيث عرفت هناك باسم «المصرى»^(٤).

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين مركزا هاما لصناعة المنسوجات الحريرية. وقد أنشأ المعز لدين الله فيها دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم، وكان يصنع بهذه الدار أيضا كسوة الكعبة والخلع التى

(١) خطط، ج ٢ ص ٨٣.

(٢) ابن عماتى: قوانين الدواوين ص ٣٩٧.

(٣) منظر الحضارة الإسلامية، ج ٢ ص ٢٩٦.

(٤) ناصر خسرو: كتاب «سفر نامه» ص ٧٠.

يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمي هذا العيد بعيد الحلل؛ كذلك عمل الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج، فأنشأوا عدة مصانع لإنتاج الأنواع الفاخرة. وكانت دار الديباخ^(١) منذ عهد الأفضل بن بدر الجمالى تنتج نوعا من الحرير يعرف بالحرير الديباخ. كما أن خزانة البنود التى بناها الخليفة الظاهر الفاطمى كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب^(٢).

وكان لصناعة المنسوجات الكتانية شأن كبير فى مصر فى العصر الفاطمى، ويرجع السبب فى ذلك إلى وفرة الكتان فى منطقة دمياط وشرق الدلتا، ومن المراكز الرئيسية لهذه الصناعة: الفيوم وتينيس ودمياط وشطا ودبيق، وينسب إلى هذه المدينة الأخيرة أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى، وكان يصنع فى دبيق قماش ثقيل جيد النسيج، والعمائم الطويلة التى يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع^(٣).

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى العصر الفاطمى. وكانت الفسطاط من أكثر مراكز صناعة الزجاج. ومن البلاد التى اشتهرت بهذه الصناعة أيضا الفيوم والأشمونين والإسكندرية؛ أما الخزف فقد أشار ناصر خسرو إلى أن المصريين كانوا يصنعون أنواعا مختلفة منه، وبلغ من انتشار استعماله فى مصر أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف بدلا من الورق^(٤).

التجارة: ازداد النشاط التجارى فى الفسطاط والقاهرة حيث يقيم الأعيان وأصحاب الإقطاعات، ويكثر توافد الناس. وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى، واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل، وفضلا عن ذلك فإنه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب.

(١) المقرئى: خطط جـ ١، ص ٤٦٥.

(٢) المقرئى: خطط جـ ١، ص ٤٣٣.

(٣) المقرئى: خطط جـ ١، ص ٢٢٦، متر: الحضارة الإسلامية، جـ ٢ ص ٢٩٦.

(٤) ركنى حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٥٠ - ١٥١.

ولم يؤثر إنشاء القاهرة على مركز الفسطاط التجارى، لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار فى الفسطاط أقل منها فى حاضرة الخلافة الفاطمية^(١).

وكانت الفسطاط تتمتع برخاء عظيم فى العصر الفاطمى، فكثرت بها المتاجر والأسواق، كما كان يأتى إليها كثير من المراكب، يقول ناصر خسرو^(٢) فى وصفه لها إنه كانت بها الأسواق التى تباع فيها جميع أنواع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة، وبها أيضا كثير من الخانات.

ومن مراكز التجارة الداخلية مدينة دماط التى تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها، وأصبحت الميناء المصرى الوحيد فى الجزء الشرقى من البحر المتوسط، كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية، فقامت بها الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل. وكان لأسوان أيضا شأن كبير فى التجارة الداخلية بسبب ورود تجارة النوبة والسودان إليها^(٣).

أما عن التجارة الخارجية، فقد اتسع نطاقها مع البلاد الآسيوية والأوربية، فكانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين، كما أن حاجتها إلى المواد الخام كالخشب والحديد حملتها على استيرادها من بعض الدول الأوربية. وصارت الإسكندرية من المراكز الرئيسية للتجارة، فتنقل منها البضائع الآسيوية إلى أوروبا وترد إليها السفن الأوربية محملة بالسلع اللازمة للصناعة المصرية. ولم تكتف مصر بأن تكون طريقا لمرور الغلات الآسيوية، بل كان لديها ما تصدره إلى البلاد الأوربية كالنظرون والشب والمنسوجات على اختلاف أنواعها^(٤).

وقد قامت بين مصر والمدن الإيطالية وبخاصة جنوة والبندقية علاقات تجارية، فأخذت سفن البندقية تنقل الخشب والحديد إلى الموانئ المصرية، كما أقدم

(١) انظر: البراوى، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٩٩.

(٢) كتاب «سفر نامه» ص ٥٨ - ٥٩.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٠ - ٦٠١.

(٤) البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢١٣ - ٢٤٣.

تجار جنوة على التعامل مع الفاطميين فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر، وصارت سفنهم تبحر إلى الموانى المصرية، وقد استجاب بعض الخلفاء فى أواخر العصر الفاطمى لرغبة هؤلاء التجار فى الحصول على أمان لهم ولسفنهم تشجيعاً لهم على الاتجار مع بلادهم^(١).

وعلى الرغم من المنازعات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية فإن العلاقات التجارية بينهما لم تنقطع، فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع تنيس ودمياط^(٢)، كما أن مصر كانت تستورد بعض منتجات الدولة البيزنطية وبخاصة الغلال، وقد ذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن كثيراً من السلع التى رآها وأعجب بها فى أسواق مدينة مصر كانت من واردات بلاد الروم.

وقد أذنت الحكومة الفاطمية فى مصر للتجار الإيطاليين وغيرهم من الأوربيين بإنشاء الفنادق الخاصة بهم. وكان لكل جالية أجنبية بالإسكندرية فندق وهو عبارة عن بناء يقيم فيه التجار الأوربيون ويحفظون فيه بضائعهم إما فى داخل المدينة أو خارجها. وكانوا عادة يختارون أحد أفراد الجالية للإشراف على تنظيم الإقامة فى الفندق.

كذلك أقيمت فى مصر فى ذلك العصر الوكالات وهى كالفنادق^(٣)؛ وينزل بها التجار القادمون من بلاد الشرق الإسلامية فيذكر ابن ميسر^(٤) أن الوزير المأمون البطائحي أمر سنة ٥١٦ هـ ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار.

وكان هناك بجانب هذه المنشآت التى أعدت للتجار أبنية أخرى أطلق عليها اسم القياسر^(٥). وكانت القيسارية كمجموعة من المباني العامة، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومسكن. وكان فى بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين

(١) Heyd: Hist. du Commerce du Levant au Moyen Age, tome I, P.391.

(٢) Heyd: Hist. du Commerce du Levant au Moyen Age, tome I, P.58.

(٣) المقرئى: خطط جـ ٢ ص ٩٣.

(٤) تاريخ مصر، ص ٦٢.

(٥) انظر: المقرئى. خطط جـ ٢ ص ٨٦.

ويعملوها ربايع يقيم فيها الصنائع والتجار بأجر^(١). وقد أنشئ بمصر فى العصر الفاطمى عدد قليل من هذه القياسر^(٢).

* * *

أما عن نظم المعاملات التجارية فلم تكن موحدة فى الدولة الإسلامية، ففي مصر والشام شاع استعمال الدنانير الذهبية؛ أما فى بلاد الفرس والعراق، فعملتها الجارية الدراهم الفضية، واستمر الدينار فى مصر قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمى، غير أن جوهر القائد بادر إلى سبك دنانير جديدة أطلق عليها المعزية، وأبقى التعامل بالدينار الراضى (نسبة إلى الخليفة العباسى الراضى).

ولما عهد المعز لدين الله الفاطمى فى أوائل سنة ٣٦٣هـ إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالإشراف على الخراج، صار ابن كلس يجبى خراج الدولة بالدينار المعزى. فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضى. ومن ذلك يتضح لنا كيف حملت الحكومة الفاطمية أهالى البلاد المصرية على التعامل بنقودها.

ولم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحدة للتعامل، فأصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهماً بدينار^(٣). ومن المرجح أن ضرب الدراهم الفضية فى ذلك العهد إنما أريد به تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن، وهكذا أصبحت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية.

(١) المقرئى: خطط ج ٢ ص ٨٧.

(٢) البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(٣) الكرملى «كتاب النقود العربية» ص ٥٨ - ٥٩.

٣- مظاهر الحياة الاجتماعية :

اتخذت الحياة الاجتماعية بمصر فى العصر الفاطمى مظاهر خاصة، كما تقلبت بين ألوان من البذخ والترف قل أن نجد لها فى عصر آخر من عصور مصر الإسلامية. وقد تجلّى بذخ الخلفاء فيما أورده المقرئى^(١) عن خزائن الفرش والأمتعة والجواهر والخيام والشراب، كما نستدل أيضا على ترفهم من القصور التى بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرهم، ومن أشهرها القصر الشرقى الكبير. وكان به عدة أبواب، منها: باب الذهب وتعلوه منظره، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة، يقف فيها الجنود فى يومى العيدين، وتعرف برحبة العيد، وباب الديلم، وقد أسس العزيز بهذا القصر قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك^(٢). وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث ومزينة بالستور والطنافس الحريرية.

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية عند الخلفاء فى آخر العصر الفاطمى من هذا الوصف الذى كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولى أملىك^(٣) ملك بيت المقدس للقصر الفاطمى فى عهد الخليفة العاضد، ومما جاء فيه^(٤). «... وسار السفراء يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة، وفيه زخارف أنيقة. وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم... فوجدوا فى هذا القصر حراسا عديدين، وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة، وقادوا السفراء فى ممرات طويلة... ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف، وتحيط به أروقة ذات أعمدة، وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان. وكان فى وسط الفناء نافورة، يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام... وفى هذا المكان حل محل الحراس المرافقين للسفراء بعض العظماء من الأمراء المقرئين إلى الخليفة، فساروا

(١) خطط، ج١، ص ٤١٦ - ٤٢٥.

(٢) المقرئى: خطط، ج١، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٣) ورد اسمه فى بعض المراجع Amaury

(٤) †Stanley Lanc-Poole, Salah El Din and the Fall of the Kingdom Jerusalem, pp. 86-89.

زكى حسن: كنوز الفاطميين، ص ٧٤ - ٧٦.

بصحبة المبعوثين من قبل الملك أمليرك في أفنية جديدة أشد جمالا وإبداعا . وبعد أن عبر السفيران أبوابا عديدة وصلا إلى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة ، وقد فاق هذا القصر كل ما رآوه قبل ذلك ، وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين ، متقلدين أسلحتهم . . . وأدخل المبعوثان في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان ، ولم يكن في هذه القاعة أحد ، لكن شاوور خر راكعا فور دخوله . . ثم ارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق . . وظهر (السلطان العاضد) لأعين السفراء وكان على وجهه نقاب يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة .

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون عيشة الترف ، فجعل يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي في قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه ، وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه ، كما اتخذ بقصره طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ويتقلدون السيوف ويتمنطقون بالمناطق^(١) .

كذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي مترفا في حياته ، فاتخذ مسكنه في دار الملك التي بناها سنة ٥٠١ هـ ، وجعل فيها محال خاصة تقام فيها الأسمطة في الأعياد ، واتخذ في أحد أبهائها مجلسا ، يجلس فيه للعطاء ، وقد وجد في هذه الدار بعد وفاته ما لا يحصى من الأدوات ، وتسعون ألف ثوب عتابي (نوع من الثياب الحريرية) ، وثلاثة خزائن ممتلئة بالثياب الدبيقية من صنع تنيس ودمياط ، وخزانة للطب . أضف إلى ذلك أربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد ، وكان للأفضل مجلس شراب به ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات ، منهن أربع بيض من كافور ، وأربع سود من عنبر ، وكن مرتديات أفخر الثياب ومترينات بأثمن الحلى . وكان الأفضل إذا دخل من باب هذا المجلس نكس رؤوسهن إجلالا له ، فإذا أخذ مكانه في صدر المجلس استوين قائمات^(٢) .

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ، ج ٢ ص ٤٤١ ، حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ج ٢ ص ٦٣٣ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٥٨ .

وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مولعا بالبساتين، فبنى لأحدها سورا يشبه سور القاهرة، وحفر به بركة كبيرة، كما بنى فى وسط هذا البستان منظره على أربعة أعمدة من الرخام، وزرع حوالىها شجر النارج، وجلب إليه كثيرا من الطيور المسموعة وسرح فيه كثيرا من الطواويس^(١).

اهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية فى شىء كثير من الأبهة والعظمة فمنها عيد الفطر، وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية، ومولد النبى ﷺ، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ومولد ولديه الحسن والحسين، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، ويوم عاشوراء، هذا إلى مواسم أخرى، وهى ليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه.

وكان يقام فى ليلة عيد الفطر بالإيوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم، يبلغ طوله نحو ثلاثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع، وتشر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية، فإذا ما انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه، وفتحت أبواب القصر والإيوان على مصاريعها، وهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط الخلفى، وتناولوا مما عليه من الطعام بمشهد من الخليفة ووزرائه^(٢)، وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة فى موكبه إلى الصلاة. وفى ذلك يقول المقرئى: «وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب والعسكر فى ريه، من الأتراك والديلم والعزيرية والإخشيدية والكافورية، وأهل العراق بالديباج المثلث والسيوف والمناطق الذهب، وعلى الجانب السروج، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر، ويده قضيب جده عليه السلام، فصلى على رسمه وانصرف». وإذا ما عاد الخليفة من الصلاة، وجد سماطا آخر، فيجلس وأمامه مائدة من فضة، يقال لها المدورة، وكانت توضع عليها أوانى الذهب والفضة الزاخرة بالألوان الطعام، وقبالتها سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو، نثرت عليه الأزهار والرياحين وصفت على جانبيه الأطباق الحافلة بصنوف الطيور والحلوى وكان يجلس إليه رجال الدولة والعظماء.

(١) المقرئى: خطط، ج٢، ص ٣٧٩.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٩٧.

أما عيد الأضحى، فيحتفل في أول يوم منه بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو الذي اتبع في عيد الفطر، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة إلى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى واشترائه في إجراءات النحر. وكان الخليفة إذا انقضى اليوم الثالث خلع على وزيره ثوبه الأحمر الذي كان يرتديه يوم العيد^(١).

وكان احتفال الفاطميين بعيد رأس السنة الهجرية مثال الروعة والبهاء. وقد أورد لنا المقرئى^(٢) وصفا لمراسم الاحتفال بهذا العيد؛ فذكر أنهم كانوا يعدون العدة للاحتفال به منذ العشر الأخير من شهر ذى الحجة في كل سنة، حيث يبدأ المستخدمون والعمال في إعداد آلات موكب الخلافة من الأسلحة وغيرها. وإذا ما أصبح اليوم التاسع والعشرون من هذا الشهر، تأهب الخليفة لعرض الخيل، فيخرج راكبا من قصره، وينزل بمكان يقال له السد حيث يجلس في مكان محجوب بالستائر.

أما الوزير، فيركب في هذا اليوم من داره وبصحبه الأمراء، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء وظل راكبا حتى باب الدهاليز بقصر الخليفة حيث ينزل هناك ويسير محاطا بحاشيته وغلمانه وأولاده وأقاربه، ثم يجلس في المكان المعد له، وحينئذ ترفع الستائر التي بجانبه فيرى الخليفة جالسا، فيقف الوزير ويسلم عليه؛ ثم يتلو القراء بعض آيات مناسبة لعيد رأس السنة. وبعد أن يتموا تلاوتهم، يشرع الخليفة في عرض الخيل. وإذا ما فرغ من عرضها، عاد القراء إلى تلاوة بعض آيات الذكر الحكيم إيذانا بانتهاء الحفل.

وفي صباح أول المحرم يركب الوزير، مرتديا الثياب الفاخرة، ومتقلدا سيفاً من الذهب، إلى قصر الخليفة، وبين يديه الأمراء ركبانا ومشاة وأمامه أولاده وإخوته. فإذا وصل القصر دخل من بابه راكبا إلى دهليز يعرف بدهليز العمود حيث يترجل على مصطبة هناك؛ وبعد قليل يرفع صاحب المجلس الستر، فيظهر الخليفة في ثيابه البيضاء متقلدا السيف، ويده قضيب الملك مكسوا بالذهب المرصع بالدر والجوهر، وحينئذ يشرع الأمراء في الخروج وبعدهم الوزير الذي يركب دابته، ويقف قبالة القصر بهيئته، ثم يخرج الخليفة وحواليه الأستاذون.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٥٠١ - ٥١٢.

(٢) خطط، جـ ١ ص ٤٤٦ - ٤٥٠.

ويبدأ الموكب الخلافى فى السير، يتقدمه الأمراء وطائفة من العسكر والأساتذة المحنكون^(١)، ثم الخليفة يحيط به مقدمو صبيان الركابة متقلدين سيوفهم ويزيد عددهم على ألف رجل. ويسير خلف دابة الخليفة فريق من صبيان الركاب لحفظ أعقابهم، ثم يأتى الخليفة وفى ركابه قوم من أقوياء الأجناد، ويبلغ عددهم خمسمائة، خلفه الطبول والصنوج، وطوائف الجند من الرجال والفرسان، وإذا وصل الخليفة إلى الجامع الأحمر بالقماحين، سارع الوزير إلى الوقوف بين يديه، فيحييه الخليفة بإشارة خفية، ثم يعود الموكب الخلافى إلى القصر.

كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بالاحتفال بليلة مولد النبى ﷺ احتفالاً باهراً يليق بمكانته العظيمة فى نفوس المسلمين. وكان الاحتفال بمولد النبى بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية، لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم فى تكريم النبى، رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجرى أن يحتفلوا بمولده^(٢). ومن المظاهر الدينية المألوفة فى هذا العيد قراءة السيرة النبوية فى المساجد.

وكانت ليالى الوقود - وهى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان ومن أشهر المواسم التى اختصت بها الدولة الفاطمية، ففيها تضاء جميع المساجد بعد غروب الشمس وتبدو القاهرة فى حلل بديعة من الأنوار، ويخرج الناس إلى الجامع الأزهر الذى تضاء حافته بالمشاعل ويعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة^(٣) وكان جمهور المسلمين فى مصر يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بشهر رمضان، واستمر الاحتفال بها إلى وقتنا الحاضر.

وكان شهر رمضان من أهم المواسم الدينية التى عنى الفاطميون بإحيائها، فيحتفل فى أول يوم منه بركوب الخليفة من القصر الشرقى الكبير ويصحبه وزيره، وحوله حرسه الخاص، فيخترق موكبه شوارع القاهرة ومصر حتى جامع عمرو بن

(١) جمع أستاذ محنك. وهو رجل مدرب، وكان يتلثم بطرف عمامته. ومن الأساتذة المحنكين: صاحب المجلس وصاحب الرسالة، وصاحب بيت المال.

(انظر القلقشندى: صبح الأعشى ج٣. ص ٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) انظر: متز، الحضارة الإسلامية. ص ٢٥٠.

(٣) المقرئى: خطط، ج١، ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

العاص الذى كان يعرف إذ ذاك بالجامع العتيق، فإذا وصل إلى بابه وجد الخطيب فى انتظاره، ويده المصحف المنسوب خطه إلى على بن طالب، فيتناوله الخليفة ويقبله عدة مرات، ثم يأمر بتوزيع بعض المنح المالية على خطيب المسجد ومؤذنيه. وإذا ما انتهى الخليفة من أداء الصلاة بالمسجد، استأنف سيره إلى دار الملك. وكان ركوب الخليفة فى غرة رمضان يقوم عند الفاطميين مقام الاحتفال برؤية الهلال عند أهل السنة. وكان يهدى فى أول شهر رمضان للأمرء وأرباب الدولة أطباق من الحلوى بوسط كل منها صرة من ذهب، كما كانت ترسل مثل هذه الأطباق إلى أفراد أسرهم.

كانت المآدب والأسمطة مظهرا من مظاهر الاحتفال بالمواسم والأعياد فى العصر الفاطمى بمصر، فقد عنى الفاطميون بتنظيمها عناية خاصة، كما بالغوا فى إعدادها سواء أكان ذلك فى المساجد أو فى قصر الخليفة أو فى دار الوزير، ففى قصر الخليفة كانت تقام الأسمطة فى المكان المعروف بقاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك. وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أول من سن تلك السنة، وحذا خلفاؤه حذوه، فكانوا يقيمون الأسمطة من اليوم الرابع من شهر رمضان إلى السادس والعشرين منه، وكان يدعى إليها قاضى القضاة والأمرء وكبار رجال الدولة من القواد والموظفين. ويمثل الخليفة فيها الوزير، فإن تغيب ناب عنه ابنه أو أخوه. وكانت أصناف المأكولات من الوفرة بحيث يستطيع الناس أن يأخذوا منها ما يريدون. وبلغ ما ينفق على سماط شهر رمضان ثلاثة آلاف دينار.

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب فى الجمع الثلاث من رمضان إلى جوامع الحاكم بأمر الله والأزهر وعمرو بن العاص على التوالى لصلاة الجمعة. ويشرف صاحب بيت المال فى كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأييد المسجد الذى يصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة. وكانت توضع فى المقصورة ثلاثة طنافس دبيقية أو سامانية بيضاء بعضها فوق بعض، وكان ينصب على جانبى المنبر ستران، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة، وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة «المنافقون» كتابة واضحة.

وكان الخليفة يرتدى فى هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض، ويتعمم بعمامة من هذا النوع من الحرير ويحمل قضيب الملك بيده، ويصل إلى الجامع فى موكب حافل يحف به بعض الأشراف وعدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الآخرين^(١)، ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس، ويدخل الخليفة المسجد يحيط به قراء الحضرة الذين كانوا يصحبونه من القصر وهم يرفعون أصواتهم بتلاوة القرآن بنغمات شجية، ثم يستريح قليلا فى قاعة الخطابة التى كان يحرسها قائد القواد وفريق من حرسه، ويظل جالسا فى هذه القاعة حتى ينتهى الأذان، فيدخل إليه قاضى القضاة ويقول له: «السلام على أمير المؤمنين، الشريف القاضى، ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله» فيصعد الخليفة المنبر ويلقى خطبة قصيرة تعد لهذا الغرض فى ديوان الإنشاء، يتلو فيها آية من القرآن، ثم يصلى على أبيه وجده (محمد صلى الله عليه وسلم) ويعظ الناس وعظما بليغا موجزا، ويتوسل بدعوات فخمة تليق به، ويختم خطبته بالدعاء للوزير وينصر الجيش وخذلان الكفار والمخالفين، وإذا ما فرغ من خطبته قال: اذكروا الله يذكركم، ثم يؤم المصلين، فيقرأ فى الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستريمين المحراب، وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر. وحينما يكبر، يبلغ الوزير عنه، ثم قاضى القضاة، ثم المؤذنون. فلإذا ما انتهت الصلاة خلا المسجد من الناس وخرج الخليفة، يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاة عن يساره، وحرسه الخاص، ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التى اتخذها فى ذهابه إلى الجامع^(٢). وكانت هذه الرسوم تتكرر فى صلاة الجمعةين الأخيرتين من رمضان.

وكان الشعب المصرى يستقبل هذه المواسم بمظاهر الفرح والسرور إلا يوم عاشوراء^(٣) فقد كان يعتبر يوم حزن عام، تعطل فيه الأسواق، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد فى رثاء الحسين؛ وفى نفس اليوم يقام سباط يسمى سباط الحزن فى بهو بسيط. وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجبن؛ يحضره الخليفة ملثما ومرتديا الثياب القائمة^(٤).

(١) القلشندي: صبح الأعشى ج٣، ص ٥١١.

(٢) المقرئى: خطط، ج٢، ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٣) اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على بن أبى طالب بكر بلاء (١٠ المحرم سنة ٦١هـ).

(٤) المقرئى: خطط ج١، ص ٤٣١، حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص ٤٦٢.

كذلك أولى الخلفاء الفاطميون الاحتفال بوفاء النيل كثيرا من اهتمامهم، فكانوا يركبون إلى المقياس بالروضة إذا ما بلغ الفيضان ستة عشر ذراعا. وقد ذكر ناصر خسرو أنه كان يحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة وفي ركابه عشرة آلاف فارس، يمتطون الخيول المطهمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة، ويلى هؤلاء صفوف من الجمال عليها هودج مزركشة تقودها طائفة من الجند^(١).

وكان موكب الخليفة يخترق شوارع القاهرة ومصر، يحف به أفراد الشعب حتى يأتى منظر «دار الملك» بالقرب من المقياس، فيركب منها فى العشارى الخاص بصحبة وزيره وكبار رجال حاشيته قاصدا المقياس، فإذا دخله صلى هو والوزير ركعتين، ثم يضع الخليفة بيده الزعفران والمسك فى إناء خاص يسلمه لصاحب بيت المال الذى يناوله بدوره للموظف المختص بالإشراف على المقياس، فيقوم هذا الموظف بتخليق المقياس (أى تعطيره)، بينما يتناوب قراء الحضرة تلاوة القرآن، ثم يخرج الخليفة راكبا فى العشارى، فإذا ما وصل دار الملك عاد بموكبه إلى القصر^(٢).

وكانت تقدم الحلل إلى الوزراء وبعض الأمراء والأشراف وغيرهم فى عيد الفطر، كما كان الخلفاء يجودون على كبار رجال الدولة بالخلع، فى غرة رمضان وفى الجمع الثلاث الأخيرة منه وفى وفاء النيل، وكان يمنح الشعراء والكتاب والأعيان الذين يحضرون إلى القاهرة فى تلك المواسم حللا من الحرير الخالص، بعضها مزركش بالذهب^(٣).

وكانت الكسوات التى تخلع على وجوه الدولة ترفق برقعة من ديوان الإنشاء. وقد أورد لنا المقرئى^(٤) صورة منها. وقد جاء فيها: «لم يزل أمير المؤمنين منعما بالרגائب، موليا إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب. وإنك أيها

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ص ٦٦٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٥١٢ - ٥١٣، ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٣) المقرئى: خطط، ج ١ ص ٤١٠.

(٤) المقرئى: خطط ج ١ ص ٤١٢.

الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه، وأحراهم باستنشاق نسيمه . إذ كنت فى سماء المسابقة بدرا، وفى موائد المناصحة صدرا، ومن أخلص فى الطاعة سرا وجهرا وحظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفا وسير له ذكرا . ولما أقبل هذا العيد السعيد، والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم، ويأخذوا عند كل مسجد زيتهم . ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه فى المواسم التى تجاربه بكسوات على حسب منازلهم، تجمع بين الشرف والجمال، ولا يبقى بعدها مطمح للأمال، وكنت من أنخص الأمراء المقدمين» .

كذلك كانت توزع فى عيد الفطر النقود الذهبية والفضية والملابس والأطعمة على الأضياف والموظفين على اختلاف درجاتهم، هذا إلى ما كان يمنحه كبار الموظفين فى غرة المحرم من النقود الذهبية التى كانت تضرب خصيصا لهذا اليوم فى العشر الأخير من ذى الحجة . وتسمى نقود الغرة، وهى دنانير رباعية ودراهم خفاف مدورة . وكان هؤلاء الموظفون يقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة^(١) .

وقد اعتاد الخلفاء عند ركوبهم إلى المناظر أن يمنحوا رجال القصر والشعراء والمؤذنين والقراء ومن إليهم فى الحاشية المنح الوفيرة، فيحمل أحد الموظفين كيسا من الحرير فيه خمسمائة دينار لتوزع فى الطريق الذى يجتازه الخليفة على الرجال والنساء والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبى الطريق .

* * *

كثر الاهتمام بالغناء والموسيقى فى العصر الفاطمى بمصر، فأقبل وجوه القوم فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات . وكان معظم المغنيات من الجوارى، فيحكى أنه اشترت من بغداد جارية تحيد الغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر، فغنت له ولجلسائه، ولم يزل غناؤها يزيده طربا حتى قال لها: تمنى ما شئت، فتمنت أن تغنى ما غنت ببغداد، فلم يجد الأمير بدا من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد .

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٥ .

وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطئ الخليج بالقاهرة فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله؛ فلما تجلّى الانحلال الاجتماعى من جراء هذه المجالس، أصدر الحاكم قوانين يمنع بعضها سماع الموسيقى ويحرم البعض الآخر الغناء والملاهى التى تعد خطراً على الأخلاق العامة^(١).

على أن هذه المجالس ما لبثت أن عادت إلى الظهور بعد وفاة الحاكم؛ فقد أولع بعض من جاء بعده من الخلفاء بالغناء والموسيقى؛ فكان الخليفة المستنصر بالله يميل إلى سماع المغنيات. وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان من بين مظاهر الاحتفال باستيلاء البساسيرى على بغداد وإقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة تنشد بعض الأبيات، فأعجب المستنصر بغنائها وأجزل لها العطاء^(٢).

وكان اللعب بالخيال معروفا بمصر فى العهد الفاطمى، فيخرج الناس فى بعض الأعياد ويطوفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل والسماجات، كما احترف بعضهم التقليد والمحاكاة، وبلغ من حذق بعض الناس المحاكاة أنهم كانوا يقلدون طوائف السكان على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم، وكان الأهالى يقبلون على سماع نواذرهم^(٣).

وقد ذكر المقرئى^(٤) أنه كان يحتفل بمصر فى ذلك العهد بعيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة، وأن العامة كانوا يطوفون فى هذا العيد بأسواق المدينة بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم، غير أنه حدث أن اشتد الغلاء سنة ٤١٥هـ، فامتنع التجار عن الدفع. ولما علم بذلك الخليفة الظاهر الفاطمى أمرهم بدفع ما جرت به العادة وبأن يطلق للمحتفلين ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية من الهبات، فخرجوا إلى سجن يوسف بالجيزة ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والسماجات، كما خرج الخليفة إلى الجيزة وأقام يومين لمشاهدة فريق المحتفلين، فأعجب بهم واستظرفهم^(٥).

(١) انظر: المقرئى: خطط ج٢ ص ٢٨٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥ ص ١٢.

(٣) المقرئى: خطط، ج١ ص ٢٠٧، متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص ٢٢١.

(٤) المقرئى: خطط، ج١ ص ٢٠٧.

(٥) المقرئى: خطط ج١ ص ٢٠٧.

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد فى قصور الخلفاء والوزراء والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة. كما كانت المجالس الخاصة تعقد فى داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث التى تتجلى فيها الباقة العقلية، لقضاء أوقات فراغهم فى لعب الشطرنج والنرد^(١).

(١) انظر: متن الحضارة الإسلامية، ج٢، ص ٢١٤ - ٢١٥.

٢ - الحياة الثقافية :

اهتم الفاطميون منذ استقر سلطانهم في مصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلاً عن الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية كالفقه والتفسير. وكان للجامع الأزهر أثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية في مصر. وقد ظهرت فكرة الدراسة به في أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي حين قام قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان المغربى بشرح كتاب «الاقتصار» الذى وضعه أبوه؛ ويشتمل على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت، كما أن أخاه أبا عبد الله محمد بن النعمان جلس فى ربيع الأول من سنة ٣٨٥هـ بقصر الخليفة لقراءة علوم أهل البيت^(١).

وفى أوائل عهد العزيز بالله جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر، وقرأ على الناس رسالة ألفها فى الفقه الشيعى على المذهب الإسماعيلى، تسمى الرسالة الوزيرية، تضمنت ما سمعه فى ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز. وكان يفد إلى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة. وصار ابن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطورا بداره، يقرأ فيها مصنفاته على الناس.

على أن الجامع الأزهر ما لبث أن فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة فى مصر منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨هـ على الخليفة العزيز بتحويله إلى معهد للدراسة بعد أن كان مقصورا على إقامة الدعوة الفاطمية، فاستأذنه فى أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس، على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر، فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء أرواقا شهرية ثابتة، وأنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر^(٢). وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمى إلى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله، فانتقل إليه الفقهاء للإلقاء دروسهم.

كذلك اهتم الفاطميون بإنشاء المكتبات، فألحقوا بالقصر الشرقى الكبير مكتبة رودوها بأندر المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون حتى تميزت على غيرها من مكتبات العالم الإسلامى بما فى خزائنها من كتب قيمة.

(١) انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق للمؤلف ص ٢٣٠.

(٢) حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص ١٢٧.

وكان تجار الكتب يعرضون على موظفى مكتبة القصر أندر الكتب التى يعثرون عليها. وقد روى المقرئى^(١) أن رجلا أحضر إلى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز أمناء المكتبة، فأخرجوا من الخزان ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى، منها نسخة بخط يده، كما كان بخزانة العزيز ما يزيد على ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد.

وكثيرا ما كان الخليفة الفاطمى يزور خزانة الكتب فى القصر الشرقى فيأتى راكبا، ثم يترجل ويأخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويمثل بين يديه أمين الخزانة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين، ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته فى مجلسه الخاص^(٢).

وكان بمكتبته القصر أربعون خزانة كتب فى سائر العلوم، وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد فى الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء.

ومن المراكز الثقافية بمصر دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ وأطلق عليها هذه التسمية رمزا إلى الدعوة الشيعية لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة. وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم، حوت الكثير من الكتب فى سائر العلوم والآداب، من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب، وسمح لسائر الناس على طبقاتهم بالتردد عليها. وفى ذلك يقول المقرئى^(٣): «وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر».

(١) المقرئى: خطط، ج١، ص ٤٠٨.

(٢) المقرئى: خطط، ج١، ص ٤٠٩.

(٣) خطط، ج١، ص ١٥٨.

كان الطلاب يتلقون في دار الحكمة إلى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم. وهكذا اختلفت مناهج التعليم في هذا المعهد عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة، إذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية، بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية. وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب والنجامة، من أمثال ابن يونس المنجم، وأبى على الحسن بن الهيثم، وعلى بن رضوان^(١).

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة وما كان لها من مناهج متنوعة جمعت بين الدراسات العلمية والفقهية أن تجتذب كثيرا من أعلام المشرق، من أمثال الرحالة الفارسي ناصر خسرو، والداعي الحسن بن الصباح اللذين وفدا إلى مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي.

ظلت دار العلم مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب إلى سنة ٥١٦هـ حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي بإغلاقها بسبب ما وصل إليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبدعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة وهي الشافعي والحنفي والمالكي، يترددان على دار العلم، وأن كثيرا من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب. على أن فترة إغلاق دار العلم لم يطل أمدها، فقد أعادها الخليفة الأمر إلى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل^(٢).

فقدت مكتبة القصر الفاطمي عددا غير قليل من الكتب القيمة التي كانت بها في غضون الشدة العظمى التي حلت بمصر في عهد المستنصر بالله، فاستولى الجند والأمراء على الكثير مما في خزانة الكتب^(٣). وعلى الرغم من ذلك كله، فقد بقي في خزائن القصر بعض كتب لم تصل إليها يد العبث، واستطاع الفاطميون فيما بعد أن يعوضوا بعض ما فقدوه، فجلبوا إلى مكتبة القصر كثيرا من الكتب الجديدة حتى أصبح في قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة^(٤).

* * *

(١) خطاب عطية: التعليم في مصر في العصر الفاطمي، ص ١٥٨.

(٢) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤٥٩.

(٣) المقرئزي: خطط، ج ١، ص ٤٠٩.

(٤) انظر كتاب «كنوز الفاطميين» ص ٢٩، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٢٩.

تجلى نشاط الحركة العقلية في مصر منذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لخلافتهم، ففتح الخليفة المعز لدين الله أبواب قصره للعلماء والطلاب، وأباح لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر، وحذا الخلفاء من بعده حذوه، فصاروا يعقدون المجالس العلمية والأدبية بقصورهم، ويدعون إليها الفقهاء والعلماء والأدباء، فيتناظرون بحضرتهم. ولم تكن هذه المجالس تقل في قيمتها التعليمية عن الدروس التي تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

وقد أدى مجيء الفاطميين إلى مصر بمذهب شيعي له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر إلى ظهور فريقين من العلماء، يعمل أولهما على تأييدهم، ويفند الفريق الآخر آراءهم^(١)؛ واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية في تأليف الكتب، وكان لأبي حنيفة النعمان المغربي وأبنائه وهم جميعا من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر في نشر الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية.

وقد عاصر أبو حنيفة الفاطميين بالمغرب. وكان مالكي المذهب كسائر أفراد أسرته، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي وقدم إلى مصر هو وأبناؤه في ركب المعز. ويعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية، وله في الفقه الإسماعيلي عدة مؤلفات منها: «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام». وقد استغل النعمان ميوله المذهبية في تأليف هذا الكتاب حتى إننا نراه يضيف إلى قواعد الإسلام الخمس الولاية وهي حب أهل البيت، والطهارة^(٢).

وكان دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب دعائم الإسلام في أحكامهم، ونهج الوزير يعقوب بن كلس في كتابه «مصنف الوزير» منهج كتاب الدعائم، وأشاد بذكر هذا الكتاب حميد الدين الكرمانى داعي الحاكم بأمر الله في فارس، في كتابه «راحة العقل» حتى جعله في المرتبة التي تلى القرآن والحديث^(٣).

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج١، ص ١٨٨.

(٢) H.Hamdani, (J.R.A.S), 1933, p. 369Æ

انظر «كتاب المعز لدين الله» ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٧٦.

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلي وتشجيعهم فقهاءه، فقد ظهر في عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية نخص بالذكر منهم أبا بكر محمد النعالي المالكي المتوفى سنة ٣٨٠هـ. وكانت حلقة بجامع عمرو بن العاص، تدور على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها^(١). وكان فقهاء المذهب السني في مصر يستنكرون تعاليم الفاطميين ولكنهم لا يستطيعون الجهر بذلك.

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب أثره في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر، فاشتهر من المؤرخين في العصر الفاطمي: أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي؛ اتصل بخدمة الخليفة العزيز، فولاه خزانة كتبه واتخذ من جلسائه وندمائيه؛ وتوفى سنة ٣٨٨هـ في أيام الحاكم بأمر الله. ومن مصنفاته كتاب الديارات، أورد فيه أخبارا طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر، وما قيل في كل منها من الأشعار^(٢). كما نبغ من المؤرخين في هذا العصر الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحي الذي ولد بمصر سنة ٣٦٦هـ وتوفى سنة ٤٢٠هـ. وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته، وقد تولى في أيامه بعض المناصب الهامة، وشغف بكتابة التاريخ. وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى «تاريخ مصر» ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا. وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقرئى وأبى المحاسن.

ومن أعلام المؤرخين: أبو عبد الله القضاعي الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري؛ وتوفى بها سنة ٤٥٤هـ وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي. وقد ولي القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وأوفده هذا الخليفة سفيرا إلى تيودورا إمبراطورة الدولة البيزنطية سنة ٤٤٧هـ ليحاول عقد صلح بينها وبين مصر، وله عدة مصنفات في الفقه والتاريخ، منها «مناقب الإمام الشافعي وأخباره»، وكتاب في خطط مصر سماه «المختار في

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج١ ص ١٩٧.

(٢) ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج١ ص ٤٢٦.

ذكر الخطط والآثار»، يتضمن تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره. وكان هذا الكتاب عوناً للمقريزى على كتابه «المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»^(١).

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهوروا فى أواخر العصر الفاطمى أبو القاسم على بن منجب الصيرفى. وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر، كما برع فى الخط، وتدرج فى بعض الوظائف حتى ولى ديوان الإنشاء للخليفة الأمر بأحكام الله، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦هـ. ومن تصانيفه كتاب «قانون ديوان الرسائل» و «الإشارة إلى من نال الوزارة» الذى ألفه للمأمون البطائحي وزير الأمر، وتتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه. وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ سنة ٥٤٢هـ^(٢).

كذلك نبغ فى العصر الفاطمى بعض العلماء من أمثال أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم، وأصله من البصرة، ثم أتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل. وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة، وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات. وقد ألف نحو مائتى كتاب فى الرياضة والطبيعة والفلسفة، ولم يزل مكبا على التأليف حتى توفى سنة ٤٣٠هـ^(٣).

واشتهر من الأطباء والفلاسفة أبو الحسن على بن رضوان وهو مصرى المولد من الجيزة، وقد نشأ فقيراً معدماً، وأصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى البلاط الفاطمى. وتدل الكتب التى ألفها فى الطب على سعة فكره واطلاعه. كما أن له كتباً فى الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة^(٤). وكان على بن رضوان مجدداً فى صناعته، فلم يعمد فى مؤلفاته إلى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار، وظل طيلة حياته فى كفاح وعمل متصل إلى أن توفى فى حوالى سنة ٤٦٠هـ فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى^(٥).

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٠٢.

(٢) انظر: ياقوت، معجم الأدباء، ج ١٥، ص ٧٩ - ٨٠، ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٨٠.

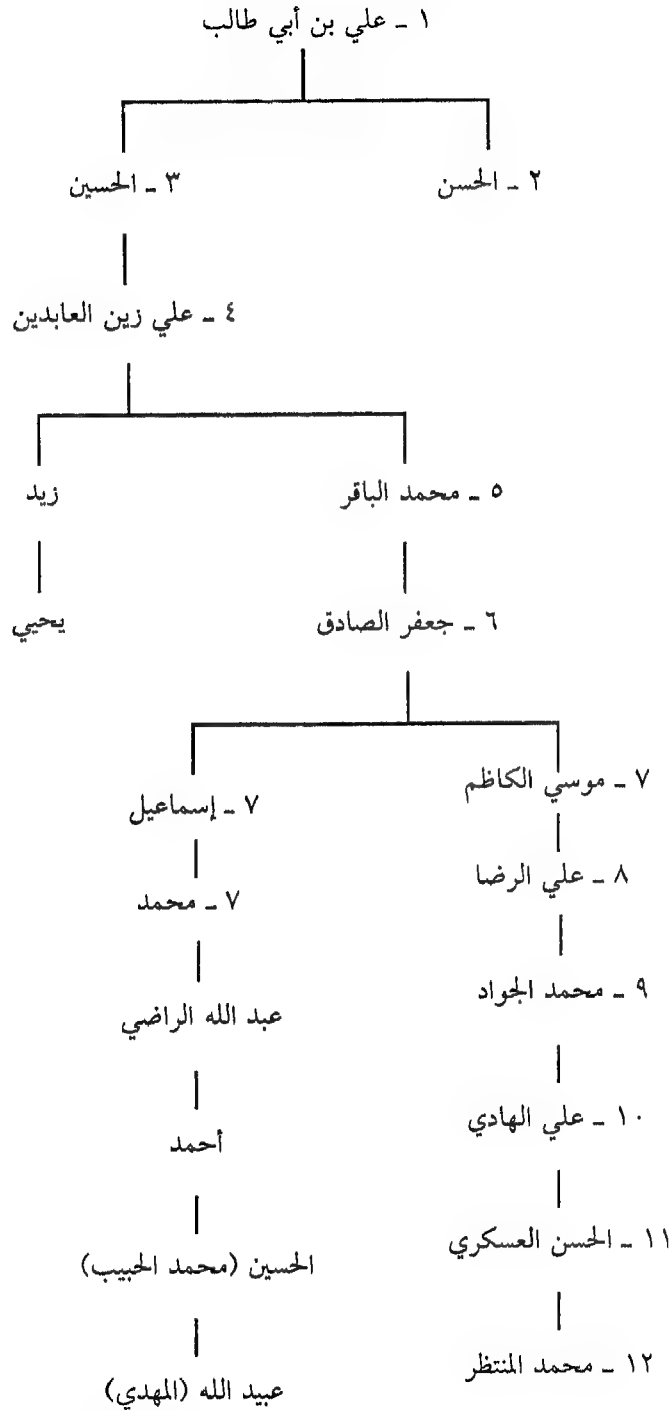
(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٠٤.

(٤) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج ٢ ص ١٠٥.

(٥) ابن القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

وقصارى القول أن الحركة العلمية فى العصر الفاطمى، سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء، فتفوقت على مثيلتها فى العهد الطولونى والإخشيدى، كما تميزت بنشاطها، فكان فى مصر طائفة من علماء الدعوة الفاطمية والمؤرخين والفلاسفة والأدباء أسهموا فى النهضة الثقافية التى تجلت فى ذلك العصر.

الإسماعيلية والاثنا عشرية :

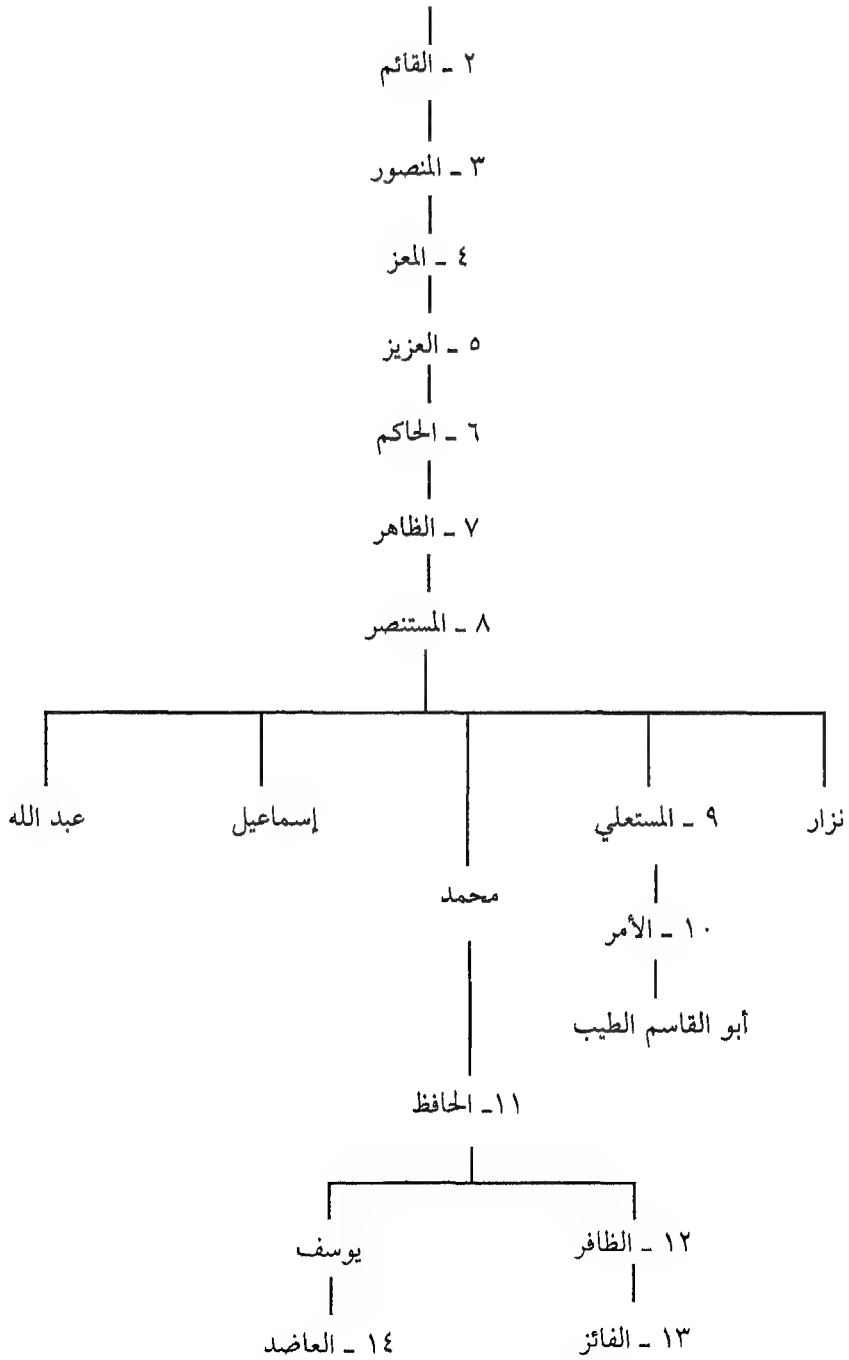


الخلفاء الفاطميون

- ١ - عبيد الله المهدي ٢٩٧ - ٣٢٢ هـ (٩٠٩ - ٩٣٤ م)
- ٢ - القائم (محمد أبو القاسم) ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ (٩٣٤ - ٩٤٥ م)
- ٣ - المنصور (إسماعيل أبو طاهر) ٣٣٤ - ٣٤١ هـ (٩٤٥ - ٩٥٢ م)
- ٤ - المعز لدين الله (معد أبو تميم) ٣٤١ - ٣٦٥ هـ (٩٥٢ - ٩٧٥ م)
- ٥ - العزيز بالله (نزار أبو منصور) ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ (٩٧٥ - ٩٩٦ م)
- ٦ - الحاكم بأمر الله (المنصور أبو علي) ٣٨٦ - ٤١١ هـ (٩٩٦ - ١٠٢٠ م)
- ٧ - الظاهر لإعزاز دين الله (علي أبو الحسن) ٤١١ - ٤٢٧ هـ (١٠٢٠ - ١٠٣٥ م)
- ٨ - المستنصر بالله (معد أبو تميم) ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م)
- ٩ - المستعلي (أحمد أبو القاسم) ٤٨٧ - ٤٩٥ هـ (١٠٩٤ - ١١٠١ م)
- ١٠ - الأمر (المنصور أبو علي) ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ (١١٠١ - ١١٣٠ م)
- ١١ - الحافظ (عبد المجيد أبو الميمون) ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ (١١٣٠ - ١١٤٩ م)
- ١٢ - الظافر (إسماعيل أبو المنصور) ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ (١١٤٩ - ١١٥٤ م)
- ١٣ - الفائز (عيسى أبو القاسم) ٥٤٩ - ٥٥٥ هـ (١١٥٤ - ١١٦٠ م)
- ١٤ - العاضد (عبد الله أبو محمد) ٥٥٥ - ٥٦٧ هـ (١١٦٠ - ١١٧١ م)

الخلفاء الفاطميون

١ - عبيد الله المهدي



مصادر القسم الأول

- ١- ابن الأثير: (ت ٦٣٠ هـ، ١٣٢٨ م) على بن أحمد بن أبي الكرم .
«الكامل فى التاريخ». (١٢ جزءاً- القاهرة ١٠٣٣ هـ)
- ٢- أحمد أمين .
«ظهر الإسلام» (الجزء الأول - القاهرة ١٩٤٥)
- ٣- الأدقوى: (ت ٧٤٨ هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن
على الأدقوى الشافعى .
«الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد».
- ٤- ابن أبى أصيبعة (ت ٦٦٧ هـ، ١٢٧٠ م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن
خليفة موفق الدين .
«كتاب عيون الأنباء فى أخبار الأطباء» (جزءان - القاهرة ١٢٩٩-١٣٠٠ م)
- ٥- أوليرى دى ليسى: O'Leary, (De Lacy)
. A Short History of the Fatimid Khalifate, London, 1923.
- ٦- البغدادى: (ت ٤٢٩ هـ، ١٠٣٧ م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .
«الفرق بين الفرق» (مطبعة المعارف- القاهرة ١٣٢٨ هـ، ١٩١٠ م).
- ٧- البكرى: (ت ٤٨٧ هـ، ١٠٦٤ م) أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز
البكرى .
«المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (طبعة دى سيلان D.Slan) باريس
سنة ١٩١١)
- ٨- حتى: فيليب - Hitti Philip
History of Syria, London, 1951.
- ٩- حسن إبراهيم حسن
(أ) الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص
(١٩٣٢ م).

- (ب) تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٩م)
- (ج) تاريخ الإسلام السياسى (الجزء الثالث - القاهرة - ١٩٤٦).
- ١٠- حسن إبراهيم حسن وطه شرف .
- (أ) عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. (القاهرة - ١٩٤٧م)
- (ب) المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر. (القاهرة - ١٩٤٨م)
- ١١- حسن حبشى :
- (أ) الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧م)
- (ب) نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨م)
- ١٢- الحمادى اليمانى: محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى (من فقهاء السنة فى أواسط القرن الخامس الهجرى)
- «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة»
- ١٣- ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ، ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد
- «العبر وديوان المبتدأ والخبر» (٧ أجزاء - بولاق ١٢٨٤هـ)
- ١٤- ابن خلكان: (ت ٦٨١ هـ، ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى
- «وفيات الأعيان» (جزء - بولاق - ١٢٨٣ هـ)
- ١٥- ابن الداية: (٣٣٠ هـ أو ٣٤٠ هـ) أبو جعفر أحمد بن يوسف .
- «سيرة أحمد بن طولون» - نشر فولرز ١٨٩٥م
- ١٦- دحلان: (ت ١٣٠٤ هـ) أحمد زينى دحلان المكى .
- «خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام»
- ١٧- راشد البراوى :
- «حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين» (القاهرة ١٩٤٨م)

- ١٨- زكى محمد حسن:
«كنوز الفاطميين» (القاهرة ١٩٣٧م).
- ١٩- السلاوى: أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى.
«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»
(٤ أجزاء - القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢هـ).
- ٢٠- ابن سعيد: (ت ٦٧٣هـ، ١٢٧٥م) على بن موسى المغربى:
«المغرب فى حلى المغرب، والمشرق فى حلى المشرق» (ليدن سنة ١٨٩٨ -
١٨٩٩م)
- ٢١- سيدة إسماعيل كاشف:
(أ) «مصر فى فجر الإسلام» (القاهرة- ١٩٤٧م).
(ب) «مصر فى عصر الإخشيديين» (القاهرة ١٩٥٠م).
- ٢٢- السيوطى: (ت ٩١١هـ، ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين.
(أ) «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» (القاهرة -
١٣٥١هـ)
(ب) «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» (جزءان القاهرة ١٣٢١هـ).
- ٢٣- أبو شامة: (ت ٦٦٥ هـ، ١٢٦٧ - ١٢٦٨م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن
إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة.
«كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين».
- ٢٤- أبو شجاع: (ت ٤٨٨هـ، ١٠٩٥م) محمد بن الحسين بن عبد الله بن
إبراهيم الوزير ظهير الدين أبو شجاع.
«ذيل كتاب تجارب الأمم» (طبعة H.F. Amedroz).
- ٢٥- ابن شداد (ت ٦٣٢هـ، ١٢٣٤م) القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف
ابن رافع بن تميم.
«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية».

- ٢٦- الشهرستاني (٥٤٨هـ، ١١٥٣م) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.
«الملل والنحل» (٥ أجزاء - القاهرة ١٣١٧هـ).
- ٢٧- عبد المنعم ماجد:
«نظم الفاطميين ورسومهم في مصر» (جزءان القاهرة ١٩٥٣م).
- ٢٨- عبد القادر الأنصاري: الشيخ زين الدين عبد القادر بن البدرى محمد بن إبراهيم الأنصاري (من علماء القرن العاشر الهجرى).
«درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة»
مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة.
- ٢٩- ابن عذارى (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) أبو عبد الله محمد المراكشى.
«البيان المغرب فى أخبار المغرب» (٣ أجزاء نشر دوزى، باريس ١٩٣٠م).
- ٣٠- عريب بن سعد القرطبى (ت ٣٦٦هـ، ٩٧٦ - ٩٧٧م):
«صلة تاريخ القرطبى» (القاهرة ١٣٠٢هـ).
- ٣١- عمارة اليمنى (ت ٥٩٦هـ، ١١٧٤م) أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكيمى اليمنى الملقب بنجم الدين.
«تاريخ اليمن» (نشر Henri Cassels Kay).
- ٣٢- ابن العميد : (ت ٦٧٢هـ، ١٢٧٣م) الشيخ المكين جرجس ابن العميد
«تاريخ المسلمين» (لندن - ١٦٢٥م).
- ٣٣- الطبرى: (ت ٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى.
«تاريخ الأمم والملوك» (٨ أجزاء - القاهرة ١٣٥٨هـ / ١٩٢٩م).
- ٣٤- طه شرف:
«دولة النزارية أجداد أغاخان» (القاهرة ١٩٥٠م).
- ٣٥- أبو الفدا: (ت ٧٣٢هـ، ١٣٣١م) إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماء.
«المختصر فى أخبار البشر». (٤ أجزاء - القاهرة - ١٣٢٥هـ).

٣٦- فييت : جاستون فييت Wiet, G.

(أ) Histoire de La Nation Egyptienne, 7 Vols., Paris, 1931-194

Vol. IV, 1939: L'Egypte Arabe (ed. by Hanoutau), 1932.

(ب) Précis de L'histoire d'Egypte T. II. (L'Egypte Musulmane).

٣٧- ابن القفطى: (ت ٦٤٦هـ، ١٣٤٨م) جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب.

«إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (القاهرة - ١٣٢٦ هـ).

٣٨- ابن القلانسي: (ت ٥٥٥ هـ، ١١٦٠ م) أبو علي حمزة .

«ذيل تاريخ دمشق» (بيروت سنة ١٩٠٨م)

٣٩- القلقشندي: (ت ٨٢١ هـ، ١٤١٨م) أبو العباس أحمد

«صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» (١٤ جزءاً- القاهرة ١٩١٣-١٩١٧م).

٤٠- الكرملى: أنستاس مارى:

«النقود العربية وعلم النميات» (القاهرة - ١٩٣٩م).

٤١- الكندي: (ت ٣٥٠هـ، ٩٦١م) أبو عمر محمد بن يوسف

«كتاب الولاة وكتاب القضاة» (ليدن - ١٩٠٨م).

٤٤- لينبول: ستانلى. Lane . Poole: Stanley

(أ) A history of Egypt in the Middle Ages, London, 1901

(ب) Salah El Din and the Fall of the Kingdom of Jerusalem,

London, 1893.

٤٢- متز : آدم Mez. Adam

Die Renaissance des Islams.

نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان:

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) - جزآن - القاهرة ١٩٤٠ - (١٩٤١).

٤٣- أبو المحاسن: (ت ٨٧٤ هـ ١٣٥٤م) جمال الدين يوسف بن تغربدى «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» (نشر دار الكتب المصرية بالقاهرة).

٤٤- محمد جمال الدين سرور.

(أ) «النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب» (الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٦٤).

(ب) «النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق» (الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٦٤).

(ج) «تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق» - (القاهرة ١٩٦٥م).

٤٥- محمد كامل حسين:

«أدبنا العربى فى عصرة الولاة» (القاهرة ١٩٦١).

٤٦- المقرئى: (٨٤٥ هـ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على.

(أ) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ).

(ب) «اتعاظ الحنفيا بأخبار الأئمة الخلفا» (جمال الدين الشال. القاهرة ١٩٤٨) نشر دار الفكر العربى.

٤٧- ابن ممتى: (ت ٦٠٦ هـ، ١٢٠٩م) القاضى الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد.

٤٨- ابن منجب الصيرفى: (ت ٥٤٢ هـ، ١١٤٧م) زمين الدين تاج الرئاسة أبو القاسم على.

«الإشارة إلى من نال الوزارة» (القاهرة ١٩٣٤م)

٤٩- ابن ميسر: (ت ٦٧٧ هـ، ١٣٧٨م) محمد بن على بن يوسف بن جلب

«تاريخ مصر» (طبعة هنرى ماسيه Heuri Masae القاهرة ١٩١٩م).

٥٠- النعمان: (٣٦٣، ٩٧٣م): أبو حنيفة المغربى.

«المجالس والمسائرات» (٣ أجزاء - مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة)

- ٥١- النوبختي: (ت ٢٠٢ هـ، ٩١٤م): أبو محمد الحسن بن موسى.
«كتاب فرق الشيعة» (إستانبول - ١٩٣٢م).
- ٥٢- هبة الله الشيرازي؛ (ت ٤٧٠ هـ، ١٠٧٧م) المؤيد في الدين هبة الله .
«سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة»
(نشر د. محمد كامل حسين- القاهرة ١٩٤٩م).
- ٥٣- هيد: Heyd, W.
Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age 2 vols- Leipzig,
1925.
- ٥٤- ابن واصل: (ت ٦٩٧ هـ، ١٢٩٧ - ١٢٩٨م) جمال الدين محمد بن
واصل.
«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب».
(نشر جمال الدين الشيال - ١٩٥٣، ١٩٥٧م).
- ٥٦- ياقوت: (ت ٦٢٦ هـ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي
الرومي.
(أ) «معجم البلدان» (١٠ أجزاء - القاهرة ١٩٠٦م).
(ب) «معجم الأدباء» (٢٠ جزءاً - طبعة أحمد فريد رفاعي ١٦٣٩ -
١٩٣٨).
- ٥٧- يحيى بن سعيد الأنطاكي: (ت ٤٥٨ هـ، ١٠٦٦م).
صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق
والتصديق» (جزءان - بيروت ١٩٠٩م).
- ٥٨- اليماني: محمد بن محمد.
«سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي من سلمية ووصوله إلى
سجلماسة» (نشر إيفانوف. مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة - ديسمبر
١٩٣٦).

٥٩- السجلات المستنصرية.

«سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم».

(نشر وتحقيق دكتور عبد المنعم ماجد سنة ١٩٥٤).

٦٠- مجموعة الوثائق الفاطمية.

(جمعها وحققها دكتور جمال الدين الشيال- القاهرة ١٩٥٨م).

٦١- تاريخ كامبردج العصور الوسطى

Cambridge Mediaeval History Vol IV.

القسم الثانى

سياسة الفاطميين الخارجية

مقدمة

الباب الأول : الدعوة الفاطمية فى بلاد الحجاز .

الباب الثانى : السيادة الفاطمية فى بلاد البحرين .

الباب الثالث : الدعوة الفاطمية فى اليمامة وعمان .

الباب الرابع : النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن .

الباب الخامس : سياسة الفاطميين فى بسط سلطانهم على بلاد الشام .

الباب السادس : الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق .

الباب السابع : علاقات الفاطميين بالأندلس والمغرب وجزيرة صقلية .

الباب الثامن : العلاقات بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية والمدن الإيطالية .

محتويات القسم الثاني

مقدمة

١٨١

الباب الأول

١٨٧

الدعوة الفاطمية في بلاد الحجاز

١٨٩

تمهيد : بلاد الحجاز قبل أن يمتد إليها نفوذ الفاطميين

دولة بنى سليمان بمكة

العلويون في المدينة المنورة

١٩٢

١ - السيادة الفاطمية في البلاد المقدسة بالحجاز

إقامة الخطبة بمكة والمدينة للمعز لدين الله

عدم استقرار النفوذ الفاطمي بمكة والمدينة في عهد العزيز

موقف أمير مكة من الخليفة الحاكم بأمر الله

استقلال الهواشم بإمارة مكة

١٩٧

٢ - ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز

موقف أمراء الهواشم من الخلفاء الفاطميين

حرص الفاطميين على الاحتفاظ بسيادتهم على بلاد الحجاز

الباب الثاني

٢٠٥

السيادة الفاطمية في بلاد البحرين

٢٠٧

تمهيد : قيام دولة القرامطة ببلاد البحرين

٢١٠

١ - موقف أمراء القرامطة ببلاد البحرين

ولاء قرامطة بلاد البحرين للخلافة الفاطمية ببلاد المغرب

تبدل صلة المودة بين الفاطميين والقرامطة

ضعف أمر القرامطة ببلاد البحرين

الباب الثالث

٢١٩

الدعوة الفاطمية في اليمامة وعمان

دولة بنى الأخيضر العلوية باليمامة

نشر المذهب الإسماعيلي باليمامة

إقامة الدعوة في عمان لعبيد الله المهدي

محاولة البويهيين توطيد نفوذهم بعمان

حرص الفاطميين على نشر دعوتهم بعمان

الباب الرابع

٢٣١

النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن

٢٣٣

تمهيد : بلاد اليمن في أواخر عهد ولادة العباسيين

٢٣٥

١ - جهود دعاة الإسماعيلية في نشر الدعوة الفاطمية باليمن

وقوع الخلاف بين دعاة الإسماعيلية في اليمن

ولاء بعض دعاة الإسماعيلية في اليمن لعبيد الله المهدي

ارتداد بعض الدعاة عن المذهب الإسماعيلي وخروجهم على

الدعوة الفاطمية

الدعوة الفاطمية تستعيد مكانتها باليمن

٢٤٥

٢ - موقف أمراء الصليحيين من الخلفاء الفاطميين

على بن محمد الصليحي يقيم الدعوة للمستنصر بالله الفاطمي

ولاية المكرم أحمد الملك باليمن، وحرصه على توطيد علاقته

بالمستنصر

الدعوة الفاطمية باليمن بعد وفاة المكرم أحمد

النزاع بين آل الصليحي وآل الزواحي

السيدة الحرة الصليحية تدير شئون اليمن

تأييد السيدة الحرة خلافة المستعلى بالله
 الخليفة الأمر الفاطمي يرسل بعض دعائه إلى السيدة الحرة
 ولاء السيدة الحرة للخليفة الأمر واعترافها بإمامة ابنه الطيب
 عدم اعتراف السيدة الحرة بخلافة الحافظ
 آل زريع بعدن يقيمون الدعوة للخليفة الحافظ
 ضعف الدعوة الطيبية بعد وفاة السيدة الحرة
 زوال النفوذ الفاطمي في اليمن

الباب الخامس

سياسة الفاطميين في بسط سلطانهم

- ٢٦٧ على بلاد الشام
- ٢٦٩ تمهيد : الحياة السياسية في بلاد الشام قبيل الفتح الفاطمي
 حرص الإخشيديين على توطيد سلطانهم في ولاية الشام
 تطلع الحمدانيين في حلب إلى انتزاع بلاد الشام
 تعرض بلاد الشام لغارات القرامطة
- ٢٧٤ ١ - الفتح الفاطمي لبلاد الشام
 حملة جعفر بن فلاح إلى فلسطين
 استيلاء جعفر بن فلاح على دمشق
 عدم استقرار الفاطميين بالشام
- ٢ - الصعوبات التي واجهت الفاطميين في الشام من ناحية القرامطة
 وأفتكين التركي
- ٢٧٩ مناهضة القرامطة النفوذ الفاطمي
 حركة أفتكين التركي
- ٢٩٢ ٣ - موقف أمراء العرب بالشام من الفاطميين
 أ - بنو الجراح في فلسطين

- ٢٩٤ ب - الحمدانيون والمرداسيون فى شمال الشام
- ٤ - ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى
- ٣٠٢
- تطلع السلاجقة إلى بسط سلطانهم على بلاد الشام
- جهود الفاطميين للوقوف فى وجه السلاجقة
- الزحف الصليبي على بلاد الشام وموقف الفاطميين منه
- عجز الخلافة الفاطمية عن استعادة مكانتها فى الشام

الباب السادس

- ٣٠٩ الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق
- ١ - سياسة الفاطميين فى نشر دعوتهم بمدن العراق إلى أوائل القرن الخامس الهجرى
- ٣١١
- نشاط دعاة الفاطميين فى نشر دعوتهم بالعراق وبعض بلاد الدولة العباسية
- موقف البويهيين من الفاطميين
- الدعوة الفاطمية فى الموصل فى عهد العزيز والحاكم
- مناهضة القادر بالله العباسى الدعوة الفاطمية
- انتشار النفوذ الفاطمى بالعراق، وسياسة القائم بأمر الله العباسى فى مناهضته
- ٣٢٤ ٢ - حركة البساسيرى فى العراق
- حالة الخلافة العباسية فى أوائل عهد القائم بأمر الله
- جهود الداعى المؤيد فى الدين فى نشر الدعوة الفاطمية
- الصعاب الداخلية التى واجهت القائم بأمر الله فى منتصف القرن الخامس

ازدياد نفوذ القائل التركي أبى الحارث أرسلان البساسيرى فى
العراق

اتصال البساسيرى بالفاطمين فى مصر
دخول السلاجقة بغداد برئاسة السلطان طغرل بك
تأييد المستنصر بالله البساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى
مسير الداعى المؤيد فى الدين من مصر لمؤازرة حركة البساسيرى
حرص المؤيد على استمالة أمراء العرب بالعراق
وقوع الخلاف بين طغرل بك وأخيه إبراهيم بن
دخول البساسيرى بغداد وإقامة الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى
رحيل الخليفة القائم بأمر الله العباسى إلى حدیثة عانه
انصراف المستنصر بالله عن معاونة البساسيرى
سعى طغرل بك لإعادة الخليفة العباسى إلى مقر خلافته ونجاحه
فى ذلك السبيل

٣٤٥ ٣ - روال النفوذ الفاطمى ببلاد العراق

ازدياد نفوذ السلاجقة بالعراق
مناهضة السلاجقة النفوذ الفاطمى
انحلال الدعوة الفاطمية فى أواخر القرن الخامس وأسبابه
العوامل التى ساعدت على روال الدعوة الفاطمية

الباب السابع

٣٥٣ علاقات الفاطميين بالأندلس والمغرب وجزيرة صقلية

٣٥٥ (أ) علاقة الفاطميين بالأمويين فى الأندلس

سياسة الأمويين بالأندلس فى مناهضة الخلافة الفاطمية بالمغرب
استمرار النزاع بين الفاطميين والأمويين بالأندلس حتى نهاية
القرن الرابع الهجرى

- ٣٦٠ (ب) علاقة الفاطميين بالزيريين في المغرب
أمراء بنى زيرى يتولون الحكم في المغرب بعد رحيل المعز إلى مصر
خروج المعز بن باديس على الخليفة المستنصر
- ٣٦٤ (جـ) الفاطميون وجزيرة صقلية
السيادة الفاطمية على صقلية
ضعف النفوذ الفاطمي بصقلية في أواخر القرن الرابع
استيلاء النرمانديين على صقلية

الباب الثامن

العلاقات بين الدولة الفاطمية

- ٣٦٩ والدولة البيزنطية والمدن الإيطالية
- ٣٧١ (أ) الفاطميون والبيزنطيون
البيزنطيون في شمال الشام يهددون النفوذ الفاطمي بتلك البلاد
الصلح بين باسيل الثاني والخليفة العزيز
معاهدة الصداقة بين مصر في أوائل عهد الحاكم، والدولة
البيزنطية
الصلح بين الخليفة الظاهر وقسطنطين الثامن
تحسن العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين في أوائل عهد المستنصر
عودة العداء بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية سيرته الأولى
- ٣٧٩ (ب) الفاطميون والمدن الإيطالية
مدينتا أمالفي وبيزا تحرصان على إنشاء علاقات مع مصر
والشام في العصر الفاطمي
اهتمام مدينتي جنوة والبندقية بإقامة علاقات ودية مع
الفاطميين
- ٣٨٣ مصادر القسم الثاني .

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وبعد ؛ فهذا القسم يتناول سياسة الفاطميين الخارجية، يتجلى لنا من ثناياه تطلعهم إلى رعاة العالم الإسلامي، التي كان العباسيون يحتفظون بها رغم ضعف سلطتهم، ومن ثم وجهوا اهتمامهم إلى توسيع نطاق دعوتهم ومد نفوذهم إلى أراضي الدولة العباسية، فلما أصبحت القاهرة مقر خلافتهم تطلعوا إلى بسط سلطانهم على بلاد الحجاز ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامي؛ ذلك أن السيادة على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة صار ينظر إليها على أنها من مستلزمات الخلافة، وأن من يظفر بها يعتبر خليفة المسلمين الحقيقي.

وعلى الرغم من أن الفاطميين واجهوا منافسة العباسيين لهم في بسط سيادتهم على البلاد المقدسة بالحجاز، فإنهم استطاعوا في خلال الفترات التي استقر فيها نفوذهم بتلك البلاد، أن ينشروا فيها الأمن، كما أظهروا قدرتهم على درء الأخطار عنها، وتأمين الوافدين من المسلمين على أرواحهم وأموالهم.

وكانت بلاد البحرين من بين أقطار جزيرة العرب التي خضعت لسيادة الفاطميين في النصف الأول من القرن الرابع الهجري. وقد حرص أمراؤها من القرامطة على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الخلفاء الفاطميين بالمغرب. لكن صلة المودة بين الفاطميين والقرامطة ما لبثت أن تبدلت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري بسبب طموح أمير القرامطة الحسن بن أحمد إلى استعادة سلطتهم على بلاد الشام، وأدى ذلك إلى قيام العداء بين هذا الأمير وبين الفاطميين. ثم ضعف أمر القرامطة ببلاد البحرين بسبب الخلافات الداخلية بينهم حتى لم يبق لهم في أواخر القرن الرابع إلا ولاية صغيرة على الشاطئ الشرقي للجزيرة العربية.

ومن ولايات الجزيرة العربية التي انتشرت فيها الدعوة الفاطمية : اليمامة وعمان . وقد تولى نشر هذه الدعوة باليمامة دعاة الإسماعيلية باليمن أثناء قيام دولة بنى الأخيضر العلوية بها . أما ولاية عمان، فإن بعض أمراء الصليحيين باليمن بعثوا إليها بالدعاة لنشر الدعوة الفاطمية، حتى أصبح بها عدد كبير من أنصار هذه الدعوة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي .

وكانت بلاد اليمن موطن الدعوة الفاطمية بجزيرة العرب فاتخذها دعاة الإسماعيلية منذ أواخر القرن الثالث الهجري مقرا لنشر دعوتهم . وحرص هؤلاء الدعاة على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين، وظل النفوذ الفاطمي في اليمن رغم ذلك، يتأرجح بين القوة والضعف حتى قام بأمر الدعوة الفاطمية أمراء الصليحيين باليمن؛ فبذل كل منهم قصارى جهده في سبيل توثيق عرى الصداقة مع الخلفاء الفاطميين في مصر، مما كان له أثر كبير في احتفاظ الفاطميين بمركز ممتاز في بلادهم، وبخاصة في عهد السيدة الحرة الصليحية .

على أن الدعوة الفاطمية في اليمن ما لبثت أن أخذت في الضعف بعد وفاة هذه السيدة، إذ لم يكن هناك بين الصليحيين شخصية قوية تستطيع أن تخلفها وتسير سيرتها في نشر تلك الدعوة، كما أن آل زريع بعدن الذين كانوا موالين للخلافة الفاطمية في مصر لم يتيسر لهم الاستمرار في الحكم فترة طويلة؛ فأخذت دولتهم في الانحلال منذ منتصف القرن السادس الهجري . وأصبح النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن مهددا بالزوال بعد أن ولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مقاليد الأمور في مصر؛ إذ وجه اهتمامه إلى بسط سلطانه على تلك البلاد، واستطاع في فترة قصيرة أن يقضى على نفوذ الفاطميين فيها .

وكانت الضرورة السياسية والحربية تقضى على الفاطميين بعد أن وطدوا سلطتهم في مصر أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام؛ لكنهم رغم نجاحهم في مد سلطانهم على هذه البلاد واجهوا عدة صعوبات، كان لها أثر بالغ في عدم استقرار الحكم الفاطمي فيها؛ فإلى جانب استياء أهالي دمشق من سياسة الفاطميين القائمة على التعصب للمذهب الشيعي، قام قرامطة بلاد البحرين بدور هام في مناهضة نفوذهم في بلاد الشام، كما أن الحركات الاستقلالية التي تزعمها أمراء العرب في هذه البلاد أدت إلى إضعاف سلطة الفاطميين .

وكان لتضاؤل سلطان الفاطميين السياسى فى شمال الشام وجنوبه أثر كبير فى إتاحة الفرصة أمام السلاجقة للظهور على مسرح السياسة فى هذه البلاد؛ فبذلوا جهدهم لبسط سيادتهم عليها. غير أن الفاطميين سرعان ما تأهبوا لصد غاراتهم وأصبحوا هم والسلاجقة فى أواخر القرن الخامس الهجرى يتقاسمون النفوذ فى بلاد الشام.

وكانت بلاد العراق محط أنظار الفاطميين على اعتبار أنها مقر الخلافة العباسية، لذلك عهد الفاطميون إلى دعائهم بالرحيل إليها لنشر دعوتهم. وقد صادف هؤلاء الدعاة كثيرا من النجاح فى هذا السبيل، كما لقيت الدعوة الفاطمية فى بلاد الفرس تأييدا حتى أصبح بين صفوف جند بنى بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل يميل إلى الفاطميين. وكان ذلك مما مهد السبيل لنجاح البساسيري فى إقامة الدعوة الفاطمية من منابر بغداد فى منتصف القرن الخامس الهجرى. غير أن هذه الدعوة لم يكتب لها البقاء فترة طويلة؛ فسرعان ما دخل السلاجقة بغداد وأعادوا الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله.

وكان السلاجقة يدركون الخطر الذى يتهددهم من وراء انتشار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشرق الإسلامى؛ ومن ثم وجهوا سياستهم بعد أن قبضوا على زمام الأمور فى بغداد إلى مناهضة هذا النفوذ، كما اضطهدوا الشيعة، ووقفوا من دعاة الإسماعيلية الذين استفحل خطرهم فى بلاد الدولة العباسية موقفا ينطوى على الحزم والشدة. وكان لهذه السياسة أثرها فى وقف تيار الدعوة الفاطمية.

ولم تكن الظروف فى مصر مهيأة للإبقاء على هذه الدعوة؛ ففضلا عن انقسام الإسماعيلية إلى فرق وأحزاب فى أواخر القرن الخامس الهجرى، شغلت الحكومة الفاطمية بالقضاء على القلاقل التى أثارها أتباع النزارية بإيعاز من رؤساء دعوتهم فى فارس، كما انصرف فريق من وزراء العصر الفاطمى الأخير عن تأييد المذهب الإسماعيلى، بل هيا بعضهم السبيل لرجوع المذهب السننى إلى مصر؛ فكان ذلك مما مهد الطريق لسقوط الفاطميين، واحتفظت الخلافة العباسية رغم ما أصابها من وهن وضعف بسيادتها على البلاد الإسلامية.

وكانت علاقات الفاطميين مع الأندلس يسودها التوتر منذ بداية العصر الفاطمى، فواجهت الخلافة الفاطمية فى إفريقية عداء عبد الرحمن الناصر بالأندلس. واتخذ هذا العداء مظهرا قويا فى عهد المعز وخلفائه.

أما عن موقف أمراء بنى زيرى بالمغرب من الفاطميين بعد أن اتخذوا مصر مقراً لخلافتهم، فإنهم ظلوا موالين لهم؛ واستمر النفوذ الفاطمى سائداً فى تلك البلاد حتى منتصف القرن الخامس الهجرى، حيث أعلن المعز بن باديس خروجه على طاعة الخليفة المستنصر بالله، وأقام الدعوة للقائم بأمر الله العباسى. وأصبح من المتعذر على الخلافة الفاطمية الاحتفاظ بنفوذها فى المغرب بسبب الصعوبات التى واجهتها سواء فى مصر أو الشرق الإسلامى.

وكان الفاطميون منذ أقاموا دولتهم فى إفريقية يحرصون على الاحتفاظ بسيادتهم على جزيرة صقلية لاتخاذها قاعدة لأسطولهم فى البحر المتوسط لصدد الحملات التى قد يوجهها الروم على سواحل دولتهم؛ فاستمروا فى إرسال ولايتهم إليها. لكن هؤلاء الولاة لم تتح لهم الفرصة للبقاء طويلاً فى ولايتهم بسبب المنازعات بين أهلها من المسلمين، فضلاً عن خروجهم على طاعتهم. كما أن هذه الجزيرة من ناحية أخرى لم تنعم بالاستقرار من جراء تهديد البيزنطيين لها. وأخذ النفوذ الفاطمى فى صقلية فى الضعف بعد أن انتقل المعز إلى مصر. وغدت علاقة الفاطميين بهذه الجزيرة مقصورة على إرسال الولاة إليها لإدارة شئونها. كما ساد الاضطراب الجزيرة منذ منتصف القرن الخامس الهجرى من جراء النزاع بين أمرائها المسلمين والحروب الداخلية مما مهد السبيل أمام النورماندين للاستيلاء عليها.

كذلك كان للفاطميين علاقات مع الدولة البيزنطية، اتسمت بالتوتر فى كثير من الأحيان. ويرجع السبب فى ذلك إلى تهديد البيزنطيين الحدود الشمالية للشام، واستيلائهم على بعض المدن الشامية. وظل النزاع قائماً بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية حتى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله حيث عقدت معاهدة صداقة بين هاتين الدولتين، غير أن المعاهدة لم تؤد إلى استمرار الوثام بين الفاطميين والبيزنطيين، وصارت العلاقات بين الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر، وبين الدولة البيزنطية لا تستقر على حال، بل إن العداء بين الدولتين عاد سيرته الأولى فى أواخر العصر الفاطمى.

وكانت المدن الإيطالية تحرص على إنشاء علاقات مع مصر والشام، فعملت مدينة بيزا على توثيق صلة المودة مع الخلفاء الفاطميين، كما نمت العلاقات بين

مدينة جنوة وبين مصر فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى . وكذلك الحال بالنسبة للبندقية التى اهتمت بإقامة علاقات ودية مع الفاطميين ، وصارت سفنها تنقل من موانئ مصر منتجات آسيا إلى أوروبا .



وقد بدأتُ القسم بدراسة الوسائل التى اتبعها الفاطميون لنشر سلطانهم فى البلاد المقدسة بالحجاز ، وبينت كيف ناهضوا نفوذ العباسيين فى كل من مكة والمدينة ، وأقاموا لهم الدعوة فى مساجدها . ثم تحدثت عن عوامل ضعف النفوذ الفاطمى بالحجاز .

كذلك تناولت بالبحث قيام دولة القرامطة ببلاد البحرين ، وولاء أمرائها للفاطميين واتحادهم فى سياستهم العدائية إزاء العباسيين ، ثم تحدثت عن العوامل التى بدلت صلة المودة بين الفاطميين والقرامطة فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وما تبع ذلك من ضعف السيادة الفاطمية ببلاد البحرين .

ولما كانت بلاد اليمن من أهم مراكز الدعوة الفاطمية بجزيرة العرب ، لذلك وجهت عنايتى إلى توضيح السياسة التى اتبعها الخلفاء الفاطميون للإبقاء على نفوذهم بهذه البلاد ، كما بينت ما كان لتوثيق عرى الصداقة بين هؤلاء الخلفاء وبعض أمراء الصليحيين باليمن من أثر فى احتفاظ الفاطميين بمركز ممتاز فى بلادهم .

وعُنت أيضاً ببحث سياسة الفاطميين فى بسط سلطانهم على بلاد الشام ، وشرحت الصعوبات التى واجهتهم فى مستهل عهدهم بتلك البلاد ، كما تحدثت عن النزاع بين السلاجقة والفاطميين على نشر نفوذهم فى الشام ، وبينت أثره فى عدم استقرار الأمور فى هذه البلاد ، وضعف الجبهة الإسلامية أمام الغزو الصليبي .

كذلك تناولت بالبحث سياسة الفاطميين فى نشر دعوتهم بمدن العراق ؛ فكشفت النقاب عن العوامل التى حملت الفاطميين على إرسال دعائهم إلى بلاد الشرق الإسلامى والوسائل التى اتبعها هؤلاء الدعاة لجذب المسلمين إلى الدعوة الفاطمية .

ولما كانت حركة البساسيرى فى العراق تُعد من ثمار الدعوة الفاطمية فى هذه البلاد ، فضلاً عن أنها من مظاهر نجاح سياسة الفاطميين الخارجية ، لذلك اهتمت

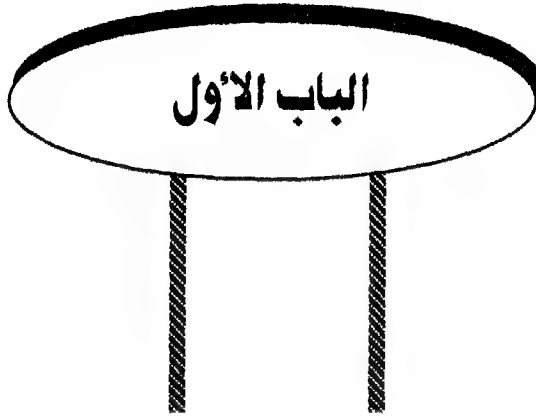
بتوضيح الظروف التي هيأت السبيل لظهور البساسيري والقيام بحركته، وبينت موقف الخلافة الفاطمية منه.

وكان زوال النفوذ الفاطمي ببلاد العراق من المسائل التي عنيت ببحثها، فوضحت الجهود التي بذلها السلاجقة للقضاء على حركة البساسيري وإعادة الخطبة للخليفة العباسي، كما شرحت العوامل التي ساعدت على انحلال الدعوة الفاطمية في أواخر القرن الخامس الهجري.

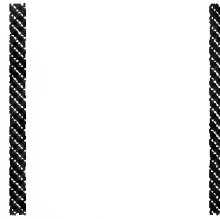
ومن موضوعات السياسة الخارجية التي أوليتها اهتمامي : علاقات الفاطميين بالأندلس والمغرب؛ فبينت كيف واجهت الدولة الفاطمية عداء الخلافة الأموية بالأندلس، كما تحدثت عن موقف الزيريين في بلاد المغرب من الفاطميين، وعوامل ضعف النفوذ الفاطمي في تلك البلاد، وتتبع إلى جانب ذلك علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية منذ أن انتقلت إليهم السيادة على هذه الجزيرة في أواخر القرن الثالث الهجري إلى أن استولى عليها النرمانديون في أواخر القرن الخامس الهجري.

وكان للعلاقات بين الدولة الفاطمية، والدولة البيزنطية، والمدن الإيطالية نصيب وافر من عنايتي، فوضحت المظاهر السياسية للعلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين، كما وضحت مدى حرص المدن الإيطالية على توثيق علاقاتها مع مصر والشام في العصر الفاطمي.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني لمتابعة البحث في تاريخ الدول الإسلامية.



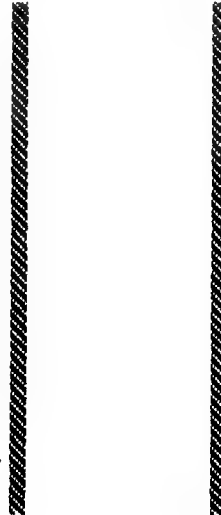
الدعوة الفاطمية في بلاد الحجاز



تمهيد : بلاد الحجاز قبل أن يمتد إليها نفوذ الفاطميين

١ - السيادة الفاطمية في البلاد المقدسة بالحجاز.

٢ - ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز.



تمهيد : بلاد الحجاز قبل أن يمتد إليها نفوذ الفاطميين :

كان العلويون فى بلاد الحجاز كثيرًا ما يشيرون الاضطرابات ضد العباسيين، فلما قضى خلفاء العصر العباسى الأول على حركاتهم ضعف أمرهم واستكانوا، وظل ولاة بنى العباس يتولون الحكم فى بلاد الحجاز حتى شغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثورات التى أثارها الأتراك فى أواخر القرن الثالث الهجرى، فاستغل هذه الفرصة بعض العلويين الطامحين إلى النفوذ والسلطان من بنى سليمان بن داود ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وعملوا على الاستقلال بإمارة مكة^(١). وسرعان ما تغلبوا عليها وأسسوا بها دولة السليمانيين وخلع أميرهم طاعة العباسيين وخطب لنفسه بالإمامة سنة ٣٠١ هـ فى خلافة المقتدر^(٢)، وقال فى خطبة له بموسم الحج : «الحمد لله الذى أعاد الحق إلى نظامه، وأبرر زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لابنى أعمامه صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وكف عنا ببركته أسباب المعتدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين»^(٣).

على أن دولة بنى سليمان بمكة لم تكن من القوة بحيث تستطيع حماية الحجاج وصد المغيرين عليها، فقد هددتها القرامطة فى بلاد البحرين واستولوا عليها سنة ٣١٧ هـ، وأقاموا الخطبة لعبيد الله المهدي الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب،

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤، ص ١١.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ج ٤، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٣) ابن خلدون : ج ٤، ص ٩٩.

وعلى الرغم من ذلك كله فلم ينقض على سيادة العباسيين على مكة إلا فترة قصيرة من الزمن، فقد شغل القرامطة عنها بالعمل على تحقيق أطماعهم فى بلاد الشرق مما ساعد على عودة نفوذ العباسيين إلى مكة. فأقيمت الخطبة فيها للراضى ابن المقتدر سنة ٣٢٧ هـ^(١)، بل إن هذا الخليفة أسند ولاية مكة والمدينة إلى محمد ابن طغج الإخشيدى وإلى مصر من قبله، وأيد ذلك أخوه المتقى من بعده، فضم الحجاز إلى محمد الإخشيد^(٢)، وصارت تقام له الخطبة مع الخليفة العباسى على منابر مكة والمدينة.

وقد نوه محمد الإخشيد بتقليده مكة والمدينة فى الكتاب الذى أرسله إلى رومانوس إمبراطور الروم. وكان هذا الإمبراطور قد بعث إليه كتابا قال فيه : أنه لم تكن عادته أن يكتب إلا الخليفة والتمس تبادل الأسرى. فكتب إليه محمد الإخشيد كتابا أشار فيه إلى المكانة السامية التى يتمتع بها مدلا على ذلك بالبلاد التى فى حوزته، وبعد أن ذكر أن منها مصر وبلاد الشام، قال : «هذا ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة، فإننا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظيم قدرها وما حدث من الفضل تُوفى على كل مملكة لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وإرثه ومهاجره ومحج سائر الأنبياء وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام. ومنها مدينة رسول الله ﷺ المقدسة بتربته وأنها مهبط الوحي، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر والسهل والوعر والشرق والغرب وصحارى العرب على بعد أطرافها وتنازع أقطارها وكثرة سكانها فى حاضرتها وباديتها، وعظمتها فى وفودها، وشدتها وصدق بأسها ولجدها، وكبر أحلامها وبعد مراميتها، وانعقاد النصر من عند الله براياتها، وإن الله تعالى أباد خضراء كسرى وشرد قيصر عن داره ومحل عزته ومجده بطائفة منها^(٣)».

ظلت سيادة العباسيين قائمة بمكة بعد أن تقلد ولايتها الإخشيدون فى مصر، فلما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ شاركوهم هذه السيادة،

(١) ابن خلدون : ج ٤، ص ١٠٠.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٣ - ٥٤، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٢٣.

(٣) القلقشندي : ج ٧، ص ١٠ : ١٤.

فأقيمت الخطبة بمكة للمطيع العباسي مع معز الدولة بن بويه، ثم عمل البويهيون على ألا يكون للإخشيديين نفوذ في الأراضي المقدسة ببلاد الحجاز، وقام الخلاف سنة ٣٤٢ هـ بين أمير الحج المصري وأمير الحج العراقي على الخطبة لابن بويه أو ابن الإخشيد، وتطور النزاع إلى نشوب الحرب بين أنصار كل منهما، فلما انهزم المصريون أقيمت الخطبة لمعز الدولة بن بويه^(١). على أن ذلك لم يقض نهائياً على نفوذ الإخشيديين بمكة، فقد ولي الخليفة المطيع كافور الإخشيدى بلاد الحجاز بالإضافة إلى مصر والشام، وصار يدعى له بمقتضى هذه التولية على منابر هذه البلاد مع الخليفة العباسي^(٢). ثم دعى بعد وفاته للحسن بن عبيد الله بن طنجج الإخشيد^(٣).

لم يكن اهتمام العباسيين ببسط سلطانهم على المدينة المنورة أقل من حرصهم على الاحتفاظ بسيادتهم على مكة. وكان العلويون قد اتخذوا المدينة مركزاً لإثارة الفتن في وجه الخلافة العباسية مما حمل بعض الخلفاء على إسناد ولايتها إلى وال مستقل عن والي الحجاز حتى يتفرغ للعمل على استقلال الأمور فيها والقضاء على ثورات العلويين، ولما تقلد الإخشيديون بلاد الحجاز دخلت المدينة في حوزتهم، فأبقوا للعباسيين سيادتهم عليها.

كان يقيم بالمدينة بعض أفراد من بنى الحسين بن علي بن أبي طالب، أخذوا يتحينون الفرص للاستقلال بولايتها كما فعل بنو سليمان بمكة، لكنهم لم تكن لديهم القوة التي تساعدهم على تحقيق أغراضهم، فلما قدم عليهم من مصر طاهر ابن مسلم^(٤) من أحفاد الحسين ولوه أميراً عليهم، وما لبث طاهر أن استقل بإمارة المدينة سنة ٢٦٠ هـ^(٥). ولم تقم الخلافة العباسية بأى محاولة للوقوف في وجهه بسبب ما أصابها من ضعف.

(١) ابن خلدون : ج ٤، ص ١٠٠، المقرئ : خطط ج ١، ص ٢٣٠.

(٢) أبو الفداء : ج ٣، ص ١٠٧.

(٣) أبو المحاسن : ج ٤، ص ٩ - ١٠.

(٤) كان ابن مسلم يدبر أمر مصر أيام كافور واسمه محمد بن عبد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن مسلم بن جعفر بن عبيد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩).

(٥) ابن خلدون : ج ٤، ص ١٢.

١ - السيادة الفاطمية فى البلاد المقدسة بالحجاز :

ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة على كل من مكة والمدينة لا ينازعهم فيها منازع حتى أقام الفاطميون خلافتهم فى إفريقية وأخذوا يعملون على توسيع رقعة دولتهم وذلك باستيلائهم على مصر والشام، فلما تم لهم فتح هذه البلاد وأصبحت القاهرة مقر خلافتهم تطلعوا إلى بسط نفوذهم على الأراضى المقدسة بالحجاز ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامى ويضعفوا من شأن الخلافة العباسية. ولم يدر بخاطر العباسيين بعد أن تقلدوا زمام الحكم أن الاحتفاظ بالسيادة على مكة والمدينة سيكون له أثر فى وثوق رعاياهم من المسلمين بأحقيتهم فى الخلافة، فلما طمع الفاطميون فى السيطرة على هاتين المدينتين، ظهرت من ثنايا النزاع بينهم وبين العباسيين على امتلاك الأراضى المقدسة بالحجاز نظرية جديدة تتضمن أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من استطاع بسط نفوذه على الحرمين المكي والمدنى.

وكان العلويون فى هذا النزاع على الأراضى المقدسة هم الخصم الثالث الذى يأتى أخيرا فيفوز بالغنيمة، فاستقل أمراء الأشراف من بنى الحسن بمكة، كما استقل بالمدينة أمراء الأشراف من بنى الحسين وأصبح هؤلاء الأمراء سادة الحرمين^(١).

بدأ اهتمام الفاطميين ببلاد الحجاز منذ خلافة المعز لدين الله الفاطمى. فقد رأى هذا الخليفة على أثر ما بلغه من وقوع نزاع بين بنى الحسن وبنى جعفر بن أبى طالب أن يعمل على حسم الخلاف بينهم، فأنفذ إليهم سرا مالا ورجالا سعوا بين هذين الفريقين حتى عقدوا بينهم صلحا فى المسجد الحرام، وقام رسل الخليفة الفاطمى بأداء دية قتلى بنى الحسن سنة ٣٤٨هـ مما كان له أحسن الأثر فى نفوسهم. ولما تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨هـ، بادر حسن بن جعفر الحسنى فاستولى على مكة ودعا للمعز على منابرها، فبعث إليه المعز من المغرب بتقليده الحرم وأعماله^(٢).

(١) متر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ج ٢، ص ٥ - ٦.

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ - ١٤٦.

كذلك أقيمت الخطبة للمعز بالمدينة المنورة وحذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة في كل من مكة والمدينة^(١)، وعمل المعز على تثبيت سلطته على هاتين المدينتين بالأموال التي صار يرسلها إليهما، فقد أنفذ سنة ٣٥٩ - كما قال المقرئ^(٢) - « عسكرا وأحمال مال عدتها عشرون حملا للحرمين وعدة أحمال متاع » وبذلك تيسر له نشر نفوذ الفاطميين في بلاد الحجاز.

ظلت الخطبة تقام للمعز في كل من مكة والمدينة حتى توفي سنة ٣٦٥ هـ وخلفه ابنه العزيز، فانقطعت الخطبة له في بلاد الحجاز، فبعث إليها سنة ٣٦٧ هـ بإدريس بن زيري الصنهاجي أميرا على الحج، فاستولى على الحرمين وأقام له الخطبة^(٣). على أن نفوذ الفاطميين رغم ذلك لم يكن مستقرا في مكة والمدينة طوال عهد عبد العزيز، فقد دعا أمير حجاج العراق لعضد الدولة بن بويه، واضطر العزيز سنة ٣٨٠ هـ إلى إرسال حملة إلى بلاد الحجاز ضيقت الحصار على أهلها، وانتهى الأمر بإعادة الخطبة للعزيز على منابر مكة والمدينة، وانقطعت الدعوة للعباسيين بهاتين المدينتين^(٤).

ظل طاهر بن مسلم - الذي يعد أول أمير من بني الحسين استقل بالمدينة - مواليا للفاطميين حتى توفي سنة ٣٨١ هـ، فخلفه في إمارتها ابنه الحسن بن طاهر ويلقب مهني^(٥)، فسار على نهج أبيه في اعترافه بسيادة الفاطميين على المدينة. أما إمارة مكة فكان يليها في ذلك الوقت عيسى بن جعفر من بني الحسن، ولما توفي سنة ٣٨٤ هـ خلفه أخوه أبو الفتح الحسن بن جعفر. وقد أقام كل منهما الخطبة للفاطميين اعترافا بما لهم من نفوذ على مكة.

وكان الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر في بداية عهده مخلصا في ولائه للفاطميين، فقد طلب منه الخليفة القادر بالله العباسي الدخول في طاعته وأغراه بالمال والخلع التي بعثها إليه، كما وعده بالعمل على إبقاء الحكم في مكة وراثيا

(١) عبد القادر الأنصاري : درر الفرائد المنظمة، ص ١٠١.

(٢) اتعاظ الخنفا : ص ١٧٢.

(٣) ابن خلدون : ج ٤، ص ٢٠٣.

(٤) ابن خلدون : ج ٤، ص ١٠١، عبد القادر الأنصاري : درر الفرائد المنظمة، ص ٢٠٣.

(٥) ابن خلدون : ج ٤، ص ١٠٩.

لبنيه من بعده، لكنه رغم ذلك أبى تحقيق رغبة الخليفة العباسي وبعث إليه بأن الخطبة في مكة تقام للخليفة الحاكم بأمر الله دون سواه^(١)، كما أبقى للفاطميين سيادتهم على المدينة بأن سار إليها سنة ٣٩٠هـ وأزال عنها إمرة بني مهني حين بلغه طعنهم في نسب الفاطميين، لكنه لم يحتفظ طويلاً بإمارة المدينة، فقد استعابها بنو مهني بعد عودته إلى مكة ودخلوا منذ ذلك الوقت في طاعة الفاطميين.

على أن أبا الفتح أمير مكة لم يستمر على ولائه للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، فقد خرج عليه سنة ٤٠٠هـ، بعد أن أغراه الوزير أبو القاسم حسين بن علي بن المغربي بانتحال لقب الخلافة - وكان هذا الوزير ناقماً على الحاكم بأمر الله لغدره بأبيه وأعمامه - لذلك عوّل على إضعاف شأنه، ففر من مصر إلى حسان بن مفرج بن الجراح أمير طيئ بالرملة وحسن له خلع طاعة الحاكم، فاستجاب له وعهد إليه بالتوجه إلى أبي الفتح أمير مكة ليفسده على الحاكم ويدعوه إلى الخلافة^(٢)، فلما قدم الوزير أبو القاسم بن المغربي مكة أطمع أبا الفتح في الرياسة وحرضه على طلب الخلافة كما حثه على الخروج إلى الرملة إجابة لرجاء حسان بن مفرج بن الجراح الذي سيكون خير عون له على تثبيت سلطته؛ فرحب أبو الفتح بهذه الدعوة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وأخذ ابن المغربي يدعو القبائل العربية من سليم وهلال وعوف بن عامر لمعاونة أبي الفتح، ثم سار من مكة قاصداً الرملة وبصحبه أبو الفتح والعرب الذين أجابوا دعوته. فلما اقترب أبو الفتح من الرملة تلقاه حسان بن مفرج بن الجراح وأولاده وسائر وجوه العرب بالترحاب وترجلوا له وبايعوه بالخلافة ثم ساروا في ركابه، ونزل أبو الفتح في دار حسان ونادى في الناس بالأمان وأقيمت له الخطبة في كثير من بلاد الشام^(٣).

ولما وصل إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي نبأ خروج أبي الفتح عليه وانتحاله لقب الخلافة وانحياز حسان بن مفرج بن الجراح والوزير أبي القاسم بن المغربي

(١) عبد القادر الأنصاري : درر الفرائد المنظمة، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) المقرئزي : خطط، ج ٢، ص ١٥٧.

(٣) عبد القادر الأنصاري : درر الفرائد المنظمة، ج ١، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

إليه استاء من ذلك وعول على إعادة نفوذه في بلاد الحجاز وإضعاف شأن أبي الفتوح، فكتب إلى أبي الطيب ابن عم أبي الفتوح بتوليته الحرمين وأنفذ له ولشيوخ بني الحسن مالا لخدلان أبي الفتوح، كما تعهد بأن يدفع له خمسين ألف دينار عينا ولكل فرد من إخوته سوى الهدايا والثياب التي بعثها إليهم، فانصرفوا عن أبي الفتوح ودخلوا في طاعة الحاكم.

كذلك عمل الخليفة الفاطمي على استمالة حسان وأبيه مفرج بن الجراح وغيرهما بالأموال التي بذلها لهم، فانصرفوا عن أبي الفتوح، ولما أحس أبو الفتوح بخدلان بني الجراح إياه وعدولهم عن رأيهم في العمل على تقوية نفوذه، ركب إلى الوزير أبي القاسم بن المغربي وقال له: «أنت أوقعتنى وأخرجتنى من بلدى وجعلتنى فى أيدي هؤلاء ينفقون سوقهم بى عند الحاكم ويبيعونى بيعا بالدراهم، فيجب عليك أن تخلصنى كما أوقعتنى، وتسهل طرقي بالعودة إلى الحجاز، فإننى راض من الغنيمة بالإياب». ثم ذهب إلى مفرج بن الجراح وأخبره بخبر أولاده وموقفهم إزاءه وقال له: «أريد أن تبعث معى من يوصلنى إلى مكة ولا تخرجنى»، فبعث معه جماعة من طيئ ولم يزلوا معه حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣هـ، فتلقاه أتباعه، وكتب الحاكم واعتذر إليه، فقبل عذره وعفا عنه وأعادته إلى إمارته بمكة^(١). وعمل أبو الفتوح منذ عودته إلى مكة على إقامة الدعوة للحاكم، كما نقش اسمه على السكة^(٢).

لم يحاول الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر بعد عودته إلى إمارة مكة الخروج على طاعة الفاطميين بل احتفظ بسيادتهم في هذا البلد المقدس، وصار يقيم الخطبة للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، فلما توفي هذا الخليفة خطب لابنه الظاهر، كما خطب من بعده للمستنصر سنة ٤٢٧هـ. وظل أبو الفتوح مواليا للفاطميين حتى توفي سنة ٤٣٠هـ، وخلفه ابنه شكر الذي تمكن من بسط نفوذه على المدينة وأقام الدعوة للمستنصر في الحرمين واستمر الحال على ذلك حتى توفي سنة ٤٥٣هـ^(٣).

(١) ابن خلدون: ج ٤، ص ٤٧٣. عبد القادر الأنصاري: درر الفوائد المنظمة، ص ٣٠٨.

(٢) المقرئى: خطط، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٣) دحلان: خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام، ص ١٨. ابن خلدون: ج ٤، ص ١٠٢.

لم ينجب شكر بن أبي الفتوح الحسنى أولادا يتولون إمارة مكة من بعده، فزال بوفاته نفوذ بنى سليمان بمكة وتقلد الحكم فيها رئيس الهواشم إذ ذاك محمد ابن جعفر بن أبي هاشم محمد الذى عظم ذكره بين بنى قومه، فحارب بنى سليمان بمكة سنة ٤٥٤هـ وأوقع بهم الهزيمة، وأخرجهم من الحجاز، فساروا إلى اليمن واستقل بإمارة مكة وأقام الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى^(١).

لم يعمل الأمير محمد بن جعفر على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة، فبدأ عهده بإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى، ثم ما لبث أن انحرف عنه وأمر بذكر اسم الخليفة القائم بأمر الله العباسى^(٢). فلما علم بذلك المستنصر عهد إلى على بن محمد الصليحي داعيه باليمن سنة ٤٥٥هـ بإرسال حملة إلى مكة لاستعادة نفوذه عليها وللقضاء على الدعوة العباسية فيها^(٣). فسار الصليحي إلى مكة وعمل على استمالة أهلها إلى جانبه بما كان معه من الأموال^(٤)، وتعاون مع أمير مكة فى نشر الأمن والطمأنينة فى هذا البلد المقدس؛ فطابت قلوب الناس ورخصت الأسعار، وكسا الصليحي البيت الحرام بثياب بيض^(٥).

(١) ابن خلدون : ج ٤، ص ١٢٢.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٤ ص ٢٧٠.

(٣) ابن خلدون : ج ٤، ص ٢١٥.

(٤)

Bulletin School of Oriental Studies

(Letters of Al-Mustansir Billab, Part VII. 1934 p. 324)

(٥) أبو القدا : المختصر فى أخبار البشر، أبو المحاسن : ج ٥، ص ٧٢.

٢ - ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز

تأثرت السيادة الفاطمية على مكة بالأحداث الداخلية التي أصابت مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي، ذلك أنه لما انقطع ما كان يرد إلى محمد بن جعفر من مصر من الأموال بسبب الشدة العظمى التي حلت بالبلاد المصرية وأصبح في حاجة إلى المال، أخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح بابها والميزاب وصادر أموال أهل مكة وأمر بحذف اسم المستنصر من الخطبة، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي^(١)، وبعث إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي حاكم بغداد رسولا سنة ٤٦٢ هـ يخبره بإقامة الخطبة للخليفة العباسي وللسلطان بمكة وإسقاط اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة وتركه الأذان بحى على خير العمل. فبعث إليه السلطان ثلاثين ألف دينار وخلعاً نفيسة وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار. وقال : «إذا فعل أمير المدينة مهني كذلك أعطيته عشرين ألف دينار وكل سنة خمسة آلاف دينار»^(٢).

على أنه يظهر لنا مما ذكره أبو المحاسن^(٣) أن أمير مكة رغم قيامه بالدعوة للخليفة العباسي أبقى الأذان بحى على خير العمل وهو يعد من مظاهر المذهب الشيعي التي كانت سائدة إذ ذاك في الأراضى الخاضعة لنفوذ الفاطميين. فقد أرسل إليه الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٤ هـ الشريف أبا طالب الحسن بمال وخلع وطلب منه هذا الرسول أن يلغى الأذان الشيعي في مكة، فناظره الأمير مناظرة طويلة وقال له : « هذا أذان أمير المؤمنين على بن أبى طالب، فقال له أخو الشريف أبو طالب : ما صح عنه، وإنما عبد الله بن عمر بن الخطاب روى أنه أذن به في بعض أسفاره وما أنت وابن عمر، فأسقطه من الأذان ».

كان الأمير محمد بن جعفر يتطلع إلى ضم المدينة المنورة إلى حوزته ليكون صاحب السيادة على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز، فلما أمن جانب الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي بعد أن أقام لهما الخطبة في مكة، وشغل عنه الخليفة الفاطمي بالعمل على استقرار الأمور في مصر، أعد جيشا

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. القسم الثاني المجلد الأول ورقة ١٢١ ب.

(٢) ابن الأثير : ج ١٠، ص ٢١، أبو المحاسن : ج ٥ ص ٨٤.

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٥ ص ٨٩.

من الأتراك وزحف به إلى المدينة، فتغلب على بنى مهنى من بنى الحسين الذين كانت إليهم الرياسة بها وأخرجهم منها وأزال بذلك إمارتهم بالمدينة وجمع بين الحرمين^(١).

ومما لا شك فيه أن الأمير محمد بن جعفر كان يرمى من وراء انحيازه إلى الخليفة العباسي أو الخليفة الفاطمي العمل على توطيد سلطانه في بلاد الحجاز، فيقيم الدعوة للخليفة الذي يمدّه بالأموال، لذلك نراه بعد أن انقطع ما كان يصل إليه من المال على أثر وفاة الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٧ هـ يبطل الخطبة للعباسيين وقيمها للخليفة المستنصر بالله الفاطمي^(٢). فلما أرسل إليه المقتدى بأمر الله العباسي الأموال أحل اسمه في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي. وظلت الخطبة تقام للعباسيين في مكة والمدينة إلى أن توفي الخليفة المقتدى سنة ٤٨٧ هـ^(٣).

لم يعمل محمد بن جعفر أمير مكة طيلة عهد إمارته على تنظيم الأمور في الأراضي المقدسة وإقرار الأمن بها على الرغم من المساعدات المالية التي كانت ترد إليه من الخليفة العباسي أحيانا ومن الخليفة الفاطمي أحيانا أخرى، بل أساء السيرة فيها وأصبح الحجاج في أواخر أيامه غير آمنين على أنفسهم^(٤).

كذلك لم يبد من هذا الأمير ما يشعر برغبته في الاستقلال عن الخلافة العباسية أو الفاطمية، بل دان لكل منها بالطاعة في فترات متقاربة حتى وصفه أبو المحاسن^(٥) بأنه كان «متلونا تارة مع الخلفاء العباسيين وتارة مع المصريين (الفاطميين)».

ظفر العباسيون بحظ وافر من السيادة على مكة في عهد إمارة محمد بن جعفر بخلاف الفاطميين الذين شغلوا إذ ذاك بالعمل على توطيد سلطتهم في مصر عن الاحتفاظ بسيادتهم في الأراضي المقدسة ببلاد الحجاز، وبذلك ظلت الدعوة العباسية قائمة في مكة حتى توفي الأمير محمد بن جعفر سنة ٤٨٧ هـ، وخلفه

(١) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧٠.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٩٧.

(٣) ابن خلدون : ج ٤، ص ١٠٣، القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧.

(٤) ابن الأثير : ج ١، ص ٨٣.

(٥) النجوم الزاهرة : ج ٥، ص ١٤٠.

ابنه الأمير قاسم الذى حذا حذو أبيه فى إقامة الخطبة للعباسيين، وأرسل إليه الخليفة المستظهر وابنه المسترشد العباسى الخلع والأموال^(١).

لم تنعم مكة فى عهد الأمير قاسم بالهدوء والاستقرار، بل كانت الأحوال فيها مضطربة طوال المدة التى قضاها أميراً عليها وتبلغ ثلاثين سنة^(٢)، مما يثبت لنا عجز هذا الأمير عن إقرار الأمن والعمل على إصلاح شئون إمارته.

لما توفى الأمير قاسم بن محمد بن جعفر الحسنى سنة ٥١٨ هـ، وخلفه ابنه فليته، افتتح عهده بإقامة الخطبة للخليفة العباسى المسترشد، وعمل على نشر العدل بين أهالى إمارته مما كان له أحسن الأثر فى نفوسهم؛ فأنثوا عليه وتمتعوا فى عهده بالرخاء والطمأنينة، كما حرص هذا الأمير على إظهار ولائه للخليفة العباسى المسترشد حتى توفى سنة ٥٢٧ هـ، وولى إمارة مكة من بعده ابنه هاشم^(٣)، فلم يعمل على استمرار ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة، بل أقام الخطبة للخليفة الحافظ الفاطمى، مما أثار السيدة الحرة الصليحية صاحبة اليمن - وكانت إذ ذاك تقيم الدعوة للإمام الطيب بن الخليفة الأمر الفاطمى - ولم تعترف بخلافة الحافظ الذى لم يكن يتمتع بصفة الإمامة التى يجب توافرها فى الخلفاء الفاطميين^(٤)، فأرسلت إلى هاشم أمير مكة تتوعده إن لم يعمل على قطع الخطبة للحافظ، لكنها ما لبثت أن توفيت سنة ٥٣٢ هـ فكفاه الله شرها^(٥).

على أن الدعوة لبنى العباس لم تقطع نهائياً فى عهد الأمير هاشم، بل أقيمت فى أيامه الخطبة للخليفة المقتضى. كما أن ابنه قاسم الذى آلت إليه إمارة

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢٠٥.

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ١٤٠.

(٣) راجع ما ورد عن ولاة مكة من الهواشم العلويين فى :

(Zambaur, Manuel de Généalogie et de Ghronologie pour L'Histoire de L'Islam p. 21.

(٤) كان الخليفة الأمر الفاطمى قد أنجب ولدا سماه أباً القاسم الطيب وجعله ولى عهده، فلما قتل الخليفة بعد ذلك ببضعة أشهر سنة ٥٢٤ هـ أخفى الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر الذى لقب بالحافظ لدين الله أمر الإمام الطيب، وبأبعه الناس بولاية العهد على أن يكون كفيلاً لطفل مرتقب؛ غير أن الوزير أباً على أحمد بن الأفضل ما لبث أن اعتقله، فظل فى سجنه إلى أن تأمر الإسماعيلية على اغتيال هذا الوزير فى المحرم سنة ٥٢٦ هـ، وأخرجوا الحافظ من سجنه،

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧١، ٧٤، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٩، مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٨٨ - ٨٩.

مكة سنة ٥٤٩ هـ حرص على ذكر اسم الخليفة المستنجد بالله العباسي في الخطبة وحاول في نفس الوقت التقرب إلى الخلافة في مصر، فأوفد الشاعر عمارة اليمنى برسالة إلى القاهرة سنة ٥٥٠ هـ - وكان الخليفة الفاطمي إذ ذاك الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك - فأدى عمارة الرسالة ونظم قصيدة في مدح الخليفة والوزير، نوه فيها بقدومه سفيراً من مكة المكرمة إلى القاهرة. ومن هذه القصيدة ننقل الأبيات الآتية^(١) :

الحمد للعيش بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم
قربن بُعد مزار العز من نظرى حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من عفو ومن نقم

لم يمكث عمارة اليمنى طويلاً في مصر بعد أن تلقاه كل من الخليفة والوزير الفاطمي بالعطف والقبول، فسرعان ما عاد إلى مكة ومنها توجه إلى زبيد^(٢) في صفر سنة ٥٥١ هـ، ثم رحل منها إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج وأوفده أمير الحرمين برسالة أخرى إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك يعتذر فيها عن الأحداث التي ارتكبها جنده مع حجاج مصر والشام مع تعديهم عليهم وأخذهم أموالاً منهم، فقدم عمارة للمرة الثانية إلى القاهرة حاملاً رسالة أمير الحرمين واتخذ مصر موطناً له^(٣)، وصار من مشاهير شعراء البلاط الفاطمي في عهد الخليفين الفائز والعاقد^(٤).

على أن هاتين السفارتين اللتين أرسلهما أمير مكة إلى الخليفة الفاطمي الفائز ووزيره طلائع بن رزيك وإن دلت على حرص هذا الأمير على اكتساب رضا الخلافة الفاطمية، فإنهما لم تؤديا إلى إحلال النفوذ الفاطمي محل النفوذ العباسي حتى توفي الأمير قاسم بن هاشم سنة ٥٥٦ هـ وولى بعده الأمير عيسى بن فليته

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٢) زبيد : مدينة من تهائم اليمن. القلقشندى. : صبح الأعشى ج ٥ ص ٩.

(٣) عمارة اليمنى : النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٣١، ٤١ - ٤٢.

(٤) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر (حاشية رقم ١ ص ١٧٤).

الذى ضعف فى عهده شأن الفاطميين فى مصر، وأخذت دولتهم بخطى واسعة نحو الزوال^(١).

ومما لا شك فيه أن عدم استقرار الأمور فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى الذى تجلّى فيه ازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء شجع الخلافة العباسية فى ذلك الوقت رغم ما كانت تعانيه من جراء ازدياد نفوذ السلاجقة على نشر نفوذهم فى كل من مكة والمدينة.

على أن الخلفاء الفاطميين ووزراءهم فى العصر الفاطمى الثانى لم ينصرفوا انصرافاً تاماً عن نشر الدعوة فى بلاد الحجاز، بل إنهم رغم انكماش دولتهم فى هذا العصر حتى لم يبق فى حوزتهم غير مصر، فإنهم احتفظوا ببعض النفوذ فى الجزيرة العربية، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الدعوة الشيعية التى استمرت دون توقف على يد الدعاة الفاطميين^(٢).

وعلى الرغم من أن ولاية مكة والمدينة أقاموا فى فترات مختلفة الدعوة لبنى العباس، فإنهم لم ينحازوا إلى الخلفاء العباسيين فى مناهضة الخلافة الفاطمية بل حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء الفاطميين كلما أمكنتهم الفرص، وما ذلك إلا بتأثير الدعوة الشيعية التى بذل الدعاة الفاطميون فى نشرها عناية كبيرة، كما أن الخلفاء الفاطميين من ناحيتهم كانوا يبذلون قصارى جهدهم فى نشر الأمن والطمأنينة فى الأراضى المقدسة بالحجاز لتيسير سبل المعيشة على أهلها بما كانوا يرسلونه إليهم من الحبوب والأموال. لذلك لا نعجب إذا علمنا أن إقامة الخطبة للخلفاء الفاطميين لم تلق اعتراضاً من هؤلاء الأهالى الذين عرفوا بميلهم إلى المذهب السنى، كما أن أمراءهم احتفظوا فى كل من مكة والمدينة بكثير من مظاهر المذهب الشيعى التى كانت سائدة فى مصر فى العصر الفاطمى، وفضلاً عن ذلك فإن انتماء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوى كان له أثر كبير فى حرص هؤلاء الأمراء على التقرب إلى الخلفاء الفاطميين واكتساب رضائهم رغم المحاولات التى بذلها الخلفاء العباسيون لاستمالتهم إليهم وصرفهم عن الخلافة الفاطمية فى مصر.

(١) الفلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧١.

(٢) Stanley Lane - Poole. A History of Egypt in the middle ages pp. 117 - 118, 123.

وعلى الرغم من حرص الخلفاء العباسيين والفاطميين على بسط سيادتهم على الأراضى المقدسة بالحجاز، فإن التنافس بينهم لتحقيق هذه الغاية لم يقرن بمظاهر العنف، بل وجه كل منهم اهتمامه إلى إقامة الدعوة له فى تلك الأراضى بالطرق السلمية، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن العباسيين والفاطميين رأوا ألا يتخذوا من الأراضى المقدسة بالحجاز ميدانا لإظهار ما بينهم من عداوة وبغضاء.

وقد اقتصر اهتمام الخلفاء الفاطميين تحت تأثير الصعوبات التى واجهوها فى دولتهم على نشر سلطتهم الدينية فى بلاد الحجاز التى كانت تتمثل فى إقامة الخطبة لهم على منابرهما. وكانوا يرجون من وراء تمتعهم بهذه السلطة توطيد أركان خلافتهم واستمالة العالم الإسلامى إلى جانبهم بعد أن أصبح المسلمون ينظرون نظرة إجلال وتقدير إلى الخلفاء الذين يحتفظون بسيادتهم على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز.

ولاشك أن حرص الفاطميين على نشر نفوذهم فى بلاد الحجاز ونجاحهم فى هذا السبيل وإن جر عليهم منافسة العباسيين لهم، فإنهم جنوا من ورائه احترام العالم الإسلامى وتقديره، فقد برهنوا على قدرتهم على درء الأخطار عن تلك البلاد بعد أن صدوا القرامطة عن مكة ووجهوا اهتمامهم إلى العمل على حماية الأراضى المقدسة وتأمين الوافدين إليها من المسلمين على أرواحهم وأموالهم.

ولم يكن لدى أمراء مكة والمدينة القوة التى تمكنهم من درء الأخطار عن بلاد الحجاز، كما أن موارد تلك البلاد كانت لا تكفى لسد حاجة أهلها؛ لذلك رأوا أنه من الخير لهم اكتساب صداقة الفاطميين والتقرب إليهم ما داموا يرعون حقوقهم فى الإمارة، ويمدوونهم بما يحتاجون إليه من الأموال والغلال؛ غير أنه يؤخذ على هؤلاء الأمراء أنهم كانوا يؤثرون مصلحتهم الخاصة على مصلحة البلاد التى يتولون الإمارة عليها، فاستغلوا التنافس بين العباسيين والفاطميين على السيادة على بلاد الحجاز لإشباع مطامعهم وصاروا يقيمون الخطبة للخلفاء الذين يواصلون

إمدادهم بالأموال، ولا يعنون بإدخال ضروب الإصلاح فى بلادهم مما أدى إلى إضعاف شأنها وتأخيرها ماديا وعلميا؛ حتى أن المقدسى^(١) لما زار بلاد الحجاز فى القرن الرابع الهجرى وصفها بالفقر وقلة العلم^(٢)، كما أن الرحالة الفارسى ناصر خسرو لاحظ حين زيارته مكة فى القرن الخامس الهجرى قلة سكانها، وقدر عددهم بألفين، وقال إن فريقا من أهلها اضطروا إلى الرحيل عنها فرارا من المجاعات^(٣).

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٠٣.

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ٣١٣.

(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

أمرأة فكة الأشراف^(١)

السليمانيون والهاشم

(من منتصف القرن الرابع إلى نهاية القرن السابع الهجري)

٣٥٦ هـ	أبو جعفر بن محمد بن حسين بن محمد النائر
٣٥٨ هـ	حسن بن جعفر الحسنى ^(٢)
٣٧٠ هـ	عيسى بن أبي محمد جعفر
٣٨٠ هـ	أبو الفتوح الحسن بن أبي محمد جعفر
٤٠١ هـ	أبو الطيب داود بن عبد الرحمن بن عبد الله داود
٤٠٣ هـ	أبو الفتوح الحسن (المرّة الثانية)
٤٣٠ هـ	محمد شكر بن أبي الفتوح الحسن
٤٥٣ هـ	حمزة بن وحّاش بن أبي الطيب داود
٤٦١ هـ	أبو هاشم محمد محمد بن جعفر بن محمد (تاج المولى)
٤٨٧ هـ	أبو فليته القاسم بن محمد بن جعفر
٥١٨ هـ	فليته بن القاسم بن محمد بن جعفر
٥٢٧ هـ	هاشم بن فليته بن القاسم
٥٤٩ هـ	القاسم بن هاشم بن فليته
٥٥٦ هـ	عيسى بن فليته بن القاسم
٥٧٠ هـ	داود بن عيسى بن فليته
٥٧١ هـ	مُكثّر بن عيسى بن فليته
٥٧٢ هـ	داود بن عيسى (المرّة الثانية)

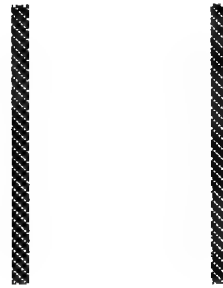
(١) (Zambaur, Manuel de Généalogie et de Ghronologie pour L'Histoire de L'Islam p. 21)

(٢) دعا للمعز سنة ٣٥٨ هـ : انظر المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ١٤٦ .

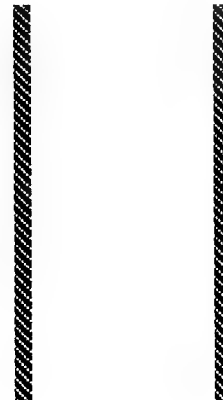


الباب الثاني

السيادة الفاطمية في بلاد البحرين



تمهيد : قيام دولة القرامطة في بلاد البحرين.
موقف أمراء القرامطة من الخلفاء.



تمهيد : قيام دولة القرامطة ببلاد البحرين:

كان نفوذ العباسيين في جزيرة العرب مهددا من ناحية القرامطة^(١) الذين نجحوا في اقتطاع بلاد البحرين حيث كان أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي^(٢) أحد قوادهم يعمل على نشر دعوتهم بهذا الإقليم منذ سنة ٢٨٣ هـ. وقد وجدت تعاليمه مرعى خصيبا لدى الأهالي وعلى الأخص الأعراب الذين كانوا دائما على استعداد للانضمام إلى أى حركة ثورية ضد العرب أو غيرهم ما دامت تتيح لهم فرصة للسلب والنهب^(٣).

وقد تمكن أبو سعيد الجنابي من الاستيلاء على مدينة هجر عاصمة بلاد البحرين بعد حصار دام سنتين واتخذ مدينة الأحساء^(٤) عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التي أسسها سنة ٢٨٦ هـ وكان لهذه الدولة شأن كبير في جزيرة العرب.

(١) القرامطة : طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها وسلاحا للوصول إلى ما تصبو إليه؛ وقد عرفت بذلك نسبة إلى أحد دعائها حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط. ويقال أنه سمي قمرط لقصر قامته ورجليه.

النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٣ ورقة ٥٦.

ويرى Ivanow في كتابه (The Rise of the Fatimids p. 69) أن «كرامته كلمة معروفة عند أهالي بلاد العراق الجنوبية لم تستعمل في العربية معناها الفلاح أو القروي ثم عربت إلى قمرط، وأن حمدان بن الأشعث عرف بهذا الاسم وسمى أتباعه باسمه».

(عبد العزيز الدوري : دراسات في العصر العباسي الثاني ص ١٥٨).

(٢) الجنابي : نسبة إلى جنابة وهي بلدة على ساحل الخليج الفارسي.

ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٤٢ - ١٤٣

(٣) De La cy O'Leary. Ashort History of the Fatimid Khalif ate (٣)

(٤) عرفت بهذا الاسم لما فيها من أحساء المياه في الرمال ومراعى الإبل (ابن خلدون : ج ٤ ص ٩١).

فقد استطاعت أن تبسط نفوذها على كثير من أرجائها، كما قامت بها حكومة ملكية وراثية في بيت أبي سعيد يعاونها مجلس يتكون من اثني عشر عضواً. وكان الحاكم هو القائد الأعلى للجيش وبيده كافة مقاليد الأمور، وله سلطة مطلقة. وكان العبيد يقومون بفلاحة أراضيها، أما سكانها من العرب فلم يكن لهم عمل سوى الخدمة في الجيش^(١).

وقد وضع أبو سعيد نظاماً حربياً دقيقاً يستطيع بمقتضاه إعداد جيش قوى من رعاياه فصار يجمع الأطفال في دور خاصة وعين لهم قوما يشرفون على مصالحهم وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه، وأخذ يدرّبهم على ركوب الخيل واستخدام الأسلحة الحربية، فنشأ نشأة عسكرية^(٢).

كان أبو سعيد يطمع في بسط سيادته على جزيرة العرب وسلخها عن الدولة العباسية، وقد أثارت مطامعه مخاوف الخليفة العباسي المعتضد فأرسل إليه جيشاً بقيادة العباس بن عمرو الغنوي بعد أن ولاه على اليمامة والبحرين سنة ٢٨٩ هـ، فلقى هذا الجيش هزيمة فادحة ووقع العباس في الأسر، وما لبث أن أطلق سعيد سراحه وطلب منه أن يبلغ المعتضد هذه الرسالة؛ ومما جاء فيها: «هذا بلد خارج عن يدك غلبت عليه وقمت به وكان فيّ من الفضل ما أخذ به غيره، فما عرضت لما كان في يدك، ولا هممت به، ولا أخفت لك سبيلاً، ولا نلت أحداً من رعيتك بسوء؛ فتوجيهك إلى الجيوش لأي سبب؟ اعلم أنني لا أخرج عن هذا البلد ولا توصل إليه، وفي هذه العصابة التي معي روح، فاكفني نفسك ولا تتعرض لما ليس لك فيه فائدة، ولا تصل إلى مرادك إلا ببلوغ القلوب الحناجر^(٣)».

فلما وقف المعتضد على ما تضمنه حديث أبي سعيد قال: «صدق، ما أخذ شيئاً كان في أيدينا». ثم أطرق مفكراً وقال: «كذب عدو الله الكافر، المسلمون رعيتي حيث كانوا من بلاد الله، والله لئن طال بي العمر لأشخصن

بنفسى إلى البصرة وجميع غلمانى، ولأوجهن إليه جيشا كثيفا فإن هزمه وجهت جيشا، فإن هزمه خرجت فى جميع قوادى وجيشى إليه يحكم الله بينى وبينه» .

يتضح لنا من حديث الخليفة المعتضد أنه مدرك حقيقة الحال فى الدولة العباسية، وأن بعض ولاياتها ومن بينها بلاد البحرين خرجت عن سلطانه، وأن واجبه كخليفة أن يظل نفوذه سائدا فى جميع البلاد الإسلامية. وقد بلغ من حنق المعتضد على أبى سعيد ورغبته فى القضاء عليه أنه كان يذكره خلال مرضه ويتلهف ويقول : حسرة فى نفسى، كنت أحب أن أبلغها قبل موتى، والله لقد كنت وضعت عند نفسى أن أركب ثم أخرج نحو البحرين، ثم لا ألقى أحدا أطول من سيفى إلا ضربت عنقه، وإنى أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة^(١).

استطاع أبو سعيد بإقراره النظام فى بلاد البحرين وتدريبه أهلها على الأعمال الحربية أن يقيم دولة موطدة الأركان فيها، امتد نفوذها على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين والطائف^(٢). ولو طالعت حياته لتيسر له مد سلطانه على جزيرة العرب بأكملها، ولكنه اغتيل سنة ٣٠٢ هـ على يد خادم له كان قد أخذه من الجيش العباسى، فخلفه ابنه سعيد الذى كان يدبر أمور الدولة حتى ثار عليه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان وقتله وتقلد زمام الحكم فى دولة القرامطة.

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٢١٩.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٢٧.

موقف أمراء القرامطة من الخلفاء الفاطميين

قامت العلاقات الودية بين القرامطة في بلاد البحرين والفاطميين في بلاد المغرب منذ أرسل عبيد الله المهدي إلى أبي طاهر سليمان أمير القرامطة كتاباً بتوليته. وقد ترتب على ذلك اتحادهم في سياستهم العدائية إزاء العباسيين، فطلب أبو القاسم بن المهدي سنة ٣٠٦ هـ من أبي طاهر أن يحضر إلى مصر على رأس حملة ليعاونه على فتحها. لكن الجيش العباسي بقيادة مؤنس الخادم ما لبث أن أوقع الهزيمة بجيش أبي القاسم قبل أن تصل إليه النجدة من أبي طاهر^(١).

كان أبو طاهر رجلاً طموحاً إلى المجد والعظمة، فقضى السنوات الأولى من حكمه ينظم شئون دولته ويعد العدة للسيطرة على جزيرة العرب، كما وجه سياسته إلى تأييد عبيد الله المهدي في عداوته للعباسيين^(٢) فعمل على إشغالهم في المشرق بحملاته التي وجهها إلى بلادهم حتى يتيح للمهدي توطيد نفوذه في المغرب، فزحف على البصرة والكوفة، وبعد أن غنم منها مغانم كثيرة عاد إلى هجر^(٣)، وفي سنة ٣١٦ هـ تقدم أبو طاهر إلى بغداد وكادت تقع في يده لولا دهاء مؤنس الخادم قائد الخليفة المقتدر الذي بعث بزوارق ملأى بفاكهة مسمومة، فلما أكل منها جند القرامطة مات منهم عدد كبير، وارتد جيش أبي طاهر بعد أن تكبد خسائر فادحة^(٤)، لكن هذه الهزيمة لم تفت في عضده، فقام في العام التالي بحملة اضطرب من أجلها العالم الإسلامي؛ ذلك أنه أغار على مكة في ذي الحجة سنة ٣١٧ هـ (يناير ٩٣٠م) في عدد قليل، إذ كان معه ستمائة فارس وتسعمائة راجل، ونهب هو وأصحابه الحجاج وقتلوه في المسجد الحرام، وقلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الأسود، وأخذ كسوة الكعبة ففرقها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة، وأقام الخطبة في مكة لعبيد الله المهدي بدلاً من الخليفة العباسي المقتدر ثم عاد إلى الأحساء حاملاً معه الحجر الأسود^(٥).

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٣٩.

(٣) ج ٨ ص ٤٥ و ٤٩.

(٤) المقرئ : اتعاظ الخفا ص ٢٤٢.

(٥) ابن الأثير : ج ٨ ص ٨١ وعبد القادر الأنصاري : درر الفرائد المنظمة ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦.

لم يقيم أبو طاهر بهذه الفعلة الشنعاء - كما زعم أوليري^(١) - بناء على تعاليم سرية أرسلت إليه من القيروان الغرض منها الانتقام من أهل مكة لأنهم لم يخطبوا لعبيد الله المهدي، ودليلنا على ذلك أن اهتمام هذا الخليفة بإقامة الخطبة له لم يتضح إلا بعد أن فتح أبو طاهر مكة، كما أن عبيد الله المهدي أظهر استياءه من الأحداث التي ارتكبها أبو طاهر في هذا البلد المقدس وكتب إليه ما نصه^(٢) : «والعجب من كتب إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعدت ذلك وقلعت الحجر . . . وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المؤمنون من لسانه ويده وفعل في يومه ما عمل فيه حساب غده»^(٣)، فبعث إليه أبو طاهر رداً على كتابه وعده فيه بأنه سيعمل على إعادة الحجر الأسود إلى بيت الله الحرام^(٤).

لم يكتف أبو طاهر بمهاجمة مكة وإقامة الخطبة فيها للخليفة الفاطمي بل بسط سلطانه عليها وفرض على الحجاج سنة ٣٢٣ هـ إتاة يؤدونها إليه مقابل حمايتهم والمحافظة على أرواحهم^(٥). وبذلك أصبحت الخلافة العباسية عاجزة عن حماية رعاياها من المسلمين وتأمين طريقهم إلى بلاد الحجاز. ولا شك أن ظهورها بهذا المظهر يضعف هيبتها أمام العالم الإسلامي، وهو ما كان يرجوه ويعمل من أجله أبو طاهر ليمهد السبيل أمام أنصاره الفاطميين، ولا غرو فقد أعلن في إحدى قصائده ولاءه للمهدي وأنه عول على القضاء على العباسيين وإعادة النفوذ إلى العلويين^(٦).

(١) A Short History of the Fatimid Khalifate, p. 86

(١)

(٢) عبد القادر الأنصاري : دور الفرائد المنظمة ج ١ ص ١٩٦.

(٣) يرى أوليري في كتابه A Short History of the Fatimid Khalifate, p. 85 أن عبيد الله المهدي

أرسل هذا الخطاب لأبي طاهر لينفي عن نفسه أية مسئولية من جراء استحواد القرامطة على الحجر الأسود وليظهر بمظهر المدافع عن شعائر الإسلام حتى يكتسب تقدير العالم الإسلامي.

(٤) ابن خلدون : ج ٤ ص ٨٩.

(٥) المقرئ : اتعاظ الخفا ص ٢٤٤.

(٦) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٣٩.

أغرکم منى رجوعى إلى هجر فعمّا قليل سوف يأتيکم الخبر
إذا طلع المریخ من أرض بابل وقارنه کیوان فالخذر الخذر
فمن مُبلغ أهل العراق رسالة بأنى أنا الموهوب فى البدو والحضر
ومنها

فيا ويلهم من وقعة بعد وقعة تساقون سوق الشاة للذبح والبقر
سأصرف خيلى نحو مصر وبرقة إلى قیروان الترك والروم والخزر
ومنها

أکیلهم بالسيف حتى أییدهم فلا أبق منهم نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداع للمهدى لا شك غیره أنا الصارم الضرغام والفراس الذکر^(١)

* * *

حرص القرامطة طوال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى على الاحتفاظ بعلاقتهم الودية مع الفاطميين ببلاد المغرب، كما سمحوا لهم بالتدخل فى تعيين أمرائهم، ذلك أنه لما توفى أبو طاهر سنة ٣٣٢ هـ عارض بعض رجال دولته فى تولية أخيه الأكبر أحمد بن أبى سعيد الحسن - وكان أبو طاهر قد أوصى أن يخلفه فى الحكم - ومالوا إلى تولية سابور بن أبى طاهر وكتبوا الخليفة الفاطمى القائم فى ذلك، فجاءهم كتابه بولاية أحمد وأن يكون سابور ولى عهده^(٢)؛ فنفذت رغبته وتقلد أحمد زمام الحكم فى دولة القرامطة فى بلاد البحرين وتلقب بأبى المنصور، وحذا حذو أخيه فى ولائه للفاطميين؛ فأعاد الحجر الأسود من الأحساء إلى مكانه بالكعبة سنة ٢٣٩ هـ إجابة لطلب المنصور الفاطمى بعد أن ذهبت مجهودات الخلافة العباسية مع أبى طاهر بشأن استرداده هباء، فقد رفض رده مقابل خمسين ألف دينار من الذهب^(٣)، وفى هذا دليل واضح على مدى خضوع القرامطة فى بلاد البحرين لسلطان الفاطميين.

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) ذكر De Goeje فى كتابه Memoire sur Les Carmathes du Bahrain p. 146 أن المنصور بن القائم

هو الذى أصدر قرار تعيين أحمد بن الحسن بدلا من سابور.

(٣) ابن خلدون: ج ٤ ص ٨٩ - ٩٠.

ومما لا شك فيه أن قيام دولة القرامطة فى بلاد البحرين أثار فى وجه الخلافة العباسية كثيرا من المتاعب والمشاكل بجانب ما كانت تعانيه من ازدياد نفوذ الأتراك واستبداد البويهيين بالسلطة فى بغداد، وقد أدى انشغالها بصد غارات القرامطة عن أراضيها إلى ازدياد قوة الفاطميين فى بلاد المغرب، كما مهد السبيل لفتح مصر، فقد كانت غارات قرامطة البحرين على أراضى الدولة العباسية بالمشرق تتفق دائما مع الحملات التى وجهها عبيد الله المهدي إلى مصر^(١).

وكان لاتحاد القرامطة مع الفاطميين فى نشر آراء المذهب الإسماعيلى أكبر الأثر فى صعود نجم العلويين فى القرن الرابع الهجرى على حين بدأ أمر العباسيين فى الضعف، فبسط الفاطميون الذين يمثلون الخلافة العلوية سلطانهم على مصر وبلاد الشام وكثير من أرجاء جزيرة العرب. وكانت كل هذه البلاد تدين بالطاعة للعباسيين.

لم تتمتع دولة القرامطة فى بلاد البحرين بالهدوء والاستقرار فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، فقد حدث نزاع بين أفراد أسرة أبى طاهر على العرش، فقبض سابور بن أبى طاهر على عمه أحمد بن أبى سعيد الملقب بأبى المنصور سنة ٣٥٨ هـ - وكان إذ ذاك يلى الحكم فى دولة القرامطة - غير أنه ما لبث أن خرج من اعتقاله وقتل سابور ونفى إخوته وأشياعه إلى جزيرة أوال^(٢)، وانقسم القرامطة بسبب ذلك إلى فريقين : أحدهما بزعامة بيت أبى طاهر، وثنائهما بزعامة بيت أحمد بن أبى سعيد وعلى رأسه ابنه الحسن الملقب بالأعصم الذى آلت إليه إمارة بلاد البحرين بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٩ هـ^(٣).

اتبع الحسن بن أحمد سياسة جديدة إزاء الفاطميين تخالف سياسة من سبقه من أمراء القرامطة الذين كانوا يحرصون على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب ويسمحون لهم بالتدخل فى تعيين أمرائهم؛

De Goej. Mémoire sur Les carmathes du Bahrain et Les Fatimides p. 69

(١)

(٢) جزيرة بناحية البحرين : ياقوت، معجم البلدان ج ٤ ص ٣٦٥.

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٤٥.

فانتهز فرصة الخلاف الذى وقع بين أفراد أسرته بسبب التنافس على تقلد إمارة القرامطة وأبعد إخوة سناهور بن أبى طاهر وأشياهم - وهم الفريق الذى عرف بولائه للفاطميين - إلى جزيرة أوال^(١)، حتى يبلغ ما اجتمع بها منهم نسحو من ثلاثمائة، كما لم يعترض أثناء وجوده بمكة على إقامة الخطبة للخليفة العباسى المطيع^(٢)، مما يدلنا على انحرافه عنهم. ولم يلبث أن أصبح محاربا لهم، بل راغبا رغبة أكيدة فى القضاء عليهم؛ ذلك أنه بعد أن تم للجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح الكتامى فتح دمشق سنة ٣٥٩ هـ طالب الحسن بن أحمد بالإتاوة التى كان يدفعها الإخشيدون للقرامطة^(٣) فرفض القائد الفاطمى أداءها إليه، فادى ذلك إلى عداء سافر بين الحسن بن أحمد القرمطى والفاطميين. ويعتقد جاستون فييت^(٤) أن قطع الإتاوة كان عذرا وهما لقطع العلاقات بين القرامطة والفاطميين؛ ويقول إنه من المحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى أن الفاطميين الذين ملكوا بلادا غنية أرادوا القضاء على القرامطة حتى لا يذيعوا بين الناس أن الفاطميين من نسلهم، وحتى لا يطمعوا فى سلب ما استحوذ عليه الفاطميون.

رأى الفاطميون - بعد أن تبدلت صلة المودة بينهم وبين قرامطة بلاد البحرين بتأثير السياسة التى سار عليها الحسن بن أحمد - أن يعملوا على إضعاف شأنهم بإثارة النزاع بينهم؛ فأرسل المعز لدين الله الفاطمى إلى أبى طاهر وبنيه الذين أبعادوا إلى جزيرة أوال يخبرهم بأحقية ولد أبى طاهر فى إمارة القرامطة. فلما علم بذلك الحسن بن أحمد، أمر بحذف اسم المعز من الخطبة فى بلاد البحرين وإقامة الدعوة للخليفة العباسى المطيع^(٥).

(١) أوال : جزيرة بناحية بلاد البحرين. ياقوت، معجم البلدان. ج ١ ص ٣٦٥.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر. ج ١ ص ٣٦٥.

(٣) أثار القرامطة على بلاد الشام سنة ٣٥٧ هـ. وعجز الإخشيد عن صدهم، واضطر الحسن بن عبد الله بن طنج الإخشيد والى هذه البلاد إلى الاتفاق معهم على أن يؤدى إليهم إتاوة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار.

(المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٢٤٧ - ٢٤٨)

(٤) Histoire de La Nation Egyptienne, Vol IV p. 101 - 102.

(٥) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩٠.

وكان الحسن بن أحمد يرى ضرورة استعادة سلطة القرامطة على بلاد الشام، فبعث إلى كل من الخليفة العباسي وأمير بني بويه ببغداد أن يمداه بالأموال والرجال لمعاونته على محاربة الفاطميين. واستطاع الحسن بن أحمد بفضل ما وصل إليه من الإمداد أن يزحف إلى بلاد الشام؛ فاستولى على دمشق سنة ٣٦٠هـ. وما زال يواصل فتوحه حتى تمكن من بسط سلطانه على كثير من مدن الشام. ولم يكتف بذلك، بل ولّى وجهه شطر مصر حتى لا يعاود الفاطميون مهاجمته من هذه الناحية، لكنه فشل في المحاولتين اللتين قام بهما للاستيلاء على البلاد المصرية : الأولى في ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ، والثانية في سنة ٣٦٣ هـ. واضطر بعد عجزه عن الاستيلاء على القاهرة إلى التقهقر بجيوشه إلى دمشق، ثم رحل مع بعض رجاله إلى الأحساء^(١) وأخذ الفاطميون يعملون على استرداد بلاد الشام - على ما سيأتى - .



قامت الخلافات الداخلية بين قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن بن أحمد سنة ٣٦٧ هـ، كما أنهم أنكروا سياسته العدائية إزاء الفاطميين ومبايعته الخليفة العباسي، وعمل أتباع أبي طاهر على إقصاء ولد أبي سعيد عن الإمارة، ثم استقر الرأي على أن يتولى الحكم في بلاد البحرين اثنان من ساداتهم، وهما جعفر وإسحق^(٢)؛ فسارا على السياسة التي اتبعها أمراء القرامطة قبل تولية الحسن بن أحمد من إقامة الدعوة الفاطمية ومحاربة بني العباس^(٣).

عاد قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن بن أحمد إلى القيام بحملات على أراضي الدولة العباسية، فأغاروا على الكوفة سنة ٣٧٥ هـ وأدى ذلك إلى انزعاج أهلها لما عرف به القرامطة من شدة البأس وقوة الشكيمة حتى هابهم الناس، فبعث إليهم صمصام الدولة أمير بني بويه جيشاً أوقع بهم الهزيمة على نهر

(١) انظر المقرئى : اتعاظ الخنفاء . ص ٢٥٠، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٢١١.

(٢) ذكر (ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٨) أنه تولى أمر القرامطة بعد وفاة الحسن بن أحمد ستة نفر اشتركوا جميعاً فى الحكم وسموا السادة.

(٣) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩١.

(٤) ابن الأثير : ج ٩ ص ١٤ - ١٥.

الفرات وتعقبهم إلى القادسية^(١)، وبذلك تيسر للبويهيين إخراجهم نهائياً من بلاد العراق.

* * *

ضعف أمر القرامطة منذ أواخر القرن الرابع الهجري حتى لم يبق لهم إلا ولاية صغيرة على الشاطئ الشرقي للجزيرة العربية لا تستطيع قطع الطريق على الحجاج، ولكن كان لها على باب البصرة ديوان صغير لأخذ الضرائب^(٢).

كذلك أدى التنافس على الرياسة بين كل من جعفر وإسحق إلى التعجيل باضمحلال دولتهم في بلاد البحرين وزوالها في نهاية القرن الرابع الهجري؛ يقول ابن خلدون^(٣) : «وافترق أمرهم وتلاشت دعوتهم إلى أن استولى الأصغر بن أبي الحسن الثعلبي سنة ٣٩٨ هـ عليهم وملك الأحساء من أيديهم وأذهب دولتهم وخطب للطائع واستقرت الدولة له ولبنيه».

كان يقيم ببلاد البحرين بجانب القرامطة كثير من قبائل العرب ومن أشهرهم بنو ثعلب وبنو عقيل وبنو سليم، وكثيراً ما استنجد بهم القرامطة على أعدائهم واستعانوا بهم في حروبهم، وقد حدثت بينهم وبين هؤلاء العرب عدة منازعات أدت في بعض الأحيان إلى اشتعال نار الحرب بين الفريقين.

كان بنو ثعلب أكثر العرب المقيمين ببلاد البحرين عدداً، وأظهرهم عزة، فاستولى زعيمهم الأصغر بن أبي الحسن الثعلبي على تلك البلاد بعد أن انحل أمر القرامطة وانقرض الملك من أسرة الجنابي، ولكن الأمور لم تستقر في بلاد البحرين بسبب المنازعات التي قامت بين القبائل العربية، فقد استعان بنو ثعلب ببني عقيل على بني سليم وطردهم من تلك البلاد، فساروا إلى مصر ومنها رحلوا إلى إفريقية ثم حدث خلاف بين بني ثعلب وبني عقيل انتهى الأمر فيه بخروج بني عقيل إلى العراق فأقاموا لهم دولة بإقليم الجزيرة.

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٣٤، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري،

ج ٢ ص ٥٦.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٩١.

وقد نجح الأصغر زعيم بنى ثعلب فى جعل الحكم وراثيا فى بنيه من بعده ببلاد البحرين، فظلوا يتولون الأمور فيها حتى ضعف أمرهم وانقرضوا وخلفهم فى حكم هذه البلاد بنو عقيل الذين عادوا إلى ديارهم، بعد أن تغلب عليهم السلاجقة فى الجزيرة^(١). وقد ذكر أبو سعيد صاحب كتاب المغرب فى حلى المغرب أنه سأل أهل البحرين الذين قابلهم بالمدينة المنورة سنة ٦٥١ هـ عن بلادهم، فقالوا: الملك فيها لبنى عامر بن عوف بن عامر بن عقيل، أما بنو ثعلب فأصبحوا من جملة رعاياهم.

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩١ - ٩٢.

الباب الثالث

السيادة الفاطمية في اليمامة وعمان

(أ) اليمامة
(ب) عمان.

(أ) **اليمامة** : كانت^(١) اليمامة من بين ولايات جزيرة العرب التى تدين بالطاعة للعباسيين حتى منتصف القرن الثالث الهجرى حيث استولى عليها فى أيام المستعين بالله العباسى محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، واتخذ الخضرمة حاضرة له^(٢). فأقام ياليمامة دولة علوية عرفت باسم دولة بنى الأخيضر، استقل بها عن الخلافة العباسية التى بدأت مظاهر الضعف والانحلال تظهر عليها منذ ذلك الوقت بسبب ازدياد نفوذ الأتراك واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء.

لم يلق محمد الأخيضر عناءً كبيراً فى إقامة دولته باليمامة، واستطاع أن يوطد نفوذه فيها ويجعل الحكم وراثياً فى أبنائه من بعده، وكان له من الأولاد محمد وإبراهيم وعبد الله ويوسف، ولما توفى خلفه يوسف الذى أشرك معه ابنه إسماعيل فى إدارة شئون اليمامة طيلة حياته، ثم انفرد إسماعيل بولاية اليمامة بعد وفاة أبيه.

وقد وجه كل من رستم بن الحسين بن حوشب وعلى بن فضل وهما من دعاة الإسماعيلية فى اليمن أنظارهما إلى اليمامة بسبب قيام دولة بنى الأخيضر العلوية بها، واعتقد أن أهلها سيرحبون بالدعوة الفاطمية، لذلك بعثا إليها بالدعاة

(١) يحدها من جهة الشرق بلاد البحرين ومن الغرب أطراف اليمن والحجاز. ومن الجنوب مهران، ومن الشمال نجد والحجاز. (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٥٨).

(٢) ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ص ٤١.

لنشر المذهب الإسماعيلي^(١)، كما بعثا دعاة آخرين لنفس هذا الغرض إلى بلاد البحرين والسند والهند ومصر والمغرب^(٢).

لم يزل بنو الأخيضر يتولون الملك باليمامة حتى طمع قرامطة بلاد البحرين في بسط سلطانهم على جزيرة العرب، فتغلبوا على اليمامة في أوائل القرن الرابع الهجري، كما أخضعوا مكة وعمان لسلطانهم، وبذلك زالت دولة بني الأخيضر^(٣).

على أن نفوذ القرامطة في اليمامة ما لبث أن ضعف بعد زوال دولتهم في بلاد البحرين، ولم يزل خلفاء بني العباس أى محاولة لاستعادة سلطانهم عليها، فاستقل بإدارتها زعماء العرب المقيمون بها وعلى الأخص من قيس عيلان^(٤).

(ب) عمان : كانت عمان من بين الولايات الإسلامية بجزيرة العرب التي تدين بالطاعة للعباسيين في أواخر القرن الثالث الهجري. وقد تزعم الحكم فيها في عهد الخليفة المعتضد بنو شامة بن لؤى بن غالب، ففتح محمد بن القاسم الشامي عمان بمعاونة هذا الخليفة ثم وليها من قبله، وأقام الخطبة فيها لبني العباس، ونجح في جعل الحكم وراثيا في أبنائه من بعده. على أن الضعف والانحلال ما لبث أن أصاب إمارتهم بسبب الخلاف الذي قام بينهم سنة ٣٠٥ هـ، فلحق بعضهم بالقرامطة في بلاد البحرين وظل الاضطراب سائدا في ولايتهم حتى تغلب عليها سنة ٣١٧ أبو طاهر القرمطي، وخطب بها لعبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب^(٥)، وبذلك دخلت عمان في حوزة دولة القرامطة ببلاد البحرين وصار ولايتها يعينون من قبلها.

(١) عرف بذلك نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان أتباعه يعرفون بالإسماعيلية وهم فرقة من الشيعة تعتقد أن الإمامة انتقلت بعد النبي ﷺ إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه، ثم إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم انتقلت في بني الحسين إلى جعفر الصادق، ويدعون أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم تنقلت في بنيه (القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠).

(٢) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٦٨.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٨ - ٩٩.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٦.

(٥) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩٣.

لم يكن نفوذ القرامطة موطدا في عمان، فقد استقل بالحكم فيها يوسف ابن وجيه، وحاول توسيع رقعة إمارته، فسار على رأس حملة بحرية يريد البصرة، وكاد يستولى عليها لولا ما حل بسفنه من جراء الحريق الذي دبره بعض أعوان بني البريدى الذين استقلوا بالبصرة والأهواز وواسط في عهد الخليفة المتقى. ومضى يوسف بن وجيه صاحب عمان هاربا في أوائل سنة ٣٣٢^(١). ولم يتمتع طويلا بالحكم بعد هذه الهزيمة، فقد ثار في وجهه مولاة نافع وتغلب عليه ثم تقلد زمام الأمور بدلا منه، ودخل في طاعة معز الدولة بن بويه وخطب له على المنابر وضرب اسمه على الدينار والدرهم^(٢).

انتهاز القرامطة فرصة عدم استقرار الأمور في عمان فتغلبوا عليها سنة ٣٥٤هـ وهرب نافع منها بعد أن وثب به أهل عمان، لكنهم لم يستأثروا بالنفوذ فيها، فقد استقر رأى أهلها على أن يولوا عليهم عبد الوهاب بن أحمد بن مروان، فولى إمارة عمان بعد أن كان ممتنعا عن تقلدها، واتخذ على بن أحمد كاتباً - وكان يكتب للقرامطة من قبل.

بدأ الأمير عبد الوهاب عمله بمنح الجند أرزاقهم، وكانوا طائفتين إحداهما من البيض والثانية من الزنج، فلما فرغ كاتبه على بن أحمد من توزيع المرتبات على البيض قال للزنج - وكانوا ستة آلاف رجل - إن الأمير عبد الوهاب أمر لكم بنصف ما وزع على البيض، فامتعضوا لذلك وثاروا ضده، لكنه ما لبث أن استمالهم إليه بقوله : «هل لكم أن تباعوني فأعطيكم مثل سائر الأجناد؟» فأجابوه إلى ذلك وباعوه؛ فسواهم في العطاء مع البيض مما أدى إلى تدمير البيض وقيام الحرب بينهم وبين الزنج. فلما كانت الغلبة للزنج هدأت الفتنة في عمان واستقر على بن أحمد في إمارتها بعد عزل الأمير عبد الوهاب^(٣).

رأى معز الدولة بن بويه أن الفرصة سانحة له للاستيلاء على عمان بعد ما وصل إليه من أنباء الفتن والاضطرابات التي ثارت فيها، فسار من واسط إلى الأبله

(١) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٣٠.

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٨٦.

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٨٦ - ١٨٧، ابن خلدون : ج ٤ ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

وهناك أعد حملة بحرية لفتحها سنة ٣٥٥ هـ، وأسند قيادتها إلى أبي الفتح محمد ابن العباس، وطلب من عضد الدولة بفارس أن يمدّه بالعساكر فوافاهم المدد بسيراف^(١)، ثم سارت المراكب حاملة الجند إلى عمان، فتغلبوا عليها وأقيمت الخطبة فيها لمعز الدولة؛ وتولى حكمها أبو الفرج بن العباس نائباً عنه^(٢).

لما توفى معز الدولة غادر عمان إلى بغداد نائبه أبو الفرج بن العباس، وبعث إلى عضد الدولة يطلب منه أن يتسلمها، فتولى أمرها عمر بن نهبان الطائي، وأقام الدعوة لعضد الدولة؛ غير أن الزنج ما لبثوا أن تغلبوا على عمان، وقتلوا ابن نهبان وولوا عليهم رجلاً يعرف بابن حلاج؛ فلما علم بذلك عضد الدولة أرسل إليهم جيشاً بقيادة أبي حرب طغان، ودارت بينه وبين الزنج معركة حامية بصحار - قصبة عمان - انتهى الأمر فيها باستيلاء أبي حرب على هذه البلدة وانهزم أهلها سنة ٣٦٢ هـ.

على أن نفوذ عضد الدولة لم يتوطد رغم ذلك في عمان، فقد اجتمع بجالها كثير من الخوارج وولوا ورد بن زياد أميراً عليهم، كما جعلوا حفص بن راشد خليفة لهم، واشتدت شوكتهم، فبعث إليهم عضد الدولة حملة بقيادة المطهر ابن عبد الله الذي تمكن - بعد أن نزلت جنوده بأرض عمان - من التغلب على الثائرين وأسّر كثيراً من رؤسائهم. وظل يتبعهم حتى أوقع بهم وقعة أتت على بقاياهم واضطر خليفتهم إلى مغادرة عمان والإقامة ببلاد اليمن، وبذلك استقرت الأمور لعضد الدولة بعمان ودانت له بلادها بالطاعة^(٣).

كان بنو مكرم من وجوه عمان الذين استعان بهم البويهيون في إدارة شئون دولتهم، وتولى بعضهم الإمارة في عمان وأقاموا الخطبة لبني العباس. ولما ضعفت دولة بنو بويه ببغداد استبد بنو مكرم بالسلطة في عمان وتوارثوا الحكم فيها. وكان منهم مؤيد الدولة أبو القاسم علي بن ناصر الدولة الحسين بن مكرم الذي ولي

(١) سيراف : تقع على ساحل الخليج الفارسي (باقوت : معجم البلدان).

(٢) ابن خلدون : ج ٣ ص ٤٢٥، ج ٤ ص ٤٤٣، ٤٥٠.

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢١٣ - ٢١٤، ابن خلدون : ج ٤ ص ٤٥٠.

الإمارة سنة ٤١٨ هـ واستطاع بحسن إدارته، وجوده وكرمه أن يجعل الحكم وراثيا في أبنائه من بعده^(١).

ولما توفي الأمير أبو القاسم سنة ٤٢٧ هـ خلفه ابنه أبو الجيش، فاستغل ضعفه قائد جنده على بن هطال، واستأثر بكثير من النفوذ وأوقع الفرقة بينه وبين أخيه المذهب الذي انتهى أمره باعتقاله وقتله؛ ثم توفي بعد ذلك بقليل أبو الجيش؛ فحاول على بن هطال أن يولى أخاه أبا محمد، فأخففته أمه حتى لا تتيح له فرصة التخلص منه، وطلبت إليه أن يتولى بنفسه إدارة عمان، فرحب بذلك؛ غير أنه ما لبث أن استبد بالسلطة وصادر التجار واستولى على كثير من أموال الأهالي.

ولما وصل إلى أبي كاليجار أمير بني بويه في العراق ما قام به على بن هطال من الأعمال التي سببت تدمير أهالي عمان، عول على إقصائه عن الإمارة، وأمر وزير العدل أبا منصور أن يكتب المرتضى الذي كان نائبا لأبي القاسم بن مكرم بجبال عمان ويطلب إليه محاربة ابن هطال، كما جهز العساكر من البصرة لمساعدته؛ فسافر المرتضى إلى عمان وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على أكبر أعمالها ودس لابن هطال من اغتاله؛ ثم بعث الوزير العادل أبو منصور رسولا من قبله إلى عمان ولي أبا محمد بن مكرم الإمارة سنة ٤٣١ هـ^(٢).

على أن أسرة بني مكرم ما لبثت أن ضعفت وزال ملكها بعمان وتولى أبو المظفر بن أبي كاليجار البويهى إمارة هذه البلاد، لكنه عجز عن إدارة شئونها بنفسه واستأثر بالسلطة خادما له، وأساء التصرف في الأموال مما أثار كراهة الأهالي وتذمرهم. ولما وقف ابن راشد - وكان من زعماء الخوارج المقيمين بجبال عمان - على ما وصلت إليه الحال في البلاد من جراء ضعف الأمير أبي المظفر واستبداد خادمه بالأمور دونه، دعا أتباعه وسار على رأسهم لمحاربة أبي المظفر؛ غير أن الهزيمة حلت بابن راشد والخوارج، فعادوا إلى محل إقامتهم. وأخذ ابن راشد يعد العدة ويحشد الجموع للتخلص من إمارة أبي المظفر. ولما تهيأ لمحاربته سار إليه وأعانه أهل البلاد بسبب كراحتهم للديلم. وبذلك تيسر له الانتصار على أبي

(١) ابن خلدون : ج ٨ ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ص ١٦١ - ١٦٢.

المظفر سنة ٤٤٢ هـ، وقبض على زمام الأمور في البلاد، فبدأ حكمه بالعمل على إقامة العدل، كما أسقط المكوس على جباية عشر ما يرد إلى الأهالي، وأمر بذكر اسمه في الخطبة وتلقب بالراشد بالله^(١).

لم تستقر الأمور في عمان بعد أن ولي حكمها الخوارج، كما تفككت عرى وحدتها، فقامت في بعض بلادها الواقعة على الخليج العباسي إمارة مستقلة تقلد زمام الحكم فيها زكريا بن عبد الملك الأردى سنة ٤٤٨ هـ، وكان الخوارج يدينون لأسرته بالطاعة^(٢). ومن ذلك يتبين انحلال النفوذ العباسي في عمان وعجز بني بويه عن الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الإمارة، كما أن السلاجقة الذين استبدوا بالسلطة في بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري شغلوا عنها بالعمل على توطيد نفوذهم في العراق ومد سلطانهم على بلاد المشرق.

كانت الدولة الفاطمية في مصر تراقب الاضطراب السائد في عمان وتحرص على الإبقاء على دعوتها التي قام دعائها بنشرها في هذا القطر منذ أواخر القرن الثالث الهجري، فلما وصل إلى المستنصر بالله الفاطمي ضعف النفوذ العباسي في عمان وثورة رجالها ضد الهيئة الحاكمة فيها، بعث إلى المكرم أحمد الذي ولي الملك في اليمن بعد وفاة أبيه على بن محمد الصليحي خطابا في ربيع الثاني سنة ٤٦٩ هـ طلب إليه فيه القيام بإدارة شئون ولاية عمان والعمل على استتباب الأمن فيها رغم أنها لا تدخل في نطاق دولته^(٣).

وفيما يلي بعض ما جاء فيه^(٤) : «من عبد الله ووليه معد أبي تميم، الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، إلى الملك الأجل، والأوحد، المنصور العادل المكرم، عمدة الخلافة . . عظيم العرب، سلطان أمير المؤمنين . . . أبي الحسن أحمد . . . ، أما بعد : فإن أمير المؤمنين لما يعلمه من خلوص طاعتك وضميرك، بحسن الطريقة في سياستك وتديريك . . ، وإن آثارك فيما إليك من الأعمال

(١) ابن الأثير : ج ٩ ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩٣ .

(٣) Bulletin School of Oriental Studies (Letters of Al-Mustansir Billah) 1934, Vol VII.

Part 2. p. 322.

(٤) السجلات المستنصرية رقم ٥٤ ص ١٧٦ - ١٧٩ .

مأثورة، ومقاماتك فى نصرة الدين والإصابة بالدعوة العلوية معروفة مشهورة...، ولقد جدد السيد الأجل، أمير الجيوش سيف الإسلام، ناصر الإمام، أبو النجم المستنصرى.. فى هذا الحين ذكرك بالحضرة، وشيد مالك لديها من الاصطفاء والأثرة...، ولما انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين حال (مدينة عمان) وما جرى فيها من الغلاء والفساد...، والمروق عن أحكام الملة الدينية...، وقد كان غدق أمر الحرم المحروس وأعماله بولايتك، ووكله إلى تدبيرك وسياستك، بحكم كون الأعمال اليمينية والحجازية واحدة فى الاهتمام بأحوالها، ولقرب أعمالك من أعمالها...، رأى أمير المؤمنين...، أن يضيف إلى ذلك وما يجرى فى نظرك ولاية مدينة عمان، لكونها أيضا لأعمالك مجاورة...، وخذ كافة الرجال والمستخدمين بوظائف الخدمة، والمسارة إلى كل مهمة، وصيانة الأعمال الدانية والقاصية، وتثبيت قانون الخدمة، فإن أمير المؤمنين باسط يدك فى جميعهم لتثبيت من ترتضى طريقته، وتستبدل من ترى الصواب الاستبدال به، وأمير المؤمنين يشعرك ما طالع به حضرة الأمير مستخلص الدولة العلوية وعدتها: عبد الله بن على العلوى المستقر بالأحساء...، وأنه اعتمد إقامة الدعوة العلوية، وناضل كافة الأعداء من الخوارج...، وأصاب بالدعوة المستنصرية فى أرجائها...، واقتضى ذلك نفوذ السجل من حضرة أمير المؤمنين مضمنا إحماد خدمته...».

وكانت بلاد اليمن إذ ذاك تبث إلى عمان والهند بالدعاة لنشر الدعوة الفاطمية، كما أنه كان بهذين القطرين أنصار كثيرون يؤيدون المذهب الإسماعيلى الذى تحرص الدولة الفاطمية على نشره، فلما ورد إلى المستنصر عدة خطابات منهم تتضمن وفاة دعائه ورغبتهم فى أن يزود بلادهم بدعاة غيرهم، بعث إلى المكرم أحمد كتابا فى ربيع الأول سنة ٤٧٦ هـ أخبره بموافقتهم على تعيين مرزبان بن إسحق داعيا بالهند، وإسماعيل بن إبراهيم بن جابر داعيا بعمان.

ويتجلى لنا حرص الخليفة الفاطمى على تعيين الدعاة بهذين القطرين من قوله^(١): «... فأما ما ذكرته من أمر الدعوة الهادية بالهند وجزائرها، وعمان

(١) السجلات المستنصرية: رقم ٦٣، ص ٢٠٥.

وعملها، وفقد المتولين لها . . . ووردت مكاتبات إلى أمير المؤمنين من هناك يلتمسون استخدام من يجمع شملهم ويشفقون به - بعد من فقدوه - ميلهم، وسؤالك تقليد الرئيس : مرزبان بن إسحق بن مرزبان الهند وجزائرها، وإسماعيل ابن إبراهيم بن جابر عمان وعملها، لما وصفته من ديانتها وحميد أثرهما ومذهبهما؛ فقد وقف أمير المؤمنين على ما شرحته، وتقدم بإصدار ملطفين عن حضرته إلى المذكورين بتقليدهما، من مجلس السيد الأجل، أمير الجيوش، وجميع ذلك واصل بإذن الله بوصول هذه الإجابة . . .».

كما أرسل المستنصر في أواخر سنة ٤٨١ هـ خطاباً إلى السيدة الحرة التي آل إليها الملك ببلاد اليمن أخبرها بموافقة على تعيين أحمد بن مرزبان داعياً بالهند بعد وفاة والده، وأبدى ارتياحه لاختيارها حمزة بن سبط حميد الدين ليقوم بمعاونة الداعي أحمد في نشر الدعوة الفاطمية ببلاد الهند ونوّه المستنصر في خطابه بثقته في المجهودات التي تقوم بها السيدة الحرة في سبيل نشر الدعوة له في كل من بلاد اليمن وعمان والهند^(١).

ومما ورد فيه^(٢) : «من عبد الله ووليه : معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة. السيدة. السديدة. المخلصة . . ولية أمير المؤمنين . . أدام الله تمكينها ونعمتها . . أما بعد : فإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك المضمن وفاة داعيه بالهند : غرس الدين، ولي أمير المؤمنين، مزربان، وأنه خلف ولدين ذوي دين وتقية واستصلاح للخدمة. وأن الموماً إليه منهما أحمد الأكبر لتمييزه وحميد طريقته . . ، ثم شفعت ذلك بما اعتمده إسماعيل ابن إبراهيم الداعي بعمان من التخلي عن الخدمة . . ، وأن سبط حميد الدين خلف ولداً يسمى حمزة يصلح للاستخدام عوض المذكور . . وأحمد الله تنبهك على هذه المصالح وتفقدك أحوال الدعوة والدعاة في (تلك) الأطراف والنواحي . . وأوعز أمير المؤمنين إلى فتاه السيد الأجل، أمير جيوشه . . بإصدار التقليدين عن مجلس نظره باسم كل من الداعيين المذكورين . . ، وأنت قد جعل إليك أمير

(B. S. O. S.), 1934. Vol. VII Part 2, p. 321, 324

(١)

(٢) السجلات المستنصرية : رقم ٥٠ ص ١٦٧ - ١٦٩.

المؤمنين النظر فى تلك البلاد والأعمال ومراعاة دعائها وانتظام حال الدعوة فيها. . .» .

يتضح لنا مما تقدم إلى أى حد عنت الخلافة الفاطمية بنشر دعوتها فى عمان وكيف أصبح لهذه الدعوة أنصار كثيرون بتلك الولاية . ولا شك أن الدولة الفاطمية كانت ترمى من وراء بث الدعوة بعمان إلى تحقيق سياستها فى بسط سلطانها على أقطار جزيرة العرب ليتيسر لها بذلك إضعاف الخلافة العباسية والقضاء عليها .



الباب الرابع

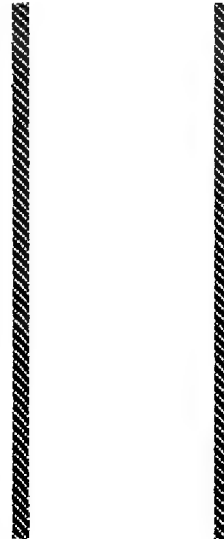
النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن



تمهيد : بلاد اليمن في أواخر عهد ولاة العباسيين.

١ - جهود دعاة الإسماعيلية في نشر الدعوة الفاطمية باليمن.

٢ - موقف أمراء الصليحيين من الخلفاء الفاطميين.



نمھید : بلاد الیمن فی اواخر عھد ولایة العباسیین

دخلت بلاد الیمن فی حوزة العباسیین بعد أن انتقلت إلیهم الخلافة وصار الولاية يتعاقبون علیها من قبلهم، واتخذوا صنعاء حاضرة لهم؛ غیر أن الأمور لم تستقر استقرارا تاما فی هذه البلاد؛ فلما بلغ المأمون اضطراب الأمن فیها وذیوع الدعوة الشیعیة بین أهلها، عول علی أن یختار لولایتها رجلا یتطیع أن یقضى علی عوامل الفساد فیها؛ فأشار علیه الحسن بن سهل بأن یسند إلی محمد بن إبراهیم الزیادی ولاية الیمن؛ فولاه علیها سنة ۲۰۳ هـ، ولم یمض عام واحد علی هذا الوالی حتی اختط مدينة زبید واتخذها حاضرة له^(۱)، وأخذ منذ ذلك الوقت یوطد نفوذه فی جمیع أرجاء بلاد الیمن؛ فدخلت فی طاعته حضرموت والشحر وديار كندة ولحج والتهایم^(۲)؛ وما زال نفوذه فی ازدياد حتی أصبح فی مقام الملوك المستقلين، لكنه مع ذلك احتفظ بولائه للخلافة العباسیة وصار یقیم الخطبة لبنی العباس ویرسل إلیهم الخراج والهدایا كل عام^(۳).

نجح محمد بن إبراهیم الزیادی فی جعل ولاية الیمن وراثیة فی أبناؤه تدين بالطاعة للعباسیین، فلما توفی سنة ۲۴۵ هـ خلفه ابنه إبراهیم، ثم تولى بعده ابنه زیاد؛ غیر أن هذا الوالی لم یمكث طویلا فی الحكم وأعقبه فی ولاية الیمن ابنه أبو الجیش إسحق، فظل یلی أمورھا حتی بلغ الثمانین من عمره.

(۱) عمارة الیمنی : تاریخ الیمن ص ۳.

(۲) ابن خلدون : ج ۴ ص ۲۱۲.

(۳) عمارة الیمنی : تاریخ الیمن ص ۴.

أخذت الدولة الزيادية في بلاد اليمن في الانحلال، في أواخر عهد الأمير أبي الجيش إبراهيم، فخرج بصنعاء أسعد بن أبي يعفر، وثار بصعدة يحيى بن القاسم الرسى الملقب بالهادي^(١)، وكان يدعو للزيدية - أتباع زيد بن علي زين العابدين - ؛ ولما عظم نفوذه وكثر أنصاره رحف على صنعاء، فاستولى عليها من يد أسعد بن يعفر، غير أن بني أسعد ما لبثوا أن استردوها منه، فعاد إلى صعدة وأسس فيها دولة بني الرسى. وهكذا أصبح في بلاد اليمن ثلاث دويلات : إحداها في زبيد، والثانية في صنعاء، والثالثة في صعدة^(٢).

(١) ورد نسبه في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٨ على الوجه الآتي :

يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب
Kay, Yamen, Its Early Mediaeval History p. 242..

(٢) صعدة : بلدة على ستين فرسخا من صنعاء «القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٢».

١ - جهود دعاة الإسماعيلية في نشر الدعوة الفاطمية باليمن :

كان لضعف الدولة الزيدية أثر كبير في نجاح الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن، ففي الوقت الذي تفككت فيه عرى وحدة هذه الدولة بعث محمد الحبيب إمام الإسماعيلية بسلمية^(١) كلا من علي بن الفضل اليماني وأبي القاسم رستم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي إلى تلك البلاد لينشر الدعوة للمهدي من آل محمد، فلما وصلا إلى اليمن سنة ٢٦٨ هـ^(٢) أخذوا في بث دعوتيهما. ثم بنى ابن حوشب حصنا بجبل لاعة وأعد جيشا زحف به على صنعاء وأخرج منها بنى يعفر، كما بعث الدعوة إلى جميع أرجاء اليمن فنشروا الدعوة الإسماعيلية بين أهلها، وتمكن بمعاونتهم من التغلب على كثير من بلادها^(٣).

لما رأى ابن حوشب الذي عرف بمنصور اليمن أن دعوته إلى المهدي لقيت قبولا لدى كثير من أهالي بلاد اليمن كتب إلى محمد الحبيب وابنه عبيد الله بسلمية يخبرهما بما فتح من البلاد، كما بعث إليهما بالأموال والهدايا، فسرهما ذلك^(٤).

على أن محمد الحبيب لم يكتف بنجاح تلك الدعوة في بلاد اليمن بل حرص أيضا على نشرها في بلاد المغرب، فأرسل أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيوعي إلى ابن حوشب وأمره بالدخول في طاعته والاقتراء بسيرته، على أن يرحل بعد ذلك إلى المغرب لينشر بها الدعوة الإسماعيلية. فقدم أبو عبد الله علي ابن حوشب وصار من كبار أصحابه، ولما اتصل بابن حوشب نبأ وفاة الداعيين أبي سفيان والحلواني في بلاد المغرب، عهد إلى أبي عبد الله الشيوعي بالقيام بالدعوة إلى المهدي في تلك البلاد، فخرج أبو عبد الله إلى مكة ثم رحل منها قاصدا بلاد المغرب، وأخذ ينشر بين أهلها الدعوة الإسماعيلية ويتحدث إليهم عن قرب ظهور المهدي من آل علي بن أبي طالب، وظل أبو عبد الله مواليا للإمام محمد الحبيب يرسل إليه رسله وهداياهم^(٥).

(١) بلدة من أعمال حماة وكانت تعد من أعمال حمص. ياقوت : معجم البلدان.

(٢) Kay, Yamen, Its Early Mediaeval History p. 225

(٣) ابن خلدون : ج ٤ ص ٣٠ - ٣١، المقرئ : اتعاظ الخنفا ص ٦٧ - ٦٨.

(٤) الحمادي اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٧ - ٢٨.

(٥) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٠ - ١١، المقرئ : اتعاظ الخنفا ص ٦٨ - ٦٩، ٧٤ - ٧٧.

كان محمد الحبيب قد عهد لابنه عبيد الله بالإمامة من بعده وقال له : «إنك ستهاجر بعدى هجرة وتلقى محنا شديدة» ، فلما توفى خلفه فى إمامة الإسماعيلية، فواصل القيام بنشر الدعوة لنفسه، وبذل الأموال الكثيرة فى سبيل نجاحها.

كان دعاة الإسماعيلية فى اليمن إذ ذاك يعتقدون أن دولة المهدي ستظهر فى بلادهم، كما حرص رؤسائهم على أن يكون قيامها فى أيديهم، وكذلك كانت الحال بالنسبة لدعاة الإسماعيلية فى بلاد المغرب، فكانوا يرجون قدوم المهدي إليهم لإقامة دولته المنشودة. فأرسل كبيرهم أبو عبد الله الشيعى إلى عبيد الله وهو بسلمية وفدا من رجال كتامة يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب. يقول المقرئى^(١) : «وسير أبو عبد الله إلى عبيد الله بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح له وأنه ينتظره، فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص».

كان الخليفة المكتفى العباسى فى ذلك الوقت قد وصله خبر ذبوع الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن والمغرب فعهد إلى بعض رجاله بتعقب حركات عبيد الله والقبض عليه^(٢)، فخرج عبيد الله هاربا من سلمية بعد مقابلته وفد كتامة ووقوفه على مدى نجاح دعوته فى بلاد المغرب، وأخبر بعض أتباعه أنه سيقصد اليمن. يقول جعفر الحاجب الذى صحبه عند رحيله من سلمية «وأمرنا المهدي بالأخذ فى أهبة السفر والخروج معه وأظهر لنا أنه يريد اليمن»^(٣).

على أن عبيد الله المهدي لم يكن راغبا رغبة أكيدة فى إقامة دولته ببلاد اليمن، بل أزمع الرحيل إلى بلاد المغرب منذ خرج من سلمية لتلبية للدعوة التى وجهها إليه داعيته أبو عبد الله الشيعى. يؤيد ذلك ما قاله ابن الأثير^(٤) : «وشاع خبره عند الناس أيام المكتفى، فطلب وهرب هو وولده أبو القاسم نزار، وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب». وفضلا عن ذلك فإن عبيد الله المهدي كان حريصا على تحقيق رغبة أبيه فى إقامة دولته بالمغرب؛ فقال له حين بلغه نجاح

(١) المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ١١.

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ٣٣.

(٣) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ «مجلة الآداب ديسمبر ١٩٣٦».

(٤) الكامل فى التاريخ : ج ٨ ص ١٢.

ابن حوشب في نشر الدعوة إلى المهدي في اليمن : «هذه دولتك قد قامت، لكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب»^(١).

ومما لا شك فيه أن عبيد الله المهدي كان يحرص ألا يقع في قبضة العباسيين الذين بثوا رجالهم لاستقصاء أخباره، لذلك عول على إخفاء حقيقة الجهة التي سيقصدها، وقال لبعض أتباعه إنه سيذهب إلى اليمن رغبة منه في ألا تصل أخبار هربه إلى العباسيين الذين كانوا إذ ذاك يبذلون قصارى جهدهم للقضاء عليه.

أما ما ذكره ابن خلدون^(٢) والمقريزي^(٣) عن توجه عبيد الله المهدي إلى المغرب وعدوله عن إقامة دولته في بلاد اليمن بسبب ما بلغه عن انحراف علي ابن الفضل عن الدعوة الإسماعيلية وإساءته السيرة في بلاد اليمن بما نشره من آراء أفسدت عقول فريق من أهلها، فلا يستند إلى أدلة صحيحة، لأن المتتبع لرحلة المهدي من سلمية إلى مصر، ثم إلى بلاد المغرب يتضح له أنه لم يفكر في الذهاب إلى بلاد اليمن، كما أن مناهضة علي بن الفضل للدعوة الإسماعيلية لم تظهر إلا بعد أن استقر الأمر لعبيد الله المهدي في بلاد المغرب، ولو أن عبيد الله المهدي كان حريصاً على إقامة دولته في بلاد اليمن لما ثناء عن ذلك خروج علي بن الفضل على دعوته لأن داعيه ابن حوشب ظل موالياً له وصار له أنصار كثيرون بين أهالي بلاد اليمن يرحبون بقدوم المهدي إليهم ويعتقدون بصحة إمامته، فإذا ما قصد بلادهم دخل الجميع في طاعته والتفوا حوله.

كان عبيد الله المهدي يصحب عند خروجه من سلمية داعي دعائه فيروز، فلما وصل إلى مصر وشرع في الرحيل منها إلى المغرب شق ذلك على فيروز، وتخلف عن السير معه، ومضى إلى اليمن حيث استقبله ابن حوشب بمظاهر الحفاوة والاحترام، لما كان يتمتع به من مكانة خاصة عند المهدي. وقد تحدث فيروز عن مهمته في بلاد اليمن؛ فقال : إن الإمام بعث به مشرفاً عليه إلى أن يقوم من المغرب بجنده إلى مصر ويكتب إليه ليمنه بالعساكر من أهل اليمن^(٤).

(١) البهاء الجندی : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك في طبقات الموالى والملوك ص ٤٢ .

(٢) ج ٤ ص ٦٩ .

(٣) اتعاظ الخفا ص ٦ .

(٤) اليماني : سيرة جعفر الحاجب «مجلة كلية الآداب - ديسمبر ١٩٣٦» ص ١١٤ - ١١٥ .

على أن ابن حوشب ما لبث أن وقف على الأسباب التي حملت فيروز على القدوم إلى اليمن حين وصله كتاب من المهدي مقرونا بكتاب الداعي أبي على - صهر فيروز - الذي كان إذ ذاك يقوم بنشر الدعوة الفاطمية في مصر. وقد تضمن هذان الكتابان كيف انصرف فيروز عن المهدي ورحل إلى اليمن مغاضبا له. وكان المهدي يخشى عاقبة خروج فيروز عليه، لذلك أمر ابن حوشب في كتابه بالعمل على التخلص منه.

لما وصل فيروز ما تضمنه الكتاب الذي بعثه المهدي إلى ابن حوشب ولى هاربا. ولم يزل ابن حوشب يتابع البحث عنه حتى بلغه خبر اتصاله بعلى بن الفضل، وأنه فتنه عن الدعوة الإسماعيلية ودعاه إلى نفسه، فخرج إليهما وحاربهما مدة طويلة^(١).

كانت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن في حاجة إلى توحيد جهود كل من ابن حوشب وعلى بن الفضل في سبيل نشرها، لكن على بن الفضل لم يتعاون مع ابن حوشب تعاوناً صادقا لتحقيق هذه الغاية، بل كثيرا ما استقل عنه في نشر تلك الدعوة.

كذلك لم يكن على بن الفضل مخلصا في ولائه لعبيد الله المهدي، فوقع تحت تأثير فيروز الذي أغراه بقبول دعوته، كما طمع في الاستقلال ببلاد اليمن بعد أن استقرت له الأمور في كثير من أرجائها، وخلع طاعة عبید الله المهدي الخليفة الفاطمي في بلاد المغرب، فبعث إليه ابن حوشب رسالة يعاتبه فيها ويذكره بما كان من رعاية محمد الحبيب لهما، وقيامه بأمرهما وقال له: «كيف تخلع طاعة من لم تنل خيرا إلا به، وتترك الدعاء له؟ أو ما تذكر ما بينك وبينه من المواثيق والعهود^(٢)؟ فلم يعبأ ابن الفضل بقوله وكتب إليه: «إنما هذه الدنيا شاة ومن ظفر بها افترسها^(٣)».

لم يكتف ابن الفضل بخروجه على عبید الله المهدي. بل ثار أيضا على ابن حوشب طمعا في استخلاص بلاد اليمن لنفسه، فأعد جيشا كبيرا لمحاربتة؛ ودار بين الفريقين قتال عنيف. ولما اشتدت وطأته على ابن حوشب، أرسل إلى على

(١) اليماني: سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥.

(٢) ابن المؤيد اليماني: أنباء الزمن في أخبار اليمن ورقة ٣١.

(٣) الحمادي اليماني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٣.

ابن الفضل في طلب الصلح، فاشترط أن يسعث إليه أحد أبنائه ليكون ذلك دليلاً على دخوله في طاعته. فأجابه ابن حوشب إلى طلبه وأرسل إليه ولده، فأبقاه ابن الفضل عنده سنة ثم رده إليه^(١).

لم يؤد هذا الصلح إلى عودة الوفاق بين ابن حوشب وعلى بن الفضل سيرته الأولى، بل ظل كل منهما يعمل مستقلاً عن الآخر، مما ساعد على إضعاف الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن، كما أن عبيد الله المهدي رغم حرصه على بسط سيادته على تلك البلاد لم يوجه اهتمامه إلى وضع حد لهذا النزاع الذي قام بين ابن حوشب وعلى بن الفضل، بل تركهما وشأنهما. ولعل انشغاله بتوطيد دعائم خلافته في بلاد المغرب هو الذي حمله على الانصراف عنهما.

ظل ابن حوشب حريصاً على ولائه لعبيد الله المهدي حتى توفي سنة ٣٠٢ هـ. أما على بن الفضل فإنه منذ خلع طاعة عبيد الله المهدي لم يعدل عن خطته في العمل على الاستئثار بالنفوذ في بلاد اليمن مما أثار ضده السنيين وأنصار المهدي، ولم يتمكن في النهاية من التغلب على هذين الفريقين والافراد بالزعامة في بلاد اليمن؛ وبذلك لم تتحقق مطامعه، بل فشل في تكوين حزب قوى يكون عوناً له على نشر دعوته. فلما توفي سنة ٣٠٣ هـ لم يجد ابنه الذي ولى الأمور من بعده أنصاراً أقوياء يدرءون عنه خطر السنيين في بلاد اليمن، فتعرض لهجومهم، ووقع إخوته أسرى في أيديهم، وما زالوا يتتبعون أعوانه حتى قضوا عليهم^(٢).

ظل للدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن أنصار كثيرون بفضل ما بذله ابن حوشب من مجهود في سبيل نشرها، وبلغ من اهتمامه بأمرها أن أوصى قبيل وفاته سنة ٣٠٢ هـ كلا من ابنه أبي الحسن وتابعه عبد الله بن عباس الشاوري بأن يستمرا في إقامة الدعوة لعبيد الله المهدي وأهل بيته؛ وقال في وصيته: «قد أوصيتكما بمبدأ الأمر فاحتفظاه ولا تقطعا دعوة بنى عبيد... فنحن غرس من غرسهم، ولولا ناموسهم وما دعونا به إليهم ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه، ولا تم لنا في الرياسة حال، فعليكما بمكاتبة القائم منهم واستيراد الأمر منهم،

(١) الحمادي اليماني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ٣٥ - ٣٦.

(٢) الحمادي اليماني: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٦ - ٣٩.

وأوصيكمما بطاعة المهدي . . . حتى يرد أمره بولاية أحدكما ويكون كل واحد منكما عوناً لصاحبه^(١) .

كان عبد الله بن عباس الشاوري يطمع في الاستقلال بأمر الدعوة في بلاد اليمن، فكتب إلى عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب يخبره ب وفاة ابن حوشب، كما أبلغه أنه يقوم بأمر الدعوة له، وسأله الولاية وعزل ولد ابن حوشب^(٢) . ولما كان أبو الحسن ولد ابن حوشب يرى أحقيته في أن يخلف أباه في القيام بأمر تلك الدعوة، لذلك رحل إلى بلاد المغرب، حيث قابل المهدي وطلب منه أن يقلده محل أبيه، ورجاه ألا ينزع هذا الأمر من إخوته؛ غير أن المهدي لم يجبه إلى طلبه لأنه أقر قبيل قدومه عليه عبد الله بن عباس الشاوري في القيام بأمر دعوته، فعاد أبو الحسن إلى بلاد اليمن دون أن تتحقق رغبته^(٣) .

وليس من شك في أن عبيد الله المهدي أثبت بتدخله في تولية عبد الله ابن عباس الشاوري أمر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن وإقصائه أولاد ابن حوشب عنها ما كان يتمتع به من نفوذ في بلاد اليمن، كما أنه حرص على اختيار من يثق به ليكون عوناً له على نشر دعوته في تلك البلاد، وخاصة بعد أن ضعف أمرها من جراء النزاع الذي قام بين كل من على بن الفضل وابن حوشب .

على أن تولية عبد الله بن عباس الشاوري أمر الدعوة الفاطمية في اليمن لم تلق ارتياحاً من نفس أبي الحسن ولد ابن حوشب على الرغم مما أظهره ابن عباس الشاوري من شعور طيب نحوه ونحو أخويه جعفر وأبي الفضل وإكرامه إياهم وترحيبه بمقابلتهم في أي وقت شاءوا دون أن يعترضهم حجابهم^(٤) .

وقد أدى حرمان أبي الحسن من رئاسة الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن إلى إضمماره السوء والعداوة لابن عباس الشاوري الذي قبح رأيه وجره وقال له : «أنت تعلم أنه غرس أبينا وأنه لا يقدم علينا سوانا في هذا الأمر» فأجابه بقوله :

(١) الحمادي اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٩ . .

(٢) البهاء الجندی : أخبار القرامطة باليمن المنقول عن كتاب السلوك في طبقات الموالى والملوك ص ١٥٠ .

(٣) الحمادي اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠ .

(٤) البهاء الجندی : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك وطبقات الموالى والملوك ص ١٥١ .

«والله لا تركته يتسنعم في ملك عني به غيره، ونحن أحق به منه». فقال له أخوه جعفر : « إن أمرنا إذن يتلاشى ويزول ملكنا وتفترق هذه الدعوة ويذهب الناموس الذي نمسناه^(١) على الناس، فلا تحدث نفسك بهلاكه فنهلك»، فلم يلتفت أبو الحسن إلى قول أخيه جعفر وعول على التخلص من ابن عباس، وما لبث أن قتله غدرا وولى الأمر من بعده^(٢).

لم يعمل أبو الحسن بعد أن تقلد ما كان يليه أبوه ابن حوشب على نشر الدعوة الفاطمية، بل انقلب معاديا لها، حريصا على القضاء عليها بعد أن كان من أنصارها، فارتد عن المذهب الإسماعيلي واعتنق مذهب أهل السنة، وجمع العشائر وأشهدهم أنه رجع عما كان عليه أبوه، فأحبه الناس ودانوا له بالطاعة^(٣).

كان لخروج أبي الحسن على الدعوة الفاطمية أسوأ الأثر في نفس أخيه جعفر الذي عارضه في سياسته وقبح رأيه وقال له : «قطعت يدك بيدك»، فلم يكثرث بقوله، وخرج جعفر من بلاد اليمن مغاضبا له وقصد بلاد المغرب رغبة منه في الاتصال بعبيد الله المهدي وإخباره بمناهضة أخيه للدعوة الفاطمية، فوجده قد توفي وخلفه ابنه القائم سنة ٣٢٢ هـ، فأقام عنده.

مضى أبو الحسن في سياسته التي اختطها لنفسه والتي كان من أثرها أن فرقت بينه وبين أخيه جعفر، دون أن ينظر إلى عاقبتها الوخيمة عليه؛ فأخذ يتتبع أنصار أبيه من الإسماعيلية تتبعا مقرونا بالشدة والعسف، أدى إلى تفرقهم وقتل الكثيرين منهم؛ غير أن بعض الإسماعيلية في اليمن استطاعوا النجاة من اضطهادهم كما حرصوا على كتمان أمرهم حتى لا يتعرضوا لإيذائه وولوا عليهم رجلا منهم - وكان لا ينقطع عن مكاتبة الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب -^(٤) مما يثبت لنا أن الدعوة الفاطمية لم يقض عليها في بلاد اليمن، وأنه لم يزل لها أنصار يرجون سيادتها على الرغم مما لاقوه من عنت واضطهاد.

(١) تمس السر : كتبه، وتمس بين القوم : أفسد وأغرى (حسن إبراهيم وطه شرف : كتاب عبيد الله المهدي حاشية رقم ٢ ص ٢٣٨).

(٢) الحمادي اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠.

(٣) البهاء الجندی : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك في الطبقات الموالي والملوك ص ١٥١.

(٤) الحمادي اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠.

لم يعجن أبو الحسن ثمرة مناهضة الدعوة الإسماعيلية وخروجه على طاعة الخلافة الفاطمية، فإنه فضلا عن انقسام أهل بيته وما ترتب عليه من انصراف كثير من أنصاره عنه، لم يلق من أنصاره الجدد من السنيين تأييدا يكون عوناً على نجاح هذا الانقلاب الذى أحدثه، بل شكوا فى إخلاصه رغم ارتداده عن المذهب الإسماعيلى، وتآمره عليه، وقتلوه، وتتبع السنيون من أهالى بلاد اليمن الغربية أولاده وحريمه، فقتلوا الصغير منهم والكبير وسبوا حريمهم، وبذلك قضوا على أسرة ابن حوشب^(١).

لما توفى أبو الحسن، طمع إبراهيم بن عبد الحميد الشيعى - وكان من كبار الإسماعيلية فى بلاد اليمن - فى أن يتقلد ما كان يليه من البلاد، فأعلن ارتداده عن المذهب الإسماعيلى وأقام الخطبة لبني العباس^(٢). ولم يزل يتبع الإسماعيلية ويقتلهم حتى قضى على الكثير منهم، وما لبث أن اجتمع شمل الفريق الذى لحا من هذا الاضطهاد بناحية جبل مسور جنوبى صنعاء تحت رعاية ابن الطفيل^(٣). ولما وصل إلى إبراهيم بن عبد الحميد الشيعى نبأ تزعمه الإسماعيلية باليمن خرج إليه وقتله، ففرق من بقى من أصحابه وقصدت جماعة منهم نواحي عمان^(٤).

اتخذت طائفة الإسماعيلية باليمن بعد وفاة ابن الطفيل، ابن رحيم رئيساً لها ويعرف أيضاً بابن جفتم^(٥)، وكان كثير التنقل، لا يستقر فى موضع واحد خوفاً من تعقب السنيين له - ولم يصرفه ذلك عن مكاتبة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى منذ قدم من بلاد المغرب إلى مصر، واتخذ القاهرة حاضرة له، وأظهر له فى كتبه دخوله فى طاعته، كما حرص على أن ينهى إليه وإلى الخليفة العزيز بالله الفاطمى من بعده أخبار أهل اليمن^(٦). ولم يزل على ولائه لهذا الخليفة حتى شعر بدنو أجله، فاستخلف على أتباعه من الإسماعيلية رجلاً منهم يقال له يوسف بن الأسد^(٧).

-
- (١) الحمادى اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١.
 (٢) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢.
 (٣) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٤.
 (٤) الحمادى اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١.
 (٥) الديبع الشيباني : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ١٦.
 (٦) الحمادى اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١ - ٤٢.
 (٧) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢.

لم يكن دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن هم الذين أقاموا الدعوة وحدهم للخليفة العزيز بالله الفاطمي، بل أقامها أيضا أمير صنعاء عبد الله بن قحطان بن أبي يعفر سنة ٣٧٩ هـ. وكان أمراء بني يعفر قد استعادوا هذه المدينة بعد وفاة علي بن الفضل سنة ٣٠٣ هـ، وضموا إلى حوزتهم بعض البلاد المجاورة لها، وأقاموا فيها الخطبة للخليفة العباسي، فلما استقرت الأمور لعبد الله بن قحطان في صنعاء، تجهز لفتح تهامة وأوقع الهزيمة بأميرها أبي الجيش إسحق بن إبراهيم بن زياد، ثم دخل زيد حاضرة بني زياد واستولى عليها وأمر بقطع الخطبة للخليفة العباسي في جميع البلاد التي تحت سيطرته وإقامتها للخليفة العزيز بالله الفاطمي، واستمر الحال على ذلك حتى توفي سنة ٣٨٧ هـ^(١).

وهكذا أتيج للدعوة الفاطمية أن تستعيد مكانتها في بلاد اليمن بعد أن لاقى دعائها كثيرا من العنت والاضطهاد على يد السنين، كما أخذت الدعوة العباسية في تلك البلاد في الضعف والانحلال تبعا لنشاط دعاة الإسماعيلية وانصراف أمراء اليمن - الذين كانوا يدينون بالطاعة لبني العباس - إلى التنافس والتنافر فيما بينهم مما أدى ببعضهم إلى إحلال اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة محل الخليفة العباسي. وليس من شك في أن هذا العمل مهد السبيل لازدياد النفوذ الفاطمي ببلاد اليمن.

كان دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن لا يألون جهدا في القيام بنشر الدعوة للخلفاء الفاطميين، فظل يوسف بن الأسد يدعو سرا للخليفة الحاكم بأمر الله حتى توفي، فخلفه داع جرى يدعى عامر بن عبد الله الزواحي - كان كثير المال والجاه، وقد استغل ماله ونفوذه في سبيل نشر الدعوة الفاطمية، واستمال عددا كبيرا من أهالي اليمن إلى المذهب الإسماعيلي، وظل يدعو للفاطميين طيلة عهد الحاكم والظاهر وأوائل أيام المستنصر^(٢). ولما حضرته الوفاة استخلف على بن محمد الصليحي^(٣). الذي نشأ فقيها صالحا، وصار دليلا لحاج اليمن عدة سنين، وما لبث أن عظمت شهرته وذاع بين الناس أنه سيمتلك اليمن بأكمله. ولما حج

(١) الديبع الشيباني : قرّة العيون في تاريخ اليمن الميمون ورقة ١٧.

(٢) البهاء الجندي : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك في طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢.

(٣) عرف بالصليحي نسبة إلى الإصلاح من بلاد حراز باليمن. العرشى : بلوغ المرام في شرح مسك الختام

سنة ٤٢٨ هـ، اجتمع بفريق من قومه همدان ودعاهم إلى نصرته ومؤازرته في دعوته، فأجابوه وبايعوه، وكانوا ستين رجلا من رجالات عشيرته^(١).

وجه على بن محمد الصليحي اهتمامه بعد عودته من بلاد الحجاز إلى اليمن سنة ٤٢٩ هـ إلى إحياء الدعوة الإسماعيلية القديمة التي قلده عامر بن عبد الله الزواحي زمامها، فأخذ في إظهارها واتخذ حصن مسار بجبل حراز مقرا له وما زال يستميل الناس حتى اجتمع إليه من سنحان وحمدان وحمير خلق كثير^(٢).

لم تكن الأمور مبهدة لعلى بن محمد الصليحي ليقوم بنشر دعوته في جميع أرجاء اليمن؛ فعلى الرغم من زوال دولة بنى زياد سنة ٤٠٦ هـ، فقد ورث ملكهم مواليهم الذين ساروا على سياستهم في إقامة الخطبة لسبني العباس، وكان من بين هؤلاء الموالي نجاح الذى تمكن من إقامة دولة سنية في زبيد خلفت دولة بنى زياد. وقد تمتع نجاح بكثير من مظاهر الاستقلال فى دولته، فصار يركب بالمظلة كغيره من السلاطين ويسك العملة باسمه. وبلغ من ازدياد نفوذه أن فوض إليه الخليفة العباسي تقليد القضاء لمن هو أهل له، كما عهد إليه بالنظر فى شئون البلاد اليمنية ولقبه بالمؤيد نصر الدين^(٣).

كانت دولة نجاح السنية تعمل على قمع أى محاولة يقوم بها دعاة الإسماعيلية لنشر دعوتهم فى بلاد اليمن، لهذا لم يستطع على بن الصليحي رغم تأييده خلافة المستنصر بالله الفاطمي أن يجهر بالدعوة له، يقول بامخرمة^(٤): «وكان الصليحي يدعو للمستنصر بن معد بن الظاهر العبيدى سرا ويخاف نجاحا».

وقد عمد الصليحي إلى مداراة نجاح وأظهر له أنه يدين بالطاعة له كما أخذ يتودد إليه ليأمن جانبه، ثم دبر مؤامرة للتخلص منه؛ فأهدى إليه جارية سنة ٤٥٢ هـ، دسّت له السم فمات^(٥)، وخلفه من أولاده سعيد الأحول وجياش؛ غير أنهما لم يستطيعا أن يقفا فى وجه الصليحي طويلا وهربا إلى دهلك^(٦)، وبذلك قضى الصليحي على دولة نجاح وضم زبيد إلى حوزته.

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٨.

(٢) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٤.

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١١ - ١٢، ابن المجاور : تاريخ ابن المجاور ورقة ٨٦.

(٤) المختار فى تاريخ ثغر عدن ورقة ١٢٧.

(٥) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٤. O. Leaiy De Lacy. A Short History of the Fatimid. Khalifate p. 202

(٦) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٧٢. دهلك : جزيرة فى بحر اليمن (ياقوت : معجم البلدان).

٢ - موقف أمراء الصليحيين من الخلفاء الفاطميين

لما قوى أمر على بن محمد الصليحي وتوطد نفوذه في بلاد اليمن التي استولى عليها، كتب إلى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٥٣ هـ يستأذنه في إظهار دعوته، كما بعث إليه هدية ثمينة، تشمل سبعين سيفاً، مقابضها من عقيق، وخمسة أثواب وشى وفصوص عقيق ومسك وعنبر، فقبل المستنصر هديته وأمر له برايات، كتب عليها الألقاب وعهد إليه بالولاية، وأذن له في نشر الدعوة^(١).

علت مكانة الصليحي في بلاد اليمن بفضل تأييد المستنصر له، وأخذ يوجه اهتمامه إلى توسيع رقعة بلاده، فسار إلى التهام فافتتحها، ولم تمض سنة ٤٥٥ هـ إلا وقد بسط سلطانه على بلاد اليمن واتخذ صنعاء مقراً له^(٢). وفي ذلك يقول العرشي^(٣): «ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلى بن محمد الصليحي، فإنه استولى على اليمن، سهله وجبله، وشماله وجنوبه، وغربه وشرقه، في المدة اليسيرة، وقهر ملوكه».

استطاع الصليحي بعد أن اتسعت رقعة دولته وقضى على منائيه أن يعيد للدعوة الإسماعيلية مكانتها في بلاد اليمن. وكانت قد وهنت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم - وصارت الخطبة تقام على منابر تلك البلاد للمستنصر والصليحي وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب، ورال بذلك نفوذ العباسيين في بلاد اليمن^(٤).

لما استقرت الأمور للصليحي في صنعاء دعا إليه أمراء اليمن الذين أزال ملكهم وأسكنهم معه وولى صهره أسعد بن شهاب زيد وأعمالها تهامة - وكان قد أقسم ألا يوليها إلا من قدم إليه مائة ألف دينار - ثم ندم على يمينه، فلما حملت إليه زوجته أسماء هذا المبلغ ليوافق على تعيين أخيها أسعد، قال لها الصليحي: يامولاتنا: أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»؛ فتبسم وهو موقن أنه من خزائنه. وبعد أن أعيد إليه المبلغ؛

(١) الديبع الشيباني: قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢١.

(٢) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ١٨.

(٣) بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٢٥.

(٤) بامخرمة: المختار من نثر عدن ورقة ١٣٩ - ١٤٠.

قال : هذه بضاعتنا ردت إلينا . فقالت : ونمير أهلنا ونحفظ أخانا» . فأقر الصليحي أسعد بن شهاب على ولاية زبيد سنة ٤٥٦ هـ . وكان حسن السيرة ، فلم يسيئ إلى رعاياه وعلى الأخص السنين ، وبلغ من تسامحه معهم أن أجاز لهم إظهار مذاهبهم^(١) .

كان الصليحي يحكم بلاد اليمن على اعتبار أنه نائب عن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ؛ وحرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين في مصر . وقد تبودلت بين الصليحي والمستنصر بالله الفاطمي عدة مراسلات تبين لنا ما كان بينهما من صلة وثيقة ؛ ففي شهر صفر سنة ٤٥٢ هـ أرسل المستنصر إلى الصليحي خطابا أخبره فيه بمولد ابنه أحمد الملقب بأبي القاسم وطلب منه إذاعة هذا النبأ في جميع أنحاء دولته^(٢) ، كما بعث إليه خطابا آخر في رمضان سنة ٤٥٥ هـ^(٣) وصف فيه ثورة ابن باديس بإفريقية وكيف تمكن من القضاء عليها وأعاد بلادها إلى حوزته . ويتبين لنا من هذا الخطاب الأخير مدى اهتمام المستنصر بإخبار الصليحي نائبه وداعيته في بلاد اليمن بالأحداث التي تقع في دولته .

كان المستنصر يثق بالصليحي ويطمئن إليه في نشر دعوته ليس فقط في بلاد اليمن ، بل أيضا في بلاد الحجاز ، فعهد إليه بإقرار الأمور في مكة وأبدى له في رسالة بعثها إليه سنة ٤٥٦ هـ . ارتياحه للخدمات الجليلة التي قام بها في سبيل إقامة الدعوة له وتوطيد نفوذه في بلاد اليمن والحجاز ، وأنعم عليه بلقب عمدة الخلافة^(٤) .

كان الصليحي يريد السفر إلى مصر ليحظى بمقابلة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ؛ فبعث إليه رسالة مع مبعوثه ملك بن مالك ليأذن له بالقدوم عليه فأذن له الخليفة في خطاب أرسله إليه في جماد آخر سنة ٤٥٩ هـ^(٥) غير أن الصليحي رأى أن يذهب أولا إلى مكة لأداء فريضة الحج ، واستخلف ابنه المكرم أحمد بصنعاء واستصحب معه أمراء اليمن خوفا من تأمرهم على ولده وإقصائه عن الملك ، كما

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٩ .

(٢) (حسين الهمداني) (B. O. S.), Vol VII Part 2, 1934, Letters of Al. Mustansir p. 313

(٣) (B. O. S.), Vol VII Part 2, 1934, p. 312 - 313

(٤) (B. O. S.), Vol VII Part 2, 1934, p. 312.

(٥) (B. O. S.), Vol VII Part 2, 1934, p. 309.

أخذ بصحبته زوجته أسماء بنت شهاب وبعض أفراد أسرته . وبينما هو في طريقه إلى مكة اغتاله سعيد الأحول بن نجاح في أواخر سنة ٤٥٩ هـ^(١).

ولى المكرم أحمد الملك بعد وفاة أبيه على بن محمد الصليحي وبعث إليه الخليفة المستنصر بالله رسالة في شهر شعبان سنة ٤٦٠ هـ عبر فيها عن أسفه لوفاة والده وعهد إليه بشئون الدعوة^(٢).

عول المكرم بعد أن تقلد زمام الأمور في بلاد اليمن على التخلص من سعيد الأحول بن نجاح الذي كان إذ ذاك قد استولى على زبيد، فسار على رأس جيش كبير . ولم تزل المعركة دائرة بين الفريقين حتى هرب سعيد ومن معه إلى دهلك . واستعاد بذلك المكرم سلطانه على زبيد وولى عليها خاله أسعد بن شهاب . على أن بنى نجاح ما لبثوا أن عادوا إلى زبيد فأوقع بهم المكرم الهزيمة وأخرجهم منها وقتل سعيد بن نجاح، وبعد أن تغلب المكرم على الصعوبات التي واجهته، أمر بضرب الدينار الملكي ونقش عليه هذه العبارة : «الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين»^(٣).

لما وصل إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي نبأ الهزيمة التي حلت بسعيد الأحول بن نجاح وقتله، أرسل إلى المكرم خطابا نوه فيه عن سروره لهزيمة العدو وأخذه الثأر لأبيه، وقال له : «فلله درك أيها الأجل، لقد زكى غرسك وطاب، وحق أمل أمير المؤمنين في تقديم قدمك وما خاب، فاعلم أنك خليفته في بلاد اليمن وعماده، وعدته وسناده، وقر عينا بما أعطاك الله من الرتبة السنية والدرجة العلية». وأبلغه في نهاية خطابه أنه أنعم عليه بلقب أمير الأمراء^(٤).

لم يكن لدى المكرم الصفات التي تؤهله ليخلف أباه في إدارة شئون بلاد اليمن، لذلك نراه بعد أن استعاد زبيد من سعيد الأحول وعاد إلى صنعاء يقلد زوجته السيدة الحرة بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحي زمام

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٢٢، ابن المؤيد : أنباء الزمن في أخبار اليمن ص ٤٠ . .

(٢) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 319

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٢٦ - ٢٧ .

(٤) انظر السجلات المستنصرية رقم ٦٠ ص ١٩٦ - ١٩٩ .

الأمر في اليمن، ويعهد إليها بالقيام بأمر الدعوة الإسماعيلية، أما هو فقد انصرف إلى التمتع بملاذ الحياة^(١).

على أن المكرم رغم ذلك حرص على توطيد علاقته بالمستنصر بالله الفاطمي. فظل مواليا له، وعبر عن ذلك في كتبه التي بعثها إليه، كما أشار أن الخليفة الفاطمي لم يهمل شأنه وأولى زوجته السيدة الحرة كل ثقته لإخلاصها للدعوة الإسماعيلية وظلت كتبه لا تنقطع عنهما، فبعث إلى المكرم كتابا في ٢٩ من ذي القعدة سنة ٤٧٠ هـ يتضمن وصفا للمركز السامي الذي تقلده بدر الجمالي في دولته والخدمات العظيمة التي أداها له باعتباره إماما، وكيف وطد نفوذ خلافته، فقال: «وقد نشر الله تعالى به دعوة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت رميما، ونضّر به خلافة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت هشيما، لم يكن لأمر المؤمنين بد من أن يرقيه في الرفع والإعلاء فوق الفراق، ويحلّه منه محل الوالد، ويجعل له مقام الملك وينزله في عقد خلافة الإمامة مكان السلك، فنص عليه في كفالة قضية المسلمين وهداية دعاة المؤمنين، نص حق ونقلها منه إلى مستحق إذا كان مبرزا في ميدانها، ناطقا بلسانها عالما بأحكامها...»، وطلب المستنصر من المكرم في نهاية كتابه أن يطيع أوامر بدر وإرشاداته، فقال: «فول وجهك نحو هذا السيد الأجل واجعله قبلة دينك في مصادرك ومواردك، وارجع إليه فيما عراك من مشكلات الدين، واشتبه عليك من فتاوى المؤمنين، ليرسل إليك من علمه شهابا قبسا، ويضرب لك في بحر ما اشتبه عليك طريقا ييسر...»، واعلم أن الدولة الفاطمية بخدمته وجده واجتهاده أطلع الله شمسها فأصبحت من سماء العز في الكبد، وشق في نصرتها غياهب الظلمات بعد ضعف الناصر وقلة العدد...»^(٢).

ومما لا شك فيه أن بدر الجمالي الذي قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وزارة السيف والقلم كان يتمتع إذ ذاك بنفوذ كبير في مصر، فقد عهد إليه الخليفة إدارة كافة شئون دولته وزاد في ألقابه: «السيد الأجل، أمير الجيوش. كامل قضية المسلمين. هادى دعاة المؤمنين»، ومن ثم صارت كلمته نافذة على القضية والدعاة وسائر موظفي الدولة^(٣). ولما كانت سلطة بدر الجمالي قد امتدت تبعا لذلك إلى

(١) حمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) انظر السجلات المستنصرية رقم ٦٠ ص ١٩٦ - ١٩٩. B. O. S. 1934, Vol VII Part 2, p. 323.

(٣) القرظي: خطط ج ١ ص ٣٨٢.

الولايات الخاضعة لنفوذ الخلافة الفاطمية، لذلك رأى المستنصر أن يبعث إلى القائمين بأمر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن يخبرهم بتقلد بدر الجمالي زمام دعوته. فأرسل إلى السيدة الحرة خطابا أشاد فيه بذكر هذا الوزير وقال : «فهو خليفتنا وباب دعوتنا، الحال منا محلا لم يحله أحد قبله، القائم من أمورنا مقام الأساس لمشكلات الالتباس، وهو عليك شفيق ولمصالح حالكم في كل طريق»، وختم خطابه بقوله : «فاعلمى ذلك وسارعى إليه إن شاء الله تعالى»^(١).

كان المكرم قبل وفاته قد أوصى أن يخلفه في الدعوة ابن عمه أبو حمير سبأ ابن أحمد المظفر بن علي الصليحي، فلما توفي سنة ٤٨٤ هـ، أرسلت السيدة الحرة خطابا إلى المستنصر بالله الفاطمي تخبره ب وفاة زوجها المكرم وترجوه أن يوافق على تعيين ابنها عبد المستنصر مكانه - وكان لا يزال طفلا - فأقر الخليفة تعيينه خلفا لأبيه وعهد إليه بالقيام بشئون الدعوة، وأمر أن تعنون جميع المراسلات الصادرة منه إلى بلاد اليمن باسم عبد المستنصر^(٢)، كما أرسل خطابات أخرى مع رسوله عضد الدين أبي الحسن جوهر المستنصري، إحداها إلى السيدة الحرة يعزيها في وفاة زوجها المكرم ويثني على وفائها للدعوة.

على أن تولية عبد المستنصر أمر الدعوة لم تلق قبولا لدى أمراء اليمن بسبب صغر سنه، يؤيد ذلك هذا الخطاب الذي أرسله الخليفة الفاطمي إلى عبد المستنصر وقد وصفه فيه بأنه «سليل الدعوة ونجلها» ونوه بما لأسلافه من فضل السابقة في التعلق بها وحسن الأثر في نشرها، وقال إنه قلده «الدعوة الهادية في سائر أعمال اليمن وما يليها سهلا ووعرا وبراً وبحراً»، وتحدث في نهاية خطابه عما وصله عن اعتراض البعض على تقليده الدعوة بسبب صغر سنه، بقوله : «وبعد هذا، فقد كان أمير المؤمنين عرف بما أمده الله به من التأييد الخفي، والنظر الأملعي، أنه إذا شوهد ما خلص إليه من شريف هذا الاهتمام والتقديم والكمال والإنعام . . . سترمقك العيون وتجول في عظم ما خُصصت به الظنون، وإذا وليت هذا الأمر العالي قدره وأنت في سن الصبا، فأنكر أمير المؤمنين ذلك عليهم . . . ووجد

(B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 312

(١)

(B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 366

(٢)

على من ظن ذلك موجدته على من قدح فى الدين . . . ، لأن الله تعالى فوض إلى أمير المؤمنين الخلافة وسنه دون الثمان سنين ، وقد جار هذا فى الإمامة وهى الدرجة التى تلى النبوة ، فكيف الدعوة التى لأمر المؤمنين أن يتصرف فيها على اختياره ويفوضها إلى من يرتضيه ويختاره^(١) . . . » .

كان الخليفة المستنصر بالله الفاطمى يحرص على استقرار الأمور فى بلاد اليمن ليضمن بذلك الاحتفاظ بسيادته على تلك البلاد؛ فلما قام النزاع بين الداعى أبى حمير سبأ بن أحمد الصليحي وأبى ربيع سليمان بن الأمير الزواحى على أثر تولية عبد المستنصر رئاسة الدعوة بعث رسالة إلى السيدة الحرة قال فيها إنه ينظر إلى هذا النزاع بشيء من القلق وطلب إليها أن تسعى فى الصلح بينهما .

كذلك أرسل المستنصر كتابا فى ربيع الأول سنة ٤٨٠ هـ إلى الصليحيين وآل الزواحى رجاهم فيه أن ينهوا ما بينهم من خلاف وأن يطيعوا السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر ، وناشدهم مناشدة قوية لكى يتحدوا فى سبيل نشر الدعوة ، وعبر فى خطابه عن ارتياحه للخدمات التى قام بها كل من الصليحي والمكرم والسيدة الحرة لنجاح دعوته^(٢) .

وقد جاء فيه^(٣) : «من عبد الله ووليه ، معد أبى تميم ، الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى كافة السلاطين الصليحيين والزواحيين ، والمشايخ الحجازيين ، وطوائف اليمانيين . . أما بعد ، فإن الله شرف أمير المؤمنين بفضل الخلافة على بريته ، وأناف به محل الدعوة الهادية ومرتبته . . ولما عرف أمير المؤمنين ما كان منكم من النصرة من حميد المساعى ومأثور مواقفكم من حماية الدعوة . . ، شكر لكم هذه المناقب . . ، وأمير المؤمنين يأمركم بالجرى على هذه السنن . وأن تعتمدوا الائتلاف ، والتحذير من عواقب المقاطعة والاختلاف (وأمير المؤمنين) يفرض عليكم التدين بطاعة داعيكم الملك الأوحى ، المنصور ، العادل ، المكرم ، عمدة الخلافة . . سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه عبد المستنصر . . ، وبأمر أن

(١) انظر السجلات المستنصرية رقم ٣٧ ص ١٢٢ - ١٢٨ .

(٢) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 318 - 319

(٢)

(٣) السجلات المستنصرية : رقم ٣٨ ص ١٢٨ - ١٣٤ .

تعتمدوا الجدة والتشمير في متابعته ومناصرته . . . والجهاد تحت رايته . . . ، وأن تخلصوا النيات في موافقة وطاعة والدته الحرة، الملكة، السيدة السديدة، . . . ولىة أمير المؤمنين وكافلة أوليائه الميامين . . . التي استكفاها أمير المؤمنين في تدبير أمره .

لقيت الدعوة التي وجهها المستنصر إلى آل الصليحي وآل الزواحي لفض النزاع بينهم قبولاً . وقد وافته بهذا النبأ السيدة الحرة في خطاب أرسلته إليه، فبعث إليها الخليفة رداً أعلن فيه سروره لزوال الخلاف الذي قام بين سبأ بن أحمد الصليحي وسليمان بن الأمير الزواحي وعقد الصلح بينهما^(١).

لم يعمر عبد المستنصر طويلاً، فقد وافته المنية وقام بعد وفاته نزاع بين الداعي سبأ بن أحمد المظفر وبين السيدة الحرة بسبب طموحه إلى الاستحواذ على رئاسة الدعوة وحكم بلاد اليمن ورغبته في التزوج منها، لكن السيدة الحرة كرهت ذلك وأنكرته، وتهيأ كل منهما للقتال . وبعد أن دارت الحرب بينهما أياماً أرسل سليمان بن عامر الزواحي إلى الداعي سبأ بن أحمد يقول له : «والله لا أجبتك إلى مرادك إلا بأمر المستنصر بالله^(٢)» . فبعث سبأ بن أحمد إلى المستنصر بالله رسولين هما : القاضي حسين بن إسماعيل الأصبهاني وأبو عبد الله الطيب ومعهما رسالة يرجو فيها الخليفة أن يطلب من السيدة الحرة التزوج منه^(٣) . فكتب إليها المستنصر خطاباً أمرها فيه بالتزوج من الداعي سبأ بن أحمد، وسير إليها أستاذاً من قبله يلقب بيمين الدعوة ليتحدث معها في هذا الشأن^(٤).

لما حظى رسول المستنصر بمقابلة السيدة الحرة وقف بين وررائها وكتائبها ورجال دولتها وقال موجهها الكلام إليها : «أمير المؤمنين يرد السلام على الحرة الملكة السيدة الرضية الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستنجدين، ولىة أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، ويقول فيها : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله

(B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 321

(١)

(٢) الديبع الشيباني : قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥ .

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٢ .

(٤) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن في أخبار اليمن ص ٤٣ .

أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً». وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحّد المنصور المظفر عمدة الخلافة، أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على الصليحي على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عينا وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطف وطيب وكساوى. فقالت السيدة الحرة «أما كتاب مولاى فأقول فيه إني ألقى كتاب كريم ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتوني مسلمين﴾ : ﴿يا أيها الملأ أفتوني فى أمرى. ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾، وأما أنت يا ابن الأصبهاني^(١) فوالله ما جئت إلى مولانا بنبأ يقين. ولقد حرفتم القول عن موضعه وسولت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون^(٢)». ثم تقدم إليها وزيرها زريع بن أبي الفتح والقاضى الحسين بن إسماعيل الأصبهاني وبعض رجال دولتها وأخذوا يحسنون لها الزوج من الداعي سبأ بن أحمد، وما زالوا يلحون عليها فى الرجاء حتى قبلت عقد الزواج تحقيقاً لرغبة الخليفة^(٣).

يتبين لنا من تدخل المستنصر بالله الفاطمى فى مسألة زواج الداعي سبأ بن أحمد من السيدة الحرة إلى أى حد علت مكانة هذا الخليفة بين أمراء اليمن ودعاتها حتى أصبحت كلمته نافذة عليهم، ليس فقط فى المسائل السياسية والدينية بل فى المسائل الخاصة. وقد سبق له أن أبدى رغبته فى وضع حد للنزاع بين آل الصليحي وآل الزواحي، وها هو يأمر السيدة الحرة بالزواج من الداعي سبأ بن أحمد. ولا شك أنه كان يرجو من وراء هذا الزواج توثيق الصلة بين أمراء اليمن ودعاتها وعدم إثارة عوامل الخلاف بينهم حتى لا تتعرض الدعوة للضعف من جراء تفرق كلمتهم وانشغالهم بالمنارعات التى قد تؤدى فى النهاية إلى زوال نفوذهم.

على أن السيدة الحرة لم تكن زوجها الداعي سبأ بن أحمد من السيطرة على شئون بلاد اليمن، بل استحوذت عليها واستأثرت بالسلطة دونه، وظلت موالية للمستنصر وآل بيته، وتوثقت عرى الصداقة بينها وبينهم، وأكبر دليل على ذلك

(١) وهو أحد الرسولين اللذين بعثهما الداعي سبأ بن أحمد إلى الخليفة المستنصر.

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) الديبع الشيباني : قرّة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥.

الرسائل التي تبودلت بين السيدة الحرة والمستنصر، وبينها وبين والدته هذا الخليفة وأخته مما يثبت لنا ثقتهم بقدرتها على إقرار الأمور في بلاد اليمن وإذاعة الدعوة بين ربوعها. بل بلغ من ثقة المستنصر بكفايتها للقيام بشئون الدعوة الفاطمية أن عهد إليها أمر تنظيمها في بلاد الهند وعمان. كما أجاز لها أن تعين من يقع اختيارها عليه من الدعاة لنشر الدعوة في تلك البلاد^(١).

لم يكن لمظاهر الضعف التي أصابت الخلافة الفاطمية في أواخر عهد المستنصر أي أثر في بلاد اليمن، فظلت السيدة الحرة مخلصه في ولائها لهذا الخليفة رغم ما بلغها عن تقلص نفوذه.

لما توفي المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٨٧ هـ وخلفه ابنه أبو القاسم أحمد الملقب بالمستعلي بالله أيدت السيدة الحرة خلافته، كما أيدها دعاة اليمن رغم أن الإسماعيلية في مصر لم يجمعوا على أحقيته في تقلد عرش الخلافة بعد أبيه، ذلك أن الأفضل بن بدر الدين الجمالي وزير المستنصر أقدم بعد وفاة هذا الخليفة على إقصاء ابنه نزار ولي عهده وأكبر أبنائه عن الخلافة، وباع أخاه الصغير أبا القاسم أحمد بعد أن اجتمع بالأمرء وخوفهم مما يصيبهم من نزار إذا ما ولي الحكم في الدولة الفاطمية، وقد ترتب على إقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها خروج أهالي الإسكندرية على طاعة الخليفة الجديد وانحيازهم إلى نزار. غير أن الأفضل ما لبث أن تمكن من القضاء عليه وعلى من آزره في ثورته^(٢).

أرسل المستعلي إلى السيدة الحرة رسالة مؤرخة في ٨ صفر سنة ٤٨٩ هـ تضمنت وصفا لثورة نزار وتغلب وزيره الأفضل بن بدر الدين الجمالي عليها نهائيا^(٣). ومما ورد فيها^(٤) : «من عبد الله ووليه أحمد أبي القاسم الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الحرة، الملكة، السيدة، السديدة، ولية أمير المؤمنين. قد علمت ما كان صدر إليك من حضرة أمير المؤمنين

(١) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 321

(٢) ابن ميسر : تاريخ ص ٣٥ - ٣٧.

(٣) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 218

(٤) السجلات المستنصرية رقم ٤٣ ص ١٤٥ - ١٥١.

عندما أصاره الله تعالى إليه من إرث خلافته . وذلك بالنص الذي كان من مولانا الإمام المستنصر بالله . . وإن البيعة انتظمت لأمر المؤمنين على أجمل القضايا والأسباب ، ودخل الناس فيها من كل باب ، بحسن سياسة فتاه وخليله ، السيد ، الأجل ، الأفضل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضية المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين . . وكان الأمراء إخوة أمير المؤمنين أول من دخل فى البيعة مسارعا وانقاد لأحكامها طائعا . . ، ومن جملتهم نزار وهو الأخ الأكبر سنا . . ، ثم إن الشيطان استزله واستغواه ، ففارق جناب أمير المؤمنين . . ، وسار منه متوغلا فى القفار ، راكبا الأخطار ، حتى وصل إلى الإسكندرية ، وفيها أفتكين - أحد ممالك السيد الأجل ، أمير الجيوش . . ، فقابل هذا العبد العاق . . نعم مواليه بالكفر ، وأظهر ما كان كامنا فى نفسه من الخيانة والغدر ، ووافق نزارا على ما سعى إليه من الفساد . . فتقدم أمير المؤمنين إلى فتاه الأمين . . بأن يكتبهم معذرا وزاجرا . . ، وهم على غلوائهم متمادون . . إلى أن حملهم العدوان على البرور عن الإسكندرية فيمن انضم إليهم من لفيف من الأجناد وطوائف العربان والمغاربة والسودان . . ، وأمير المؤمنين يمد به بصائب الآراء . . ، فصدمهم صدمة تزعزع منها أركان الجبال ، وأحل بجمعهم قوارع الشتات والنكال . . ، ولما يسر الله تعالى مفتتح هذا النصر أذن أمير المؤمنين لفتاه السيد الأجل باتباعهم . . ، فتوجه يقتص آثارهم ، وحصى بين الفريقين وطيس الهيجاء . . ، وكان المخاذيل فى هذه النوبة قد تجمعوا من كل فج وواد ، فزادت عدتهم على ثلاثين ألف فارس وراجل ، فرمى الله جمعهم بالحنف العاجل . . ، وطار نزار وأفتكين على رسمهما فى الفرار . . ، وكان الفتح فى هذه الواقعة مثل ما تقدمه بحملات واصلها السيد الأجل بنفسه وغلماؤه . . ، فلم تزل السيوف تتحكم فيهم إلى أن سترتهم الظلماء ، وقتل وأسر منهم ألوف كثيرة . . ، وتوجه نحوهم . . حتى نزل على البلدة . . فحصرها برا وبحرا . . وحضر شهر الصوم ، فأخر مناجزتهم حفظا لحرمة الشهر الشريف ، . . فلما انقضى (هذا الشهر) ولم تنقض غوايتهم وبغيهم . . رماهم بحجارة المنجنيقات . . فلم تمض إلا أيام حتى تداعى الحصن من سائر أركانه ، فتهافت الرجال مستأمنين ، وبالعفو لائذين ، فخرج (أفتكين) بغير عهد ولا عقد ، يتعلق به ، ووقف بين يدى مولاه ملتحفا ثوب الذل والهوان . . ، فأضرب عنه

صفحا . . ، وتوفر على المهم من الحسوة على نزار وحفظ الثغر من عوادي النهب والأضرار . . ».

كذلك حاولت والددة الخليفة المستعلي جذب الدعاة في اليمن إليه فبعثت إلى السيدة الحرة رسالة، تحدثت فيها عن عهد المستنصر لولدها أبي القاسم أحمد وثورة نزار وأفتكين بالإسكندرية على خلافته^(١). وقد جاء فيها^(٢) :

«من السيدة الملكة المحترمة الكريمة . . ، والددة الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله . . ، إلى الحرة الملكة، السيدة، السديدة . . ، وقد اشتهر بين كافة المؤمنين، وأولياء الدين، ورعايا الدولة أجمعين، أن الإمام المستنصر بالله . . كان يشير (بالإمامة) إلى ولده الإمام المستعلي بالله، ثم أفصح . . وأنه تولى بنفسه الشريفة الكريمة توفيقه وتفهيمة، واختصه دون الأولياء بمزية ألفه وأنسه، ثم انتقل إلى دار الكرامة، ومحل الإقامة، بعد أن أظهر النص عليه، وأعلن بنقل الأمر إليه . . ، وجعل خليله ووزيره، السيد الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام . . وليا أعلى الله همته في ارتياد الصلاح واغتنامه . . ، ومديرا جرى به أمر المملكة على أطراذه وانتظامه، فقام لأمر المؤمنين بأمر البيعة أحسن قيام . . ، وكان أول داخل فيها الأمراء إخوة أمير المؤمنين تسليما لحقه وإذعانا، وعلمنا بأن الله تعالى يفيض شعار الإمامة على من يرتضيه، ومن جملتهم نزار أخوه الأكبر سنا، فإنه عرف الحق فعاهد وباع. ثم أدركه الحسد . . . فانسل ذليلا تحت جناح الليل . . ، ومضى إلى الإسكندرية وبها أفتكين، واجتمعا معا على الفتنة . . ، واستغويا طوائف من المنافقين، وكان أمير المؤمنين بما آتاه الله تعالى من شرف العلم، وحبب إليه من الفضل والحلم، موعزا إلى فتاه وخليله السيد الأجل الأفضل، بمواصلتهم بالمكاتبات المشتملة على الإنذار والإعذار . . ، وهم متمادون على غلوائهم في البغي والعناد . . ، فعند ذلك أذن له مولانا في لقاءهم . . ».

لم يتأثر دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن بهذا النزاع الذي حدث في مصر حول الخلافة والذي ترتب عليه ظهور فرقتين، عرفت الأولى بالزارية، وكانت

(B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 218

(١)

(٢) السجلات المستنصرية رقم ٣٥ ص ١٠٩ - ١١٧.

تدعى أن المستنصر أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من بعده. أما الفرقة الثانية فادعت أنه أوصى بها لابنه المستعلى. وقد انحاز دعاة الإسماعيلية في اليمن إلى هذه الفرقة وظلوا على ولائهم للخليفة المستعلى.

كذلك لم تلق فرقة النزارية التي اتخذت من بلاد المشرق مركزاً لها بزعامة الحسن بن الصباح^(١) - الذي مال إلى القول بإمامة نزار وأنكر إمامة المستعلى - أنصاراً في بلاد اليمن، بل لقد أصبح اسم نزار مبغضاً عند أهالي هذه البلاد كما هي الحال عند غالبية الإسماعيلية في مصر.

كان النزارية في مصر لا يعترفون بإمامة المستعلى ويعملون على التخلص منه ومن وزيره الأفضل. ولم يمتد نشاطهم إلى البلاد الواقعة في دائرة النفوذ الفاطمي؛ أما فرقة المستعلية التي اتخذت مصر مقراً لها فنشطت في بث الدعوة لإمامة المستعلى وظهر أثر نشاطها جلياً في بلاد اليمن حيث قام الدعاة بنشر الدعوة لهذا الخليفة، ولم تر السيدة الحرة - التي كانت تتمتع إذ ذاك بنفوذ كبير في بلاد اليمن - في الخلاف الذي ظهر بين الإسماعيلية في مصر عقب وفاة المستنصر بشأن أحقية المستعلى في الإمامة ما يجعلها تتخذ لنفسها سياسة مستقلة عن الدولة الفاطمية، بل دخلت في طاعة هذا الخليفة بعد أن وقفت على عوامل ثورة نزار ونجاح الأفضل بن بدر الجمالي في القضاء عليها.

ولاشك أن تأييد السيدة الحرة ودعاتها للمستعلى ساعد على عدم تسرب النزارية إلى بلاد اليمن، وبذلك لم تتفرق كلمة الإسماعيلية في تلك البلاد كما تفرقت في مصر.

ظلت السيدة الحرة تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية في اليمن، فلما مات زوجها الداعي سبأ بن أحمد سنة ٤٩٢هـ. ولّت المفضل بن أبي البركات ابن الوليد الحميري داعياً مكانه^(٢)، كما عهدت إليه بمعاونتها في القيام بأمور الدولة. وقد ثار في عهده جماعة من الفقهاء بحصن التعكر^(٣) وبايعوا رجلاً منهم يعرف بإبراهيم بن زيدان على الدعوة الإسماعيلية وانحازت إليهم قبيلة

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦٥.

(٢) الديبع الشيباني : قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥.

(٣) قلعة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذى جبلة (ياقوت : معجم البلدان).

خولان، غير أن المفضل ما لبث أن حاصرهم وانتهى الأمر بالقضاء على ثورتهم^(١).

كان من أثر انضمام الخولانيين إلى الخارجين على الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن سنة ٥٠٤ هـ وقيام النزاع بينهم وبين السيدة الحرة أن وجهت الخلافة الفاطمية بالقاهرة اهتمامها إلى معاونة السيدة الحرة، فأوفد إليها الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي الداعي على بن إبراهيم بن نجيب الدولة سنة ٥١٣ هـ ليكون عوناً لها ضد أعدائها ومنافسيها^(٢) - وكان ذا دراية كبيرة بمذهب الشيعة - فلما وصل إلى جزيرة دهلك في طريقه إلى بلاد اليمن، قابله أحد الدعاة وأدلى إليه بأخبار تلك البلاد وأحوال أهلها وتواريخ ميلادهم وأسمائهم وما يميزهم من علامات، فكان إذا ما تحدث معهم عن غوامض الأشياء التي تتصل بهم اعتقدوا أنه يعلم الغيب^(٣).

اشترك ابن نجيب الدولة مع السيدة الحرة في إدارة اليمن. وصار من كبار الدعاة في تلك البلاد، كما ظل مخلصاً للسيدة الحرة ومنفذاً في الوقت نفسه لسياسة الخليفة الفاطمي بالقاهرة، وبذل جهداً مشكوراً في العمل على استقرار الأمور في بلاد اليمن. ولما ولى المأمون البطائحي الوزارة في مصر في عهد الخليفة الأمر، أمدّه بالمال والرجال ليضعف من شوكة أمراء اليمن الذين حاولوا الاستقلال ببعض البلاد^(٤).

أثارت الحملات التي شنّها ابن نجيب الدولة على بعض أمراء اليمن والتي انتهت الأمر فيها بهزيمتهم حققهم عليه، وصاروا يتتهزون الفرص للتخلص منه، فلما بعث المأمون البطائحي وزير الخليفة الأمر الفاطمي رسولا من قبله إلى اليمن سنة ٥٢٠ هـ لم يحفل به ابن نجيب الدولة وعول على الغض من شأنه، فاستغل أعداؤه من الأمراء والدعاة موقفه العدائي من رسول الوزير الفاطمي للانتقام منه، فاستمالوا هذا الرسول إليهم بالهدايا وانضموا إليه في عداوته لابن نجيب الدولة،

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٦ - ٢٢٢.

(٢) Enc of Islam, V 4, p 517

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٢.

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٣، ٤٤. الديبع الشيباني : قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٧.

فأوعز إليهم بتدبير أمرين للتخلص منه : أما عن أولهما فقال : «اكتبوا على يدي إلى مولانا الأمر كتباً تذكرون فيها أنه دعاكم إلى نزار وراودكم على ذلك فامتنعتم»، وقال عن ثانيهما : «اضربوا سكة نزارية وأنا أوصلها إلى مولانا الأمر بأحكام الله»، فأجابوه إلى طلبه، وبعث بكتبهم وبالسكة إلى الخليفة الأمر^(١).

ولما وصل إلى الأمر الفاطمي الكتب والسكة وفيها ما يدل على انصراف ابن نجيب الدولة عن الدعوة له وانحيازه إلى طائفة النزارية^(٢) عهد إلى الأمير الموفق ابن الخياط بالقبض عليه وإرساله إلى مصر؛ فقدم ابن الخياط على السيدة الحرة وطلب منها أن تسلم إليه ابن نجيب الدولة تحقيقاً لرغبة الخليفة فامتنعت أول الأمر وقالت له : «أنت حامل كتاب مولانا فخذ جوابه»، وبعثت إلى الأمر بأحكام الله هدية وكتاباً مع رسولها محمد بن الأزدي شفعت فيه لابن نجيب الدولة، غير أن شفاعة السيدة الحرة لم تصل إلى مسامع الخليفة الفاطمي، فقد أحاط أعداء ابن نجيب الدولة^(٣) به واعتقلوه وأرسلوه إلى مصر، وأخروا رسول السيدة الحرة

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٦ .

(٢) كان للنزارية أتباع في مصر لا يعترفون بإمامة الأمر ويثيرون القلاقل ضده بإيعاز من رؤساء دعوتهم في قلعة الموت الذين كانوا يمدونهم بالمال؛ فرأى الخليفة الفاطمي أن يرسل إلى رعيهم الحسن بن الصباح كتاباً يفند فيه حجج فرقته التي تقول بأحقية نزار في الإمامة ودعا إلى قصره قبل أن يرسل كتابه، الفقهاء من الإسماعيلية الإمامية وقال لهم وزيره المأمون البطاحي : مالكم من الحجة في الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية، فقال كل منهم : لم يكن لنزار إمامة، ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله».

وكانت أخت نزار إذ ذاك تجلس في قاعة صغيرة بجانب الإيوان بالقصر وعلى الباب ستر؛ فلما فرغ فقهاء الإسماعيلية من الإدلاء برأيهم في أقوال الخارجين على الخليفة قالت : «اشهدوا على يا جماعة الحاضرين وبلغوا عنى جماعة المسلمين أن أخى شقيقى نزاراً لم يكن له إمامة وإننى (برية) من إمامته جاحدة لها لاعتة لمن يعتقدها...».

ولما نفّض المجلس، عهد المأمون البطاحي إلى ابن الصيرفي بكتابة رسالة لابن الصباح يدحض فيها آراء النزارية في الإمامة، غير أن هذه الرسالة لم يتح لها أن تصل إلى يد ابن الصباح لعدول رسل الخليفة عن مواصلة السفر بسبب الأنباء التي وصلت إلى مصر عن ازدياد نفوذ طائفة النزارية ببلاد المشرق، واتصالها بأتباعها في مصر لتدبير مؤامرة لقتل الأمر ووزيره المأمون. لذلك لا نعجب إذا رأينا الأمر يتتبع حركاتهم في جميع البلاد الخاضعة لنفوذه ويعمل على التخلص من تحوم الشبهات حول انحيازه إليهم، لكنه رغم اتخاذها الحيلة لدرء خطرهم عنه اغتاله فريق منهم.

ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦٥ - ٦٨ ، المقرئ، خطط ج ١ ص ٤٠٧ .

(٣) ابن المؤيد : أنباء الزمن في تاريخ اليمن ص ٤٧ .

خمسـة عشر يومًا حتى لا يعلم الخليفة بحقيقة موقف ابن نجيب الدولة منه . ولم يكتفوا بذلك ، بل أوعزوا إلى ربان المركب الذى أبحر عليه هذا الرسول أن يغرقه فى الماء ، فلبى رغبتهم ومات محمد بن الأزدى غريقًا قبل أن يواصل سفره إلى مصر . فجزعت السيدة الحرة على وفاته ، كما أسفت على فقدان ابن نجيب الدولة - وكان نصيرًا لها ومن أكابر دعاة اليمن - وقد قتل بأمر الخليفة الأمر ، على أثر قدومه إلى القاهرة سنة ٥٢١هـ^(١) ، فأقامت مكانه الداعى إبراهيم بن الحسن الحامدى^(٢) .

كانت السيدة الحرة على اتصال وثيق بالخليفة الأمر ، فتبودلت بينهما الكتب والرسـل ، وقد أظهرت ولاءها لهذا الخليفة ، فاعترفت بإمامته كما اعترفت من قبل بإمامة أبيه ، وأقامت الدعوة لهما مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن .

وكان الخليفة الأمر ينظر إلى السيدة الحرة نظرة تقدير وإجلال ويرى أنها من خيرة أعوانه بعد أن تبين له إخلاصها فى نشر دعوته ؛ لذلك حرص على أن تظل موالية لأبنائه من بعده ، فلما رزق ابنه أبا القاسم الطيب فى ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ وجعله ولى عهده ، كتب إلى السيدة الحرة يبشرها بمولد ولده الإمام أبى القاسم الطيب ويعرفها أنه ولى عهده ويأمرها أن تذيب هذا الخبر بين أهالى بلاد اليمن^(٣) ؛ وفيما يلى نص السجل الذى أرسله الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمى إلى الملكة الحرة الصليحية فى هذا الشأن^(٤) (بسم الله الرحمن الرحيم) : من عبد الله ووليه المنصور أبى على الأمر بأحكام أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة السيدة

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٧ ، ٤٨ ، ابن ميسر تاريخ مصر ص ٧٠ .

(٢) Kay, Yaman, Its Early Mediaeval History p. 298

(٣) ذكر (ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٢) كيف احتفل الخليفة الأمر بإعلان البشرى بولاية ابنه أبى القاسم الطيب وتوليته الإمامة من بعده فقال : «رئت مصر والقاهرة وعملت الملامى فى الأسواق وبأبواب القصور، ولبست المساكـر وزينت القصور، وأخرج الأمر من خزائنه وذخائره قماشا ومصاغـا ما بين آلات وأوانى ذهب وقضة فزين بها وعلق على الإيوان جميعه بالستور والسلاح، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوما وأحضر الكيش الذى يذبح فى العقيقة وعليه جل ديباج وقلائد فضة وذبح بحضرة الأمر وأحضر المولود، فشرف قاضى القضاة ابن ميسر بحمله ونثرت الدنانير على رؤوس الناس وعملت الأسمطة، وكتب إلى الفيوم والشرقية والقليوبية بإحضار الفواكه، فأحضرت وملئ القصر من الفواكه وغيرها وامتلا الجو بدخان العود والعنبر» .

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٠٠ ، ١٠١ .

الرضية الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، خاصة الإمام، ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستنجدين، عصمة المسترشدين وولية أمير المؤمنين وكافلة أوليائه الميامين أدام الله تمكينها ونعمتها وأحسن توفيقها ومعونتها سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين (ﷺ) وعلى آله الطاهرين الأئمة المهتدين وسلم تسليمًا، أما بعد، فإن نعم الله عند أمير المؤمنين لا يحصى لها عد، ولا تقف عند أمد ولا حد، ولا تنتهى إلى الإحاطة بها الظنون لكونها كالسحاب الذى كلما انقضى أعقبه سحاب، فهي كالشمس الساطعة الإشراف الدائمة الانظام والاتساق، والغيوث المتابعة الاتصال الموالية بالغدو والآصال، ومن أشرفها لديه قدرًا وأعظمها صيتًا وذكرًا، وأسناها جلالًا وفخرًا الموهبة بما جده الآن بأن رزقه مولودًا زكيا مرضيًا برًا تقيًا، وذلك فى الليلة المصباحة بيوم الأحد الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ؛ ارتاحت إلى طيب ذكره أسرة المنابر وتطلعت إلى مواهبه آمال كل باد وحاضر، وأضاءت بأنوار عزته وبهجة طلعه ظلم الدياجر، وانتظمت به الدولة الزاهرة الفاطمية عقود المفاصل والمفاخر، استخرجه من سلالة النبوة كما يستخرج النور من النور، ومنح المؤمنين منه بما قدح زناد السرور، وسماه الطيب لطيب عنصره، وكناه أبا القاسم كنية جده نبي الهدى المستخرج جوهره من جوهره؛ وأمير المؤمنين يشكر الله تعالى على ما من به من إطلاعه كوكبًا منيرًا فى سماء دولته وشهابًا مضيئًا فى فلك جلالته ورفعته، شكرًا يقضى باستدامة نعمته . . ويسأله أن يبلغه فيه كنه الآمال ويصل به حبل الإمامة ما اتصلت الأيام بالليالي، ويجعله عصمة للمسترشدين وحجة على الجاحدين وعونا للمستجيبين وسعادة للعارفين، لتنال الدنيا بسعادته أوفى حظوظها وقسمها . . ولما كانك من حضرة أمير المؤمنين المكين ومحللك الذى امتنع عن المماثل والقربين، أبشرك هذه البشرى الجليل قدرها، العظيم فخرها، المنتشر صيتها وذكرها، لتأخذى من المسرة بها بأوفى نصيب وتذيعها فيمن قبلك من الأولياء والمستجيبين إذاعة يتساوى فى المعرفة بها كل بعيد منها وقريب، لينتظم بها عقد السرور، فاعلمى هذا واعملى به إن شاء الله تعالى وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله والأئمة الطاهرين وسلم وشرف وكرم إلى يوم الدين».

لما قتل الخليفة الأمر في أواخر سنة ٥٢٤ هـ، انتقلت السلطة إلى الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر فأخفى أمر الإمام الطيب وبايعه الناس بولاية العهد على أن يكون كفيلاً لحمل منتظر^(١)، ولقب الحافظ لدين الله، لكن سرعان ما حيل بينه وبين التصرف في شئون الدولة، فقد سجنه الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل، وظل في سجنه إلى أن قتل هذا الوزير، فأعاده رجال الدولة ولياً للعهد^(٢)، ثم استقرت له الخلافة وقرئ في ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ سجل بإمامته، وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذه العبارة : اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره وأقررت به الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وروماننا عبد المجيد أبي ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين^(٣).

لم تنظر السيدة الحرة إلى الوسيلة التي اتبعتها الخليفة الحافظ للوصول إلى عرش الخلافة بعين الرضا، فقد اعتبرت إمامته باطلة على الرغم من الكتب التي أرسلها إليها؛ فقد بعث إليها على أثر توليته الحكم سجلاً بدأه بعبارة «من ولي عهد أمير المؤمنين»، ثم أرسل إليها سجلاً آخر في السنة التالية مبتدئاً بعبارة «من أمير المؤمنين» وقد حاول الحافظ في كتبه التي بعثها إلى السيدة الحرة أن يستميلها إليه، لكنه أخفق في ذلك لأنها كانت على علم بمولد الإمام الطيب، وأخذت على نفسها العهد بنشر الدعوة له؛ ولهذا تخلت عن الدعوة للخليفة الحافظ وقالت : «حسب بنى الصليحي ما علموه من أمر مولانا الإمام الطيب»^(٤).

ظلت السيدة الحرة تعمل جاهدة على أن يكون للدعوة الطيبية في بلاد اليمن النفوذ الأسمى، وامتد نشاطها في سبيل الإبقاء على تلك الدعوة إلى بلاد

(١) يتضح مما أورده كل من ابن ميسر «تاريخ مصر ص ٧٤»، وأبو المحاسن «النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٠ - ٢٤١» أن الأمر لما مات ترك إحدى نساؤه حاملاً، فأقيم الحافظ ولياً للعهد وكفيلاً لطفل مرتقب.

(٢) المقرئ : خطط، ج ٢ ص ٣٥٧.

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٤ - ٧٥.

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٠٢.

الحجاز، ذلك أنها حين وصل إليها أن أمير مكة هاشم بن فليته بن القاسم^(١) (٥٢٧ - ٥٤٩ هـ) يقيم الخطبة للخليفة الحافظ بعثت إليه تنوعده إن لم يعمل على قطع الخطبة لهذا الخليفة^(٢)؛ ولا شك أنها كانت تأمل من وراء ذلك أن يحذو الأمير حذوها في إقامة الدعوة للإمام الطيب.

لقى عدم اعتراف السيدة الحرة بإمامة الخليفة الحافظ ارتياحا من فرقة المستعلية بمصر التي ترى وجوب انحصار الإمامة في أولاد المستعلي، بل إن هذه الفرقة نظرت إلى السيدة الحرة على أنها الممثلة الحقيقية للمذهب الإسماعيلي في بلاد اليمن.

على أن الخليفة الحافظ لم يفقد الأمل في نشر الدعوة له في بعض مدن اليمن؛ فقد استعان بآل زريع بعدن في بث دعوته. وكان لجدهم عباس بن المكرم^(٣) مآثر طيبة في نشر الدعوة للمستنصر بالله الفاطمي مع الداعي على بن محمد الصليحي ثم مع ابنه أحمد المكرم^(٤).

ولى العباس بن المكرم وأخوه مسعود ولاية عدن من قبل السيدة الحرة، وظلا يحملان إليها كل سنة مائة ألف دينار، ولما توفى العباس انتقل عمله إلى ابنه زريع، وخلف مسعود ابنه أبو الغارات. وقد خرج كل من زريع وأبو الغارات على طاعة السيدة الحرة، فحاربهما وزيرها المفضل بن أبي البركات، ثم تصالحا معه على أن يؤديا للسيدة الحرة نصف خراج عدن؛ غير أن هذا الصلح لم يدم طويلا. وظل آل زريع يناضلون السيدة الحرة حتى تخلصوا من نفوذها في عدن^(٥).

عنى دعاة آل زريع بإقامة الدعوة للخليفة الحافظ، كما حرص هذا الخليفة على تقليدهم أمر دعوته، فبعث في سنة ٥٣٥ هـ رسالة مع أحد رسله تتضمن

(١) صحح هذا الاسم طبقا لما أورده Zambaur, Manuel de- Généalogie et de Chronologie pour L, Histoire de L'Islam p. 21

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٤.

(٣) كان بنو معن بن رائدة قد ملكوا عدن أيام الخليفة المأمون العباسي ورفضوا الدخول في طاعة بني زياد بزبيد واكتفوا بإقامة الخطبة للخليفة العباسي، ولما استولى الداعي على بن محمد الصليحي على بلاد اليمن رعى لهم حق العروبة وأبقاها في أيديهم، وقرر عليهم ضريبة سنوية، ولم يزالوا بها حتى أخرجهم منها ابنه المكرم أحمد وولى عليها العباس ومسعود ابني المكرم الهمداني.

تاريخ ابن المجاور : القسم الأول ورقة ٩٩، العرشى : بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٢٧.

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٨، تاريخ ابن المجاور : القسم الأول ورقة ٩٨.

(٥) تاريخ ابن المجاور : القسم الأول ورقة ٩٩.

تقليد على بن سبأ بن أبي السعود بن زريع الدعوة، ولما علم الرسول أن هذا الرجل قد توفي قلدها أخاه محمد بن سبأ^(١)، ولقب بالداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين^(٢). وقد بلغ من اهتمام الخليفة الحافظ بإقامة الدعوة له أن أرسل في سنة ٥٣٩هـ رسولا من قبله إلى بلاد اليمن يدعى أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني الأسواني ليقوم بنشر دعوته^(٣).

كان من أثر قيام السيدة الحرة بالدعوة للإمام الطيب دون الخليفة الحافظ وانفراد آل زريع بالدعوة لهذا الخليفة أن انقسمت إسماعيلية اليمن تبعاً لذلك إلى طائفتين : إحداهما تؤيد الدعوة الطيبية وعلى رأسها السيدة الحرة، والأخرى تناصر الخليفة الحافظ يتزعمها آل زريع.

على أن الدعوة الطيبية ما لبثت أن ضعف أمرها بعد وفاة السيدة الحرة سنة ٥٢٢هـ. ويرجع السبب في ذلك إلى أنه لم يكن هناك بين الصليحيين شخصية قوية تستطيع أن تخلف هذه السيدة وتسير سيرتها في نشر الدعوة للإمام الطيب؛ فقد زال ملكهم وآلت الحصون والذخائر والأموال التي كانت تحت السيدة الحرة إلى منصور بن الفضل بن أبي البركات الذي عجز عن الاحتفاظ بما انتقل إليه من ملك.

تطلع آل زريع بعد أن توفيت السيدة الحرة إلى بسط سلطانهم على قلاع الصليحيين الذين زالت دولتهم؛ فاستغل الداعي محمد بن سبأ الزريعي ضعف المنصور بن الفضل بن أبي البركات الذي آلت إليه هذه القلاع وابتاعها منه بمائة ألف دينار في سنة ٥٤٧هـ^(٤). فقوى نفوذهم تبعاً لذلك، وظلوا مواليين للخلافة الفاطمية في مصر، يؤدون إليها في كل سنة مبلغاً معيناً من المال للإنفاق منه على المذهب الإسماعيلي^(٥).

(١) ابن المؤيد اليمني : أنباء الزمن في تاريخ اليمن ص ٤٧.

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٩.

(٣) الإدفعي : الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ص ٥.

(٤) المقريري : خطط ج ٢ ص ١٧٤.

(٥) تاريخ ابن المجاور : القسم الثاني ورقة ١٠٣.

أخذت دولة بنى زريع بعدن فى الانحلال بعد وفاة محمد بن سبأ الزريعى سنة ٥٤٨ هـ؛ وتجلّى ضعفها فى عهد ابنه عمران الذى استعان بياسر بن بلال فى تدبير أمور دولته، واستمر على ولائه للفاطميين إلى أن توفى سنة ٥٦٠ هـ، فاستأثر ياسر بالسلطة^(١) وزال بذلك ملك بنى زريع.

* * *

روال النفوذ الفاطمى فى اليمن : أصبح النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن مهددا بالزوال منذ ولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مقاليد الأمور فى مصر بعد قضائه على الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ، فقد طمع فى بسط سلطانه على البلاد التى كانت تحت السيادة الفاطمية وولى وجهه فى بادئ الأمر نحو اليمن^(٢)، فبعث إليها أخاه الأمير شمس الدولة توران شاه على رأس حملة سنة ٥٦٩ هـ، ولما وصل توران شاه إلى تلك البلاد بدأ عمله بالقضاء على دولة بنى مهدي بزييد التى كانت تناصر الفاطميين بمصر^(٣)، فقبض على أميرها عبد النبى بن مهدي لقطعه الخطبة العباسية واستولى على زييد، ثم فتح صنعاء وسار إلى عدن حيث أوقع الهزيمة بوالىها ياسر بن بلال وضمها إلى حوزته. ولما فرغ من أمرها عاد إلى زييد وامتلك قلعة تعز - وهى من أحصن القلاع - . ولم يزل يتقدم فى فتوحه حتى بسط سلطانه على معظم بلاد اليمن^(٤) وتلقب بالملك المعظم، وخطب له بذلك بعد الخليفة المستضىء بأمر الله العباسى فى جميع البلاد التى فتحها^(٥) وولى سيف الدولة مبارك بن منقذ على زييد، وعز الدين عثمان بن الزنجبلى على عدن، كما عين فى كل قلعة من قلاع اليمن التى دخلت فى حوزته نائبا من أصحابه^(٦)، ثم عاد إلى مصر سنة ٥٧١ هـ^(٧).

وهكذا قضى على الدعوة الفاطمية ببلاد اليمن، كما زال نفوذ الفاطميين منها، وانتقلت السيادة فى تلك البلاد إلى الأيوبيين الذى حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء العباسيين وأقاموا الخطبة لهم فى جميع البلاد التى تحت سيطرتهم.

(١) ابن خلدون : ج ٣ ص ٢٤٩.

(٢) ذكر المقرئى «السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الأول ص ٥٢، ٥٣» أنه من الأسباب التى حملت صلاح الدين على فتح بلاد اليمن رغبته فى إقامة دولة بها يلجأ إليها إذا ما حاول نور الدين محمود أن ينزع منه مصر.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٩.

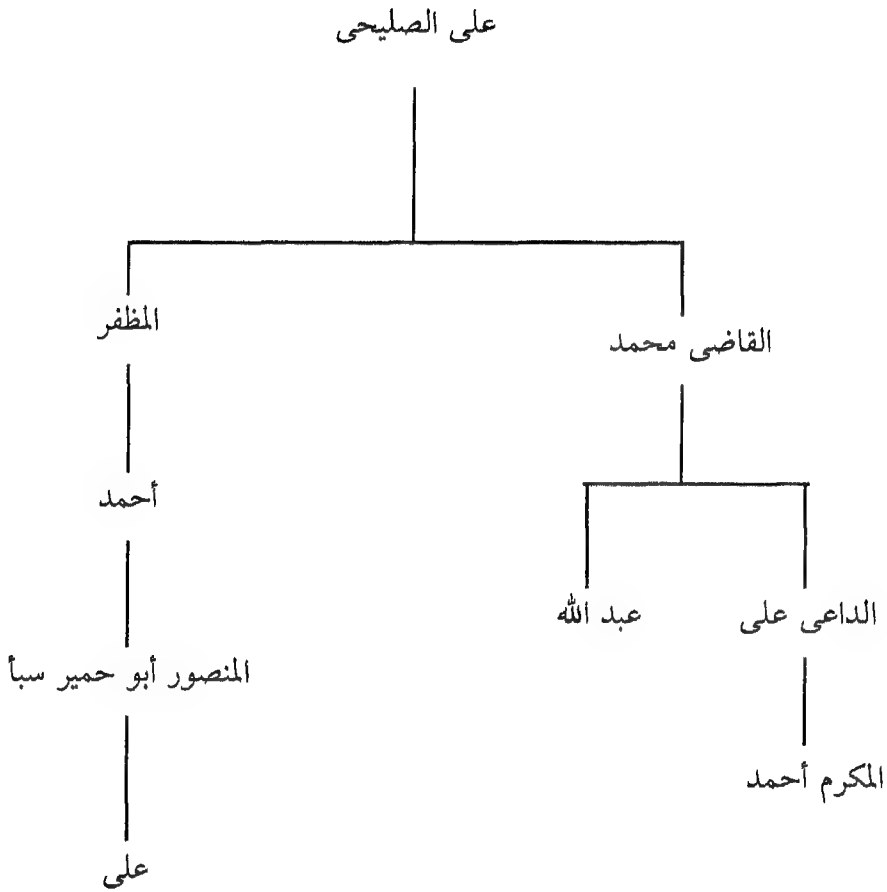
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ١٤٨ - ١٤٩، المقرئى خطط ج ٢ ص ١٧٣.

(٥) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الأول ص ٥٣.

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ١٤٩.

(٧) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٤١.

أسرة الصليحي ببلاد اليمن (١)



الباب الخامس

سياسة الفاطميين في بسط سلطانهم على بلاد الشام

تمهيد : الحياة السياسية في بلاد الشام قبيل الفتح الفاطمي .

١ - الفتح الفاطمي لبلاد الشام .

٢ - الصعوبات التي واجهت الفاطميين في بلاد الشام من ناحيتي القرامطة وأفتكين التركي .

٣ - موقف أمراء العرب بالشام من الفاطميين .

(أ) بنو الجراح في فلسطين .

(ب) الحمدانيون والمرداسيون في شمال الشام .

٤ - ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري .

تمهيد: الحالة السياسية فى بلاد الشام قبيل الفتح الفاطمى:

حرص الأخشيديون أثناء ولايتهم على مصر على توطيد نفوذهم بولاية الشام التى تقلدوا حكمها؛ فلما علم محمد بن طغج الإخشيدى أن محمد بن رائق الخرزى، أمير الأمراء فى بغداد يطمع فى ولاية الشام، كتب إلى نائبه ببغداد يطلب إليه أن يستطلع رأى الخليفة فى هذا الأمر. غير أن الخليفة العباسى لم يكن إذ ذاك لديه من النفوذ بحيث يستطيع أن يتخذ قراراً يلزم أحد الفريقين باتباعه، لذلك استقر رأى الإخشيد على إعداد العدة لمحاربة محمد بن رائق^(١)، فخرج على رأس جيشه فى أوائل سنة ٣٢٨ هـ، ودارت بينه وبين ابن رائق معركة فى العريش؛ فمضى ابن رائق منهزماً إلى الرملة، ثم عقد الصلح بين الفريقين واتفقا على أن تكون طبرية وما فى شمالها من البلاد لمحمد بن رائق^(٢).

على أن ابن رائق ما لبث أن نقض هذا الصلح، وقصد الرملة فى طريقه إلى مصر. واستثونف القتال بينه وبين الإخشيد، فلحقت الهزيمة فى بداية الأمر بالإخشيد عند العريش، ثم أرسل الإخشيد جيشاً لمطاردة ابن رائق؛ غير أنه لم يتمكن من إحراز النصر عليه. ورأى محمد بن رائق رغم ذلك أن يسعى لمصالحته^(٣). وانتهى النزاع بينهما بعقد الصلح على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة، وعلى أن يدفع الإخشيد إليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار^(٤). ومن المحتمل أن الإخشيد اضطر إلى قبول الصلح على

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٩ .

(٢) سيدة كاشف: مصر فى عهد الإخشيديين. ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣) انظر : مصر فى عهد الإخشيديين. ص ٨٣ .

(٤) المقرئى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١. ص ٣٢٩ .

هذه الصورة رغم ما أحرزه من نصر خشية أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه، ورغبة لإعداد نفسه لدرء الخطر الفاطمي الذي كان يهدده من ناحية حدود مصر الغربية^(١).

استطاع الإخشيدى أن يعيد بلاد الشام إلى حوزته من غير حرب بعد وفاة ابن رائق؛ وبذلك استقر حكمه في هذه البلاد وأصبح من القوة بحيث استطاع أن يحصل على تقليد في بداية سنة ٣٣٣ هـ من الخليفة المتقي بولاية مصر وحق توريث إمارتها لأبنائه من بعده، كما أخذ تقليدًا من الخليفة المستكفي في جمادى الآخرة من هذه السنة، أقره فيه على ولاية مصر والشام^(٢).

لم يحتفظ الإخشيد فترة طويلة بسلطانه على جميع بلاد الشام، ويرجع السبب في ذلك إلى تطلع الحمدانيين^(٣) إلى انتزاع هذه البلاد من أيدي الإخشيديين. فلما أسندت ولاية حلب إلى أبي الفتح عثمان بن سعيد الكلابي حقد عليه أهل بيته من الكلابيين وراسلوا سيف الدولة بن حمدان ليسلموا إليه حلب. وكان سيف الدولة قد طلب من أخيه ناصر الدولة أن يوليه إحدى الولايات، فقال له ناصر الدولة: الشام أمامك وما فيه أحد يمنعك منه. فلما وقف

(١) حسن إبراهيم: كتاب تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣ ص ٦٨.

(٢) الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٩٢، سيدة الكاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ٨٦.

(٣) ينسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب وموطنها ديار ربيعة في الجزيرة بالقرب من سنجار ونصيبين. وكان لحمدان ستة أولاد هم: إبراهيم والحسين ونصر أبو السرايا وأبو الهيجاء عبد الله، وأبو العلاء سعيد، وداد. وقد ظهر نفوذ الحمدانيين في الموصل منذ أن تقلد ولايتها عبد الله بن حمدان من قبل الخليفة المكتفي سنة ٢٩٢ هـ، (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٧٥). ولما ولي المقتدر الخلافة أقره واليًا عليها، فظل يلى أمورها حتى سنة ٣١٧ هـ حيث اشترك في المؤامرة التي دبرت لخلع المقتدر، فكان مصيره القتل (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٢٣).

على أن الخليفة المقتدر رغم ذلك حرص على الاستعانة بالحمدانيين وعلى الأخص في إقليم الجزيرة لاعتقاده أنهم يستطيعون إخماد حركات القبائل المتنافرة بهذا الإقليم، فأسند إلى الحسن بن عبد الله بن حمدان ولاية الموصل وقد استطاع هذا الأمير أن يحتفظ بنفوذه في الموصل منذ سنة ٣١٧ هـ، كما تمكن من بسط سلطانه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨ ص ٦٧، ٦٨).

ولما استولى البريديون على بغداد ونهبوا دار الخلافة اضطر الخليفة المتقي إلى الهرب منها وسار مع فريق من جيشه إلى الموصل، فقبض بها ما يقرب من أربعة أشهر، ثم عاد إلى بغداد في شوال سنة ٣٣٠ هـ، وعلا منذ ذلك الوقت شأن بني حمدان، فخلع المتقي على الحسن بن عبد الله ولقبه ناصر الدولة كما خلع على أخيه على بن عبد الله ولقبه سيف الدولة (مسكويه: تحارب الأمم، ج ٢، ص ٢٨).

سيف الدولة على الخلاف القائم بين الكلابيين وأيقن من عجز أبي الفتح وإلى حلب عن مقاومته، سار في جيشه الصغير قاصداً حلب، فقابله إخوة أبي الفتح الكلابي عند نهر الفرات وأعلنوا ولاءهم له، كما أن أبا الفتح نفسه ما لبث أن لقي سيف الدولة ودخل في طاعته^(١)؛ وبذلك تيسر لسيف الدولة الاستيلاء على حلب وأصبح أميراً عليها منذ سنة ٣٣٣هـ، وبدأ عمله بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستكفي ولأخيه ناصر الدولة ولنفسه.

لما وصل إلى محمد بن طغج الإخشيد نبأ دخول سيف الدولة حلب وإقامته الخطبة للخليفة العباسي، كتب إلى الخليفة بذلك، فأرسل إليه وإلى ابنه أونوجور خلعةً دليلاً على تأييده له. على أن سيف الدولة ما لبث أن كشف عن نواياه بعد أن استقرت له الأمور في حلب، فسار إلى حمص يريد دمشق ولما بلغ الإخشيد أن سيف الدولة عزم على بسط سلطانه على دمشق، أرسل إلى الشام جيشاً التقى بسيف الدولة عند بلدة الرستن^(٢)، فكان النصر حليف الحمدانيين، وتقهقر الجيش الإخشيدى إلى دمشق، ثم خرج منها قاصداً الرملة في طريق عودته إلى مصر، وسار سيف الدولة في أثر الجند المصريين يريد دمشق، وكتب إلى أهلها كتاباً، قرئ على منبر المسجد الأموي^(٣). وقد تضمن هذا الكتاب حرصه على صيانة أرواحهم والمحافظة على أموالهم.

استقر رأي محمد بن طغج الإخشيد بعد أن وصلت نسخة من كتاب سيف الدولة على أن يسير بنفسه لمحاربته، فاستخلف على مصر ابنه أونوجور وسار على رأس جيش كبير إلى دمشق، والتقى الفريقان في قنسرين، وكان النصر في البداية حليف سيف الدولة، غير أن هذا النصر ما لبث أن انقلب إلى هزيمة، فدخل الإخشيد حلب حاضرة الحمدانيين واسترد دمشق.

وعلى الرغم من انتصار الإخشيد، فإنه رأى أن يصلح الحمدانيين، وتم الصلح بين الأميرين في ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ، على أن يكون لسيف الدولة

(١) ابن العديم الحلبي، ربة الحلب في تاريخ حلب، ص ٣٦٥ - ٣٦٧.

(٢) تقع على نهر العاصي الذي يمر بالقرب من حماه.

(٣) ابن سعيد: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٤١ - ٤٢، سيده كاشف: مصر في عصر الإخشيديين. ص ٣٥٠.

حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً، وأن يكون للإخشيد دمشق وأعمالها، كما تضمن الصلح أن يدفع الإخشيد لسيف الدولة جزية سنوية^(١).

ومن المرجح أن الإخشيد سعى إلى عقد الصلح مع سيف الدولة لأنه كان يعتقد أن انتصاره عليه لم يكن حاسماً وأن الحرب بينهما ستظل قائمة إلى أن يتم النصر لسيف الدولة، كما أنه كان على يقين من أن النزاع بينه وبين الحمدانيين على الشام سينتهي بانتصارهم عليه، لأن هذا الإقليم يعد المجال الحيوى لاتساع سلطانهم، وفضلاً عن ذلك فإن الإخشيد كان يرمى من إبرام الصلح مع سيف الدولة على هذه الصورة أن يبقى الدولة الحمدانية حصناً منيعاً بينه وبين البيزنطيين يكفيه مؤونة التعرض لهجومهم من وقت لآخر^(٢).

لما خلت دمشق من حامية قوية ترد غارة الحمدانيين على أثر وفاة محمد بن طنج الإخشيد وعودة جنده من الشام إلى مصر، انتهز هذه الفرصة سيف الدولة الحمداني واتجه إليها بجيشه، فسقطت في يده بعد أن استسلم إليه حاكمها الإخشيدى، ولم يكتف بذلك، بل عمد إلى مطالبة أهلها بودائع الإخشيد، فكاتبوا كافوراً يستدعونه من مصر، فجاءهم بصحبة سيده أونوجور^(٣)، ثم دار القتال بين الفريقين، فكان النصر لحليف المصريين وتفهم سيف الدولة إلى دمشق فحصر حيث أعاد تنظيم صفوفه، وجمع جيشاً كبيراً من الأعراب هاجم به الجنود المصريين شمالى دمشق؛ فلحقت به الهزيمة وطارده الإخشيديون إلى حلب، فهرب إلى الرقة، ثم بدأت المفاوضات بين الحمدانيين والإخشيديين، وانتهت إلى عقد معاهدة الصلح بنفس الشروط التي كانت بين محمد الإخشيد وسيف الدولة^(٤) ما عدا الجزية، فإن الإخشيديين لم يقبلوا دفعها^(٥) وكان من نتائج هذا الصلح أن ساد الصفاء بين الحمدانيين والإخشيديين^(٦).

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٢٧٨، ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ج ٣ ص ٢١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٨ ص ١٥١، ابن العديم: ردة الحلب فى تاريخ حلب، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٣٩١ - ٣٩٢.

(٥) ابن العديم: ردة الحلب فى تاريخ حلب، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٦) سيده كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٥٤.

لم يكن الحمدانيون هم الذين حاولوا وحدهم إضعاف نفوذ الإخشيديين في بلاد الشام، بل تعرضت هذه البلاد أيضاً لغارات قرامطة بلاد البحرين^(١)، فقامت في عهد أميرهم أحمد بن أبي سعيد (٣٣٣-٣٥٩هـ) حملتان لغزو بلاد الشام: الأولى في سنة ٣٥٣هـ^(٢) وتعرف بحملة طبرية، وقد تمكنت هذه الحملة بمعاونة الحمدانيين من إحراز النصر على الحسن بن عبيد الله بن طنج الإخشيد الذي كان يلي هذه البلاد من قبل الإخشيديين^(٣). أما الحملة الثانية، فأغارت على بلاد الشام سنة ٣٥٧هـ وعجز الإخشيدون عن صدها، فسقطت الرملة في أيدي القرامطة، واضطر الحسن بن عبيد الله بن طنج الإخشيد إلى الاتفاق معهم على أن يدفع لهم ثلاثمائة ألف دينار كل سنة^(٤)، وبذلك امتد نفوذ دولة القرامطة إلى بلاد الشام في أواخر عهد الإخشيديين.

(١) أسس أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي دولة القرامطة ببلاد البحرين سنة ٢٨٦. وقد استطاعت هذه الدولة أن تبسط نفوذها على كثير من أرجاء جزيرة العرب، كما قامت بها حكومة ملكية وراثية في بيت أبي سعيد (راجع كتاب النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب للمؤلف، ص ٢١ - ٣٩).

(٢) المقرئى؛ مخطوط، ج ١ ص ٣٢٩.

(٣) حسن إبراهيم، طه شرف: كتاب المعز لدين الله الفاطمي، ص ١٠٠.

(٤) المقرئى: اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الخلفاء، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

١ - الفتح الفاطمي لبلاد الشام

حرص الفاطميون منذ أقاموا خلافتهم في بلاد المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة الإسلام منها؛ فأُسند المعز لدين الله الفاطمي إلى قائده جوهر الصقلي قيادة الحملة التي أرسلها إلى مصر سنة ٣٥٨هـ وقد تكلفت مجهودات جوهر الصقلي في فتح مصر بالنجاح، فأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي على منابرها بدلا من الخليفة العباسي، وأصبحت القاهرة بعد أن اتخذها المعز لدين الله حاضرة لخلافته سنة ٣٦٣ مركزاً للدعوة الشيعية التي ظل العباسيون يقاومونها زهاء قرنين.

كانت الضرورة السياسية والحربية تقضي على الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يولوا وجوههم شطر الشام. ولم تخف عن جوهر الصقلي تلك الحقيقة، فعمل على فتح هذه البلاد رغبة في تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي والوقوف في وجه الروم والقرامطة.

وقد تضمن كتاب الأمان الذي أعلنه جوهر للمصريين (في شعبان سنة ٣٥٨هـ) إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين اجتاحت بلاد الشام وأوقعوا الهزيمة بقوات الإخشيديين سنة ٣٥٧هـ، وأخذوا يهددون مصر؛ فجاء فيه^(١) : «وهو أنه - صلوات الله عليه - لم يكن إخراج العساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم». كما ورد في هذا الأمان أيضاً: «ولكم على أمان الله التام العام، الدائم المتصل الشامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيام وكروار الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهلكم... وعلى أن لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنى عليكم متجن، ولا يتعقب عليكم متعقب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويذب عنكم ويمنع منكم، فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم».

لما تم لجوهر الصقلي فتح مصر وأيقن أن النفوذ الفاطمي قد توطد فيها، أرسل حملة إلى فلسطين أسند قيادتها إلى جعفر بن فلاح الكتامي في أواخر سنة ٣٥٩هـ^(٢)، فرأى الإخشيدون في الشام بعد أن وصلت إليهم أنباء هذه الحملة أن

(١) المقرئى: اتعاظ الحنفاء، ص ١٤٨، ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) المقرئى: اتعاظ الحنفاء، ص ١٦٨ .

يعدوا أنفسهم لصدها، فخرج الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد- الذى كان يلى بلاد الشام إذ ذاك- من مدينة دمشق قاصداً الرملة واستخلف شمولاً الأخشيدى على دمشق؛ على أن هذا الوالى لم يكن مخلصاً للحسن بن عبيد الله، فتقاعد عن نصرته.

لما وصل جعفر بن فلاح إلى الرملة، دعا ولاة الشام إلى طاعة المعز لدين الله الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب، فأجاب دعوته فريق منهم. أما الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد، فإنه استنجد بعماله على دمشق وطبرية فلم يسارع أحد منهم إلى نجاته، وانتهت الحرب التى دارت بين جعفر بن فلاح والحسن بن عبيد الله فى الرملة بهزيمة الحسن وأسره مع كثير من جنده^(١)؛ ثم سيق إلى الفسطاط حيث أرسل إلى بلاد المغرب؛ فظل بها حتى توفى سنة ٣٧١ هـ فى خلافة العزيز بالله.

استأنف جعفر بن فلاح السير إلى طبرية بعد انتصاره فى الرملة فبنى قصرًا على الجسر الذى يشرف على المدينة ليحارب فاتك - غلام ملهم - وكان يلى أمورها من قبل كافور الإخشيدى، فخافه كل من فاتك وملهم ولم يتعرضا له؛ وبذلك تيسر لجعفر دخول طبرية دون أن يلقى مقاومة تذكر من أهلها.

لما وصل إلى أهل دمشق نبأ استيلاء جعفر على طبرية خشوا بأسه، وأرسلوا إليه جماعة من كبار رجالهم، يطلبون الأمان، لكنه لم يحسن استقبالهم، فعادوا إلى دمشق، ودارت رحى الحرب بين جنود جعفر وأهالى هذه المدينة فى أواخر سنة ٣٥٩ هـ. وعلى الرغم من أن أهالى دمشق استطاعوا بمعاونة جند الإخشيديين الوقوف بضعة أيام فى وجه جعفر بن فلاح وجنده من المغاربة والقبائل العربية بالشام التى انضمت إليه، فإن الهزيمة لحقت بهم واستولى جعفر على دمشق^(٢).

لما رأى أهالى دمشق ما حل بجندهم من الهزيمة وعجزهم عن الوقوف فى وجه الفاطميين، ندبوا بعض رجالاتهم لمقابلة جعفر، وطلبوا إليه إصلاح حال مدينتهم، وإعادتها إلى ما كانت عليه، فقبض عليهم بعض جنده من المغاربة وسلبوهم ثيابهم، وكان لهذا العمل أسوأ الأثر فى نفوس أهالى دمشق.

(١) المقرئى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧١، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسى ج٣ ص ٢٥٤.

(٢) المقرئى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧٣ - ١٧٥.

على أن جعفر لم يلبث أن أخذ هذه الفتنة واضطر أهالي دمشق إلى مقابلته لطلب الأمان، وما زالوا يتضرعون إليه حتى قال: ما أعفو عنكم حتى تخرجوا إلى ومعكم نساؤكم مكتسوفات الشعور، فيتمرغن في التراب بين يدي لطلب العفو»، قالوا له: «نفعل ما يقول القائد»، وأخذوا يلحون عليه بالرجاء لعله يعفو عنهم. فهدأت ثائرته وانبسط معهم في الكلام، واستقر الرأي بينه وبينهم على أن يصلي هو ورجاله يوم الجمعة في مسجد دمشق، فدخل المسجد هو وأصحابه، وأقيمت في هذا اليوم الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله، وحذف اسم الخليفة العباسي المطيع. وكان ذلك في المحرم سنة ٣٦٠هـ^(١).

لم تكد تستقر الأمور في دمشق حتى عاد جند جعفر إلى السبعث بالنظام فانتهكوا حرمة بعض المنازل وسلبوا ما فيها. وكان ذلك مما حمل أهل دمشق على مقاتلتهم، واضطر شيوخ هذه المدينة إلى مقابلة جعفر لطلب الأمان من جديد، فقال لهم: «دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلتموهم»، ثم هددهم باستعمال العنف، فأخذوا يهدثون من روعه حتى وعدهم بالعفو إذا دفعوا دية من من قتل من جنوده، فأجابوه إلى طلبه وقدموا له الأموال الكثيرة.

لما رأي جعفر بن فلاح أنه لن يستطيع توطيد سلطان الفاطميين في دمشق إلا بالقضاء على زعماء الفتنة من أهلها، أرسل جنده في طلبهم، وعندما تمكنوا من القبض عليهم، أمر جعفر بضرب أعناقهم. وكان من بينهم إسحق بن عسودا، ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبي يعلى العباسي ومحمد بن عسودا. وقد حاول ابن أبي يعلى الهرب من بغداد، فقبض عليه عند تدمر، وسيق إلى جعفر ابن فلاح حيث شهر به ثم أرسل إلى مصر. أما محمد بن عسودا وظالم بن موهوب العقيلي والي حوران من قبل الإخشيديين فلحقا بالقرامطة في الأحساء^(٢).

على الرغم من أن جعفر بن فلاح حالفه النصر في بلاد الشام، فإن سياسة العنف التي اتبعها في دمشق وإساءة جنده معاملة الأهليين. واستهتارهم بأرواحهم، أثارت سخط الناس عليه، فدبر أهل دمشق المؤمرات لإقصاء هذا القائد والقضاء عليه والتخلص من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم في المذهب الديني.

(١) المقرئزي: اتعاظ الخفاء، ص ١٧٦.

(٢) المقرئزي: اتعاظ الخفاء، ص ١٧٦ - ١٧٧.

لم يؤد استيلاء قوات جعفر بن فلاح على دمشق إلى بسط سلطان الفاطميين على جميع أرجاء بلاد الشام. فكان هناك الحمدانيون في حلب - وقد لجأ إليهم كثير من أنصار الإخشيديين - كما أن الروم كانوا يهددون من حين لآخر المدن الشمالية والساحلية ببلاد الشام، كذلك كان لقرامطة بلاد البحرين بعض النفوذ في هذه البلاد منذ أغاروا عليها سنة ٣٥٧ هـ.

على أن الحمدانيين لم يكونوا في ذلك الوقت من القوة بحيث يستطيعون مناوأة الفاطميين والوقوف في وجههم، فقد أخذت دولتهم في الضعف منذ وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ^(١). أما الروم. فقد تكفل الحمدانيون في النصف الأول من القرن الرابع الهجري بصد غاراتهم، ولولا الجهود التي بذلوها في هذا السبيل لاستولوا على بلاد الشام في غفلة العباسيين.

ولما اعتلى نقفور فوكاس (Nicephorus Phocas) عرش الدولة البيزنطية (٩٦٣ - ٩٦٩م) تقدم الروم إلى حدود سوريا الشمالية، فاستولى جيشه سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) على أنطاكية التي كان يطمح إليها منذ زمن طويل لأنها كانت مدينة البطارقة والقدسين. لذلك اعتبرت منافسة لبيزنطة من الناحية الدينية. وبعد احتلال أنطاكية بمدة وجيزة حاصر قائد نقفور مدينة حلب واضطر قرعويه الذي كان إذ ذاك قد ثار على سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني إلى عقد صلح مهين مع البيزنطيين^(١) سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م).

رأي جعفر بن فلاح بعد أن استقرت له الأمور ببلاد الشام، أن استيلاء الروم على أنطاكية يهدد الحكم الفاطمي في هذه البلاد، ومن ثم أخذ في تجهيز جيش كبير ضم إليه جنوداً من أعمال دمشق وفلسطين؛ وصار يرسل الحملة بعد الحملة إلى أنطاكية لإجلاء الروم عنها، لكن هذه الحملات منيت بالفشل^(٢).

كذلك واجه جعفر بن فلاح خطر قرامطة بلاد البحرين الذي يعد من أشد الأخطار التي هددت الحكم الفاطمي في بلاد الشام. وكان هؤلاء القرامطة يرمون

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص ٢١٣.

(٢) Hitti. History of the Arabs p. 460.

(٣) المقرئ: اتعاظ الخنفا، ص ١٧٧ - ١٧٨.

إلى بسط نفوذهم على هذه البلاد، وتجلت أطماعهم فيها فى عهد أميرهم أحمد ابن أبى سعيد حيث فرضوا منذ سنة ٣٥٧ هـ على الإخشيديين الذين كانوا يلون بعض مدن الشام إتاوة يؤدونها إلى حكومتهم كل سنة^(١). وإذا أمعنا النظر فى الظروف التى فرضت فيها هذه الإتاوة لاتضح لنا مدى حرص القرامطة على الاحتفاظ بسيادتهم على بلاد الشام.

(١) المقرئى. اتعاظ الحنفاء، ص ٢٤٧ .

٣- الصعوبات التي واجهت الفاطميين في بلاد الشام

من ناحيتي القرامطة وأفتكين التركى

(أ) قرامطة بلاد البحرين : بدأ النزاع بين قرامطة بلاد البحرين والفاطميين منذ استولى الجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق، فقد طالب الحسن ابن أحمد بن أبى سعيد الملقب بالأعصم الذى ولى إمارة القرامطة سنة ٢٥٩هـ بالإتاوة التى كان يدفعها الإخشيدون لحكومته . لكن جعفر بن فلاح رفض أداء هذه الإتاوة إليه^(١). وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر فى نفس الحسن بن أحمد الذى رأى أن سيادة دولته قد قضى عليها الفاطميون، هذا بالإضافة إلى حرمان حكومته من ضريبة كبيرة كانت تؤدى إليها؛ ومن ثم بدأ يناصبهم العداء، واتبع سياسة جديدة لإزاء الفاطميين تخالف سياسة من سبقه من أمراء القرامطة.

استقر رأى الحسن بن أحمد على أن يعد نفسه لمحاربة القوات الفاطمية ببلاد الشام وإجلائها عن هذه البلاد، فبعث إلى المطيع العباسى وعز الدولة بختيار أمير بنى بويه فى العراق سنة ٣٦٠هـ، يطلب منهما أن يمداه بالمال والرجال ليتسنى له استرداد بلاد الشام ومصر من الفاطميين على أن يتولى حكم هذه البلاد من قبل العباسيين^(٢).

ولما كان البويهيون يستأثرون إذ ذاك بالسلطة فى بغداد دون الخليفة العباسى، لذلك رأوا فى امتداد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الشام ما يعرض سلطانهم فى العراق للضعف والزوال، ومن ثم رحب عز الدولة بختيار بمد القرامطة بالسلح والمال لمعاونتهم على الوقوف فى وجه الفاطميين، فأرسل إليهم - كما قال ابن القلانسي^(٣) - «ألف ألف درهم، وألف جوشن، وألف سيف، وألف رمح، وألف قوس، وألف جعبة، وقال: إذا وصل الحسن أبو على الجنابى إلى الكوفة حمل إليه جميع ذلك».

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٤ ص ٩٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٤ ص ٧٤.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ١.

كذلك طلب عز الدولة بختيار إلى الحمدانيين بالموصل إمداد الحسن بن أحمد زعيم القرامطة بالأموال؛ فلقى هذا الطلب قبولا منهم رغبة في وقف الزحف الفاطمي. وبلغ من اهتمام عز الدولة بختيار بمد يد المساعدة إلى القرامطة أن أرسل إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان، يطلب منه أن يؤدي إلى الحسن بن أحمد مبلغا قدره أربعمئة ألف درهم. وفي ذلك يقول النويري^(١): «وكتب له على أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمئة ألف درهم، فرحل الحسن (ابن أحمد) من الكوفة حتى أتى الرحبة، وعليها أبو تغلب بن حمدان، فحمل إليه المال المسبب له، وحمل إليه العلوفة».

لم تقتصر معاونة أبي تغلب بن ناصر الدولة للحسن بن أحمد على مده بالأموال، بل أمدّه أيضا بقوة من الرجال قوامها الإخشيدية الذين وفدوا إليه فرارا مما لحق بهم في مصر وفلسطين على يد جند الفاطميين من المغاربة^(٢). وكان لانضواء فريق من العقيليين بزعامة ظالم بن موهوب تحت لواء الحسن بن أحمد أثر كبير في ازدياد قواته وإحرازه النصر على خصمه^(٣).

لما أتم الحسن بن أحمد إعداد جيشه، وسار متجها إلى دمشق سنة ٢٦٠هـ ليقضى على نفوذ الفاطميين في بلاد الشام، وكان جنوده يحملون الأعلام السود وقد كتب عليها اسم المطيع عبد الكريم، وتحت «السادة الراجعون إلى الحق»^(٤) مما يثبت لنا انحياز القرامطة إلى العباسيين وانصرافهم عن الدعوة الإسماعيلية التي كانت من أهم دعائم دولتهم في بلاد البحرين.

أما جعفر بن فلاح فإنه بعث في طلب الحملة التي أرسلها إلى أنطاكية لإجلاء الروم عنها^(٥)، وأخذ في التآهب لصد قوات الحسن بن أحمد، لكنه رغم ذلك لم يكن يتوقع أن يهاجمه القرامطة بقوات ضخمة، وسرعان ما اشتبكت هذه القوات مع جعفر بن فلاح في ناحية الدكة على مقربة من دمشق، حيث دارت

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣، ورقة ٩٠.

(٢) المقرئى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧٨.

(٣) حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب المعز لدين الله، ص ١٠٩.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٧٤.

(٥) المقرئى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧٨.

معركة انتهى الأمر فيها بهزيمة جعفر وقتله هو وكثير من أتباعه سنة ٣٦٠هـ. وبذلك تمكن الحسن بن أحمد من الاستيلاء على دمشق.

على أن هذه الهزيمة التي حلت بالجيش الفاطمي في بلاد الشام، ترجع على الأغلب إلى عدم إعداد جعفر بن فلاح القوات الكافية لصد القرامطة الذين عولوا على غزو هذه البلاد لاستعادة سلطانهم عليها. وكان يحسن بجعفر بن فلاح أن يبعث إلى جوهر الصقلي في مصر ليرسل إليه نجدة تعاونه في توطيد الحكم الفاطمي ببلاد الشام. يقول المقرئى^(١): «فلما صارت الشام له (لجعفر بن فلاح) شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر، فأنفذ كتبه من دمشق إلى المعز وهو بالمغرب سرا من جوهر، يذكر فيها طاعته، ويقع في جوهر، ويصف ما فتح الله للمعز على يده، فغضب المعز لذلك، ورد كتبه كما هي مختومة. وكتب إليه: قد أخطأت الرأي لنفسك نحن قد أنفدناك مع قائدنا جوهر، فكتب إليه، فما وصل منك إلينا على يده قرأناه ولا تتجاوز بعد، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذي أردته، وإن كنت أهله عندنا، ولكننا نستفسد جوهرنا مع طاعته لنا. فزاد غضب جعفر بن فلاح، وانكشف ذلك لجوهر، فلم يبعث ابن فلاح لجوهر بشيء من أمره إلى أن قدم عليه الحسن بن أحمد القرمطي».

رأى الحسن بن أحمد بعد أن دخلت قواته بلاد الشام أن ينهج سياسة تنطوى على الرغبة في التودد إلى أهالي هذه البلاد واكتساب ولائهم، فأمن أهالي دمشق بعد أن تم له فتحها، كما أقام الدعوة في مساجدها للخليفة العباسي، وأمر بحذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة. وقد لقي عمله هذا ترحيبا من أهالي هذه المدينة، ويرجع السبب في ذلك إلى أنهم كانوا من السنيين المتطرفين في عداوتهم للشيعة والعلويين.

واصل الحسن بن أحمد سيره إلى الرملة بعد فتحه دمشق ليقتضى على ما بقى للفاطميين من سلطان ببلاد الشام، وكان يلي هذه المدينة سعادة بن حيان المغربي؛ فلما علم بمسير القرامطة إليها اضطر إلى الرحيل عنها والفرار إلى يافا فتمهد بذلك السبيل لدخولهم الرملة^(٢)، وأصبحت معظم بلاد الشام في يدهم،

(١) خطط، ج ١ ص ٣٧٨.

(٢) اتعاظ الحنفا، ص ١٧٩.

وأقيمت فيها الدعوة للخليفة العباسي، يقول المقرئزي: «وأقام القرامطة الدعوة للمطيع بالله العباسي في كل بلد فتحوه وسودوا أعلامهم، وأظهروا أنهم كأمرأ النواحي الذين من قبل الخليفة العباسي».

ولما تم للحسن بن أحمد الاستيلاء على كثير من مدن الشام، رحفت جيوشه إلى مصر في أواخر سنة ٣٦٠هـ، فهاجمت مدينة القلزم وتمكنت من دخولها وأسر واليها الإخشيدى عبد العزيز بن يوسف، ولم تلبث أن تابعت سيرها في الأراضي المصرية في أوائل سنة ٣٦١هـ، فاستولت على عين شمس، ثم تقدمت إلى القاهرة.

تأهب القائد الفاطمي جوهر الصقلي لصدد زحف القرامطة منذ أزمعوا المسير إلى مصر، فأعد جيشاً قوامه المغاربة والمصريون، كما حصن القاهرة بخندق عظيم حفره حولها^(١). فلما هدد القرامطة هذه المدينة في ربيع الأول سنة ٣٦١هـ، أبدى الجنود المصريون الذين انضموا إلى جيش جوهر شجاعة فائقة استرعت انتباه المؤرخين^(٢)، فتمكنوا من الوقوف في وجههم، وتقهقر الحسن بن أحمد بجندة ورحل إلى الأحساء^(٣)، وقد علق المقرئزي^(٤) على هذه الهزيمة التي حلت بالقرامطة بقوله: «ولم يتفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة، وفيها فارقه من كان قد اجتمع إليهم من الكافورية والإخشيدية، فقبض جوهر على نحو الألف منهم».

ظل القرامطة قوة يخشى بأسها رغم انسحاب قواتهم في مصر في ربيع الأول سنة ٣٦١هـ وقد انتهز جوهر الصقلي فرصة رحيل الحسن بن أحمد إلى الأحساء، فأنفذ جيشاً إلى يافا تمكن من إعادتها إلى حوزة الفاطميين. على أن الحسن بن أحمد ما لبث بعد عودته إلى دمشق أن وجه اهتمامه إلى استرداد نفوذه ببلاد الشام، ثم أخذ في التأهب للمسير إلى مصر، فأعد حملة بحرية أرسلها إلى تونس وسواحل مصر، كما جهز جيشاً ضم إليه عدداً كبيراً من العرب^(٥).

(١) المقرئزي: خطط، جـ ٢، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.107.

(٣) المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ص ٢٥.

(٤) خطط: جـ ١، ص ١٣٨.

(٥) المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ص ٢٥٠.

لما قدم المعز لدين الله الفاطمي من المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ واتخذ القاهرة حاضرة لخلافته، وجه سياسته إلى مناهضة نفوذ القرامطة حتى يتيسر له توطيد أركان دولته في مصر والشام، فرأى أن يبعث إلى الحسن بن أحمد بكتاب قبل أن يشتبك معه في الحرب لعله ينجح في إثارة الساخطين من القرامطة عليه، وحمله على العدول عن موقفه العدائي من الفاطميين.

وقد أشار المعز في هذا الكتاب^(١) إلى ما عرف عن القرامطة من حرص على التودد إلى الفاطميين، كما أخذ على الحسن بن أحمد شروجه على هذه السياسة التي اتبعها أسلافه من أمراء القرامطة ببلاد البحرين، فقال: «فأما أنت الغادر الخائن، الناكث البائن، عن هدى آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم أغفل أمرك، ولا خفي عني خبرك. أما كان لك بجذك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة؟. أما نظرت في كتبهم وأخبارهم، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائبا عن ديارهم وما كان من آثارهم؟ ألم تعلم أنهم كانوا عبادا لنا أولى بأس وعزم شديد وأمر رشيد وفعل حميد، يفيض إليهم موادنا، وينشر عليهم بركاتنا، حتى ظهرنا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة فسادوا، منحة منا واسما من أسمائنا، فعلت أسماؤهم واستعلت هممهم، واشتد عزمهم، فسارت إليهم وفود الآفاق وامتدت نحوهم الأحداق، وخضعت لهيبتهم الأعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وأن يكونوا لبني العباس أضداد؟ فبعثت الجيوش وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتخبة، والعدد المهذبة، والعساكر الموكبة، فلم يلقيهم جيش إلا كسروه، ولا رئيس إلا أسروه، ولا عسكر إلا كسروه، وألحظنا ترمقهم، ونصرنا يلحقهم، كما قال الله عز وجل (إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا)، (وإن جندنا لهم الغالبون)، (وإن حزبنا لهم المنصورون).

«فلم يزل ذلك دأبهم، وعين الله ترمقهم، إلى أن اختار لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول، فعاشوا محمودين، وانتقلوا مفقودين، إلى روح وريحان وجنات النعيم، فطوبى لهم وحسن مآب».

(١) المقرئى: اتعاظ الحنفا، ص ٢٥٨ - ٢٦٥.

وقد وضع المعز أيضا فى كتابه مدى انتشار الدعوة الفاطمية فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى، وعاب على الحسن بن أحمد انصرافه عنها؛ فقال «ومع هذا، فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، وبأخذون بيعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن، وفى كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون، وعنهم يأخذون؛ وهو قول الله عز وجل: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم). وأنت عارف بذلك، فى أيها الناكث الحانث ما الذى أرداك وصدك؟ أشىء شككت فيه، أم أمر استربت به، أم كنت خليا من الحكمة، وخارجا عن الكلمة، فأزالك وصدك، وعن السبيل ردك؟. إن هى إلا فتنة لكم ومتماع إلى حين. وأيم الله لقد كان الأعلى لجدك، والأرفع لقدرك، والأفضل لمجدك، والأوسع لوفدك، والأنضر لعودك، والأحسن لعذرک، الكشف عن أحوال سلفك. وإن خفيت عليك، والقفو لأثارهم، وإن عميت لديك، لتجرى على سننهم وتدخل فى زمهرهم، وتسلك فى مذهبهم».

كذلك أظهر المعز فى كتابه استيائه من إقامة الحسن بن أحمد الدعوة لبنى العباس، مع ما أصابها من وهن وضعف. فقال: «.. لم تقنع فى انتكاسك، وترديتك فى ارتكاسك، وارتباكك وانعكاسك، من خلافك الآباء ومشيك القهقرى، والنكوص على الأعقاب، والتسمى بالألقاب. بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، وعصيانك مولاك، وجحدك ولاءك، حتى انقلبت على الأدبار، وتحملت عظيم الأوزار، لتقيم دعوة قد درست، ودولة قد طمست. إنك لمن الغابرين، وإنك لفى ضلال مبين. أم تريد أن ترد القرون السالفة، والأشخاص الغابرة. أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس، وآخر المتاريس فى الناس، أم تراهم (كأنهم أعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية) ختم والله الحساب. وطوى الكتاب. وعاد الأمر إلى أهله. والزمان إلى أوله. وأرفت الأزفة، ووقعت الواقعة، وقرعت القارعة، وطلعت الشمس من مغربها، والآية من وطنها. وجىء بالملائكة والنبيين، وخسر هنالك المبطلون، هنالك الولاية لله الحق. والملك لله الواحد القهار، فله الأمر من قبل ومن بعد».

لم يفت المعز في كتابه أن يلوم الحسن بن أحمد على حشده القوات لغزو بلاد الشام، وقتله جعفر بن فلاح قائد الجيش الفاطمي وكثيرا من جنده. كما عدد له الأحداث التي ارتكبها أثناء هجومه على هذه البلاد من استباحته الأموال وسببه النساء. فقال: «ثم لم يكفك ذلك - مع بلاتك وطول شقائك - حتى جمعت أرجاسك والمجاسك، وحشدت أوباشك وأفلاسك^(١)، وسرت قاصدا إلى دمشق وبها جعفر بن فلاح في فئة قليلة من كتامة وزويلة، فقتلته وقتلتهم جرأة على الله وردا لأمره - واستبحت أموالهم، وسبيت نساءهم وليس بينك ولا بينهم ترة ولا ثار، ولا حقد ولا أضرار، فعل بنى الأصفر والترك والخزر. ثم سرت أمامك ولم ترجع، وأقمت على كفرك ولم تقلع، حتى أتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان في زمرة قليلة وفرقة يسيرة، فاعتزل عنك إلى يافا، مستكفيا شرك، وتاركا حريك. فلم تزل ماكثا على نكثك باكرا وصابحا. وغاديا ورائحا. تقعد لهم بكل مقعد، وتأخذ عليهم بكل مرصد، وتقصدهم بكل مقصد، كأنهم ترك وروم وخزر. لا ينهاك عن سفك الدماء دين ولا يردعك عهد ولا يقين».

وفي نهاية الكتاب عرض المعز على الحسن بن أحمد ثلاث خصال ليختار منها واحدة يعمل على تحقيقها، وهدده بسوء العاقبة. فقال: «ونحن معرضون ثلاث خصال والرابعة أردى لك. وأشقى لبالك. وما أحسبك تحصل إلا عليها - فاختر: إما قدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجال سعادة بن حيان. ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير - وهى أسهل ما يرد عليك - وإما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم - ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار - وإما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت، وأجريك على إحدى ثلاث: إما قصاص، وإما منا بعد، وإما فداء؛ فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك وإقالة لعثرتك؛ وإن أبيت إلا فعل اللعين: (فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين). اخرج منها فما يكون لك أن تنكب فيها، وقيل اخسثوا فيها ولا تكلمون، فما أنت إلا كشجرة

(١) ما خرج من الحلق وملا الفم (حاشية رقم ٣، ص ٣١٤ - كتاب المعز لدين الله).

خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. فلا سماء تظلك ولا أرض تقلك، ولا ليل يجنك، ولا نهار يكنك، ولا علم يسترک ولا فئة تنصرک».

لم يعدل الحسن بن أحمد - بعد أن وصله كتاب المعز - عن سياسته التي تنطوى على مناهضة النفوذ الفاطمي، بل أظهر عدم اكتراثه بتهديد المعز له، وأساء في رده؛ فكتب إليه: «وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على أثره، السلام»^(١). ثم رحف إلى مصر سنة ٣٦٣هـ (٩٧٤م) وتوغلت جنوده في الأراضي المصرية، كما تقدمت القوة الرئيسية نحو القاهرة وعسكرت بالقرب من الخندق الذي حفره جوهر، ولما علم المعز نبأ وصوله هاله كثرة قواته، فأشار عليه أهل الرأي من نصحاؤه بالسعى في تفريق كلمتهم، فعمد إلى استمالة حسان بن الجراح الطائي رئيس جند العرب الذين يعدون أقوى عناصر جيش الحسن بن أحمد. واتفق معه على أن يدفع إليه مائة ألف دينار على أن يتظاهر بالهزيمة أمام جند الفاطميين^(٢). وكان هذا المبلغ كافيا لحمل بنى طيئ على الانصراف عن حليفهم الحسن بن أحمد؛ فلما دارت الحرب بين الفريقين، تقهقر حسان بن الجراح أمام قوات المعز، فأدى ذلك إلى هزيمة الحسن بن أحمد وارتداده إلى الشام^(٣)؛ وأسر الفاطميون نحو ألف وخمسمائة من القرامطة.

وقد رأى المعز رغم نجاح قواته في صد هجمات القرامطة عن مصر أن ينفذ حملته بقيادة أبى محمود بن جعفر بن فلاح لمطاردة جيش القرامطة في الشام، حتى لا يعاود المسير إلى مصر؛ فلحققت بهم في أذرع^(٤). أما الحسن بن أحمد فإنه بعد أن وصل إلى دمشق، ترك بها أبا المنجا القرمطي واليا عليها من قبله ورحل مع بعض رجاله إلى الأحساء^(٥).

اتجهت سياسة المعز بعد أن عجز الحسن بن أحمد عن الاستيلاء على مدينة القاهرة للمرة الثانية واضطراره إلى التقهقر بجيشه إلى القضاء على ما بقى

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢١١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢١١.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٣، ورقة ٩٧.

(٤) أذرع: مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢١١.

للقرامطة من نفوذ ببلاد الشام؛ وتحقيقاً لهذا الغرض، رأى أن يستعين ببني الجراح من بني طيئ على استرداد هذه البلاد، كما قرب إليه ظالم بن موهوب العقيلي بعد انصرافه عن تأييد الحسن بن أحمد، وأسند إليه ولاية دمشق (رمضان سنة ٣٦٣هـ)؛ فقبض على واليها أبي المنجا القرمطي وعلى كثير من أتباعه القرامطة، وبذلك تم استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام^(١).

لم تستقر الأمور في دمشق بتقلد ظالم بن موهوب العقيلي ولايتها؛ فقد أرسل المعز جيشاً من المغاربة بقيادة أبي محمود بن جعفر ليعاونه في المحافظة على الأمن، ولصد القرامطة إذا ما حاولوا العودة إلى بلاد الشام، ولكن هؤلاء المغاربة ما لبثوا أن انصرفوا إلى العبث والفساد وقطع الطريق مما أدى إلى تدمير أهالي دمشق واشتباكهم مع جند الفاطميين في بعض المعارك. ولا شك أن هذه الأحداث تعد من أكبر الصعاب التي واجهت ظالم بن موهوب، فاضطر إلى الخروج بنفسه لإخماد حركات المغاربة. يقول ابن القلانسي^(٢): «فلما شاهد (ظالم بن موهوب) انهزام الناس والمغاربة في أثرهم، استدعى رمحه وعبر الجسر ومعه فرقة من أصحابه وحمل على أوائل المغاربة، فردهم عن أحداث البلد». على أن ظالم بن موهوب لم يحظ برضاء أى فريق من الفريقين المتنازعين بدمشق، وما لبث أن عزل في ربيع الآخر سنة ٣٦٤هـ وخلفه جيش بن الصمصامة الذى اشترك مع ابن أخته القائد أبى محمود بن جعفر في إدارة أمور دمشق^(٣).

لم تتمتع دمشق طويلاً بالهدوء مما ساعد على عدم استقرار الحكم الفاطمى فيها، فقامت الفتنة من جديد بين أهالي هذه المدينة وجند المغاربة ونتج عنها إثارة الاضطراب بين الناس، وتخريب المنازل وإغلاق الطرق ووقف حركة البيع والشراء، كما توفى كثير من الفقراء على قارعة الطريق بسبب الجوع والبرد.

لما وصل إلى المعز لدين الله نبأ الاضطراب الذى حدث بدمشق، ثبت لديه أن هناك صعوبات تواجه حكمه في بلاد الشام، ومن ثم عول على إقرار النظام

(١) ابن خلدون: ج٤، ص ٩٠.

(٢) ذيل تاريخ دمشق: ص ١٠٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨ ص ٢١١ - ٢١٢.

فيها، فبعث في طلب ريان الخادم واليه على طرابلس وعهد إليه بدراسة الحالة في دمشق، وقمع الفتن التي ثارت بين أهالي هذه المدينة وبين جند المغاربة، كما قلده ولايتها بعد عزل القائد أبي محمود بن جعفر الذي سار في جماعة قليلة من العسكر إلى الرملة^(١). وقد بذل ريان الخادم جهده في تهدئة الحالة في دمشق والتوفيق بين أهلها وجند المغاربة.

(ب) حركة أفتكين التركي : أدت الاضطرابات التي سادت مدينة دمشق في أواخر عهد المعز إلى إضعاف الحكم الفاطمي فيها. وقد مهدت هذه الحالة السبيل لدخول فريق من الأتراك بزعامة أفتكين^(٢) بلاد الشام واستقرارهم بها. وبذلك واجه الفاطميون عنصرا جديدا لعب دورا هاما في مناهضة نفوذهم في هذه البلاد.

سار أفتكين التركي من بغداد قاصدا بلاد الشام مع فريق من جنده بعد انهزامه في المعركة التي دارت بين الأتراك والديلم، فخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلي من بعلبك ليحول دون تقدمه في هذه البلاد، وأرسل إلى القائد أبي محمود بن جعفر أمير دمشق يخبره بقدوم أفتكين التركي وأنه يزمع السير إلى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسي، وحذره منه؛ فأنفذ إليه جيشا ليعاونه في محاربته.

على أن أفتكين ما لبث أن استنجد بالحمدانيين في حلب، فأمدّه سعد الدولة أبو المعالي بن سيف الدولة الحمداني (٣٥٦ - ٣٧١هـ) بجند كثير، واستقبله في حمص بالخفاوة والتكريم؛ واضطر ظالم بن موهوب إلى العودة إلى بعلبك دون أن يشترك في حرب.

وقد انتهز بعض العناصر الثائرة بدمشق فرصة قدوم أفتكين إلى بلاد الشام، فبعثوا يستدعونه من حمص ووعدوه بمعاونته في إخراج الحامية الفاطمية في دمشق؛ كما أن شيوخ هذه المدينة وأشرفها رحبوا بقدوم أفتكين حين بلغهم أنه في

(١) ابن الأثير. ج ٨ ص ٢١٢.

(٢) بدأ أفتكين (أبو منصور التركي الشرابي) عهده في خدمة معز الدولة أحمد بن بويه، وما زال يترقى في المناصب حتى ولى قيادة جند الأتراك في بغداد في أيام عز الدولة بهختيار أمير بني بويه بالعراق (٣٥٦ - ٣٦٧هـ). المقرئ: خطط، ج ١، ص ٩.

طريقه إليها، وخرجوا لمقابلته، وطلبوا منه أن يتولى الحكم فى بلدهم لينقذهم من الفاطميين الذين يخالفونهم فى المذهب الدينى؛ فأظهر استعداداه لإجابة طلبهم؛ وتعهد له شيوخ دمشق بمعاونته وأن يكونوا فى طاعته. أما أفتكين فتعهد بحمايتهم وكف الأذى عنهم، ثم دخل دمشق فى شعبان سنة ٣٦٤هـ وأخرج منها واليها ريان الخادم، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسى الطائع فى الخطبة بدلا من المعز لدين الله الفاطمى^(١).

رأى أفتكين رغم نجاحه فى الاستيلاء على دمشق وقضائه على نفوذ الفاطميين فيها أن يستميل المعز لدين الله لاعتقاده أن قواته ستعاود الهجوم على بلاد الشام لتوطيد سلطانه عليها؛ فكتب إليه رسالة على سبيل التموية والالتقياد له والطاعة لأوامره؛ فبعث إليه المعز يدعو للحضور إليه ليخلع عليه ويقره على ولايته؛ لكن أفتكين لم يجبه إلى طلبه لعدم وثوقه بما وعد به^(٢)، خشية تعرضه لمكيدة يدبرها الخليفة الفاطمى، وخاصة أنه حارب ولاية الفاطميين فى حمص وانتصر عليهم، كما طرد واليهم على دمشق.

لم يكتف أفتكين باستيلائه على دمشق، بل رأى أن ييسط نفوذه على مدن الشام، فاتجه إلى صيدا حيث اشتبك مع واليها من قبل المعز فى معركة انتهى الأمر فيها بهزيمة هذا الوالى، ثم قصد عكا، ومنها توجه إلى طبرية وعاد إلى دمشق بعد تغلبه على قوات الفاطميين بهذه المدن.

لما فرغ العزيز بالله الفاطمى من توطيد سلطته بمصر بعد أن آلت إليه الخلافة فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ، وجه اهتمامه إلى استرداد بلاد الشام، واستشار وزيره يعقوب بن كلس فيما يفعل لتحقيق هذه الغاية. فأشار عليه بأن يعهد إلى جوهر الصقلى بقيادة جيش يزحف به إلى دمشق. فلما علم أفتكين بمسيره خشى من الأخطار التى قد تحدث بأهل دمشق من جراء هجوم الجيش الفاطمى على بلدهم. فاجتمع بهم وأظهر لهم استعداداه للرحيل عن دمشق حتى لا يلحقهم أى أذى بسببه. فأكدوا له حرصهم على التمسك ببقائه معهم بقولهم: «لا نمكنك من

(١) ابن الأثير: ج٨، ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢.

فراقنا ونحن نبذل الأموال فى هواك وننصرك»، فعدل أفتكين عن مغادرة دمشق وأعد العدة لمواجهة قوات الفاطميين؛ فلما وصل جوهر إلى دمشق على رأس هذه القوات فى ذى القعدة سنة ٣٦٥هـ، حاصر المدينة، وأبدى أفتكين شجاعة فائقة فى محاربهته؛ غير أن جند الفاطميين من المغاربة ظلوا فترة طويلة يحاصرون دمشق مما أدى إلى تدمير أهلها، فأشاروا على أفتكين بمكاتبة الحسن بن أحمد زعيم القرامطة ببلاد البحرين. فكتب إليه يستنجد، فسار إليه من الأحساء^(١).

رأى جوهر الصقلى بعد أن وصله خبر قدوم القرامطة أنه لا قبل له بمواجهة عدوين، لذلك اضطر إلى رفع الحصار عن دمشق وقصد الرملة؛ غير أنه لم يكد يصل إليها حتى سار فى أثره الحسن بن أحمد وأفتكين. وكان ذلك مما حمله على الرحيل إلى عسقلان. ولما اشتدت به الحال وندر وصول الأقوات والمؤن إليه، أرسل إلى أفتكين يطلب منه المهادنة، كما أبدى رغبته فى مقابلته، فرحب بلقائه. ولما اجتمع به جوهر قال له «قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة وأريق فى الدماء ونهبت الأموال ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى، وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والموافقة، وبذلت لك الرغائب فأبيت إلا القبول ممن يشب نار الفتنة، فراقب الله تعالى وراجع نفسك، وغلب رأيك على هوى غيرك» فأجابه أفتكين بقوله: «أنا والله واثق لك فى صحة رأى والمشورة منك، لكنى غير متمكن مما تدعوننى إليه بسبب القرمطى الذى أحوجتنى أنت إلى مداراته والقبول منه^(٢)».

ظل جوهر يلح على أفتكين فى طلب الصلح، حتى أجابه إلى طلبه على أن يؤدى إليه مالا معيناً، ويخرج من تحت سيفه ورمح الحسن بن أحمد، فمر جوهر من تحتهمما وهما معلقان على باب عسقلان وسار قاصدا القاهرة^(٣)، وهو على يقين من أنه قد تعرض للإهانة والمذلة بسبب هذا الصلح الذى سعى إليه مضطرا. وكان يأمل أن تتاح له الفرصة ليعود مرة ثانية إلى بلاد الشام فيقضى على أفتكين وحلفائه القرامطة.

(١) ابن الأثير: ج٧ ص ٢١٨.

(٢) ابن الأثير: ج٨، ص ٢١٨.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧، المقرئى خطط ج٢، ص ١٠.

لما وصل جوهر إلى مصر أوضح للخليفة العزيز حقيقة الحال في بلاد الشام وما أصاب سلطان الفاطميين فيها من ضعف وانحلال، فاستقر رأى الخليفة الفاطمي على الخروج بنفسه لاستعادة نفوذه على هذه البلاد، وسار على رأس جيش كبير، وجعل جوهر على مقدمته^(١).

أعد كل من أفتكين والحسن بن أحمد القرمطي العدة لمواجهة زحف الجيش الفاطمي على بلاد الشام، فحشدا جموعا كثيرة من العرب وغيرهم. وعادا إلى الرملة حيث دار القتال بين الفريقين في المحرم سنة ٣٦٧هـ. وقد شاهد العزيز في هذه الحرب من شجاعة أفتكين ما أعجبه، فأرسل إليه يدعوهُ إلى طاعته، ويَعِدُهُ بأن يقلده الولايات ويجعله مقدم عسكره ومستشاره في دولته، كما طلب منه أن يحضر لمقابلته، فقال أفتكين لرسول العزيز: «قل لأُمير المؤمنين لو قدّم هذا القول لسارعت وأطعت، وأما الآن فلا يمكن إلا ما ترى». ثم واصل السير لمحاربة الفاطميين، فأوقع العزيز الهزيمة بقواته، ومضى أفتكين هاربا، ثم سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك حيث عفا عنه الخليفة وعامله معاملة قوامها العطف والرعاية، وخصص له دارا لإقامته^(٢).

أما الحسن بن أحمد، فإنه سار منهزما إلى طبرية^(٣) حيث لحق به رسول العزيز الذي دعاه إلى مقابلة الخليفة ووعده بأنه سيكون موضع رعايته. فلم تلق هذه الدعوة قبولا منه^(٤) ثم رحل إلى الأحساء مع أنصاره من القرامطة بعد أن اتفق معه العزيز على أن يدفع له تعويضا سنويا قدره عشرون ألف دينار طيلة حياته^(٥).

وهكذا فشلت الحركة التي أثارها أفتكين التركي في بلاد الشام، كما زال نفوذ القرامطة في هذه البلاد واضطروا إلى الجلاء عنها، مما سهل على الفاطميين استعادة دمشق إلى حوزتهم.

(١) ابن الأثير: ج٨، ص ٢١٩.

(٢) المقرئ: حطط، ج٢، ص ١٠.

(٣) ابن خلدون: ج٤، ص ٩١.

(٤) ابن الأثير: ج٨، ص ٢١٩.

(٥) Gaston Wiet, Histoire de la Nation Egyptienne. Vol. 4. P. 181-182Æ

٣- موقف أمراء العرب بالشام من الفاطميين

(أ) بنو الجراح في فلسطين :

حاول بنو طيئ بفلسطين في أواخر القرن الرابع الهجري تكوين دولة لهم والاستقلال عن الخلافة الفاطمية، فثار بالرملة سنة ٣٨٨هـ زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح، فأرسل برجوان الوصى على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي إلى فلسطين حملة بقيادة جيش بن الصمصامة، فسار إلى الرملة واستولى عليها وأخضع ثوارها، وطارد مفرج بن الجراح وقواته حتى طلب الأمان والصلح، فعفا عنه وأمنه^(١)، ثم عادت الفتنة بفلسطين سنة ٤٠٠هـ عندما نقم الحاكم بأمر الله على آل المغربي بمصر، ففر الوزير أبو القاسم حسن على بن المغربي^(٢) إلى حسان ابن مفرج بن دغفل بن الجراح أمير طيئ بالرملة، وحسن له خلع طاعة الحاكم، فزحف حسان إلى الرملة واستولى عليها وقتل واليها من قبل الفاطميين وعاث فيها فسادا.

اتفق بنو الجراح سنة ٤٠١هـ على استدعاء أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة ليبايعوه بالخلافة^(٣)، فأوفدوا إليه الوزير أبا القاسم بن المغربي ليغريه بالخروج على الحاكم بأمر الله^(٤)، فلما قدم هذا الوزير مكة، أطمع أميرها أبا الفتوح في الرياسة وحرّضه على طلب الخلافة، كما حثه على الخروج إلى الرملة لإجابة لرجاء حسان بن مفرج بن الجراح الذى سيكون خير عون له على تثبيت سلطته، فرحب الأمير أبو الفتوح بهذه الدعوة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله، ثم سار من مكة قاصدا الرملة وبصحبه أبو القاسم بن المغربي وبعض أنصاره من القبائل العربية، فلما اقترب من الرملة تلقاه حسان بن مفرج بن الجراح وأولاده وسائر وجوه العرب بالترحاب وترجلوا له وبايعوه بالخلافة، ونزل أبو الفتوح في دار حسان ونادى في الناس بالأمان، وأقيمت له الخطبة في كثير من بلاد الشام^(٥).

(١) ابن الاثير: ج٩، ص٤١.

(٢) كان هذا الوزير ناقما على الحاكم بأمر الله لغيره بأبيه وأعمامه.

راجع: كتاب النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (للمؤلف)، ص١٧.

(٣) ابن خلدون: ج٤، ص٥٧.

(٤) المقرئى: خطط، ج٢، ص١٥٧، ٢٨٧.

(٥) عبد القادر الأنصارى: درر الفرائد المنظمة، ج١، ص١٠٧ - ٢٠٨.

لما وصل إلى الحاكم بأمر الله نبأ خروج أبي الفتوح أمير مكة عليه ومبايعة بني الجراح له بالخلافة، بعث حملة إلى فلسطين للقضاء على هذه الحركة؛ غير أن هذه الحملة حلت بها الهزيمة واستفحل نفوذ بني الجراح، وبسطوا سلطانهم على جنوب بلاد الشام؛ فعمد الخليفة الحاكم بأمر الله إلى استمالة حسان وأبيه مفرج وغيرهم من بني طيئ بالأموال التي بذلها لهم؛ فانحرف بنو الجراح عن الأمير أبي الفتوح بعد أن بايعوه بالخلافة. ولما أحس أبو الفتوح بخذلانهم إياه وعدولهم عن رأيهم في العمل على تقوية نفوذه، ذهب إلى مفرج بن الجراح وأخبره بانصراف أولاده عن تأييده. وقال له: «أريد أن تبعث معي من يوصلني إلى مكة ولا تخرجني». فبعث معه جماعة من بني طيئ؛ ولم يزلوا معه حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣ هـ، فتلقاه أتباعه، وكاتب الحاكم واعتذر إليه؛ فقبل عذره وعفا عنه، وأعادته إلى إمارته بمكة^(١). وعمل الأمير أبو الفتوح منذ عودته إلى مكة على إقامة الدعوة للحاكم بأمر الله، كما نقش اسمه على السكة^(٢).

ظل بنو الجراح متغلبيين على بعض نواحي جنوب بلاد الشام حتى سنة ٤٠٤ هـ. ولم يتوان الفاطميون عن قتالهم خلال تلك الفترة، فجهز الخليفة الحاكم العساكر إلى الشام بقيادة على بن جعفر بن فلاح، فقصد الرملة وهزم حسان بن مفرج وقومه الطائيين واستولى على أموالهم وذخائرهم ثم سار إلى دمشق، فاستولى عليها وتولى إمارتها^(٣).

ضعف شأن بني الجراح بفلسطين بعد الهزيمة التي حلت بهم في أواخر عهد الحاكم بأمر الله، واستعاد الفاطميون نفوذهم بهذا الإقليم، وظل الحال على ذلك حتى ولي الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة، فحاول حسان بن الجراح استرداد سلطانه بالرملة، وما لبث أن حشد جموعه وهاجمها ونهبها ولم تقف أطماعه عند هذا الحد بل عمل على الاستقلال بفلسطين، وتحقيقاً لهذه الغاية عقد اتفاقاً سنة ٤١٥ هـ مع صالح بن مرداس أمير بني كلاب وسنان بن عليان أمير الكليبيين

(١) ابن خلدون: ج٤، ص٤٧٣، عبد أقادر الأنصاري: درر الفرائد المنظمة، ص٢٠٨.

(٢) المقرئ: خطط، ج٢، ص٢٢٨.

راجع كتاب النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (للمؤلف) ص١٧ - ٢١.

(٣) ابن الأثير: ج١، ص٤٣، ابن خلدون، ج٤، ص٥٧.

يتضمن أن تتحد قواهم جميعا لإخراج الفاطميين من بلاد الشام وتقسيمها بينهم على أن يكون من حلب إلى عانة على نهر الفرات لصالح بن مرداس، ومن الرملة إلى حدود مصر لحسان أمير الطائيين، ودمشق وما يحيط بها لسنان بن عليان وعشيرته^(١). وقد أطلع هؤلاء الأمراء الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني على هذا الاتفاق وطلبوا معونته لكنه لم يجب طلبهم^(٢).

لما رأى الخليفة الظاهر الفاطمي الخطر الذي يهدد سلطان الفاطميين ببلاد الشام من جراء ذلك الاتفاق الذي عقده بعض زعماء العرب، جهز جيشا سنة ٤٢٠هـ لمحاربة هذه القوى المتحالفة، وأسند قيادته لأنوشتكين الدزبري^(٣). وقد تمكن القائد الفاطمي من إلحاق الهزيمة بقوات حلف عرب الشام عند طبرية، وقتل صالح بن مرداس، وهرب حسان بن الجراح الطائي إلى الإمبراطور البيزنطي ليحتمي في بلاطه، وبهذا النصر استرد الفاطميون البقاع الجنوبية والوسطى من سورية، أما حلب فظلت بيد نصر بن صالح بن مرداس الذي تلقب بشبل الدولة^(٤).

(ب) الحمدانيون والمرداسيون في شمال الشام :

كذلك واجه الفاطميون عدة صعوبات في سبيل بسط سيادتهم على شمال بلاد الشام حيث أقام الحمدانيون دولتهم في حلب. وكان هؤلاء الحمدانيون يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين السياسى، فلما دعاهم جعفر بن فلاح - بعد أن تم له فتح دمشق - إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي على منابر بلادهم، وهددهم بالاستيلاء على حلب، أثار هذا التهديد سخطهم، وعملوا على مساعدة القرامطة ليقضوا على نفوذ الفاطميين ببلاد الشام^(٥).

على أن الحمدانيين لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون الوقوف في وجه الفاطميين، ففي عهد سعد الدولة بن سيف الدولة (٣٥٦ - ٣٨١هـ)، بدأ الضعف

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ج٢، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) Gaston Wiet. Histoire de La Nation Egyptienne. Vol 4. P. 216-217.Æ

(٣) ابن الأثير: ج٩، ص ١٢٨.

(٤) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٤٨: تاريخ ابن الوردي، ج١ ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٥) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسى، ج٣، ص ٣٥٨.

يظهر في الدولة الحمدانية في حلب، فثار عليه قرعويه - أحد أتباع أبيه - واستولى على حلب، وحال دون دخوله إليها، فقصد سعد الدولة حمص وأثر البقاء بها وانحار إلى جانب الفاطميين وأقام الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي^(١). ثم وجه اهتمامه إلى استرداد حلب، فسار إليها على رأس جيش من العرب من بنى كلاب وغيرهم وتمكن من استعادة سلطانه عليها بعد أن ظل يحاصرها أربعة أشهر، وأسند ولاية حمص إلى غلامه بكجور التركي سنة ٣٦٦هـ^(٢).

على أن سعد الدولة لم يتمتع بالطمأنينة، فشغل بمحاربة بكجور الذي كتب إلى العزيز بالله الفاطمي يطلب إليه أن يوليه دمشق، وينجده بقوة يستعين بها في الاستيلاء على حلب، فأجاب الخليفة الفاطمي طلبه سنة ٣٧٣هـ، وسار بكجور إلى هذه المدينة وحاصرها، لكنه اضطر إلى الارتداد عنها أمام قوات الروم التي استعان بها سعد الدولة الحمداني، وعاد إلى دمشق ليتولى إمارتها. غير أنه عامل أهلها معاملة تنطوي على العنف والشدة مما جعلهم يتذمرون من حكمه، كما أضمر له الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس العداء لتنكيهه بأتباعه؛ فصار يحول دون تحقيق رغباته، ثم أشار على العزيز بعزله، فأجاب طلبه بعد أن بلغه سوء سيرته في دمشق، ورحل بكجور إلى الرقة (على نهر الفرات) حيث طلب من سعد الدولة الحمداني أن يعيده إلى ولاية حمص، فلم يظفر منه بشيء^(٣).

ظل بكجور أثناء إقامته بالرقة يواصل جهوده للاستيلاء على حلب؛ فراسل جماعة من مماليك سعد الدولة الحمداني، واستمالهم إليه، فأظهروا له ترحيبهم بقدمه إلى حلب، كما أخبروه بأن سعد الدولة منشغل بملذاته عن تدبير شئون دولته؛ فعزم بكجور على انتهاز هذه الفرصة لتحقيق أطماعه، ورأى أن يستعين بالفاطميين لعله يظفر بتأييدهم؛ فأرسل إلى العزيز بالله يطمعه في حلب ويقول له: «إنها دهليز العراق، ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها»، كما طلب منه أن ينفذ إليه نجدة من جنده؛ فعمل العزيز على تلبية طلبه^(٤). وأرسل إلى واليه بطرابلس بأن يكون على أهبة الاستعداد للمسير إليه لمساعدته^(٥).

(١) ابن الأثير، ج ٨ ص ١٩٧ - ٢٠٢.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧ - ٢٨.

(٣) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٩ - ٢٠، ٢٩.

(٤) ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٩.

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ج ١ ص ٣٣ - ٣٤.

لما علم سعد الدولة الحمداني بوصول بكجور إلى حلب، بعث إلى باسيل الثاني إمبراطور الروم، يخبره بخروج بكجور عليه ويطلب منه النجدة. فأرسل باسيل إلى واليه بأنطاكية يأمره بمعاونته^(١)، وقامت الحرب بين بكجور يعاونه المغاربة والعرب من بني كلاب، ولم يجن ثمرة هذه الحرب غير الفاطميين والروم.

استقر رأى سعد الدولة الحمداني بعد وقوفه على ما أصاب دولته من جراء المنازعات الداخلية على إزالة عوامل الخلاف بين جند الحمدانيين وتوحيد صفوفهم؛ فكتب إلى غلامه بكجور التركي بأن يمتنع عن مناوئته، ويعدّه بإقطاعه الأراضي الممتدة بين حمص والرقّة، لكنه أبى إلا القتال؛ فدارت الحرب بينهما سنة ٣٨١هـ، وحلت به الهزيمة وقتل؛ واستولى سعد الدولة على أمواله^(٢).

لم تكن علاقة سعد الدولة الحمداني بالخليفة العزيز بالله الفاطمي على شيء من الصفاء، فقد أساء سعد الدولة معاملة رسول هذا الخليفة - حين قدم إليه حاملاً رسالة منه يحذره فيها من إلحاق الأذى بأبناء بكجور - وقال له: عد إلى صاحبك وقل له: لست ممن تخفي أخبارك عنه وتمويهاتك عليه، وما بك حاجة إلى تجهيز العساكر إلى، فإنني سائر إليك ليكون اللقاء قريباً منك، وخبري يأتيك من الرملة^(٣). ولم يمض على ذلك غير قليل حتى توفي سعد الدولة سنة ٣٨١هـ وخلفه ابنه سعيد الدولة أبو الفضائل - وكان قد عهد إليه قبل وفاته وأوصى لؤلؤا الخادم به^(٤).

حاول الفاطميون الاستيلاء على حلب في أيام سعيد الدولة، فأسند الخليفة العزيز ولاية الشام إلى منجوتكين التركي، وعهد إليه بقيادة الجيش الذي أعده لفتح حلب؛ فسار منجوتكين إلى دمشق سنة ٣٨٣هـ، وبعد أن نظم شئونها خرج منها إلى حلب^(٥).

(١) Cambridge Mediaeval History. Vol, 4 p. 147

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ج ١ ص ٣٨.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٨ - ٣٩.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣، ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٥) ابن الأثير: ج ٩، ص ٣١.

ولما علم سعيد الدولة بزحف الجند الفاطمي على الشام بقيادة منجوتكين، استنجد بإمبراطور الروم باسيل الثاني، فأرسل هذا الإمبراطور إلى قائده بأنطاكية يأمره بمحاربة الفاطميين وردهم عن حلب، وعلى الرغم من انتصار منجوتكين على الروم فإنه لم يتمكن من دخول حلب، بل ارتد إلى دمشق بسبب نفاد الأوقات؛ غير أن الخليفة العزيز ما لبث أن أمره بالسير إلى حلب وأرسل الجيوش لحصارها من جديد، كما أنفذ الأوقات إلى طرابلس^(١).

رأى سعيد الدولة أبو الفضائل ولؤلؤ الخادم بعد أن اشتد الحصار عليهما بحلب أن يرسل للمرة الثانية إلى إمبراطور الروم يطلبان منه النجدة، كما خوفاه من سقوط حلب في يد الفاطميين بقولهما: «متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية، أخذت قسطنطينية^(٢)»؛ فسار باسيل الثاني بنفسه إلى بلاد الشام ونزل على حصن شيزر على مقربة من حماه، فاستولى عليه، ثم سار إلى حمص ففتحها عنوة، وتابع سيره إلى طرابلس، فحاصرها. ولما تعذر عليه فتحها رحل عائداً إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية^(٣).

عجز الفاطميون في عهد الخليفة العزيز بالله عن الاستيلاء على حلب؛ ذلك أن إمبراطور الروم حين سار بقواته تلبية لدعوة سعيد الدولة أبى الفضائل الحمداني، أرسل لؤلؤ الخادم إلى منجوتكين القائد الفاطمي، يحذره من زحف الروم على شمال الشام بقوله: «إن الإسلام جامع بيني وبينك وأنا ناصح لكم، وقد وافاكم ملك الروم بجنوده، فخذوا لأنفسكم»؛ فعدل منجوتكين عن مهاجمة حلب وعاد إلى دمشق^(٤).

لما وقف العزيز على مدى تقدم الروم في بلاد الشام، وبلغه عودة منجوتكين منهزماً إلى دمشق، عظم ذلك عليه، واستقر رأيه على أن يسير بنفسه لفتح حلب وصد قوات الروم، فجهز حملة برية، كما أمر وزيره عيسى بن نسطورس بإنشاء

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ١٢٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ١٦٦، أبو المحاسن، ج٤، ص ١٢٠ - ١٢١.

Cambridge Mediaeval History, Vol., 4, P. 147Æ

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ١٢٠.

لما علم سعد الدولة الحمداني بوصول بكجور إلى حلب، بعث إلى باسيل الثاني إمبراطور الروم، يخبره بخروج بكجور عليه ويطلب منه النجدة. فأرسل باسيل إلى واليه بأنطاكية يأمره بمعاونته^(١)، وقامت الحرب بين بكجور يعاونه المغاربة والعرب من بنى كلاب، ولم يحن ثمره هذه الحرب غير الفاطميين والروم.

استقر رأى سعد الدولة الحمداني بعد وقوفه على ما أصاب دولته من جراء المنازعات الداخلية على إزالة عوامل الخلاف بين جند الحمدانيين وتوحيد صفوفهم؛ فكتب إلى غلامه بكجور التركي بأن يمتنع عن مناوئته، ويعدّه بإقطاعه الأراضي الممتدة بين حمص والرقّة، لكنه أبى إلا القتال؛ فدارت الحرب بينهما سنة ٣٨١هـ، وحلت به الهزيمة وقتل؛ واستولى سعد الدولة على أمواله^(٢).

لم تكن علاقة سعد الدولة الحمداني بالخليفة العزيز بالله الفاطمي على شيء من الصفاء، فقد أساء سعد الدولة معاملة رسول هذا الخليفة - حين قدم إليه حاملاً رسالة منه يحذره فيها من إلحاق الأذى بأبناء بكجور - وقال له: عد إلى صاحبك وقل له: لست ممن تخفى أخبارك عنه وتمويهاتك عليه، وما بك حاجة إلى تجهيز العساكر إلى، فإنني سائر إليك ليكون اللقاء قريباً منك، وخبري يأتيك من الرملة^(٣). ولم يمض على ذلك غير قليل حتى توفي سعد الدولة سنة ٣٨١هـ وخلفه ابنه سعيد الدولة أبو الفضائل - وكان قد عهد إليه قبل وفاته وأوصى لؤلؤاً الخادم به^(٤).

حاول الفاطميون الاستيلاء على حلب في أيام سعيد الدولة، فأُسند الخليفة العزيز ولاية الشام إلى منجوتكين التركي، وعهد إليه بقيادة الجيش الذي أعده لفتح حلب؛ فسار منجوتكين إلى دمشق سنة ٣٨٣هـ، وبعد أن نظم شئونها خرج منها إلى حلب^(٥).

(١) Combridge Mediaeval History. Vol, 4 p. 147

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ج١، ص ٣٨.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ج١، ص ٣٨ - ٣٩.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٥) ابن الأثير: ج٩، ص ٣١.

ولما علم سعيد الدولة بزحف الجند الفاطمي على الشام بقيادة منجوتكين، استنجد بإمبراطور الروم باسيل الثاني، فأرسل هذا الإمبراطور إلى قائده بأنطاكية يأمره بمحاربة الفاطميين وردهم عن حلب، وعلى الرغم من انتصار منجوتكين على الروم فإنه لم يتمكن من دخول حلب، بل ارتد إلى دمشق بسبب نفاد الأوقات؛ غير أن الخليفة العزيز ما لبث أن أمره بالسير إلى حلب وأرسل الجيوش لحصارها من جديد، كما أنفذ الأوقات إلى طرابلس^(١).

رأى سعيد الدولة أبو الفضائل ولؤلؤ الخادم بعد أن اشتد الحصار عليهما بحلب أن يرسل للمرة الثانية إلى إمبراطور الروم يطلبان منه النجدة، كما خوفاه من سقوط حلب في يد الفاطميين بقولهما: «متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية، أخذت قسطنطينية^(٢)»؛ فسار باسيل الثاني بنفسه إلى بلاد الشام ونزل على حصن شيزر على مقربة من حماه، فاستولى عليه، ثم سار إلى حمس ففتحها عنوة، وتابع سيره إلى طرابلس، فحاصرها. ولما تعذر عليه فتحها رحل عائداً إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية^(٣).

عجز الفاطميون في عهد الخليفة العزيز بالله عن الاستيلاء على حلب؛ ذلك أن إمبراطور الروم حين سار بقواته تلبية لدعوة سعيد الدولة أبي الفضائل الحمداني، أرسل لؤلؤ الخادم إلى منجوتكين القائد الفاطمي، يحذره من زحف الروم على شمال الشام بقوله: «إن الإسلام جامع بيني وبينك وأنا ناصح لكم، وقد وافاكم ملك الروم بجنوده، فخذوا لأنفسكم»؛ فعدل منجوتكين عن مهاجمة حلب وعاد إلى دمشق^(٤).

لما وقف العزيز على مدى تقدم الروم في بلاد الشام، وبلغه عودة منجوتكين منهزماً إلى دمشق، عظم ذلك عليه، واستقر رأيه على أن يسير بنفسه لفتح حلب وصد قوات الروم، فجهز حملة برية، كما أمر وزيره عيسى بن نسطورس بإنشاء

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ١٢٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ١٦٦، أبو المحاسن، ج٤، ص ١٢٠ - ١٢١.

Cambridge Medieval History, Vol., 4. P. 147Æ

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ١٢٠.

أسطول يسير بحرا إلى طرابلس . ولم يكذ يتم إعداد هذا الأسطول حتى اشتعلت فيه النيران في ميناء المقس ، وأحرقت منه ستة عشر مركبا . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر في نفوس المصريين والمغاربة ؛ فثاروا ببعض تجار الروم الذين وفدوا إلى البلاد المصرية قبل ذلك بقليل وقتلوا فريقا كبيرا منهم حين ثبت لديهم أنهم دبوا مؤامرة إحراقه . وما لبث العزيز أن قضى على الاضطرابات التي حدثت بالقاهرة بسبب إحراق الأسطول ، وأشار على عيسى بن نسطورس بإنشاء أسطول آخر ، فلبى هذا الوزير رغبته ، وشرع في جمع الأخشاب ، وأمر الصنائع بالإسراع في إنجازها . ولما تم بناؤه ، أبحر إلى أنطرطوس^(٢) لنجدة القائد الفاطمي منجوتكين ؛ غير أن معظم سفنه لم تلبث أن تحطمت بالقرب من طرابلس على أثر هبوب عاصفة عليها ؛ وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصري^(٣) . أما الحملة البرية ، فخرج على رأسها الخليفة العزيز إلى بلبيس في طريقه إلى بلاد الشام ، لكن المرض اشتد عليه فجأة ، فتخلف بها وتوفي سنة ٣٨٦هـ^(٤) .

على الرغم من أن سعيد الدولة أبا الفضائل الحمداني قد نجح في إبعاد خطر الغزو الفاطمي عن بلاده في عهد العزيز بالله ، فإن الأمور لم تستقر له في حلب ، فقد واجه منافسة مولاة لؤلؤ الذي طمع في الاستئثار بحكم حلب وقتله ، وانتزع الولاية لنفسه من ولديه أبي الحسن على وأبي المعالي شريف وحكم باسمهما . ولم تقف أطماع لؤلؤ عند هذا الحد ، بل عمل على نقل الحكم إلى أسرته ، فأرسل ولدى سعيد الدولة مع سائر أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة^(٥) . وأخذ يتقرب إلى الفاطميين ليتقوى خصومتهم ، فأمر بحذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة ، وأعلن طاعته للخليفة الحاكم بأمر الله ، وأقام الدعوة له فترة من الوقت^(٦) .

(١) ابن الأثير : ج٩ ، ص ٣١ .

(٢) من أعمال طرابلس بلبنان وتقع على ساحل البحر .

(٣) تاريخ يحيى بن سعد الأنطاكي ، ص ١٧٨ ، المقرئ : خطط ، ج ٢ ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .

(٥) المكين بن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٥٦ .

(٦) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٢٧١ .

لما توفي لؤلؤ سنة ٣٩٩هـ، خلفه ابنه منصور، فاعترف بسلطان الخليفة الحاكم بأمر الله، وأقام الدعوة بحلب سنة ٤٠٢هـ، ولقبه هذا الخليفة مرتضى الدولة^(١)؛ وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى حلب مما مهد لهم أمر القضاء على سلطة الحمدانيين فيها^(٢).

لم يتمتع منصور بن لؤلؤ طويلا بإمارة حلب، فقد عمل أهالي هذه المدينة على التخلص منه لكثرة عسفه بهم، كما قامت الحرب بينه وبين بنى كلاب. وكان قد وعدهم بتوزيع بعض الإقطاعات عليهم، لكنه ماطلهم ولم يف بوعوده لهم. ولما عجز منصور عن الاحتفاظ بسلطانه في حلب رحل عنها إلى أنطاكية، فسهل بذلك على نواب الحاكم دخول حلب والاستيلاء عليها؛ وظلوا يتناوبون الحكم فيها حتى أسند هذا الخليفة ولايتها سنة ٤٠٧هـ إلى أمير من بنى حمدان يدعى عزيز الملك فاتك، ولقبه أمير الأمراء^(٣)، فظل يلى أمورها حتى توفي الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ، وخلفه ابنه الظاهر، فاستأثر في عهده بالحكم في حلب؛ غير أنه لم يلبث أن قتل على يد غلام له يسمى بدر الذي استولى على حلب ثم سلمها فيما بعد إلى الخليفة الظاهر؛ وبذلك زال سلطان الحمدانيين في الشام.

لم يتيسر للفاطميين توطيد سلطانهم في حلب في عهد الخليفة الظاهر، فقد ظهر مناوئ جديد لهم، وهو صالح بن مرداس أمير بنى كلاب الذي تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة سنة ٤١٤هـ من يد حكامها الفاطميين، كما دخل قلعتها بعد حصار طويل^(٤)؛ وظل يتولى حكمها حتى سنة ٤٢٠هـ حيث أعد له الخليفة الظاهر جيشا كبيرا لقتاله وقتل بعض أمراء العرب بالشام الذين تحالفوا معه ضد الفاطميين على اقتسام بلاد الشام فيما بينهم. وقد تمكن الجيش الفاطمي من التغلب على قوات هؤلاء الحلفاء في معركة دارت بالقرب من طبرية، قتل فيها صالح بن مرداس^(٥)؛ وبذلك أتيح للفاطميين استعادة نفوذهم في حلب على أن

(١) ابن الأثير: ج١، ص ٧٨. ابن العديم الحلبي: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص ٢٢٧.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص ٢١٧.

(٣) ابن الأثير: ج٩، ص ٧٩.

(٤) ابن الأثير: ج٩، ص ٧٩.

(٥) Hitti, History of Syria P. 580.

هذا النفوذ لم يكن مستقرا بسبب تطلع المرداسيين إلى استرداد هذه المدينة . وقد تجلبت مطاعمهم في ولايتها فيما قام به نصربن صالح بن مرداس الذي جمع قواته وهاجم حلب واستولى عليها من يد الفاطميين ، واتخذ لنفسه لقب شبل الدولة^(١) ، وما زال نصر يحكم حلب إلى أن ولي الخلافة المستنصر بالله الفاطمي ، فعهد إلى القائد التركي أنوشتكين الدزبري بالزحف إلى حلب واستردادها ، فسار إليها سنة ٤١٩هـ والتقى بنصر عند بلدة حماء ، وأوقع به الهزيمة وقتله ، وتقلد ولاية حلب بدلا منه ، وظل يلي أمورها إلى أن توفي سنة ٤٣٣هـ^(٢) .

كان ثمال بن صالح بن مرداس بالرحبة إذ ذاك . ولما بلغه اضطراب الأمور في حلب ، عول على الخروج إليها ، ثم حاصرها واستولى عليها سنة ٤٣٤هـ وتقلد زمام الحكم فيها ؛ غير أنه لم يتمتع بالهدوء والاستقرار ، فقد زحف إليه الجنود من مصر بقيادة أبي عبد الله ناصر الدولة بن حمدان سنة ٤٤٠هـ ، فخرج إليهم ثمال وقاتلهم واضطروا إلى العودة إلى مصر^(٣) .

لم تزل الجنود المصرية تولى زحفها على حلب وتضييق عليها الحصار حتى سئم ثمال بن صالح إمارتها وعجز عن القيام بشئونها ، وبعث إلى المستنصر بمصر يطلب الصلح ، فصالحه على أن ينزل عن حلب ، وعهد الخليفة الفاطمي إلى مكين الدولة الحسن بن ملهم بولاية حلب سنة ٤٤٩هـ^(٤) .

لم يكد يمضى عامان على تقلد ابن ملهم ولاية حلب حتى ثار عليه أهلها وبعثوا في طلب محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ، فقدم عليهم في منتصف سنة ٤٥٢هـ ، واشترك معهم في محاصرة ابن ملهم . ولما علم بذلك المستنصر ، أرسل إليه نجدة تحت قيادة ناصر الدولة الحسين بن حسن بن حمدان وإلى دمشق ، فدارت بينه وبين محمود بن نصر بن صالح بن مرداس عدة معارك انتهت بانهزامه واستعادة محمود ولاية حلب ، وعاد ابن ملهم وابن حمدان إلى مصر^(٥) .

(١) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص ٢٧٢ .

(٢) ابن الأثير: ج٩ ص ٧٩ .

(٣) ابن الأثير: ج٩، ص ٧٩ - ٨٠ ، ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٢٧٣ .

(٤) ابن الأثير: ج٩ ص ٩٠ .

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٤ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

على الرغم من أن أمراء بني مرداس قد بذلوا جهدا كبيرا في سبيل الاحتفاظ بولاية حلب، فإنهم عجزوا عن توطيد نفوذهم فيها لأنهم كانوا مهددين من ناحية الخلافة الفاطمية^(١)، كما أنه كان لضعفهم أثر كبير في عدم استقرار الأمور في ولايتهم وعلى الأخص منذ بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. وقد عجلت هذه الحالة بزوال حكم المرداسيين في حلب بعد أن ظلوا يحكمونها ما يقرب من ستين عاما.

على أن الفاطميين وإن كانوا قد نجحوا في بسط سيادتهم على حلب بعد أن زالت سلطة الحمدانيين فيها، فإنه لم يتيسر لهم ضمها إلى حوزتهم بعد أن حكمها أمراء من بني مرداس، بل ظلوا في نزاع مع هؤلاء الأمراء دون أن يتمكنوا من القضاء على سلطتهم.

وقد تعرضت حلب في أواخر القرن الخامس الهجري لهجوم السلاجقة وبعض أمراء العرب؛ فسار إليها شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي صاحب الموصل وحاصر قلعتها واستولى عليها من ولاتها المرداسيين سنة ٤٧٣هـ^(٢)، ثم أرسل إلى ملكشاه سلطان السلاجقة ليقره على نيابة حلب على أن يؤدي إليه مبلغا معيناً من المال، فأجاب السلطان طلبه^(٣)؛ وبذلك قضى على سلطان المرداسيين.

(١) Lammens, La Syrie, Précis Historique Tome I. P. 154.

(٢) ابن الأثير: ج ١ ص ٣٩.

(٣) المكين بن العميد: تاريخ المسلمين، ص ٢٨٠ - ٢٨٢.

ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٢٧٥.

٤ - ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام

في أواخر القرن الخامس الهجري

كان نفوذ الفاطميين في بلاد الشام مرتبطاً بقوتهم العسكرية؛ فإذا ما ضعفت قواتهم هناك، قام الأمراء المحليون بالعمل على توطيد استقلالهم الذاتي كما فعل بنو الجراح بفلسطين وبنو مرداس في حلب. وقد وجهت الخلافة الفاطمية عنايتها إلى القضاء على مناوأة هؤلاء الأمراء والعمل على توطيد سلطانها ببلاد الشام. وليس من شك في أن الاضطرابات التي أثارها بنو الجراح في فلسطين وعدم استقرار الأمور في حلب في عهد بني مرداس، أتاح كل ذلك الفرصة أمام السلاجقة^(١) ليظهروا على مسرح السياسة في بلاد الشام ويقضوا على النفوذ الفاطمي فيها.

أخذ نفوذ السلاجقة في الازدياد منذ عهد طغرل بك الذي تمكن من جمع صفوفهم وبسط سلطانهم على جهات واسعة من الدولة الإسلامية شملت مرو ونيسابور وكرمان وأذربيجان وجرجان وطبرستان.

كذلك عمل طغرل بك على توثيق الروابط بين السلاجقة والخليفة العباسي القائم بأمر الله؛ فلما استنجد به هذا الخليفة لينقذه من فتنة أبي الحارث أرسلان البساسيري، أجاب طلبه، فسار إلى بغداد وقضى على هذه الفتنة وأعاد إقامة الخطبة للخليفة العباسي سنة ٤٥١هـ؛ غير أنه لم يلبث أن استأثر بالسلطة دونه، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من سلاطين السلاجقة.

وجه السلاجقة اهتمامهم بعد أن استأثروا بالنفوذ في العراق إلى استعادة ما فقدته الدولة العباسية من البلاد، فأرسل ألب أرسلان سنة ٤٦٢هـ إلى محمود بن صالح بن مرداس أمير حلب، يطلب منه إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلا من

(١) يرجع أصل السلاجقة إلى إحدى قبائل الغز التركية، وكانوا قوما من البدو يسكنون إقليم تركستان، وقد قرب ملك هذا الإقليم جدهم سلجوق إليه، فظل في خدمته حتى وصل إليه نبأ تدبيره مؤامرة للتخلص منه. فهاجر مع قبيلته إلى بخارى، حيث دخل هو وأتباعه في الإسلام على مبادئ المذهب السني وأصبحوا من المتحمسين له.

المكين بن العميد: تاريخ المسلمين، ص ٢٦٧، المقرئ. السلوك لمعرفة دول الملوك. ج ١، القسم الأول، ص ٣٠ - ٣١.

الخليفة الفاطمي، فأجابه إلى طلبه. ثم سار بنفسه إلى حلب في العام التالي وحاصرها شهرا، فخرج إليه أميرها فأكرمه وأعادته إلى ولايته^(١)؛ واضطر ألب أرسلان إلى العودة إلى بلاده حين وصله أن الروم اخترقوا بلاد أرمينية يريدون خراسان، وفي سنة ٤٦٥هـ، عهد السلطان ملكشاه إلى أئمة التركماني بالاستيلاء على بلاد الشام، ففتح الرملة وبيت المقدس، ثم يمم السير إلى دمشق؛ غير أن جيوش الفاطميين سرعان ما ردت على أعقابهم^(٢)، لكنه لم يلبث بعد ذلك أن عول على محاصرتها سنة ٤٦٧هـ، وأخذ يشدد عليها الحصار حتى تمكن من فتحها، ثم حذف اسم المستنصر بالله الفاطمي من الخطبة، وأحل محله اسم الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله^(٣)، كما منع الأذان بحى على خير العمل. وكان لعمله هذا أحسن الأثر في نفوس أهالي دمشق^(٤).

ولما استقر الأمر للقائد التركماني أئمة في بلاد الشام خشي أن يعاود الفاطميون مهاجمته؛ فجهز جيشا من التركمان والعرب والترك وسار قاصدا مصر سنة ٤٦٩هـ بعد أن أغراه بفتحها ابن بلدكوز الذي احتفى به على أثر قدوم بدر الجمالي إلى مصر، وأهدى إليه بعض التحف التي استولى عليها أبوه من خزائن المستنصر بالله الفاطمي^(٥).

وقد توغل أئمة بقواته في البلاد المصرية دون أن يصادف مقاومة تذكر، وعسكر خمسين يوما في الدلتا بدلا من أن يسير إلى القاهرة، وأساء أصحابه معاملة الأهالي وأخذوا أموالهم فأرسل رؤساء القرى المصرية إلى الخليفة المستنصر بالله يشكون إليه ما نزل بهم^(٦).

لم يكن بدر الجمالي في الوقت الذي زحف فيه أئمة على مصر مستعدا لمواجهة حملته لانشغاله بإخماد بعض الثورات في بلاد الصعيد؛ فجند جميع

(١) ابن الأثير: ج١، ص ٢٢.

(٢) ابن الأثير: ج١، ص ٢٣.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Age. P. 161.

(٤) ابن خلدون: ج٤، ٦٥. 588-589. Hiti, History of syris pp.

(٥) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٢٤.

(٦) ابن الأثير: ج١، ص ٢٦.

الرجال القادرين على حمل السلاح، ودعا ثلاثة آلاف حاج كانوا متأهبين للسفر إلى بلاد الحجاز لمعاونته في قتال السلاجقة. فأجابوا دعوته وتخلفوا عن السفر، وأصبح جيش بدر الجمالي يضم كثيرا من العرب وأهالي البلاد. ولما دار القتال بين الفريقين استطاع بدر الجمالي بمهارته أن يستميل إلى جانبه فريقا من السلاجقة، كما فعل المعز من قبل مع القرامطة؛ وكان ذلك مما عجل الهزيمة بجيشهم، وفر أئسز إلى غزة وأقام بالرملة حتى لحق به من بقى من عسكره، ثم رحل إلى دمشق^(١).

أعلنت بعض المدن الرئيسية في بلاد الشام على أثر تلك الهزيمة التي لحقت بأئسز ولأهله من جديد للخلافة الفاطمية. وقد شجع ذلك بدر الجمالي على العمل لاستعادة سلطان الفاطميين بتلك البلاد، فأنفذ جيشا بقيادة نصر الدولة إلى دمشق، فحاصرها حصارا شديدا حتى اضطر أئسز إلى طلب النجدة من تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان - وكان إذ ذاك يحاصر حلب - فسار تتش إلى دمشق. ولم يكذ يقترب منها حتى رحل عنها عسكر مصر^(٢).

ولما تقابل تتش مع أئسز عند سور دمشق، أنكر عليه تأخره في الخروج للقاءه، ثم ما لبث أن قبض عليه وقتله، واستولى على دمشق سنة ٤٧١هـ، وأحسن معاملة أهلها^(٣). وصار يتولى بمفرده جميع الأمور في بلاد الشام؛ غير أن الحالة لم تستقر له طويلا بتلك البلاد، فحاول بدر الجمالي أن يسترد دمشق سنة ٤٧٨هـ، فسار إليها على رأس حملة، وحاصرها حصارا شديدا، كما دار بينه وبين صاحبها تاج الدولة تتش قتال؛ غير أنه لم يتمكن من التغلب عليه، ورحل عائدا إلى مصر^(٤). وما زال بدر الجمالي يوجه اهتمامه إلى استعادة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام حتى تمكن سنة ٤٨٢هـ من الاستيلاء على معظم بلاد الشام الساحلية. على أن الفاطميين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بسيطرتهم على هذه المدن بسبب تطلع السلاجقة إلى بسط سلطانهم عليها. ففي سنة ٤٨٥هـ أمر السلطان

(١) ابن الأثير: ج١، ص ٣٥ - ٣٦، ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٣٥.

(٢) ابن الأثير: ج١، ص ٣٨، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص ١٩٤.

(٣) ابن الأثير: ج١، ص ٣٨.

(٤) ابن الأثير، ج١، ص ٤٩.

ملكشاه نوابه بحلب والرها بالسير مع قواتهم لمعاونة أخيه تاج الدولة تتش فى الاستيلاء على ما للخليفة المستنصر بالله الفاطمى من بلاد بساحل الشام؛ فساروا لنجدته، واستطاع تتش بمساعدتهم أن يستولى على حمص وقلعتى عرفة وأفامية^(١) (Apamea)

على الرغم من أن تاج الدولة تتش قد بسط سلطانه على معظم بلاد الشام فإنه لم يوجه جهوده للعمل على توطيد نفوذه بهذه البلاد - مع أن الظروف كانت مهيأة له وخاصة من ناحية الفاطميين الذين حال ضعفهم بسبب المنازعات الداخلية دون نجاحهم فى استرداد سيادتهم على بلاد الشام التى كانت فى حوزتهم -، فقد امتدت أطماع تتش إلى بلاد الجزيرة وفارس وتغلب على كثير منها مما أدى إلى قيام الخلاف بينه وبين ابن أخيه بركياروق سنة ٤٨٦هـ. وقد تطور هذا الخلاف إلى نشوب الحرب بين تتش وقوات بركياروق، انتهى الأمر فيها بهزيمة تتش وقتله سنة ٤٨٨هـ^(٢).

اقتسم بلاد الشام بعد مقتل تتش ابناه رضوان ودقاق؛ فاستقل الأول بولاية حلب، وانفرد الثانى بدمشق، لكنهما لم يكونا على وفاق، فقد دب الخلاف والتنافس بينهما، فسار رضوان إلى دمشق طمعا فى الاستيلاء عليها لكنه عجز عن مهاجمتها لحصانتها ومناعتها، كما لم يتمكن من الاستيلاء على بيت المقدس. أما دقاق فإنه رأى أن يسير إلى حلب لمحاصرة أخيه ردا على فعله. والتقى الفريقان يقنسرين حيث دارت معركة هزم فيها دقاق الذى ما لبث أن اتفق مع أخيه رضوان سنة ٤٨٩هـ على أن تقام الخطبة باسميهما فى دمشق^(٣).

أما عن الحالة الداخلية فى مصر، فلم تكن إذ ذاك مستقرة؛ فقد اضطربت فيها الأمور بعد تولية المستعلى الخلافة، ويرجع ذلك إلى ما قام به الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى من إقصاء نزار بن المستنصر عن الخلافة رغم أحقيته لها؛ فخرج أهالى الإسكندرية على طاعة الخليفة الفاطمى الجديد وانحازوا إلى نزار بعد أن قدم

(١) ابن الأثير: ج١، ص ٧٠، أبو الفداء. المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ٦٧ أفامية: كسرة من كور حمص، تقع إلى الشمال من حماه وجنوب معرة النعمان.

(٢) ابن الأثير، ج١، ص ٨٥.

(٣) ابن الأثير: ج١، ص ٩٣. أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

إليهم وبائعوه بالخلافة، غير أن الأفضل بن بدر الجمالي ما لبث أن تمكن من القضاء عليه وعلى من آزره في ثورته في أواخر سنة ٤٨٨هـ^(١).

على الرغم من أن الحكومة الفاطمية في مصر في أوائل عهد المستعلي بالله شغلت بضبط الأمور في البلاد عن مواصلة جهودها لاسترداد نفوذها في بلاد الشام، فإن الخلاف بين نواب السلاجقة في هذه البلاد وحالة الضعف التي تجلت في أيامهم، لم يكن كل ذلك خافيا عنها؛ فرأى الفاطميون أن ينتهزوا هذه الفرصة ليحاولوا من جديد، إعادة سيطرتهم على ما فقدوه من مدن الشام؛ فسار الأفضل ابن بدر الجمالي سنة ٤٨٩هـ على رأس حملة إلى بيت المقدس - وكان يلي هذه المدينة إذ ذاك إبلغازي وسقمان ابنا الأمير أرتق -، فالتمس منهما تسليمه القدس من غير حرب، فلم يجيباه إلى طلبه^(٢). فحاصر المدينة ونصب على أسوارها المجانيق، واضطر أهل القدس إلى طلب الأمان، فأمنهم وفتحوا له أحد أبوابها؛ وبذلك تمكن الأفضل من دخولها والاستيلاء عليها، ورأى كل من سقمان وأخيه إبلغازي أن يرحلا عنها، فمضى الأول إلى الرها. أما الثاني فسار إلى بغداد^(٣).

أدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة على نشر نفوذهم في بلاد الشام إلى عدم استقرار الأمور في هذه البلاد وضعف الجبهة الإسلامية أمام الغزو الصليبي؛ فقد رحف الصليبيون على أنطاكية بقيادة بوهمند النرمندى في أواخر القرن الخامس الهجري، ورأوا أن يستغلوا الفرقة بين الأمراء المسلمين في بلاد الشام، فأرسلوا إلى أميري حلب ودمشق يطلبون منهما عدم التعرض لهم، كما ادعوا بأنهم لا يقصدون غير البلاد التي كانت بيد الروم^(٤). ولما وقف رضوان أمير حلب على رغبة الصليبيين في إثارة النزاع بين القوى الإسلامية ليتيسر لهم تحقيق غرضهم، سارع إلى نجدة أمير أنطاكية وانضم إليه سقمان بن أرتق وقوات من شيزر^(٥) وحماه وحمص. غير أن المحاولات التي بذلها أمراء المسلمين ببلاد الشام لإنقاذ أنطاكية باءت بالفشل وسقطت المدينة في يد الصليبيين سنة ٤٩١هـ^(٦) (٣ يونيو ١٠٩٨ م).

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٢٥ - ٢٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، ١٣٥.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٥٩.

(٤) ابن الأثير: ج ١، ص ٩٥.

(٥) تقع على مقربة من معرة النعمان شمال حماه.

(٦) أبو الفداء: المختصر من أخبار البشر، ج ٢، ص ٢١٠.

لما وصل إلى الحكومة الفاطمية في مصر نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية، رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس، فأنفذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨) سفارة إلى الصليبيين للتفاوض في عقد اتفاق معهم يتضمن أن ينفردوا بأنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية في أداء شعائهم الدينية على ألا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وألا يدخلوها بسيوفهم^(١).

لم تؤد سفارة الأفضل بن بدر الجمالي إلى الصليبيين، إلى عدولهم عن تحقيق سياستهم في الاستيلاء على بيت المقدس، بل كان من أثرها أن وقف الصليبيون على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين ونواب السلاجقة ببلاد الشام؛ ومن ثم استقر رأيهم بعد استيلائهم على أنطاكية على إرسال حملة لفتح بيت المقدس. وقد استولى الصليبيون أثناء سيرهم إلى هذه المدينة على معرة النعمان^(٢)، كما عمل أمير شيزر على تأمين طريقهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه درءاً لخطرهم^(٣).

كانت بيت المقدس في الوقت الذي تقدم فيه الصليبيون لمهاجمتها خاضعة للفاطميين، ويلي حكمها نائب من قبلهم يدعى افتخار الدولة^(٤)؛ فلما شرع الصليبيون في فتح هذه المدينة لقوا مقاومة في بادئ الأمر من الحامية الإسلامية. غير أن جودفروي قائد الحملة الصليبية ما لبث أن عثر على منفذ للمدينة لم يهتم المسلمون بتحصينه، فدخل منه مع بعض أتباعه من الفدائيين، وبذلك تيسر لهم فتح أبوابها، فاضطر المسلمون إلى الاعتصام بالمسجد الأقصى، فتعقبهم الصليبيون ونكلوا بهم، ولم يجد حاكمها الفاطمي افتخار الدولة بدا من الاستسلام، وتعهد هو وقواته للصليبيين بالرحيل عنها إلى مصر^(٥).

لم يقف الفاطميون إزاء هجوم الصليبيين على بلاد الشام وزحفهم على بيت المقدس مكتوفي اليدين وخاصة بعد أن وصلهم خبر دخولهم هذه المدينة

(١) Cuillaume de Tyre (B. Hist Occ. Crois.) T I P. 191 et Seq

راجع كتاب، الحرب الصليبية الأولى لحسن حبشى، ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) ابن الأثير: ج ١ ص ٩٦.

(٣) حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى، ص ٧٤.

(٤) ابن الأثير: ج ١، ص ٩٨.

(٥) ابن الأثير: ج ١، ص ٩٨. حسن حبشى. الحرب الصليبية الأولى، ص ٨٣ - ٨٥.

واستيلائهم عليها، ومحاولتهم أخذ ما تبقى لهم من المدن الساحلية، وعجز أمراء السلاجقة عن الوقوف في وجوههم. فأعدوا حملة في رمضان سنة ٤٩٢هـ لاسترداد بيت المقدس. وخرج الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة المستعلى بالله على رأس الجيش الفاطمي، وأقام هذا الوزير بعسقلان في انتظار النجدة التي وعده بها العرب^(١)، وأرسل إلى الصليبيين ينكر عليهم ما فعلوه ويتهدهم^(٢). على أن القوات الفاطمية ما لبثت أن فوجئت بهجوم الصليبيين، واشتبك الفريقان في عدة معارك انتهت بهزيمة الجند الفاطمي وتراجعهم تدريجياً، وعاد الأفضل مع خواصه إلى مصر^(٣).

تجلى ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام على أثر النجاح الذي أحرزه الصليبيون في زحفهم على هذه البلاد وتأسيسهم إمارتي أنطاكية وبيت المقدس، وقد ظهرت بوادر هذا الضعف منذ حاول السلاجقة إقصاء الفاطميين عن بلاد الشام.

على أن السلاجقة وإن كانوا قد أحرزوا بعض النجاح في بسط سيطرتهم على بعض مدن الشام التي كانت في حوزة الفاطميين، فإن الخلاف الذي قام بين نوابهم أضعف من سلطتهم، كما أن التنافس بينهم وبين الفاطميين على امتلاك بلاد الشام كان من أكبر العوامل التي عاونت الصليبيين على الاستقرار في هذه البلاد^(٤).

ومما لا شك فيه أن الخلافة الفاطمية في أواخر القرن الخامس الهجري لم تكن في حالة تساعدها على استعادة مكانتها في بلاد الشام، فقد أصبحت مصر من الضعف بسبب ما سادها من الاضطرابات، وما منيت به من منازعات بين طائفتي النزارية^(٥) والمستعلية بحيث تعذر عليها الاحتفاظ بما تبقى لها من سلطان على بلاد الشام، يؤيد ذلك ما قاله المقرئ^(٦) عن الخليفة المستعلى بالله الفاطمي (٤٨٧ - ٤٩٥هـ) «وفي أيامه اختلت الدولة وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام فإنها صارت بين الأتراك والفرنج».

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٧، أبو المحاسن. النجوم الزاهرة ج ١، ص ١٥٠.

(٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٩٩.

(٣) المقرئ: خطط، ج ١، ص ٣٥٦، أبو المحاسن. النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٤٩.

(٤) Gaston Wiet, Précis de L'Histoire de L'Egypte Vol. II. P. 186.

(٥) كانت النزارية تدعى أن المستنصر بالله الفاطمي أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من بعده. أما المستعلية، فادعت أنه أوصى بها لابنه أبي القاسم أحمد الذي لقب بالمستعلى بالله (ابن ميسر، تاريخ مصر، ص ٣٥٣).

(٦) خطط، ج ١، ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

الباب السادس

الدولة الفاطمية في بلاد العراق

١- سياسة الفاطميين في نشر دعوتهم بمدن العراق إلى أوائل القرن الخامس الهجري.

٢- حركة البساسيري في بلاد العراق.

٣- زوال النفوذ الفاطمي ببلاد العراق بعد دخول السلاجقة بغداد.

١ - سياسة الفاطميين في نشر دعوتهم بمدن العراق إلى أوائل القرن الخامس الهجري

كان لظهور القرامطة في بلاد العراق السفلى والتشابه بين دعوتهم ودعوة الإسماعيلية أكبر الأثر في جذب كثير من أهالي الولايات العباسية إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي^(١)؛ فصارت بلاد السواد^(٢) تموج بأتباع أئمة الإسماعيلية الذين اتخذوا سلمية^(٣) دار هجرة منذ عهد الخليفة المأمون العباسي، كما أصبح لهم أنصار في بغداد نفسها، بل إن عبيد الله (المهدي) اتخذ دعاة له بهذه المدينة كانوا يمدونه بأخبار العباسيين. وقد استطاع بفضل دعاة المقيمين ببغداد وبلاد الشام التغلب على الصعوبات التي تعرض لها في طريقه من سلمية إلى بلاد المغرب^(٤).

قام دعاة الفاطميين في بغداد، بعد أن استقرت الخلافة لعبيد الله المهدي في المغرب بنشاط كبير في نشر دعوتهم؛ وليس أدل على ذلك من اتجاه ميول بعض كبار رجال الدولة العباسية إلى ما ادعاه الفاطميون من حق في الخلافة والاعتراف

(١) عرف بذلك نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق. وكان أتباعه يعرفون بالإسماعيلية وهم فرقة من الشيعة تعتقد أن الإمامة انتقلت بعد النبي ﷺ إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه؛ ثم إلى ابنه الحسن، ثم إلى أخيه الحسين، ثم انتقلت في بني الحسين إلى جعفر الصادق. ويدعون أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم انتقلت في بنيّه. (القلقشندي. صبح الأعشى. ج١. ص ١١٥ - ١٢٠).

(٢) السواد يراد به رستاق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وقد سمي بذلك لسواده بالزرزوع والنخيل والأشجار.

(٣) ياقوت. معجم البلدان. ج٣. ص ١٥٩.

(٤) بلدة من ناحية البرية من أعمال حماه (ياقوت معجم البلدان، ج٥، ص ١٩٣).

(٤) حسن إبراهيم وطه شرف. كتاب «عبيد الله المهدي» ص ١٢٥ - ١٢٨، ٣٠٧.

بإمامة المهدي، فذكر مسكويه^(١) أن يوسف بن أبي الساج - أحد قواد العباسيين في عهد الخليفة المقتدر - أخبر كاتبه محمد بن خلف أنه متى جمع خراج واسط والكوفة وسقي الفرات عن سنة ٣١٤ هـ، شق عصا طاعة الخليفة العباسي وأظهر الدعوة للمهدي. ثم دعا الناس إلى الدخول فيما دخل فيه، وسار إلى بغداد؛ فكتب محمد بن خلف بذلك كله إلى نصر الحاجب، فأوصله إلى مسامع الخليفة العباسي.

على أنه يستدل بما أورده ابن الأثير^(٢) عن اتصال القائد العباسي يوسف بن أبي الساج بالفاطميين أن كاتبه محمد بن خلف هو الذي اتهمه بذلك طمعاً في تقلد الوزارة؛ فقال: «إن محمد بن خلف النيرماني عظم شأنه وكثر ماله فحدث نفسه بوزارة الخليفة، فكتب إلى نصر الحاجب يخطب الوزارة ويسعى بآبى الساج ويقول له إنه قرمطي يعتقد إمامة العلوي الذي بإفريقية وإنني ناظرته على ذلك فلم يرجع عنه، وأنه لا يسير إلى قتال أبي طاهر القرمطي وإنما يأخذ المال بهذا السبب ويقوى به على قصد حضرة السلطان وإزالة الخلافة عن بني العباس».

وعلى الرغم من أنه ليس فيما ذكره كل من مسكويه وابن الأثير عن موقف يوسف بن أبي الساج إزاء الفاطميين ما يدل على محاولته الخروج على طاعة الخليفة العباسي، فإن هذا الأمر لا يمنعنا من أن نرجع ميله إلى الدخول في دعوة عبيد الله المهدي، وإن كانت الفرصة لم تكن بعد لتحقيق هذه الرغبة. ويؤيد ذلك ما أشار إليه المقرئ^(٣)، من أن يوسف بن أبي الساج، بعث إلى عبيد الله المهدي رسالة يعترف فيها بإمامته ويعلن استعداداه لمعاونته^(٤).

كذلك بلغ من نفوذ دعاة الفاطميين في ذلك العهد أن لنجحوا في جذب كثيرين من أهالي العراق إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي؛ ويتضح لنا ذلك من هذا الحديث الذي دار بين علي بن عيسى وزير الخليفة العباسي المقتدر بالله وبين أحد الإسماعيلية من أهل العراق. يقول ابن الأثير^(٥): «جاء إنسان إلى علي بن عيسى

(١) تجارب الأمم. ج ١، ص ١٦٧ - ١٦٨، حسن إبراهيم. الفاطميون في مصر، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٤.

(٣) المقفى الكبير. ورقة ٢٢٣ ب.

(٤) حسن إبراهيم. الفاطميون في مصر، ص ٥٤.

(٥) الكامل في التاريخ. ج ٨، ص ٧٤.

وأخبره أن فى جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر^(١) بالأخبار، فأحضره وسأله واعترف؛ وقال : ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندى أنه على الحق وأنت وصاحبك؛ (أى الوزير والخليفة) كفار، تأخذون ما ليس لكم، ولا بد لله من حجة فى أرضه؛ وإمامنا المهدي فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب، ولسنا كالأرافضة والإثنا عشرية الذين يقولون بجهلهم أن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم البعض... فقال له على ابن عيسى: قد خالطت عسكرنا وعرفتهم. فمن فيهم على مذهبك؟ فقال: «وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع منى أننى أسلم قومًا مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك...».

كان لضعف سلطة الخلفاء العباسيين الذى تجلّى منذ بداية القرن الرابع الهجرى بسبب استفحال نفوذ القواد الأتراك واستقلال الأمراء بولاياتهم، واستبداد البويهيين^(٢) بأمور الخلافة أثره فى تشجيع الفاطميين على إرسال دعائهم

(١) تقلد أبو طاهر سليمان الجنابى رمام الحكم فى دولة القرامطة ببلاد البحرين سنة ٣٠٥ هـ. وكان طموحاً إلى المجد والعظمة؛ ففقضى السنوات الأولى من حكمه ينظم شئون دولته؛ وبعد العدة للسيطرة على جزيرة العرب. وقد تجلّى فى عهده قيام العلاقات الودية بين القرامطة والفاطميين ببلاد العرب والمخاضهم فى سياستهم العدائية إزاء العباسيين.

(راجع كتاب النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ص (٣٤ - ٣٥)).

(٢) اشتهر من بين أهالى بلاد الديلم البويهيون. وكانوا جنوداً مغامرين من أصل فارسى، وقد رفعوا أنفسهم بالدهاء والمكر، وكانوا لا يترددون ولا يخجلون من ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أجراً أكثر من الأول؛ فارتقى على بن بويه وأخوه الحسن إلى مرتبة الأمراء فى جيش «مساكان» الديلمى؛ ولما لحقت به الهزيمة؛ انتقلا إلى خدمة مرادويج بن زياد الديلمى؛ فولى على بن بويه بلاد الكرج (إلى الجنوب الشرقى من همدان).

على أن الجو لم يصف لعلى بن بويه؛ فقد عول مرادويج على طرده من بلاد الكرج وأرسل جيشاً كبيراً لإخراجه منها. فسار إلى أرجان (إحدى كور فارس) واحتلها سنة ٣٢١ هـ؛ ثم دخل شيراز فى العام التالى وتمكن أخوه أحمد بن بويه من احتلال كرمان. لما توفى مرادويج سنة ٣٢٣ هـ؛ احتل البويهيون أصفهان والرى واستمروا فى توسعهم نحو الغرب، فدخل أحمد بن بويه الأهواز سنة ٣٢٦ هـ واحتفظ بها رغم المقاومة التى لاقاها؛ واستطاع أخوه على بن بويه إخضاع بلاد فارس، وأرسل إلى الخليفة الراضى اعترافه بسلطته فى فارس. فبعث إليه بالخلع مع أحد رسله وأمره ألا يسلمها إليه إلا بعد أن يرسل ثمانمائة مليون درهم إلى بغداد ويتعهد بأن يؤدى إليه مثلها سنوياً؛ لكن على بن بويه احتال على الرسول حتى أخذ منه الخلع، ثم امتنع عن دفع هذا المبلغ.

لم يكن على بن بويه هو الذى ارتفع شأنه دون غيره من البويهيين، بل استولى أخوه الحسن على بلاد العراق العجمى؛ ودعا قواد بغداد أخاه الثالث أحمد بن بويه إلى المسير إليهم حين ساءت الحالة فى عهد الخليفة المستكفى. فوصل بغداد فى ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ. فقابلته الخليفة واحتفى به ومنحه إمرة الأمراء، وبايعه أحمد بالخلافة؛ ولكى يظهر هذا الخليفة تأييده لبني بويه منح زعماءهم الألقاب؛ فلقب عليا عماد الدولة، ولقب الحسن ركن الدولة؛ ولقب أحمد الذى أصبح مطلق التصرف فى العراق معز الدولة.

مكويه. تجارب الأمم، ج١، ص ٢٩٦ - ٣٠٢.

حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام السياسى ج٣، ص ٩٩ - ١٠١.

الدورى. العصور العباسية المتأخرة ص ٢٤٤ - ٢٤٧.

إلى بلاد الدولة العباسية لنشر الدعوة لهم، كما حفزهم إلى العمل على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة الإسلام منها.

وقد كشف المعز لدين الله الفاطمي عن سياسته التي ترمى إلى بسط سلطانه على بلاد المشرق في خطبة ألقاها على رؤساء كتامة بمدينة المنصورية^(١)، «... رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشهدوا حالي إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم، وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا فيما لا بد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم، وإنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب، أجيب عنها بخطى^(٢)».

كذلك عبر المعز قبيل وفاته سنة ٣٦٥ هـ عن أمله فى فتح العراق فى الحديث الذى دار بينه وبين رسول الإمبراطور البيزنطى الذى قدم إلى القاهرة لزيارته. وقد خاطبه المعز بقوله: «أتذكر إذ أتيتنى رسولا وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن على وأنا بمصر مالكا لها، قال : نعم. قال : وأنا أقول لك لتدخلن على بغداد وأنا خليفة^(٣)».

رأى الفاطميون أنه لن يتيسر لهم نشر نفوذهم فى بلاد المشرق إلا بفتح مصر لتوسطها العالم الإسلامى، فضلاً عن قربها من المشرق الذى حرص المعز على إخضاعه؛ لذلك وجه الفاطميون أنظارهم إليها لانتزاعها من الدولة العباسية، واستطاعوا أن يسيطروا سلطانهم عليها سنة ٣٥٨ هـ، وأقيمت للخليفة الفاطمى الخطبة على منابرها.

ولما أيقن الفاطميون أن دعائهم فى بلاد المشرق قد نجحوا فى صرف كثير من المسلمين عن تأييد العباسيين، شرعوا فى مواصلة جهودهم لبسط سيادتهم على أراضي الدولة العباسية؛ فتخطى النفوذ الفاطمى فى عهد المعز الحدود المصرية إلى بلاد الشام؛ لكنه لم يكن مستقراً فيها، بينما نراه ينمو ويزداد فى جزيرة العرب

(١) أسس الخليفة المنصور الفاطمى مدينة المنصورية سنة ٣٣٧ هـ فى الموضع الذى دارت فيه الواقعة بينه وبين أبى يزيد مخلد بن كيداد على مقربة من القيروان واتخذها حاضرة له.

(راجع كتاب : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبد البكرى ص ٢٥).

(٢) المقرئى: اتعاظ الخلفاء بأخبار الأئمة الخلفاء، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ: ج ٨ ، ص ٢٢٠.

بفضل الدعاية الفاطمية التي وجدت من تلقاء نفسها مرعى خصيصاً في تلك البلاد؛ فأقيمت الخطبة في مكة والمدينة لكثير من الخلفاء الفاطميين، كما انتشر نفوذهم في بلاد اليمن وذاعت دعوتهم في كثير من بلادها؛ وبذلك تضاعف سلطان الدولة العباسية الروحية في جزيرة العرب كما تضاعف سلطانهم في بلاد الشام من قبل.

كانت بلاد العراق محط أنظار الفاطميين وعلى الأخص بعد أن استبد البويهيون بالسلطة في بغداد سنة ٣٣٤ هـ. وقضوا على نفوذ الخلفاء العباسيين، بل شاركوهم في مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية.

أقام البويهيون على أثر دخولهم بغداد إمارة وراثية. وكانوا يعتنقون المذهب الشيعي على مبادئ الزيدية التي أدخلها بلاد الديلم حسن بن علي الزيدي^(١). ومن ثم صاروا لا يعترفون بحق العباسيين في السيادة على جميع العالم الإسلامي^(٢)، وإنما اعتبروهم مغتصبين للخلافة من أصحابها العلويين^(٣).

وقد تأثر البويهيون إلى حد كبير بالدعاية الفاطمية في بلاد المشرق؛ فلما قبضوا على رمام السلطة في بغداد وضعف تبعاً لذلك مركز الخليفة فكروا في القضاء على الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية مكانها، وحاول معز الدولة بن بويه (٣٣٤ - ٣٥٦ هـ) إخراج هذه الفكرة إلى حيز العمل وذلك بنقل الخلافة العباسية إلى أحد العلويين، ولكن خواصه حذروه من سخط الناس ومخالفتهم لأن عامتهم في الأقطار الإسلامية اعتادوا الدعوة العباسية، وأطاعوا العباسيين طاعة لله ورسوله^(٤).

(١) نشر حسن بن علي الزيدي الإسلام بين أهالي الديلم وطبرستان في أوائل القرن الرابع الهجري، وقضى على الوثنية والمجوسية التي كانت منتشرة بينهم، واستطاع أن يستميلهم إلى جانبه، وظلوا مخلصين له طيلة حياته؛ كذلك نجح حسن بن علي الزيدي في القضاء على النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في بلاد الديلم، وظلت طبرستان بيد أسرته حتى سنة ٣١٤ هـ حين فتح مرادويج بن ريار الديلمي هذا الإقليم. (الدوري: العصور العباسية المتأخرة، ص ٧٢ - ٧٣).

Arnold, The Cailphate p. 61.

(٢)

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٤٩.

(٤) الدوري: العصور العباسية المتأخرة، ص ٢٤٨.

وقد وضح ابن الأثير^(١) تلك المحاولة التي شرع معز الدولة في تنفيذها ثم لم يلبث أن عدل عنها بقوله: «لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين، فكلهم أشار بذلك ما عدا بعض خواصه، فإنه قال: «ليس هذا برأى. فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلسست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه».

عدل معز الدولة بن بويه عن عزمه لما قد يتعرض له سلطانه من خطر بسبب وجود خلافة علوية يطيعها الجند من الديلم ويكونون أداة في يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء^(٢)، وفضل أن يستبد بالسلطة في ظل خليفة عباسى ضعيف على أن يكون تابعاً لخليفة يعترف بإمامته، كما أن أمراء بنى بويه^(٣) الذين خلفوه وأصبحوا مطلقي التصرف في العراق حذوا حذوه. فلم يقدموا على تحويل الخلافة إلى أحد العلويين، لكنهم ظلوا على اتصال بالفاطميين، فسمحوا لدعاتهم بنشر عقائد مذهبهم في بلاد العراق وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ بنى بويه^(٤).

كان البويهيون رغم حرصهم على الاحتفاظ بنفوذهم السياسى يؤثرون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية، فتبدلت الرسائل الودية بين العزيز بالله الفاطمى وعضد الدولة بن ركن الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ) فاعترف هذا الأمير بإمامة الخليفة الفاطمى، كما كان لغارات البيزنطيين المتكررة على الأراضى المتاخمة لحدود كل من الدولتين العباسية والفاطمية أثر كبير فى تقريب مسافة الخلف بينهما

(١) الكامل فى التاريخ ج٨، ص ١٤٩ .

(٢) مسكويه: تجارب الأمم، ج٢، ص ٨٧ .

Noeldeke, Sketches From Eastern History P. 88 .

(٣) نقف مما ورد فى كتاب «سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة» أن من بين القاب بنى بويه، شاهنشاه المعظم ملك الملوك، سلطان الدولة، معز أمير المؤمنين ويمين خليفة الله، كما لقبوا أحياناً بلقب أمير الأمراء .

أما Stanley Lane - Poole فى كتابه Muhammadan Dynasties p. (140) فيذكر أن أمراء بنى بويه لم يتخذوا لأنفسهم لقب سلطان على السكة، وإنما استعملوا لقب أمير وملك .

(راجع حاشية رقم ٥، كتاب : تاريخ الإسلام السياسى، ج٣ ص ١٠١ - ١٠٢).

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ج٣ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

وتعاونهما على إيقاف هذا العدو المشترك عند حده؛ ويتبين لنا ذلك من الكتاب الذى بعثه العزيز مع أحد رسله إلى عضد الدولة سنة ٣٦٩ هـ، وقد جاء فيه ^(١) «... إن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك، فأدى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين؛ فسر أمير المؤمنين بما سمعه عنك ووافق ما كان يتوسمه فيك، وأنت لا تعدل عن الحق... وقد علمت ما جرى على ثغور المسلمين من المشركين، وخراب الشام وضعف أهله، وغلاء الأسعار. ولولا ذلك لتوجه أمير المؤمنين بنفسه إلى الثغور، وسوف يقدم إلى الحيرة، وكتابه يقدم عليك عن قريب، فتأهب إلى الجهاد فى سبيل الله».

ومما هو جدير بالذكر أن رسول العزيز بالله الفاطمى لما وصل إلى بغداد استقبل استقبالاً حافلاً، فقد اصطفت الجند على جانبي الطريق، وأخذ القواد وكبار رجال الدولة أماكنهم كل على حسب مكانته، على حين جلس الخليفة الطائع وراء الستر، حتى إذا ما رفع هذا الستر رأى الحاضرون الخليفة جالساً على عرش مرتفع ويحيط به مئات الحراس ممتشقين سيوفهم، مرتدين أبهى حللهم، وأمام الخليفة مصحف عثمان، وعلى كتفيه بردة الرسول ﷺ، ويده قضيب الملك، وتقدم عضد الدولة البويهى وقبل الأرض. هنا سأل رسول الخليفة الفاطمى - وقد أخذت الدهشة منه كل مأخذ - من هذا الذى تسجد له وتقبل الأرض بين يديه؟ أهو الإله العظيم، فأجابه عضد الدولة: إنه خليفة الله وظله على الأرض ^(٢).

لما وصل كتاب العزيز إلى عضد الدولة، أرسل إليه ردّاً، أقره فيه على انتمائه لأهل بيت رسول الله وأظهر استعداداه لتنفيذ أوامره ^(٣). وقد علق أبو المحاسن ^(٤) على هذا الكتاب الذى أرسله عضد الدولة البويهى إلى الخليفة العزيز

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٢٧ - ٢٧١. Arnold, the Caliphate p. 66 - 67.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ١٢٥.

(٤) النجوم الزاهرة: ج٤، ص ٢٥.

بقوله: «وأنا أتعجب من كون عضد الدولة كان إليه أمر الخليفة العباسي ونهيه، ويقع في مثل هذا خلفاء مصر؛ وقد علم كل أحد ما كان بين بنى العباس وخلفاء مصر من الشنآن. وما أظن عضد الدولة كتب له ذلك إلا عجزاً عن مقاومته، فإنه قرأ كتابه في حضرة الخليفة الطائع، وأجاب بذلك أيضاً بعلمه، فهذا من العجب».

على أن هذه السياسة التي كانت تنطوى على التودد بين الخليفة الفاطمي وعضد الدولة البويهى ما لبثت أن تبدلت في أواخر عهد هذا الأمير، بل نراه يجهز قواته لغزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن اتضح له خطر الدولة الفاطمية على سلطان بنى بويه؛ فقد ذكر أبو منصور عبد القاهر البغدادى في كتابه الفرق بين الفرق^(١) أن عضد الدولة تأهب للسير إلى مصر وانتزاعها من أيدي الباطنية، وكتب على أعلامه: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين، الطائع لله أمير المؤمنين، ادخلوا مصر إن شاء الله آمين.». لكن هذه المحاولة لم تتم بسبب وفاة عضد الدولة. وقد قيل إن ما قام به هذا الأمير كان نتيجة لشكه في نسب الفاطميين، ذلك أنه دعا العلويين ببغداد، وقال لهم: «إن الخليفة بمصر يدعى أنه علوى، فأنكروا انتسابه إليهم؛ فبعث إلى العزيز رسولا يقول له: نريد أن نعرف ممن أنت؛ فعظم ذلك على الخليفة الفاطمي وأزمع رسول عضد الدولة على العودة إلى بغداد، وبينما هو في طريقه إليها قتل بطرابلس^(٢)».

على الرغم من أن البويهيين لم يعملوا على مناصرة الفاطميين في بداية عهدهم بالعراق، فإنهم ظلوا طوال حكمهم يشجعون المذهب الشيعي الذي يدينون به وقربوا إليهم أتباع هذا المذهب ليستعينوا بهم على تحقيق سياستهم في العراق، بل عرفوا بتعصبهم للشيعة مما أدى إلى قيام الثورات من حين إلى حين بين الشيعيين والسنيين في بغداد. وليس أدل على ذلك مما قام به بهاء الدولة بن عضد الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ)، فقد تعصب لأهل الشيعة في بغداد حين وطدوا عزمهم على

(١) ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٢) المقرئى: اتعاط الحنفا، ص ٣٦ .

مناصرة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي بمصر سنة ٣٩٨ هـ، وصاحوا: يا حاكم، يا منصور. وكان لتحيز هذا الأمير لهم أثر سيئ في نفس القادر بالله العباسي (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) فأمد السنين بفرق من حرسه حتى يستطيعوا الوقوف في وجههم، ومن ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين. وانتهى الأمر بهزيمة أهل الشيعة (١).

لم يدخر الفاطميون جهداً في سبيل نشر الدعوة الفاطمية في بلاد العراق؛ فأقيمت الدعوة للخليفة العزيز سنة ٣٨٢ هـ في الموصل على يد أميرها أبي الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلي (٢)، كذلك نجح الحاكم بأمر الله الفاطمي في استمالة قرواش بن المقلد الملقب بمعتمد الدولة - أمير بني عقيل (٣) - الذي آلت إليه السيادة في الموصل؛ فخرج على طاعة الخليفة العباسي القادر بالله سنة ٤٠١ هـ، وقام بنشر الدعوة الفاطمية في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، كما أحل اسم الحاكم بأمر الله في الخطبة محل الخليفة العباسي.

يقول أبو المحاسن (٤) عن إقامة الخطبة في الموصل للحاكم بأمر الله «أحضر (معتمد الدولة) الخطيب يوم الجمعة رابع المحرم (سنة ٤٠١ هـ) وخلع عليه قباء ديبقيا وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين، وقلده سيفاً وأعطاه نسخة ما يخطب به» وإليك بعض ما ورد في هذه الخطبة (٥): «... اللهم وصل

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٤.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص ٢٠١.

(٣) كان بنو عقيل من القبائل العربية (بنو كلاب وبنو ثمير وبنو خضاعة) يقيمون بين الجزيرة والشام، ولما أسس الحمدانيون دولتهم في الموصل، صاروا من رعاياهم، يؤدون إليهم الإتاوة ويخرجون معهم في الحرب. على أن بنو عقيل سرعان ما تطلعوا إلى امتلاك البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى دولة بنو حمدان، فاستولى أميرهم أبو الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد على نصيبين سنة ٣٧٩ هـ، ثم سار إلى الموصل وضمها إلى حوزته في السنة التالية، وأقره بهاء الدولة بن بويه عليها. لكنه لم يتمتع بولايتها طويلاً، فقد عزله البويهيون سنة ٣٨٢. ولما توفي أبو الدرداء سنة ٣٨٦ هـ، استعاد أخوه المقلد ولاية الموصل وأسس بها دولة العقيليين التي ظلت قائمة حتى سنة ٤٨٩ هـ.

ابن الأثير: ج٩، ص ٢٦، ابن خلدون: العبر، ج٤، ٢٥٤ - ٢٥٦.

(٤) النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٢٢٤.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

على وليك الأزهر، وصديقك الأكبر، على بن أبي طالب أبي الخلفاء الراشدين المهديين، اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين، وعلى الأئمة الأبرار والصفوة الأخيار، من أقام وظهر، ومن خاف فاستتر. اللهم وصل على الإمام المهدي بك، والذي بلغ بأمرك وأظهر حجتك ونهض بالعدل في بلادك. اللهم وصل على القائم بأمرك والمنصور بنصرك، اللذين بذلا نفوسهما في رضائك، وجاهدا أعداءك. اللهم وصل على المعز لدينك، المجاهد في سبيلك. . . اللهم وصل على العزيز بك الذي مهدت به البلاد وهديت به العباد. اللهم واجعل نوامي صلواتك وزواكي بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان وحصن الإيمان وصاحب الدعوة العلوية، عبدك ووليك المنصور أبي على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الراشدين. اللهم وفقنا لطاعته، واجمعنا على كلمته ودعوته، اللهم وأعنه على ما وليته، واحفظه فيما استرعيته. . وانصر جيوشه وأعل أعلامه في مشارق الأرض ومغاربها، إنك على كل شيء قدير».

استاء الخليفة القادر بالله العباسي حين بلغه نبأ ذبوع الدعوة الفاطمية في بعض بلاده، وأنفذ القاضي أبا بكر الباقلاني إلى الأمير بهاء الدولة ليخبره بالخطر الذي يهدد دولته من ناحية الفاطميين، ويطلب منه العمل على مناهضة نفوذهم^(١)؛ فعزل بهاء الدولة عن تأييد الحاكم بأمر الله إجابة لرغبة الخليفة العباسي، وأرسل جيشاً إلى ابن المقلد اضطره وقف الدعوة للحاكم في بلاده وإقامة الخطبة للقادر بالله^(٢).

كذلك رأى الخليفة القادر بالله العباسي بعد أن تجلّى له نجاح الدعوة الفاطمية في بعض بلاد العراق أن يلجأ في محاربة الفاطميين إلى سلاح التشهير بسمعتهم في العالم الإسلامي، لعله يصل من وراء ذلك إلى القضاء على نفوذهم؛ فعقد اجتماعاً دعا إليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة، وأصدروا في شهر ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ محضراً يتضمن الطعن في نسب الفاطميين

(١) ابن خلدون. العبر، ج٢، ص ٤٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٦، ص ٧٦ - ٧٧.

خلفاء مصر وفى شرعية إمامتهم، وأنهم ليسوا من آل البيت، وقرئت نسخ من هذا المحضر فى بغداد. وكان من بين الموقعين عليه الشريف الرضى وأخوه المرتضى، وفريق من أكابر العلويين. وكان مما ورد فيه: (. . فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم . . هو ومن تقدمه من سفلة الأرجاس الأنجاس، أدعياء، خوارج، لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب، وأن ذلك باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أن أحداً من الطالبين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء. وقد كان هذا الإنكار شائعاً بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب. أن هذا الناجم بمصر هو وسلفه . . قد عطلوا الحدود، وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية^(١) » .

على أنه يتضح لنا مما ورد فى كل من ابن الأثير^(٢) والمقريزى^(٣) أن الشريف الرضى الموسوى العلوى امتنع عن توقيع هذا المحضر، يؤيد هذا القول تلك القصيدة التى نظمها وأثبت فيها صحة نسب الفاطميين، غير أن هذه القصيدة لم ترد فى ديوان شعره خوفاً من الخليفة العباسى القادر بالله وإرضاء لأبيه.

وإليك بعض أبياتها:

ما مقامى على الهوان وعندى مَقُولٌ صارمٌ وأنفٌ حمى^١
ألبسُ الدلَّ فى بلاد الأعْـمَـادى وبمصر الخليفة العلوى^٢
من أبوه أبى ومولاه مولا ي إذا ضامنى البعيد القصى^٣
لفَّ عرقى بعرقه سيِّداً لنا س جميعاً : محمدٌ وعلى^٤
إن ذلى بذلك الحى عَزْزُ وأوامى بذلك الرِّبْع رى^٥

* * *

أثارت هذه الأبيات غضب الخليفة القادر بالله؛ فبعث إلى الشريف أبى أحمد الموسوى والد الشريف الرضى يعاتبه على ما جاء فى قصيدة ابنه، بقوله: «قد

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) الكامل فى التاريخ، ج٨، ص ٨ .

(٣) اتعاظ الخفا، ص ٥٠، ٤٣ - ٤٤ .

عرفت منزلتك منا وما لا تزال عليه من الاعتداد بك في الدولة من مواقف محموده، ولا يجوز أن تكون أنت على خليقة ترضاها، ويكون ولدك على ما يضادها»، فاستدعى أبو أحمد ابنه، وقال له: «اكتب خطك إلى الخليفة باعتذار واذكر فيه أن نسب المصري مدخول، وأنه مدع في نسبه» فقال الشريف الرضي: لا أفعل؛ فقال أبوه: أتكذبنني في قولي، فقال الشريف الرضي: ما أكذبك ولكني أخاف من المصري، ومن الدعاة التي له في البلاد؛ فقال أبوه: أتخاف ممن هو بعيد عنك وتراقبه وتسخط ممن هو قريب وأنت برأى منه ومسمع، وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك.

لم يقف تيار الدعوة الفاطمية في بلاد العراق رغم ما بذله الخليفة القادر بالله العباسي من مجهود للقضاء على النفوذ الفاطمي في بلاد الدولة العباسية؛ فقد أتيحت الفرصة لدعاة الفاطميين لمواصلة جهودهم في نشر دعوتهم وصادفوا كثيراً من النجاح حين ساد الاضطراب في بلاد العراق في مستهل القرن الخامس الهجري بسبب تنافس أمراء بني بويه على السلطة؛ فقام النزاع بين سلطان الدولة الذي ولي الحكم في العراق، سنة ٤٠٣ هـ وابن أخيه أبي الفوارس؛ ويعزو ابن الأثير^(١) هذا النزاع إلى إغراء الديلم أبا الفوارس بمحاربة أخيه وأخذ ما بيده من البلاد، كما دارت الحرب بين جلال الدين وابن أخيه أبي كاليجار الذي استمال إليه بعض أمراء العراق، واستولى على البصرة وواسط، ثم تمكن جلال الدولة من استردادهما. كذلك كان لازدياد نفوذ الأتراك أثره في سوء الحالة في بلاد العراق، فقد أخذوا يتدخلون في تولية أمراء بني بويه وعزلهم، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء، ولم يكن الخليفة يملك إلا تنفيذ رغباتهم. وكان هؤلاء الأتراك ينزعون دائماً إلى الخروج على حكامهم طمعاً في ابتزاز الأموال. وقد قاموا بعدة محاولات ترمي إلى خلع جلال الدولة وتولية ابن أخيه أبي كاليجار في السلطنة من بعده^(٢).

لم تكن حقيقة الحال في بلاد العراق خافية عن الحكومة الفاطمية في مصر؛ فلما وصل إلى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي ما حل ببغداد من الفوضى

(١) الكامل في التاريخ، ج٩، ص ١٠١.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي؛ ج٣، ص ١٢٧ - ١٢٨.

بسبب النزاع والمنافسة بين أمراء بني بويه، والخلاف بين جند الأتراك، رأى أن ينتهز هذه الفرصة ليتابع سياسة أسلافه في نشر الدعوة الفاطمية ببلاد العراق؛ فأرسل في سنة ٤٢٥ هـ إلى بغداد بعض دعائه؛ فاستجاب لهم كثير من الناس^(١).

كان للجهود التي بذلها الفاطميون لنشر دعوتهم عن طريق دعائهم في بلاد الدولة العباسية وعلى الأخص منذ بداية القرن الخامس الهجري أثرها في حمل العباسيين على بث الدعايات السيئة ضد الفاطميين للحط من شأن الخلافة الفاطمية. ولعل أهم ما قاموا به لتحقيق هذه الغاية هو تنفير المسلمين منهم بادعائهم عدم صحة نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة. وقد سار الخليفة القائم بأمر الله العباسي على سياسة أبيه القادر بالله في النيل من الفاطميين ومناهضة نفوذهم؛ فأصدر ديوانه ببغداد سنة ٤٤٤ هـ محضراً تضمن إنكار انتساب الفاطميين لأهل البيت^(٢).

(١) المقرئى: اتعاظ الخنفاء، ص ٢٧٦.

(٢) أبو المحسن : النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٥٣.

٢- حركة البساسيري في العراق

لم تكن حالة الخلافة العباسية في عهد القائم بأمر الله أحسن منها في عهد من سبقه من الخلفاء؛ فقد تجلّى في أيامه استئثار بنى بويه بالسلطة، وقيام النزاع والمنافسة بين أمرائهم من جهة، وبينهم وبين الجند من جهة أخرى؛ ففي سنة ٤٢٤هـ، ظهر التنافس بين جلال الدولة وابن أخيه أبي كاليبجار؛ كما ثار جند الأتراك على جلال الدولة ونهبوا داره وكتبه ودواوينه سنة ٤٢٦هـ، وأقاموا الخطبة ببغداد لأبي كاليبجار - وكان إذ ذاك بالأهواز، غير أنهم ما لبثوا أن اعتذروا له وأعادوه إلى مكة^(١). ولما توفي جلال الدولة سنة ٤٣٥هـ، وخلفه ابنه الأكبر أبو منصور فيروز الذي لقبه الخليفة «الملك العزيز» غير أنه لم يتمكن من الاحتفاظ بسلطة أبيه فترة طويلة، فقد أرسل أبو كاليبجار بن سلطان الدولة إلى كبار القواد يستميلهم إليه ويعدّهم بإغداق الأموال عليهم؛ فمالوا إلى تأييده وانصرفوا عن «الملك العزيز»؛ وبذلك استطاع كاليبجار دخول بغداد، وأقيمت له الخطبة بهذه المدينة في صفر سنة ٤٣٦هـ^(٢). واعترف بنفوذه سائر أمراء العراق.

ظل أبو كاليبجار بعد توليته أمور العراق يعنى بشئون فارس فقضى على حركات الثوار في أصبهان وكرمان، كما عمل على إصلاح ما بينه وبين طغرل بك السلجوقي الذي استولى على خراسان والرى؛ فعقد معه الصلح سنة ٤٣٩هـ، وتوثقت عرى المودة بينهما برباط المصاهرة، يقول ابن الأثير^(٣): «كتب طغرل بك إلى أخيه (إبراهيم ينال) يأمره بالكف عما وراء ما بيده، واستقر الحال بينهما على أن يتزوج طغرل بك بابنة أبي كاليبجار، ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليبجار بابنة الملك داود أخى طغرل بك». كذلك عمد أبو كاليبجار إلى التقرب من الفاطميين ليتخذهم وسيلة لإرهاب العباسيين حتى لا يحاولوا الاستعانة بالسلاجقة الذين يهددون سلطان بنى بويه ذلك الحين.

كانت الدعوة الفاطمية إذ ذاك قد لقيت تأييداً عند الديلمة في فارس على يد الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي^(٤) الذي قام بدور هام في نشر الدعوة

(١) ابن خلدون: العبر، ص ٤٤٨ - ٤٥٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٧٨ - ١٨١.

(٣) الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٨٤.

(٤) ولد المؤيد في الدين هبة الله في شيراز سنة ٣٩٠هـ وأخذ عن والده موسى بن داود علوم الدعوة الفاطمية، كما شاهد في صباه أحمد حميد الدين الكرمانى كبير دعاة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله في فارس، ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بملرسه. وبلك المؤيد نشاطاً كبيراً في «استمالة أمراء بنى بويه إلى الفاطميين».

(مقدمة سيرة المؤيد في الدين داعي الدعوة؛ ص ١٢ - ١٤).

للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بلاد الفرس والعراق، واستطاع بسياسته أن يجذب الملك أبا كاليجار البويهى إلى هذه الدعوة^(١).

وقد وضح هبة الله في سيرته، كيف كان يجتمع بالملك أبى كاليجار ليلقنه أصول الدعوة الفاطمية، فقال: «كنت كل ليلة جمعة أمكث عنده إلى أن يمضى هزيع من الليل، وهو يسألنى عما يهيجس فى نفسه، وكنت أجيب عنه جواباً يظهر أكثر تباشير الفرح فى وجهه، وأسأله كيف وقع هذا الجواب منك، فربما حرك رأسه يعنى أنه جيد، فلا أرضى دون أن أقرره بلسانه أنه ما دخل فى مسامعه مثله...؛ وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمععات على أن يتدئ بقراءة شىء من قوارع القرآن، ويثنى بباب من كتاب الدعائم^(٢)، ويثلى بأن يسأل عما يريده فأجيبه عنه. وأختم بالتحميد والخطبة لمولانا الإمام خلد الله ملكه...، ومن جملة ما كنت قررته معه أننى غير ناهيه من استماع ما يريد استماعه من أى لسان كان، من أى مذهب كان، ولكن يرجع به إلى، ويسألنى عما عنده فيه فإن وجد الرجحان فيما عندى لزمه أن يرفض أقوالهم ويعمل بما هو أنجى له وأرجى لخلاصه».

لما رأى الخليفة القائم بأمر الله العباسى الخطر الذى يهدد كيان دولته ومذهبه السنى فى بلاد الفرس والعراق من جراء نشاط المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى فى نشر الدعوة الفاطمية، بعث رسولا من قبله إلى الملك أبى كاليجار يطلب إليه تسليم داعى الفاطميين ويهدده بالاستعانة بالسلاجقة وإغرائهم بالاستيلاء على ما يمتلكه من البلاد^(٣)؛ فلم يحفل أبو كاليجار فى بادئ الأمر بهذا التهديد ثم أنفذ رسالة إلى هبة الله الشيرازى، حذره فيها من عاقبة بقائه فى شيراز بقوله^(٤): «لا شك أن هذه الضجة التى كادت تخرق الأرض وتشق الجبال وقعت فى مسامعك،

(١) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعوة، ص ٤٣.

(٢) يعرف هذا الكتاب باسم «دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام». ويعد من أهم مراجع فقه الإسماعيلية؛ وقد ألفه القاضى أبو حنيفة النعمان ابن أبى عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون التميمى، وكان النعمان مالكى المذهب ثم اعتنق المذهب الإسماعيلى، ودخل فى خدمة عبيد الله المهدي حول سنة ٣١٣ هـ؛ واقتصر عمله فى عهد المهدي والقائم والمنصور على جمع ونشر كتب المذهب الإسماعيلى؛ واتخذ المنصور والمعز قاضيا لهما؛ وتوفى سنة ٣٦٣ هـ فى خلافة المعز لدين الله.

(راجع: كتاب المعز لدين الله لحسن إبراهيم وطه شرف: ص ٢٥٨).

(٣) سيرة المؤيد فى الدين، ص ٥٦.

(٤) المرجع نفسه، ٦٤.

وعلمت أن هذه الأمم، لا يحصيها إلا الله سبحانه، أعداؤك وخصماؤك؛ وكانوا أعداءنا فيك أيام كنا نقربك وندنيك، وينبغي الآن أن تأخذ لنفسك وتبتغي سبيل نجاتك، وتفرغ هذه الممالك؛ ثم تأخذ أى صوب شئت».

على أن الملك أبا كاليبجار لم يكتف بهذه الرسالة التى بعث بها إلى هبة الله الشيرازى، بل أرسل إليه وفداً من كبار رجاله، فلما التقوا به عبروا له عن أسف الملك للصعاب التى سببها إذا نفذ ما كلفه به من الرحيل عن تلك البلاد، كما قدموا إليه كتاب الخليفة العباسى الذى تضمن التواعد بطغربك والطعن فى نسب الفاطميين؛ وقد جاء فيه^(١) : «والقول إنه إن كانت دعوة تعزى إليهم فى الأيام المتقدمة، فلقد كانت فى الخفاء والستر . . . وإن أحداً ما جسر على مثل ما جسر عليه هذا الرجل (هبة الله الشيرازى) . . . من الوقوف فى بعض مواقف إظهاره وإشهاره والتجرد لدفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة وإزالة أسامينا بالكلية، وأنه إذا سومح فى بابه وأهمل تسليمه فى يد صاحبنا، فقد أخرجتمونا من عهدة الأيمان والعهود بيننا وبينكم، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم . . .».

ظل هبة الله الشيرازى رغم ما وصله عن اهتمام الخليفة القائم بأمر الله بالقضاء على جهوده واضطرار أبى كاليبجار إلى الانصراف عن تأييد دعوته حريصاً على ولائه للفاطميين؛ فأجاب وفد الملك البويهى الذى أطلعه على كتاب للخليفة العباسى بأنه لا يعرف خليفة غير المستنصر بالله (الخليفة الفاطمى بمصر)؛ ثم أزمع الرحيل من شيراز وسار قاصداً مصر سنة ٤٣٨ هـ؛ وهناك سعى إلى لقاء الإمام المستنصر بالله؛ فوجد من وزيره صدقة بن يوسف الفلاحى ترحيباً لإجابة هذه الرغبة. وقد وصف هبة الله الشيرازى فى سيرته^(٢) كيف دخل إلى مجلس الخلافة بالقاهرة وحظى بمقابلة الخليفة الفاطمى، فقال: « فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة وغلبتنى العبرة، وتمثل فى نفسى أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين - ﷺ - مائل، وبوجهى إلى وجهيهما مقابل، واجتهدت عند وقوفى إلى الأرض ساجداً لولى السجود ومستحقه، أن يشفعه لسانى بشفاعه حسنة بنطقه

(١) المرجع نفسه، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) ص ٨٥ - ٨٦ .

فوجدته بعجمة المهابة معقولا، وعن مزية الخطابة معزولا. . ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول، وكلما استطرد الحاضرون منى كلاماً ازدادت إعجاباً. وهو خلد الله ملكه يقول: «دعوه حتى يهدأ ويستأنس»، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترسفتها وتركتها على عيني وصدري، وودعت وخرجت».

ولا شك أن المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى يعد من أنخلص دعاة الفاطميين الذين اتخذوا بلاد المشرق مركزاً لنشر دعوتهم . وقد استطاع بفضل ما أوتي من حكمة ودهاء، وما عرف عنه من حرص على التمسك بولائه للخلافة الفاطمية أن ينجح في تحويل كثير من أهالى هذه البلاد إلى المذهب الفاطمى مما أدى إلى ضعف نفوذ العباسيين في بعض بلاد المشرق. وليس أدل على ذلك من أن الديلمة قد أصبحوا - كما يقول المؤيد في الدين - «إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين». وكان ذلك مما أثار حنق الخليفة العباسى ورجال دولته، فتعاونوا جميعاً على الوقوف في وجه دعاة الفاطميين.

وكان الخليفة القائم بأمر الله العباسى وقتذاك يواجه كثيراً من الصعاب عاقته عن استعادة نفوذه في دولته؛ فضلاً عن انتشار الدعوة الفاطمية في بعض بلاده، ظل أمراء بنى بويه رغم تنازعهم وتنافسهم على السلطة قابضين على زمام الأمور في بلاد الفرس والعراق؛ فلما توفي الملك أبو كاليجار سنة ٤٤٠ هـ ببلدة جناب بكرمان، استدعى ابنه أبو نصر خسرو فيروز - وكان ينوب عنه إذ ذاك ببغداد- الجند واستحلفهم، كما أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله يطلب منه أن يأذن له بذكر اسمه في الخطبة ويلقبه بالملك الرحيم؛ فأجابه الخليفة إلى طلبه الأول، وامتنع عن تلقية بهذا اللقب^(١). وقال: «لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى» واستقر ملك الأمير البويهى بالعراق وخوزستان والبصرة^(٢). وكان بعض إخوته ينافسونه في بسط سلطانهم على بعض الولايات حتى أصبحت مدن فارس والعراق مراكز للنزاع بينه وبينهم^(٣).

(١) ذكر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة، ج٥ ص ٤٦) أن الخليفة القائم بأمر الله لقب الأمير أبا نصر «الملك الرحيم»، وخلع عليه خلع السلطنة. وكانت الخلع سيع جباب كاملة، والتاج، والطوق، والسوارين واللواءين، وهذا يخالف ما أورده ابن الأثير (ج٥، ص ١٨٩) عن أن الخليفة العباسى لم يوافق على منح الأمير أبى نصر لقب «الرحيم».

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ج٣، ص ١٣٥.

ومن بين الصعاب التي صادفت الخليفة القائم بأمر الله ثورات الجند الذين كانوا إذ ذاك يتألفون من عناصر مختلفة، أهمها: العرب والديلم والأتراك، وقد أثار هؤلاء الجند كثيراً من الشغب في بغداد. وكان العنصر التركي أقوى هذه العناصر نفوذاً؛ فقد تدخل في عزل بعض أمراء بني بويه وتولييتهم، كما قام الأتراك بفتنة في بغداد سنة ٤٤٦ هـ يرجع سببها إلى تدميرهم من وزير الملك أبي كاليجار الذي ماطلهم في رد الأموال المتبقية لهم، فحاصروا دار الخلافة مما أرعج الناس وحملهم على إخفاء أموالهم. وبلغت الفوضى ذروتها في بغداد حين ركب جماعة من الأتراك ونهبوا دار الروم، وأخذوا في نهب الوافدين إلى بغداد، الأمر الذي أدى إلى غلاء الأسعار وندرة الأقوات. ولما وقف الخليفة العباسي على هذه الأحداث التي ارتكبها الأتراك، أرسل إليهم ينهاتهم عن إثارة الاضطرابات في المدينة ويطلب إليهم الإخلاء إلى السكينة، فلم يذعنوا لأوامره، وظلوا مصدر قلق واضطراب حتى بعد أن رأي وزير الملك الرحيم أن يعيد إليهم الأموال المتبقية لهم^(١).

كان من قواد بني بويه الأتراك في ذلك الوقت أبو الحارث أرسلان البساسيري^(٢) الذي أعان الملك الرحيم في الاستيلاء على البصرة سنة ٤٤٤ هـ من يد أخيه أبي علي بن أبي كاليجار، ووطد سلطانه^(٣) بها، كما أوقع في السنة التالية بالأكرد والأعراب الذين عاثوا فساداً في بعض بلاد العراق وقطعوا الطريق طمعاً في السلطنة. ولما قامت فتنة الأتراك ببغداد سنة ٤٤٦ هـ لم يعمل البساسيري على مؤازرتهم، بل أقام دار الخلافة وأظهر استيائه من حركتهم^(٤).

أرداد نفوذ البساسيري في العراق بعد أن عينه القائم بأمر الله رئيساً للأتراك، وما لبث أن استبد بالسلطة في بغداد حتى أصبح الخليفة العباسي «لا يقطع أمراً دونه، ولا يحل ويعقد إلا عن رأيه»، كما هابه أمراء العرب والعجم، ودعى له على كثير من منابر بلاد العراق والأهواز ونواحيها، وصار يشرف على ما يدخل بيت المال من الإيراد^(٥). وقد أثار علو شأن البساسيري كوا من الحقد في نفس

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص ٢٠٧.

(٢) كان أبو الحارث أرسلان مولى لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي النحوي وما زالت تنتقل به الأحوال حتى أصبح من ممالك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه. وقد عرف بالبساسيري نسبة إلى بلدة بفارس يقال لها بسا، وتقع على أربعة مراحل من شيراز، وبها جمع كبير من الديلم.

(المكين بن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٧٦، ابن ميسر: تاريخ مصر. ص ١١).

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٢، ص ٤٥٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج٩ ص ٢٠٣، ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٩، ص ٣٩٩ - ٤٠٠، ابن خلكان وفيات الأعيان، ج١، ص ٧٦.

الوزير أبي القاسم على بن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء، فأخذ يفسد ما بينه وبين الأمراء والخليفة.

على أن البساسيري وإن كان قد استفحل أمره في بغداد حتى أصبح الخليفة العباسي والسلطان البويهى معه ضعيفى الجانب، فإنه ما لبث أن واجه بعض الصعاب من جراء ما قام به أبو المعالى قريش بن بدران أمير الموصل من محاصرة مدينة الأنبار والاستيلاء عليها ونهبها ثم إقامته الخطبة على منابرها للسلطان طغرل بك؛ فاستاء البساسيري من جرأة أمير الموصل على مهاجمة البلاد التى تحت سلطانه، وثار ثائرتة حين وصل إليه أن رسولين من قبل هذا الأمير قدما إلى بغداد وأكرم القائم بأمر الله وفادتهما؛ فعد هذا الموقف من الخليفة تحدياً له وأظهر عدم ارتياحه، وقال: هؤلاء وصاحبهم (أمير الموصل) كبسوا حلل أصحابى ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا فى إهلاك الناس»، واستقر رأيه على إلقاء القبض عليهما، لكنه لم يتمكن من تنفيذ غرضه ونسب إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم) أنه يقف حائلاً دون تنفيذ رغباته؛ فكان ذلك من أكبر العوامل التى أدت إلى تبدل العلاقات بين البساسيري والخليفة العباسي القائم بأمر الله^(١).

على أن رئيس الرؤساء لم يعدل عن خطته في العمل على الكيد للبساسيري وإضعاف شأنه، فأثار الأتراك البغداديين ضده باتهامه أنه تسبب فى كل ما جرى عليهم من نقص فى مرتباتهم، فأدى ذلك إلى استيائهم منه، وما لبثوا أن عبروا عن سخطهم عليه فى هجومهم على دوره، واستيلائهم على جميع أملاكه ببغداد. ولم تكن العوامل التى دفعت الأتراك إلى القيام بهذه الحركة خافية عن البساسيري، فزاد حنقه على رئيس الرؤساء حين ثبت لديه أنه أوعز إلى الأتراك بالخروج عليه^(٢).

وكان من الأخطار التى هددت إذ ذاك الخلافة العباسية، تقرب بنى بويه من الفاطميين على يد المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى، وميل عدد قليل من جند بويه من الديلم والأتراك إلى دعوتهم^(٣)؛ بل إن البساسيري نفسه تأثر بهذه الدعوة، وأصبح يرى وجوب الانحياز إلى الفاطميين بعد أن ساءت علاقته بالخليفة العباسي وأيقن من إعراضه عنه.

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٢١١.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ج٣، ١٣٦ - ١٣٧.

على أن القائم بأمر الله لم يتضح له موقف البساسيري منه إلا بعد أن كتب إليه وزيره (رئيس الرؤساء) أن البساسيري يعمل على خلعه؛ وأنه راسل المستنصر بالله الخليفة الفاطمي بمصر. فلما تحقق عند الخليفة القائم العباسي صحة ما نسب إلى البساسيري من عزمه على الخروج عليه ومكاتبته الفاطميين بمصر، عمل على الحد من نفوذه؛ فأرسل إلى الملك الرحيم البويهى رسالة يقول فيها: «إن البساسيري خلع الطاعة وكاتب الأعداء (يعنى المصريين)، وأن الخليفة له على الملك عهد وله على الخليفة مثلها، فإن أثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعدته وأصعد إلى بغداد تولى الديوان تدبير أمره؛ فأظهر الملك الرحيم استعداداه لإجابة طلب الخليفة بإبعاد البساسيري عن بغداد، كما أن البساسيري نفسه لما علم بما تضمنته رسالة القائم العباسي رحل إلى الحلة^(١) حيث نزل على أميرها ديبس بن مزيد لمصاهرة بينهما^(٢)؛ فظل مقيما بها حتى اضطر إلى المسير إلى الرحبة^(٣) بعد أن دخل طغربك بغداد سنة ٤٤٧ هـ^(٤).

لم تكن الحالة في بلاد العراق في الوقت الذي شغل فيه القائم بأمر الله العباسي بالتغلب على الصعاب الداخلية التي واجهته خافية عن السلاجقة الذين ازداد نفوذهم إذ ذاك في شرق الدولة الإسلامية؛ فعمدوا إلى انتهاز هذه الفرصة لمواصلة جهودهم لبسط سيادتهم على أراضي هذه الدولة. ففي أوائل سنة ٤٤٧ هـ. أظهر طغربك «أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوي صاحبها»، وأمر أصحابه بإعداد الأقوات والمؤن، ثم أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله أنه يدين له بالطاعة ويستأذنه في دخول بغداد - وهو في طريقه إلى مكة-؛ فأذن له كما أمر الخطباء بإقامة الخطبة على منابر بغداد؛ فتم له ذلك في أواخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ^(٥).

على أن العامة في بغداد، أظهروا تذمرهم من دخول طغربك هذه المدينة وتمكنوا بفضل مساعدة بعض الأتراك من قتل فريق من جند السلاجقة^(٦)؛ فاستاء

(١) تعرف بحلة بنى مزيد، وتقع بين الكوفة وبغداد.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩ ص ٢١١.

(٣) مدينة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٤٦٠.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٩، ص ٤٥٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩ ص ٢١٢.

من ذلك طغرلبيك، واستدعى الملك الرحيم البويهى وأتباعه، واتهمهم بتدبير ما حدث، ثم قبض عليهم، وأرسل الملك الرحيم إلى قلعة على مقربة من الرى؛ فظل معتقلاً بها ثلاث سنوات ثم توفى^(١).

ولما بلغ الخليفة العباسى ما حل بالملك البويهى وأتباعه، بعث إلى طغرلبيك ينكر عليه سياسة العنف التى لجأ إليها على أثر دخوله بغداد ويقول: «إنهم إنما خرجوا إليك بأمرى وأمانى، فإن أطلقتهم وإلا فأنا أفارق بغداد، فإنى إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً منى أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد وحرمة الحرم تعظم، وأرى الأمر بالضد^(٢)». فأطلق السلطان السلجوقى سراح بعضهم، واستولى على جميع إقطاعات عسكر الملك الرحيم؛ فكان ذلك مما حمل كثيراً منهم على الرحيل إلى البساسيرى والالتفاف حوله، فكثرت بهم عدد أنصاره^(٣).

ولما طال مقام السلاجقة ببغداد، ولحق أهلها بسببهم كثير من الضرر والأذى، رأى الخليفة القائم بأمر الله أن يبلغ عميد الملك الكندرى وزير السلطان طغرلبيك بما يعانىة الأهالى من جراء إقامة جند السلاجقة بينهم؛ فمضى إلى السلطان وأطلععه على حقيقة الحال فى بغداد فاعتذر بكثرة الجند وعجزه عن تهذيبهم؛ وأصدر أوامره بإخراجهم من دور العامة، ثم ما لبث أن استقر رأيه على الرحيل عن بغداد للتخفيف عن أهلها، وغادرها فى أواخر سنة ٤٤٨ هـ. بعد أن ظل بها ثلاثة عشر شهراً لم يحظ فيها بمقابلة الخليفة^(٤).

أخذ البساسيرى فى توطيد علاقاته مع رجال الحكومة الفاطمية فى مصر بعد رحيله إلى الرحبة؛ فأرسل إلى المستنصر بالله الفاطمى يعلن له دخوله فى طاعته، كما تبودلت المكاتبات بينه وبين الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى الذى كان إذ ذاك بالقاهرة يرقب نشاطه فى بلاد العراق؛ ومن بين الكتب التى أرسلها هذا الداعى إلى البساسيرى، كتاب وصله قبيل قدومه إلى الرحبة، وأخبره فيه أنه سيكون عوناً له ولجنوده البغداديين. فبعث إليه البساسيرى كتاباً تضمن شكره والتماسه النجدة. وقد جاء فيه: «فإن أخذتم بأيدينا، أخذنا لكم البلاد، وإن قلدتمونا نجاد نصركم وإنجادكم، فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد^(٥)».

(١) Gaston Wiet, Histoire de La Nation Egyptienne Vol. IVP. 232

(١)

(٢) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٢١٨.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٣، ص ٤٦٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٢١٨.

(٥) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعوة، ص ٩٦.

أيد المستنصر بالله الفاطمي أبا الحارث البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم بأمر الله، كما عمل على إمداده بالمال والخيول والسلاح. وقد انتهز الوزير أبو محمد الحسن اليازوري^(١) هذه الفرصة لإقصاء الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي عن مصر لاستثارة بنفوذ كبير عند الخليفة المستنصر؛ فرأى أن يعهد إليه بحمل الأموال والأسلحة إلى البساسيري؛ غير أن المؤيد أدرك حيلة اليازوري، فأبى في بادئ الأمر القيام بهذه المهمة؛ فحاول اليازوري أن يثنيه عن رأيه بأن أفضى إليه بموافقة الخليفة على انتدابه سفيراً من قبله إلى البساسيري. ولم يزل يلح عليه حتى عدل المؤيد عن رفضه اصطحاب ركب الإمدادات، واشترط على الخليفة في كتاب أرسله إليه أن يتولى هذا الأمر دون أن يوجه إليه لوم إذا فشل في أدائه؛ فقال في كتابه^(٢): «... وأن على أن أجتهد وأسعى وأكدح، فما أصبت فيه فبما رحمة من الله وإقبال الدولة أدامها الله تعالى، وما أخطأت فيه فلا يتوجهن على عتب ولائمة، ولا تعرضن لى فيما أحل وأعقد يد معترضة».

سار المؤيد لنجدة البساسيري مع فئة قليلة من الرجال، تحمل الأموال والسلاح والخلع. وقد هاله أن يكون مقدماً على أمر خطير وهو القضاء على الخلافة العباسية دون أن تخرج معه حامية كبيرة، بل اقتصرت المعونة التي سيقدمها للبساسيري على الأموال والخلع، وتشمل خمسمائة ألف قوس، وعددا كبيرا من السيوف، وكثيرا من الرماح والنشاب^(٣)؛ ومما هو جدير بالذكر أن وزير المستنصر لم يتردد في أن يضحي بهذه الإمدادات رغم ما كانت تعانيه مصر من أزمة اقتصادية وغلاء حتى إنها لم ترسل ما اعتادت أن ترسله من القمح إلى مكة^(٤).

(١) هو أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري، نشأ في بلدة يازور (وهي قرية من أعمال الرملة) من إحدى الأسر التي كانت تشتغل بالملاحة، وشغل عدة مناصب، فولى قضاء الرملة بعد أبيه، كما عهد إليه النظر في ديوان أم المستنصر، ثم أسندت إليه الوزارة في السابع من المحرم سنة ٤٤٢ هـ، وسمح له بالبقاء في وظيفة رئيس خاصة أم الخليفة ولقب بالناصر للدين، غياث المسلمين الوزير الأجل المكرم، سيد الرؤساء تاج الأصفياء، قاضي القضاة، وداعي الدعاة. وبقي في منصبه حتى قبض عليه المستنصر في أول محرم سنة ٤٥٠ هـ بتهمة مراسلة طغرل بك السلجوقي ودعوته لغزو مصر.

(راجع ما ورد عن اليازوري في ابن الأثير، ج ٩ ص ٢٢١ - ٢٢٢، ابن ميسر. تاريخ مصر ص ٥ - ٨ .

(٢) سيرة المؤيد، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢ .

(٤) G Wiet, Histoire de la Nation Egyptienne P. 233

(٤)

وقد وصف المؤيد خروجه من القاهرة بقوله^(١): «وسرت في جلبة عظيمة، قد التف فيها من الوحش والركابية المقودين وسفساف الناس من البغالين والحمالين عسكر لو لم يمسسنى غير عذابهم عذاباً لكان فيه ما يغنى ويكفى. وكان الناس يتعجبون من أمرى. وقد كان موضع العجب، لعمري كيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتى من دون أن يتبعنى من شىء يسمى العسكر اثنان، ويعول بى على عسكر غريب معلوم الشأن، يستعيز بالله من شرهم الشقلان، عادتهم بالاستخفاف بملوكهم معروفة».

تجلى إخلاص المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى للخلافة الفاطمية فيما قام به من جهود لمؤازرة حركة البساسيرى في بلاد العراق. وكان الوزير اليازورى قد طلب منه أن يجند ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبين بالشام، يسير بهم إلى الرحبة؛ وحذره من الاتصال بشمال بن صالح بن مرداس صاحب حلب؛ غير أن المؤيد أصر على تنفيذ خطته، فسار بما صحبه من الأموال والسلاح والخيول، وتواعد مع ابن صالح على أن يلقاه في موضع يلى حمص، يقال له الروستان (على جسر نهر العاصى) وهناك التقى المؤيد بابن صالح ومع كل منهما حامية من الجند. ولما نزلا معرة النعمان لحق بهما فريق من جند البساسيرى. وقد استطاع المؤيد بداهته وحسن سياسته أن يكسب ثقة ثمال بن صالح بن مرداس وأن يستميله إليه ويجعله يبدى استعداداً لمعاونة الفاطميين، فمنحه عند نزوله بباب حلب ما يخصه من الخلع، ثم دعاه إلى تجديد البيعة للخليفة الفاطمى، فأجاب إلى ذلك^(٢). ويقول المؤيد: «لما دخلت حلب جددت عليه من أيمان البيعة في خدمة الدولة ما كانت تميد الجبال لثقله، وتتشقق السموات والأرض من حملة».

أخذ المؤيد بعد وصوله إلى حلب يتأهب للمسير إلى الرحبة حيث يقيم البساسيرى وجنده؛ وبينما هو في طريقه إليها، ورد إليه كتاب نصر الدولة أحمد ابن مروان صاحب ميفارقين وديار بكر، يخبره فيه بأنه كان قد انحاز إلى جانب السلاجقة؛ فشاهد من شرهم وغدرهم وظلمهم وجورهم وإطلاقهم الأيدي في الأموال ما جعله يتخلى عنهم، وأظهر رغبته في معاونة المؤيد الذى كتب إليه يرحب به ويطلب منه إقامة الخطبة على منابر بلاده للمستنصر بالله الفاطمى^(٣).

(١) سيرة المؤيد. ص ١٠٠.

(٢) سيرة المؤيد، ص ١٠٠ - ١٠٢، ١٠٧ - ١٠٨.

(٣) سيرة المؤيد، ص ١٠٨، ١١٣ - ١١٥.

ولما كان المؤيد حريصاً على توحيد كلمة جند البساسيري وبث الطمأنينة فى نفوسهم، لذلك طلب من جند الأتراك البغداديين الذين قابلوه وهو فى طريقه إلى حلب العودة إلى الرحبة ليخبروا إخوانهم من جند البساسيري بقرب قدومه إليهم لنجدتهم؛ وأنفذ معهم رسالة إلى القواد والحجاب يستميلهم إليه ويدعوهم إلى نصرته، ويبين لهم اهتمام الخليفة الفاطمى بأمرهم، فقال: «وغير خاف عنهم ما كان من إنعام مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بالإحفاء بهم والتلفت بوجه المراجعة إليهم، رغبة فيما يردهم إلى أهلهم وديارهم...»، كما حذرهم من طغربك السلجوقي بقوله: «إذا كانت الطاغية التركمانية من حيث أخذت عصا التسيار وإلى حيث انتهت من الديار، لم تنازل ملكاً ممولاً، ولا سلطاناً معمماً بعز الاتساع فى العساكر والجيوش فحولاً، ولم تنزل من غير منازل الغدر والخديعة منزلاً^(١)...».

واصل المؤيد مسيره إلى الرحبة وبصحبه ثمال بن صالح بن مرداس على رأس جنده من بنى كلاب. ولم يكذ يعلم أبو الخارث أرسلان البساسيرى بأن ركب المؤيد فى طريقه إليه حتى أسرع فى الخروج إلى لقائه ومعه جنده البغداديون. وقد رحب البساسيرى وجنده بوصول المؤيد إلى الرحبة فأعانهم بالمال والسلاح، وازدادت محبتهم للمؤيد حين أخذ يوزع عليهم ويمنحهم الأموال، وما لبثوا أن عبروا عن ولائهم للخليفة الفاطمى، فحلفوا له بأيمان البيعة، «وكان منهم من يحلف ويأخذ الذى يأخذه بالشكر ويضعه على الرأس والعين على ما جرت به عادة أخيار الناس، ومنهم من يستقل القدر الذى يعطاه ويرده، ظاناً أن الذى يصير إليه من بعد استخلافه فهو كالجزاء عن يمينه التى أقسم بها وهو محقوق بأضعاف ما عرض عليه معها^(٢)».

ولما فرغ المؤيد من توزيع الخلع والأموال على أتباع البساسيرى من الأعراب والأكراد والأتراك، خلع على البساسيرى نفسه فى احتفال كبير أقيم لهذا الغرض، وقرأ العهد الذى أنفذه إليه المستنصر فى شهر صفر سنة ٤٤٨هـ. وقد جاء فيه^(٣):

(١) سيرة المؤيد، ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٢ - ١٢٤.

«من عبد الله ووليه معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى صاحب الجيش: سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين. . ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره في ديار العراق، والمبرزين بفضيلة سبق على أوليائه في قضاء الآفاق، المشمرين عن ساعد الجد بما يجعل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول ﷺ، ناضرة العود، رأى أمير المؤمنين - وبالله توفيقه- أن يطوقك طوق ولاية رجالها، ويقيم على رأسك لمزية التقدم راية جمالها، وينوط بك أمورها كلها، ويكلل إليك عقدها وحلها».

استقر رأي المؤيد بعد وصوله إلى الرحبة على استمالة أمراء العرب لضمان نجاح حركة البساسيري، فأرسل إلى نور الدولة دبيس بن مزيد صاحب الحلة أن يلحق به في الرحبة، واستطاع بعد قدومه إليه أن يقنعه بمعاونة البساسيري، كما أن الخليفة الفاطمي رغبة منه في اكتساب ولاء ابن مزيد وتشجيعه على مؤازرة البساسيري، منحه عهداً لقبه فيه «بالأمير سلطان ملوك العرب، سيف الخلافة، صفى أمير المؤمنين»، كما قلده رعامه عرب العراق، ومنحه ولاية ما يفتح من البلاد شرقي نهر الفرات.

سار البساسيري على رأس جيشه ومعه دبيس بن مزيد، كما قدمت إليه نجدة من دمشق، قوامها الكلبيون الذين رفضوا في بادئ الأمر المسير مع الجيش إلا إذا انفصل العرب عن غيرهم من جند الأكراد والأتراك، لكن المؤيد ما لبث أن حملهم على العدول عن رأيهم بالأموال التي أغدقها عليهم^(١).

كان من أثر الإمدادات التي وصلت إلى البساسيري أن انتصر هو وأعوانه على جيوش قریش بن بدران صاحب الموصل وقتلمش ابن عم السلطان طغرل بك في موقعة سنجار^(٢) سنة ٤٤٨ هـ. وقد لقي قتلمش من أهل سنجار العنت، كما بالغوا في إلحاق الأذى به. أما قریش بن بدر فقد لجأ إلى نور الدولة دبيس بن مزيد، فأعطاه خلعة كانت قد أرسلت إليه من مصر، ثم انحاز إلى جانب

(١) سيرة المؤيد، ص ١٢٧ - ١٣٠.

(٢) تقع بنواحي الجزيرة على مقربة من الموصل.

البساسيرى وسار بصحبته إلى الموصل حيث أقاما الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى^(١).

أيقن المؤيد أن نجاح حركة البساسيرى ودخوله بغداد، يتوقف على تحقيق أحد أمرين: إما القضاء على قوة السلاجقة بها أو تشتيت شمل جيوشهم فى معارك متفرقة، ومن ثم عمد إلى مراسلة بعض الأمراء الذين كانوا على اتصال بالسلاجقة، وحاول أن يستميلهم إلى جانبه؛ كما أرسل كتاباً إلى عميد الملك الكندرى- وزير طغرل بك- قلل فيه من شأن الخليفة العباسى فقال: «وكثر العجب من السيد (عميد الملك الكندرى) على ما قرأه من السير وعرفه من أنباء الأمر أن يكون العباسى (القائم بأمر الله) عنده خليفة الله . . ولم تعتقد فرقة من فرق الإسلام أن العباس (ابن عبد المطلب) خليفة أصلاً، وسوى هذا فإنه على عدم الخلافة عادم لصدق القول وصدق اليمين وحسن الوفاء». كما أشار فى كتابه إلى أن ابن المسلمة وزير الخليفة القائم بأمر الله هو الذى أغرى السلاجقة بدخول بغداد، وأن هذا العمل الذى قاموا به لا يعد نصراً كبيراً لهم. ونوه فى خطابه بعلو شأن الخليفة الفاطمى وبسيادته على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز وبما لديه من الأموال والأسلحة والعساكر^(٢).

كان المؤيد يرمى من وراء هذه الرسائل التى أنفذها إلى بعض أمراء العرب دعوتهم إلى تأييد الفاطميين، كما أن رسالته إلى وزير طغرل بك كان الغرض منها صرف السلاجقة عن تأييد العباسيين؛ غير أن هذه المكاتبات جميعها لم تؤد إلى تحقيق الغاية التى أرسلت من أجلها، ذلك أن عميد الملك الكندرى كان فى الوقت الذى وصلت فيه رسالة المؤيد يعمل على تفريق شمل أمراء العرب ويغريهم باسناد بعض الولايات إليهم، فيعد أحدهم بالموصل، على حين يبنى غيره بولاية البصرة وواسط^(٣) وقد أدت هذه السياسة التى اتبعها عميد الملك إلى اختلاف كلمة هؤلاء الأمراء وعدولهم عن معاونة البساسيرى، بل إن بعضهم كنور الدولة ديبس بن مزيد وقريش بن بدران بعث إلى طغرل بك يستعطفه؛ فعفا عنهم، واضطر البساسيرى إلى العودة إلى الرحبة وتبعه الأتراك البغداديون وجماعة من بنى عقيل^(٤).

(١) ابن الأثير، ج٩، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) سيرة المؤيد، ص ١٥٤ - ١٥٦ .

(٣) سيرة المؤيد؛ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٢١٩ .

ظل المؤيد حريصاً على التودد لأمرء العرب بالعراق رغم ما لاحظته من ترددهم في نصرة البساسيري؛ فأرسل كتبه إلى كل من نور الدولة ديبس بن مزيد وقريش بن بدران رغبة في الإبقاء على مودتهم. ثم أزمع الرحيل إلى الرحبة، ومنها سار إلى حلب حيث التقى بأميرها ثمال بن صالح بن مرداس، ولحق به البساسيري، فنزل بموضع يسمى بالس على مقربة من حلب وبصحبه قريش بن بدران ونخبة من وجوه بني عقيل.

أخذ نفوذ السلاجقة في بلاد العراق في الازدياد منذ عودة طغرل بك إلى بغداد سنة ٤٤٩ هـ إذ قابل الخليفة القائم بأمر الله الذي أفاض الخلع عليه وخاطبه بملك المشرق والمغرب، وطلب وزيره أن يبلغه هذا القول: «إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك، حامد لفعلك، مستأنس لقربك، وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده، ورد عليك مراعاة عبادته، فاتق الله فيما ولاك، واعرف نعمته عليك في ذلك، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية^(١)».

على أن طغرل بك رغم ذلك لم ينعم بالاستقرار في دولته فخرج عليه أخوه لأبيه إبراهيم ينال الذي كان قد استولى على بلاد الجبل^(٢) وهمذان وامتد سلطانه على ما حولها من البلاد إلى حلوان سنة ٤٣٧ هـ، ثم طلب منه طغرل بك أن يسلمه همذان، فرفض في بادئ الأمر؛ غير أنه ما لبث أن اضطر إلى النزول عنها بعد أن هزم في القتال الذي دار بينه وبين أخيه^(٣). وظل الخلاف منذ ذلك الوقت قائماً بين طغرل بك وإبراهيم ينال الذي بعث رسولا من الموصل إلى حيث يقيم البساسيري وقريش بن بدران، وكان ظاهر رسالته الترغيب في الدخول في طاعته ليقلدهما ولاية البلاد، أما باطنها فتضمن مخاطبة المؤيد ليرسل إليه الخلع والأموال والألقاب والألوية التي يلتمسها من الخليفة الفاطمي، حتى إذا ما تغلب على طغرل بك وخلفه في الملك جعل الخطبة للفاطميين، بالخلافة والإمامة مقدمة على خطبته. ولما توقف المؤيد على ما تضمنته رسالة إبراهيم ينال، تعهد بأن يجيب طلبه فيما يتعلق بالمال والخلع والألقاب^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) اسم لبعض بلاد ما وراء طبرستان.

(٣) ابن خلدون. العبر، ج٣ ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

(٤) سيرة المؤيد، ص ١٧٥ - ١٧٦.

لما وثق المؤيد من أن جهوده في سبيل نشر الدعوة الفاطمية ببلاد العراق قد كللت بالنجاح، استقر رأيه أثناء إقامته بحلب على العودة إلى مصر، ويترك البساسيري وجنده البغداديين وغيرهم من أعوانهم يواجهون السلاجقة والعباسيين؛ غير أنه لم يفصح عن خطته في العدول من متابعة البساسيري إلا حين وصله خبر خروج إبراهيم ينال من الموصل وتركه بها حامية صغيرة من جند السلاجقة، فانتهاز هذه الفرصة وقال للبساسيري: «قد آن لك أن ترجع إلى الرحبة وتتدبرها وتستعين على وقتك بارتفاعها، ونحن بعد ذلك نسوق إليك كل سنة مالا كثيراً يكون إضافة إلى ما تستجلبه الرحبة، فتتسع يدك ولا تتناقص حالك» ثم وجه حديثه إلى قریش ابن بدران بقوله: «وأنت يا قریش قد حان لك أن ترجع إلى بلدك الموصل . . والشردمة التي بها فلا قبل لهم بالشبات في وجهك، لا سيما إذا شد منك البساسيري». وقد استطاع المؤيد بما عرف عنه من سعة الحيلة أن يقنعهما بوجهة نظره، ثم مضى في طريقه إلى مصر^(١)، ورحل البساسيري وقریش بن بدران من حلب لمواصلة جهودهما في نشر نفوذ الفاطميين بمدن العراق.

كانت ثورة إبراهيم ينال على أخيه طغرلبيك مما مهد السبيل أمام البساسيري لتحقيق أغراضه، ذلك أن إبراهيم ينال لما غادر الموصل إلى بلاد الجليل سنة ٤٥٠هـ، عزا السلطان طغرلبيك رحيله إلى خروجه على طاعته وبعث إليه رسولا يستدعيه ومعه الخلعة التي خلعها عليه الخليفة العباسي؛ فعاد إبراهيم إلى السلطان - وهو إذ ذاك ببغداد- ولما أيقن البساسيري وقریش بن بدران أن القوة التي تركها إبراهيم بالموصل من الضعف بحيث يسهل عليهما التغلب عليها، زحفا على هذه المدينة وتمكنا من الاستيلاء عليها^(٢).

كان للصعاب التي واجهت السلطان طغرلبيك من ناحية البساسيري أسوأ الأثر على نفسه، ففضلا عن الهزيمة التي لحقت جيوشه بسنجان انتزعت منه الموصل. لذلك نراه يتأهب لداء الأخطار عن البلاد التي تحت سلطانه، فأنفذ كتبه إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر «يستنفرون الناس خفافا وثقالا، حتى حشد من الحشود الجمل الغفير والعدد الكثير. وجعل قصده الشام، ومصر همه، عالما بأن تلك الجموع التي اجتمعت على قمعه ودفعه بعيداً تجتمع^(٣)». . . وسرعان ما تحقق ظن

(١) سيرة المؤيد، ص ١٧٦ - ١٧٨ .

(٢) ابن الأثير . الكامل في التاريخ، ج٥، ص ٢٢٢ - ٢٢٣، ابن خلدون . العبر، ج٣، ص ٤٦٣ .

(٣) سيرة المؤيد. ص ١٧٩ .

طغرل بك فيما يتعلق بالموصل، فقد انسحب منها كل من البساسيرى وقرىش ابن بدران، فلما سار إليها لم يجد بها أحداً، ثم اتجه إلى نصيبين ليتبع آثارهم، ويخرجهم من البلاد التى يستولون عليها. وبينما هو فى طريقه فارقه أخوه إبراهيم ينال الذى سار نحو همدان فوصلها فى أواخر شهر رمضان سنة ٤٥٠ هـ.

وقد أشار ابن الأثير^(١) إلى العوامل التى دفعت إبراهيم ينال إلى الخروج على أخيه طغرل بك بقوله: «وكان قد قيل إن المصريين كاتبوه والبساسيرى قد استماله وأطمعه فى السلطنة والبلاد». ومن الثابت أن إبراهيم ينال كان على اتصال بداعى الفاطميين المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى. ونستدل على ذلك من قول المؤيد نفسه: «وكشف القناع عما استقر بينى وبين إبراهيم ينال، كما أتانى رسوله الصوفى وأنا بحلب»^(٢).

أدرك طغرل بك الخطر الذى يهدد سلطانه من جراء خروج أخيه إبراهيم ينال عليه ومن عول على السير فى أثره حتى يتسنى له إخضاعه، ولحق به من كان ببغداد من الأتراك^(٣). وقد وصف المؤيد^(٤) خروج طغرل بك لمحاربة أخيه بقوله: «فاختببط طغرل بك عسكره، ففترقوا، وهام طغرل بك على وجهه مقتفياً لأثره حتى غاب حسه ولم يدر أى طريق سلك، وفى أى واد هلك».

ولم يكن جيش طغرل بك من القوة بحيث يمكنه إحراز النصر على أخيه، بينما اجتمع إلى إبراهيم ينال كثير من الأتراك الذين كانوا ينقمون على طغرل بك وحلف لهم أن لا يصالح أخاه ولا يدخل بهم العراق لكثرة نفقاته، كما أتى إليه بعض أبناء أخيه أرتاش مع كثير من جندهم، فاشتد بهم ساعده وقوى أمره. واضطر طغرل بك إلى التوجه إلى الرى حيث استنجد بابن أخيه ألب أرسلان وطلب منه المعونة. فأقبل إليه ألب أرسلان من سجستان إلى حدود العراق، وفى ١٩ من جمادى الآخرة سنة ٤٥١ هـ هزم إبراهيم ينال بالقرب من الرى وأخذ أسيراً إلى طغرل بك الذى قتله فى نفس السنة تخلصاً منه^(٥).

(١) الكامل فى التاريخ: ج ٩ ص ٢٢٣.

(٢) سيرة المؤيد: ص ١٧٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٩، ص ٢٢٣.

(٤) سيرة المؤيد: ص ١٨٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٩، ص ٢٢٥، ابن خلدون: العبر، ج ٣ ص ٤٦٣.

انتهز البساسيري فرصة انشغال طغرل بك بإخماد حركة أخيه إبراهيم ينال وزحف إلى بغداد على رأس أربعمئة فارس حاملا الرايات المستنصرية التي كتب عليها^(١): «الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أبو المؤمنين»، كما سار معه قريش بن بدران في مائتي فارس من بني عقيل، وتمكن من الاستيلاء عليها في ٨ ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ دون مقاومة تذكر. فمال إليه أهل الكرخ لكونهم من الشيعة ورحبوا بقدومه. وفي يوم الجمعة الثالث عشر من ذى القعدة أقام البساسيري الخطبة بجامع المنصور للمستنصر بالله الفاطمي، كما أمر بأن يؤذن بحى على خير العمل، ثم خطب للخليفة الفاطمي على جميع منابر بغداد، وضرب السكة باسمه، وبعث إليه يشره بفتح بغداد وإقامة الدعوة له. وقد وصف المؤيد دخول البساسيري هذه المدينة بقوله^(٢): «ولما رأي البساسيري أن الله سبحانه قد قطع (بطغرل بك) الأسباب... علم أن بغداد فريسة لمن طلب وقبضة لمن رغب، فزحف بالرايات المستنصرية، وصادف فيها أرضاً تعج إلى الله تعالى من ظلم التركمانية وقلوباً ملئت غيظاً من العباسي وابن المسلمة الذي كان سبب استدعائهم وتسلطهم على حرم الناس وأموالهم ودمائهم. فكان قدوم البساسيري عليهم كنزول الرحمة من سمائهم، فشدوا حيازيمهم معه لإقامة الدعوة المستنصرية على بغداد».

ضعفت سلطة الخليفة القائم بأمر الله العباسي بدخول البساسيري بغداد، وانصرف عن تأييده كثير من الناس مما اضطره إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأمنه، كما أعطى أماناً لرئيس الرؤساء؛ فاستاء من ذلك البساسيري وأرسل إلى قريش بن بدران يقول: أتخالف ما استقر بيننا؟ - وكانا قد تحالفاً ألا ينفرد أحدهما عن الآخر بشيء، ويكون العراق بينهما نصفين -؛ فقال قريش: ما عدلت عما استقر بيننا، عدوك ابن المسلمة (يعني رئيس الرؤساء) فخذ. وأنا آخذ الخليفة، فرضى البساسيري بذلك^(٣).

عول البساسيري بعد أن استقر له الأمر في بغداد على التخلص من رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة، فلما قدم إليه قال له: مرحباً بمدمر الدولة ومهلك

(١) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٥، ص ١٧٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩ ص ٢٢٣، ٢٢٥. أبو المحاسن النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٦، ١١.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٩.

الأمم، ومخرب البلاد، ومبيد العباد. فقال له ابن المسلمة: العفو عند المقدرة، فقال: قد قدرت فما عفوت، وأنت تاجر صاحب طيلسان. ولم تبق على الحریم والأموال والأطفال، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف. وقد أخذت أموالی وعاقبت أصحابی ودرست دوری وسبيتی وأبعدتني». كذلك أظهر العامة نقتهم على ابن المسلمة حين قدم لمقابلة البساسيري وهموا بالاعتداء عليه. غير أن البساسيري حال بينه وبينهم. ثم أمر بقتله^(١).

أما فيما يتعلق بالخليفة القائم بأمر الله العباسي فإن البساسيري كان قد عزم على أخذه من قريش بن بدران وإرساله إلى مصر، وحدث خلاف بينهما حول ذلك^(٢)؛ فرأى قريش أن يبعث به مع ابن عمه الأمير محيي الدين مهارش بن المجلى العقيلي إلى حديثة^(٣) عانة؛ فأنزله بها مع أهله وحریمه وحاشيته^(٤). وكان البساسيري قد أرغمه قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد. اعترف فيه بأنه لا حق لبنى العباس ولا له في الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء عليها السلام، ثم بعث بهذا العهد إلى القاهرة حيث ظل محفوظاً بقصر الخلافة حتى استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على محتوياته سنة ٥٦٧هـ، فأنفذه إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله في بغداد مع بعض التحف والهدايا على أثر وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر^(٥).

كذلك أرسل البساسيري إلى المستنصر بالله ثوب الخليفة القائم العباسي وعمامته وشباكه^(٦) الذي كان يجلس فيه، وغير ذلك من الأموال والتحف. وقد أثار وصولها وقيام الدعوة الفاطمية بمساجد بغداد حماساً عظيماً بين أهالي مدينة القاهرة الذين أقاموا الزينات ابتهاجاً بهذا النصر^(٧)، كما سر الخليفة المستنصر

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٢٠، أبو المحاسن. النجوم الزاهرة، ج ٩ - ١١.

(٢) انظر: ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨ ص ١٩٠ - ١٩٥.

(٣) تقع بالقرب من الأنبار.

(٤) ابن خلدون: العبر وج ٤، ٢٦٦.

(٥) المقرئزي: خطط، ج ١ ص ٤٣٩.

(٦) كان هذا الشباك كسرة يجلس فيها الخليفة ويعتمد يديه على حافته، وقد بقي محفوظاً عند الخليفة الفاطمي حتى نقل إلى دار الوزارة التي عمرها الأفضل بن بدر الجمالي؛ فصار يجلس فيه الوزير ويتكئ عليه، وما زال بها إلى أن عمر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكر الخانقاه الركنية، فأخذ من أنقاض دار الوزارة شباك الخليفة العباسي وجعله في لقيه.

(راجع ما ورد في المقرئزي. خطط، ج ١، ص ٤٣٩).

(٧) المقرئزي: خطط، ج ٢ ص ١٢٥.

وأنفق كثيراً من الأموال لإعداد القصر الذى بناه العزيز ويعرف باسم القصر الغربى الصغير ليكون مقراً لإقامة الخليفة القائم بأمر الله^(١) إذا ما تحقق أمله فى القبض عليه. وكان من بين مظاهر الاحتفال باستيلاء البساسيرى على بغداد وإقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة تنشد هذين البيتين:

يا بنى العباس صُدُّوا ملك الأمر مععدُّ
ملككم كان معاراً والعواري تستردُّ

فأعجب المستنصر بغنائها وأقطعها أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم فى مدينة القاهرة باسم أرض الطبالة^(٢).

على الرغم من المجهودات التى بذلها البساسيرى فى سبيل نشر نفوذ الخلافة الفاطمية ببغداد، فإنه لم يثقل من الخليفة المستنصر بالله ما يشجعه على مواصلة القيام ببسط سلطانه على بلاد العراق؛ ورجع السبب فى ذلك إلى حقد الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى^(٣) عليه. وكان هذا الرجل قد رحل إلى بغداد وانضم إلى البساسيرى، وما لبث بعد ذلك أن انقلب معادياً له وفر إلى مصر حيث أخذ يحذر الخليفة من عاقبة أطماعه^(٤)، فتخوف منه المستنصر وصار لا يعنى بإجابة طلباته؛ غير أن البساسيرى رغم ذلك حرص على إخلاصه للخليفة الفاطمى؛ فأخذ يتابع إغارته فى بلاد العراق حتى استولى على واسط والبصرة، ثم أمر بإقامة الخطبة للمستنصر بالله^(٥). وقد علق أبو المحاسن^(٦) على موقف

(١) المقرئى: خطط، ج١ ص ٤٥٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٢.

(٣) نشأ أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد على المغربى فى مصر فى عهد الحاكم بأمر الله، ثم سار إلى العراق بعد أن نكل هذا الخليفة ببعض أفراد أسرته. وما زالت تنتقل به الأحوال حتى عاد إلى مصر فى عهد المستنصر واصطنعه وزيره أبو محمد الحسن البازورى. فولاه ديوان الجيش. وأصبح منذ ذلك الوقت موضع رعاية أم المستنصر. ولما آلت الوزارة إلى أبى الفرج عبد الله بن محمد البابلى بعد وفاة البازورى، قبض عليه، فلم يزل معتقلاً حتى أسند إليه منصب الوزارة فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٠ هـ. ولقب بالوزير الأجل الكامل الأوحى صفى أمير المؤمنين وخالسته؛ وظل يتقلد هذا المنصب حتى عزل فى اليوم التاسع من شهر رمضان سنة ٤٥٢ هـ، ثم ولى ديوان الإنشاء؛ وتوفى سنة ٤٧٨ هـ.

(المقرئى: خطط، ج٢ ص ١٥٨).

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١١.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٢٢٥٥.

(٦) النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١١.

المستنصر من البساسيري بعد دخوله بغداد بقوله: «ولولا تخوف المستنصر من البساسيري وترك تحريضه على ما هو بصدده، لكانت دعوته تتم بالعراق زمناً طويلاً».

لما تم لطغربك القضاء على حركة أخيه إبراهيم ينال عول على المسير إلى العراق لإعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى مقر خلافته؛ فأرسل إلى البساسيري وقريش بن بدران يطلب منهما إعادة الخليفة العباسي إلى بغداد ويقول إنه سيقنع بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة، ولا يدخل العراق^(١). كذلك أنفذ طغربك وهو في طريقه إلى العراق الإمام أبا بكر أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على حسن معاملته للخليفة ومحافظته على حياته، ويخبره بأنه عهد إلى ابن فورك بمصاحبة القائم بأمر الله في عودته إلى بغداد^(٢).

لم يجب البساسيري طغربك إلى طلبه، كما أن قريش بن بدران سعى لدى الأمير محيي الدين مهارش صاحب الحديثة ليحول دون عودة الخليفة العباسي إلى بغداد. وكان يرى أن تحقيق هذه الغاية قد يؤدي إلى عدول السلاجقة عن السير إلى العراق. ويتبين لنا ذلك من رسالته إلى الأمير مهارش التي جاء فيها^(٣): «قد علمت أننا أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك، وقد طلبوه الآن، وربما قصدوك وحصروك وأخذوه منك، فخذهم وارجل به وأهلك إلى البرية. فإنهم إذا علموا أن الخليفة عندنا في البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد». لكن الأمير مهارش رأى ألا يذعن لرغبة قريش بن بدران؛ فبعث إليه يقول: «كان بيني وبين البساسيري عهود ومواثيق نقضتها، وأن الخليفة استحللني بعهود ومواثيق لا مخلص منها، ثم أزمع المسير إلى بغداد بصحبة الخليفة في ١١ ذى القعدة سنة ٤٥١هـ^(٤)».

كان طغربك إذ ذاك في طريقه إلى بغداد، فلما اقترب منها أدرك البساسيري أنه لا قبل له بمقاومته لأنه لم يتلق من مصر مساعدات أخرى تمكنه من

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص ١٧٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٩، ص ٢٢٦.

ابن الجوزي: المنتظم. ج٨، ص ٢١٥ - ٢١٧.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم. ج٨، ص ٢٠٥ - ٣٠٧.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص ٢٢٧.

الوقوف فى وجه السلاجقة، ومن ثم خرج من بغداد مع جنده وسار قاصداً الكوفة فى اليوم السادس من ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ^(١).

رأى طغرلبيك أن يبالغ فى الاحتفال بعودة القائم بأمر الله إلى بغداد ليظهر له مدى إخلاصه له؛ فأرسل إليه وهو فى طريقه إلى هذه المدينة وزيره عميد الملك الكندرى والأمراء والحجّاب ليقوموا على خدمته. ولم يكتف بذلك، بل خرج لاستقباله عند وصوله إلى النهروان وقبل الأرض بين يديه، وأبدى له اغتباطه بعودته، كما اعتذر له عن تأخره فى نجاته بانشغاله فى إخماد فتنة أخيه إبراهيم ينال، وقال له إنه عزم على المضى خلف البساسيرى، والمسير إلى الشام، والوقوف من الخليفة الفاطمى بمصر موقفاً حازماً يتلاءم مع أفعاله^(٢).

خلت مدينة بغداد من أعيانها فى الوقت الذى عاد فيه الخليفة القائم بأمر الله إلى مقر خلافته حتى لم يكن فى استقباله منهم غير القاضى أبى عبد الله الدامغانى وثلاثة من الشهود، وأظهر طغرلبيك حرصه على الاحتفاء بقدمه - وكان قد سبقه فى المسير إلى هذه المدينة-؛ ولم يكد يستقر الأمر للخليفة العباسى فى بغداد حتى عهد السلطان إلى القائد خمار تكين الطغرائى بالمسير على رأس ألفى فارس إلى الكوفة حيث يقيم البساسيرى، كما ضم إليه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخفاجى وسار بنفسه فى أثرهم. ولم تزل قواته تتعقب البساسيرى حتى أوقعت به الهزيمة عند الكوفة، وقضت عليه فى ذى الحجة سنة ٤٥١ هـ^(٣). وبذلك تيسر لطغرلبيك القضاء على حركة البساسيرى وإعادة الخطبة فى بغداد للخليفة القائم بأمر الله العباسى.

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) ابن الأثير الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٢٢٨، ابن خلدون؛ العبر، ج٣، ص ٤٦٥.

٣- زوال النفوذ الفاطمي ببلاد العراق

بعد دخول السلاجقة بغداد

ازداد نفوذ السلاجقة في بلاد العراق منذ منتصف القرن الخامس الهجري، فاستأثر طغرل بك بالسلطة دون القائم بأمر الله بعد أن أنقذه من تحكم البساسيري وأعادته إلى مقر خلافته، وسار على هذه السياسة من جاء بعد من سلاطين السلاجقة حتى أصبحت حالة خلفاء العباسيين لا تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في أيام بني بويه، ذلك أنه بينما كان أمراء بني بويه يقيمون في بغداد ويستبدون بالسلطة فإن السلاجقة استأثروا بالنفوذ في بلاد العراق، أضف إلى ذلك أن الخلفاء العباسيين في العصر السلجوقي كانوا يعيشون من إقطاعات مقرررة يستولون على دخلها^(١). ولم يبق لهم من سلطانهم القديم سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة.

على أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل بكثير من معاملة بني بويه لهم؛ ويرجع السبب في ذلك إلى اعتناق السلاجقة المذهب السني الذي يعد الخليفة العباسي رئيسه الأعلى. وقد ذكر أرنولد^(٢) أن السلاجقة كانوا لا يحترمون الخليفة لمركزه السياسي، بل لأنه خليفة الله في الأرض.

ضعف شأن الخلفاء العباسيين في العصر السلجوقي؛ فقد عمل السلاجقة على الحد من نفوذهم، بل تعسف بعضهم في معاملتهم؛ من ذلك ما قام به السلطان ملكشاه، إذ صمم على طرد الخليفة المقتدى من بغداد سنة ٤٨٥هـ لأنه رأي فيه ميلاً إلى التدخل في الحكم^(٣)، كما أخذ السلاجقة من الخليفة المسترشد بردة الرسول ﷺ التي كان الخلفاء يرتدونها عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية^(٤).

كان السلاجقة يدركون الخطر الذي يتهددتهم من وراء انتشار النفوذ الفاطمي في بلاد الشرق الإسلامي، ومن ثم وجهوا سياستهم بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد سنة ٤٥١هـ إلى مناهضة هذا النفوذ، وقد صادفهم كثير من

(١) ابن الأثير: تاريخ دول الاتابكة، ص ٩١ - ٩٢.

(٢) The Caliphate, P. 80.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٤) Arnold The Caliphate P. 80.

النجاح فى تحقيق هذه السياسة؛ فأقام أمير مكة محمد بن جعفر الدعوة لكل من الخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٤هـ^(١)، وفى السنة التالية تمكن ألب أرسلان من بسط سلطان السلاجقة على حلب، كما أصبحت دمشق سنة ٤٦٨هـ تحت سيادتهم، وأبطل فيها الأذان بحى على خير العمل^(٢)؛ وهو يعد من مظاهر المذهب الشيعى التى كانت سائدة إذ ذاك فى الأراضى الخاضعة لنفوذ الفاطميين.

كذلك حرص السلاجقة على تعقب دعاة الإسماعيلية الذين قاموا بنشر الدعوة للفاطميين فى بلاد الفرس، كما تعصبوا للمذهب السنى، وبلغ من تعصبهم لهذا المذهب أن أقصوا غير السنيين عن وظائف الحكومة؛ وأحسن مثل ذلك ما قام به نظام الملك وزير السلطان ملكشاه الذى فصل الحسن بن الصباح من ديوان السلاجقة بسبب اعتناقه المذهب الإسماعيلى واتصاله بدعاة الفاطميين^(٣).

وعلى الرغم من اهتمام السلاجقة بالقضاء على دعاة الإسماعيلية، فإن كثيراً من هؤلاء الدعاة تجلّى نشاطهم منذ أواخر القرن الخامس الهجرى فى بلاد الفرس، ويرجع السبب فى ذلك إلى بعد هذه البلاد عن بغداد مركز الخلافة العباسية، كما أن السلطان ألب أرسلان (٤٥٤-٤٦٥هـ) بإلغاء نظام البريد جعل من المتعذر على السلاجقة استقصاء أخبار دولتهم مما ساعد الإسماعيلية على إحكام أمورهم فى شرق الدولة الإسلامية. وقد وضع البندارى^(٤) ذلك بقوله «وكان منهم رجل من أهل الرى»، وكانت صناعته الكتابة، فخفى أمره، حتى ظهر، وقام من الفتنة كل قيامة، واستولى فى مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة، وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة، وخفيت عن الناس أحوالهم، ودامت حتى استتب على استتار، بسبب أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار».

أما عن الدعوة الإسماعيلية فى بلاد العراق فإنها لم تظفر بكثير من النجاح فى أوائل العهد السلجوقى لأن هذه البلاد كانت مقرراً للخلافة العباسية السنية التى كان من أهم أركان سياستها مناهضة أتباع المذهب الإسماعيلى، كما أن السلاجقة

(١) راجع كتاب «النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب» للمؤلف ص ٢١ - ٢٢.

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ١٨٠.

(٣) طه شرف: كتاب «دولة الزنارية» ص ٤١ - ٤٢.

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٦٢ - ٦٣.

من ناحية أخرى عمدوا إلى تعقب دعاة هذا المذهب؛ وفضلاً عن ذلك فإن الخلافة الفاطمية في مصر لم تعمل منذ منتصف القرن الخامس الهجري على مواصلة جهودها لنشر دعوتها في بلاد العراق، كما كانت الحال عند قيام البساسيري بحركته، بل اقتصر اهتمامها على الاحتفاظ بما تبقى لها من نفوذ في الجزيرة العربية، وتأييد دعاة الإسماعيلية في بلاد الفرس واليمن الذين استطاعوا باتخاذهم هذه البلاد مركزاً لهم أن يكونوا بعيدين عن تنكيل العباسيين والسلاجقة بهم.

وليس من شك في أن اضطراب الحالة الداخلية في مصر في أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمي، كان له أثر كبير في صرف الحكومة الفاطمية عن الاهتمام بنشر دعوتها في بلاد العراق؛ فقد ظهر التنافس بين العناصر الأجنبية وبخاصة الأتراك والسودان، كما خرج ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي الذي كان يتولى قيادة الأتراك على طاعة الخليفة الفاطمي، وبعث سنة ٤٦٢هـ إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من قبله، يسأله أن يرسل إليه نجدة ليقوم بالدعوة العباسية على أن تثول إليه السيادة على مصر، فرحب ألب أرسلان بذلك؛ غير أنه ما لبث أن شغل بمحاربة الروم عن المسير إلى دمشق ثم مصر^(١).

لما بلغ المستنصر أن ناصر الدولة أرسل إلى ألب أرسلان يستدعيه إلى الديار المصرية، جهز إليه عساكر كثيرة من الأتراك لمحاربتة بإقليم البحيرة فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة وغنم منهم مغانم كثيرة، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي في الإسكندرية ودمياط، وجميع أنحاء الوجه البحري، وحال دون وصول الأقوات إلى القاهرة ومصر^(٢). وكان مما زاد الحالة سوءاً تلك المجاعة التي بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧هـ، واستمرت سبع سنين، فقلت الأقوات واشتد الغلاء. وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل ما عاناه الفقراء تماماً؛ واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة مصر والرحيل إلى بلاد الشام والعراق^(٣).

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ١٩ - ٢٠ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر، ص ٢٠ .

(٣) المرجع نفسه: ص ٢٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٥ - ١٦ .

ظل ناصر الدولة بن حمدان يبذل أقصى جهده لإضعاف شأن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي والاستئثار بالحكم؛ وتجلّى خروجه على طاعته سنة ٤٦٤هـ حيث عاود القيام بحذف اسمه من الخطبة في الوجه البحري، كما بعث إلى القائم بأمر الله العباسي ببغداد يلتمس الخلع. ثم قدم إلى الفسطاط على رأس جيش كبير من العرب والبربر وتولى الحكم فيها، وأنفذ إلى المستنصر رسولا يطلب منه الأموال. ولم يكتف بذلك بل سار إلى القاهرة وبالع في إهانة الخليفة الفاطمي وأظهر ميله إلى مذهب أهل السنة. واضطر كثير من أقارب المستنصر إلى النزوح إلى المغرب والعراق. على أن ناصر الدولة لم تستقر له الأمور طويلاً بالقاهرة، فسرعان ما ثار به الأتراك الذين كانوا إذ ذاك من أهم عناصر الجيش الفاطمي ولجأوا في القضاء عليه والتخلص من جميع أفراد أسرته^(١).

لم تكن الظروف مهيأة في أواخر القرن الخامس الهجري لتستعيد الدعوة الفاطمية مكانتها في بلاد العراق؛ فقد ضعف أمرها وأصبحت مهددة بالزوال من جراء ذلك النزاع الذي نشأ حول الخلافة الفاطمية بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧هـ والذي ترتب عليه انقسام الإسماعيلية في مصر وبلاد الشرق الإسلامي إلى طائفتين، عرفت الأولى بالنزارية، أما الثانية فتعرف بالمستعلية. وقد انحاز دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن إلى هذه الفرقة التي اتخذت مصر مقراً لها، وظلوا على ولائهم للخليفة المستعلي^(٢)، بينما انحاز غيرهم من الدعاة في بلاد الفرس بزعامة الحسن بن الصباح إلى نزار وادعوا أن المستعلي أغضب منه الخلافة والإمامة^(٣).

وكانت الدعوة الفاطمية في حاجة إلى توحيد جهود دعائها حتى يتيسر لهم الإبقاء عليها، لكن انقسام الإسماعيلية إلى فرق وأحزاب كان له أثر كبير في صرفهم عن تحقيق هذه الغاية؛ فشغلت الحكومة الفاطمية بالقضاء على القلاقل التي أثارها أتباع النزارية في مصر بإيعاز من رؤساء دعوتهم في فارس الذين كانوا يمدونهم بالمال. وقد تجلّى خطر النزارية على الخلافة الفاطمية في عهد الأمر،

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٢١ - ٢٢.

(٢) راجع كتاب « النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب » للمؤلف ص ٨٤ - ٨٦.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٦٥، طه شرف: دولة النزارية، ص ٦٦.

فأبوا الاعتراف بإمامته وإمامة أبيه المستعلي، هذا فضلا عن اعتقادهم أنهما وليا الخلافة دون حق. وكان ذلك مما حمل الخليفة الأمر الفاطمي سنة ٥١٦ هـ على أن يعهد إلى وزيره أبي عبد الله المأمون بن البطائحي بكتابة رسالة لزعيمهم الحسن بن الصباح يدحض فيه آراء النزارية في الإمامة ويدعوه إلى الحق، كما بعث في طلب «الفقهاء الإسماعيلية والإمامية للاجتماع في قصره، وقال لهم وزيره المأمون البطائحي: ما لكم من الحجة في الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية، فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله^(١)».

على أن هذه الرسالة لم يتح لها أن تصل إلى يد الحسن بن الصباح لعدول رسل الخليفة الأمر عن مواصلة السفر إليه بسبب الأتباء التي وصلت إلى مصر عن ازدياد نفوذ طائفة النزارية ببلاد المشرق واتصالها بأتباعها في مصر لتدبير مؤامرة لقتل الخليفة الفاطمي ووزيره المأمون البطائحي^(٢). لذلك لا نعجب إذا رأينا الحكومة الفاطمية تتبع حركاتهم في جميع البلاد الخاضعة لنفوذها وتعمل على التخلص ممن تحوم الشبهات حول انحيازه إليهم. وبلغ من اهتمام المأمون البطائحي بالبحث عن النزارية وتقصى أخبارهم أن اتخذ جواسيس لاقتفاء آثار أتباع هذه الطائفة بمصر والقاهرة^(٣).

وقد وضح ابن ميسر^(٤) ما قام به هذا الوزير من مجهود في سبيل إبعاد خطر النزارية عن الدولة الفاطمية؛ فقال: «إنه أركب في يوم من الأيام جماعة من العسكر وفرقهم وأمر بمسك من عينه، فمسك منهم جماعة كثيرة، منهم رجل كان يقرئ أولاد الخليفة الأمر، ومسك معهم المال الذي سيره ابن صباح برسم نفقة مصر، فأخذه وكانت هذه الفعل من المأمون من عجائب الخدق، وبث مع ذلك الجواسيس في أقطار الأرض، وكان الباطني إذا خرج من «الموت» لا تزال أخباره تصل إلى المأمون متعاقبة حتى يصل «بلييس» فيمسك بها، ويحمل إليه فيقتله». وعلى الرغم من اتخاذ الحكومة الفاطمية الحيلة للقضاء على مؤامرة النزارية

(١) المقرئ: خطط، ج ١ ص ٤٠٧.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٦٥ - ٦٨.

(٣) المرجع نفسه. ص ٦٥.

(٤) تاريخ مصر، ص ٦٦.

لاغتيال الأمر، فإن فريقاً منهم كمنوا له بجزيرة الروضة، ثم انقضوا عليه وقتلوه على مقربة من المقياس في ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ^(١).

واجهت الدعوة الفاطمية منذ أوائل القرن السادس الهجرى سواء فى مصر أو بلاد الشرق الإسلامى كثيراً من الصعاب مما جعلها مهددة بالزوال؛ فقد أدى عدم استقرار الأمور فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى وانصراف الحكومة الفاطمية عن بذل جهودها لنشر دعوتها إلى إتاحة الفرصة أمام خلفاء العباسيين- رغم ما كانوا يعانونه من ازدياد سلطان السلاجقة- للقضاء على ما تبقى للفاطميين من نفوذ. وقد حالفهم النجاح فى بلاد العراق وغيرها من بلاد الشرق الإسلامى حيث أضحى النفوذ الفاطمى فى اليمن والحجاز روحياً فقط، وصار لا يتمثل إلا فى السكة والخطبة.

كذلك كان لوقوف بعض وزراء هذا العصر فى وجه رجال الدعوة فى مصر حتى لا يتيسر لهم الوصول إلى الزعامة أو السلطان، وعدم حرص رجال الحكومة الفاطمية على الاحتفاظ بمظاهر المذهب الإسماعيلى أثره البالغ فيما أصاب الدعوة الفاطمية فى بلاد الشرق الإسلامى من وهن وانحلال؛ ولا غرو فقد أصبح التحمس لهذا المذهب ونصرته أو إضعافه ومناهضته تابعاً لرغبة الوزراء وميولهم. وليس أدل على ذلك من أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ظل مشايحاً للمذهب الفاطمى حتى توفى المستعلى وخلفه الأمر سنة ٤٢٩ هـ، فأخذ يميل ميل السنين^(٢). وقد تجلت هذه الظاهرة فى إلغائه الاحتفال بمولد النبى ﷺ، ومولد ابنته فاطمة، وعلى بن أبى طالب، ومولد الخليفة القائم بالأمر. ولا يخفى علينا أن عمله هذا يؤدى إلى إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم إلى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام^(٣). ولما استأثر ابنه الوزير أبو على أحمد بن الأفضل بالنفوذ سنة ٥٢٤ هـ ومنع الحافظ من التصرف فى شئون الدولة وسجنه فى خزانة، أمر بحذف اسم إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة وأحل محله اسم محمد المنتظر الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية، كما أمر بعدم إضافة

(١) المقرئى: خطط، ج٢، ص ١٨٢، أبو المحاسن. النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٨٥.

(٢) ذكر ابن الأثير (ج١، ص ٢٠٩) أن الإسماعيلية كانوا يكرهون الأفضل بن بدر الجمالى لأسباب منها؛ تضييقه على إمامهم، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم. ومنها تركه معارضة أهل السنة فى اعتقادهم والنهى عن معارضتهم، وإذنه للناس فى إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها.

(٣) حمن إبراهيم، الفاطميون فى مصر، ٢٧٩.

عبارة حتى على خير العمل إلى الأذان وزاد في إضعاف المذهب الإسماعيلي بأن عين سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة اثنين من الشيعة، أحدهما من طائفة الإمامية الاثني عشرية والآخر من الإسماعيلية، واثنين من السنين أحدهما شافعي والآخر مالكي، وأعطى لكل منهم السلطة في إصدار أحكامه وفق مذهبه^(١). وقد أثارت هذه السياسة التي اتبعتها الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل غضب الإسماعيلية، وكذلك الأمراء وغيرهم؛ فدبروا مؤامرة لاغتياله^(٢).

وهكذا مهدت الأحوال الخارجية والحوادث الداخلية الطريق للقضاء على الدعوة الفاطمية، فاضطهد السلاجقة في بلاد العراق كثيراً من الشيعة، كما وقفوا من دعاة الإسماعيلية الذين استفحل خطرهم في بلاد الدولة العباسية موقفًا ينطوي على الحزم والشدة، فبدلوا جهدهم لإخماد حركاتهم. ولم يكن الخلفاء العباسيون أقل تحمسًا منهم في مقاومة نفوذهم إذ كانوا يرون في طائفة الإسماعيلية خطرًا يهدد الدولة الإسلامية؛ فضلاً عن ذلك فإن نهوض هؤلاء الخلفاء لاستعادة سلطانهم القديم^(٣)، وسعيهم لإحياء مجد الخلافة ونجاحهم في تحقيق هذه الأمنية، ساعد إلى حد كبير على تقوية الشعور الإسلامي ضد الطوائف الشيعية.

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر ص ٧٥، المقرئزي. خطط. ج ٢ ص ٢٧١، ٣٤٣.

(٢) حسن إبراهيم. الفاطميون في مصر ص ٢٣٠.

(٣) حاول بعض الخلفاء العباسيين أن يستعيدوا سلطنتهم التي استأثر بها السلاجقة وسار الخليفة المسترشد بخطى واسعة في هذا السبيل، فخرج في سنة ٥٢٠ هـ على السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وهزم قواته، وكاد يستقل بالأمم لولا المساعدة التي قدمها حاكم البصرة للسلطان (ابن الأثير، ج ١ ص ٢٧٠ - ٢٧٢). ولما توفي السلطان محمود سنة ٥٢٥ هـ، عمل الخليفة المسترشد على استعادة سلطته فجمع الجيوش لاسترداد ما كان للعباسيين من نفوذ، واتخذ من الخلاف الذي قام بين أفراد البيت السلجوقي فرصة ليستأثر بأمور العراق؛ وبلغ من جرأته أنه أمر بعدم إقامة الخطبة للسلطان مسعود سنة ٥٢٩ هـ مما أدى إلى الحرب بينهما، فدارت معركة بين الجيشين العباسي والسلجوقي قرب همدان. انتهى الأمر فيها بهزيمة الخليفة وأسر، ثم قتله نفر من الإسماعيلية بإيعاز من السلطان مسعود سنة ٥٣٧ هـ.

لما آلت الخلافة إلى الراشد بعد وفاة أبيه المسترشد، تعهد للسلطان مسعود في كتاب شهد فيه بعض القضاة أنه إذا حاول محاربته أو جرد السيف على أصحابه حق عليه الخلع من الخلافة؛ غير أن الخليفة ما لبث أن اعتذر عن عدم استطاعته دفع هذه الأموال لرسول السلطان، ثم ألّب عليه حكام دولته، فقام الجميع ينادون بمحاربة مسعود وخلعه. ولكن السلطان مسعود، سرعان ما حاصر بغداد، واضطر الخليفة إلى الخروج منها هارباً إلى الموصل سنة ٥٣٠ هـ. فدعا السلطان مسعود - بعد دخوله بغداد - العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان وحملهم على إقرار محضر بخلع الخليفة الراشد وولي مكانه عمه المقتنى لأمر الله.

لما توفي السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ، لم يخلفه في السلطنة من يستطيع الاحتفاظ بقوة السلاجقة في العراق، بل ضعف أمرهم منذ ذلك الوقت. وأخذ الخليفة المقتنى ووزيره ابن هبيرة يعملان على إحياء مجد الخلافة واستعادة نفوذها، وليس أدل على مبلغ ضعف السلاجقة من أن سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه لم يقدم على دخول بغداد إلا بعد موافقة الخليفة المقتنى، كما حلف لهذا الخليفة في اجتماع عقد بداره على النصح والموافقة ولزوم الطاعة، وأنه لا يتعرض إلى العراق بحال. ولم يبق له من مظاهر السلطة سوى ذكر اسمه في الخطبة.

وهكذا فقد سليمان شاه الحقوق التي كان يتمتع بها أسلافه، وأخذ النفوذ السلجوقي في العراق تبعاً لذلك في الاضمحلال حتى زال نهائياً سنة ٥٩٠ هـ.

(راجع. ابن الأثير؛ ج ١١ ص ٣٤، ٧٧، النيوطن، تاريخ الخلفاء. ص ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٢).

ولم تكن حالة الدعوة الإسماعيلية في مصر مقر الدولة الفاطمية خيراً منها في بلاد المشرق؛ فقد تجلّى ضعف المذهب الإسماعيلي في العصر الفاطمي الأخير وانصرف بعض الوزراء عن تأييد هذا المذهب، بل تعصب بعضهم كعلي بن السلار- وزير الخليفة الظافر- للمذهب السنة، فأنشأ في سنة ٥٦٤ بالإسكندرية مدرسة للشافعية، أسند إدارتها إلى الحافظ السلفي الفقيه الشافعي^(١)؛ وبذلك هبّ السبيل لرجوع المذهب السني إلى مصر. وقد أدى تعصبه لهذا المذهب ورغبته في إحلاله بمصر محل المذهب الإسماعيلي إلى حقد الخليفة ورجال دولته عليه، فقتل بإيعاز منه^(٢). ومازال المذهب الإسماعيلي آخذاً في الاضمحلال من الديار المصرية حتى تقلد صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي سنة ٥٦٤هـ؛ فوجه اهتمامه - بعد إضعافه سلطة هذا الخليفة- إلى القضاء على المذهب الشيعي في مصر، فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وأخرى لتدريس المذهب المالكي، وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبد الله بن درباس الشافعي قاضياً للقضاة في جميع أنحاء الديار المصرية^(٣)؛ فاستعاد بذلك المذهب السني قوته، وأخذ المذهب الشيعي في الاختفاء تدريجاً حتى لم يبق له أنصار في مصر.

ولا شك أن هذه العوامل التي تقدم ذكرها وإن كانت قد عجلت بزوال النفوذ الفاطمي ببلاد المشرق. فإنها من ناحية أخرى أفادت الخلافة العباسية؛ فقد ساعدتها على الاحتفاظ بسيادتها على البلاد الإسلامية.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٢) حسن إبراهيم: الفاطميون في مصر، ص ٢٩٦ .

(٣) المقرئ: خطط، ج٢ ص ٣٤٤ .

الباب السابع

علاقة الفاطميين بالأندلس والمغرب وجزيرة صقلية

- ١ - علاقة الفاطميين بالأمويين في الأندلس.
- ٢ - علاقة الفاطميين بالزيريين في المغرب.
- ٣ - الفاطميون وجزيرة صقلية.

(١) علاقة الفاطميين بالأمويين في الأندلس:

أخذ عبيد الله المهدي منذ أن استقرت خلافته في إفريقية، يبعث بدعائه إلى بلاد الأندلس لنشر الدعوة الفاطمية. لكن الجهود التي بذلت في هذا السبيل لم تكلل بالنجاح حتى عهد المعز لدين الله؛ فلم تجذب تلك الدعوة إليها إلا فريقاً ضئيلاً من رجال الفكر الأندلسيين^(١).

ولا شك أن قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية ونشاط دعائها في نشر المذهب الشيعي، أصبح خطراً يهدد كيان الأمويين بالأندلس، ولذلك وجه عبد الرحمن الناصر منذ ولي الحكم في الأندلس سنة ٣٠٠ هـ اهتمامه إلى الوقوف في وجه الفاطميين والقضاء على أطماعهم؛ فعمل على إعداد أسطول قوى؛ بلغ عدد قطعه نحو مائتي مركب^(٢)، ليستعين به في صد هجمات الأسطول الفاطمي، كما حرص على اجتذاب أنصار له من بين قبائل الزناتيين المعادية للفاطميين في المغرب.

ولما وقف عبيد الله المهدي على خطورة السياسة التي يتبعها عبد الرحمن الناصر ضده، أمر قائده مصالة بن حبوس بمحاربة الزناتيين سنة ٣١٢ هـ، فخرج مصالة من تاهرت والتقى بقوات محمد بن خزر زعيم قبيلة مغراوة، في معركة عنيفة، انتهت بمقتل مصالة وهزيمة جيشه^(٣).

وكان عبد الرحمن الناصر، وقتذاك قد استولى على سبتة، وعزم على اتخاذها قاعدة بحرية للسيطرة على بلاد المغرب الأقصى، ومحاربة واليها موسى بن

(١) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير (العصر الإسلامي) ص ٦٠٨.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر. ج ١ ص ٢١١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار المغرب. ج ١ ص ٢٦٦.

أبى العافية. غير أن هذا الوالى لم يلبث أن اضطر بعد أن تخرج مركزه إلى خلع طاعة عبيد الله المهدي، والدخول فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس. وفى ذلك يقول ابن خلدون^(١): «ثم انتفض موسى بن أبى العافية عامل فاس والمغرب وخلع طاعة الشيعة، وانحرف إلى الأموية من وراء البحر، وبث دعوتهم فى أقطار المغرب».

ولما علم عبيد الله المهدي بانضواء موسى بن أبى العافية تحت لواء عبد الرحمن الناصر، جهز جيشاً وسيره إلى المغرب الأقصى بقيادة عامله على تاهرت حميد بن يصال، فأوقع الهزيمة بموسى، وتمكن من دخول فاس سنة ٣٢١هـ وأعاد الدعوة فيها لعبيد الله المهدي؛ لكنها لم تلبث أن أقيمت بعد وفاته باسم الخليفة الناصر الأموى.

اتخذ العداء بين الدولة الفاطمية والدولة الأموية بالأندلس مظهرًا قويا فى عهد المعز لدين الله؛ فلم يمض سنتان على توليته الخلافة حتى هاجمت إحدى السفن الأندلسية سفينة فاطمية كانت تحمل رسولا من قبل الحسن بن على وإلى صقلية؛ فجهز المعز أسطولا، سيره إلى الأندلس بقيادة هذا الوالى سنة ٣٤٤هـ. فلما وصل المرية، هاجم مرساها، وأحرق الجند جميع ما فيه من السفن، ثم دخلوا المدينة وعاثوا فيها نهبا وقتلا، وعادوا بعد ذلك إلى المهديّة^(٢).

وبلغ من شدة العداء بين الأمويين فى الأندلس والفاطميين فى المغرب، أن عمده عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى بالأندلس إلى توطيد علاقته بأعداء الخلافة الفاطمية؛ فتحالف سنة ٣٤٤هـ مع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الثامن الذى كان يطمع فى استرداد صقلية من أيدي الفاطميين^(٣). كما أمر بلعن الخليفة الفاطمى من منابر الأندلس؛ وكتب بذلك إلى جميع عماله^(٤).

على أن عبد الرحمن الناصر لم يلبث أن أنفذ أحد رسله إلى حاضرة الخلافة الفاطمية بالمغرب، ومعه كتاب إلى بعض رجال المعز، يطلب منه المودة والصلىح؛

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر. ج٤. ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) ابن الأثير الكامل فى التاريخ. ج٨. ص ١٧٠، انظر أيضاً: النعمان: كتاب «المجالس والمسائرات» ج١. ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٣) Dozy, Hist. des Muauilmans d'Espagne, T.H, P.159

(٣)

(٤) ابن عذارى. البيان المغرب ج٢. ص ٢٣٦.

فرفض المعز إجابة طلبه، وقال لرسول الناصر^(١): «... وأما ما دعا إليه من السلم والكف والموادعة والصلح، وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، - كما تسمى دون من سلف من آبائه-، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله، ونحن نقول: إننا أهل ذلك دونه ودون سواه...».

«وما أنا بالمдахن في دين الله، ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله، ولا بالمخادع في أمر من أمور الله عز وجل. أرجع بجوابي هذا إليه، فما له عندي سواه، وما لي من الأمر من شيء، إن الأمر كله لله، عليه توكلت وإليه أنيب...».

أخذ عبد الرحمن الناصر- برغم عدم استجابة المعز لطلب الصلح معه، يوالى إنفاذ رسله ورسائله إليه، رغبة في مصالحته. لكن المعز كان يدرك ما يرمى إليه الناصر من وراء هذه المكاتبات؛ فقال: «إنما أراد هذا الفاسق أن يقطع الزمان بهذه المراسلة والمكاتبة بيننا وبينه^(٢)».

شرع عبد الرحمن الناصر- بعد أن أعرض المعز عن عقد الصلح معه- في إعداد قواته البرية والبحرية؛ ثم سير هذه القوات لمهاجمة البلاد الخاضعة لسلطان الفاطميين بالمغرب؛ فأوقعت الهزيمة بالقوات الفاطمية التي تصدت لها سنة ٣٤٦هـ. وكان ذلك مما أثار سخط أهالي بلاد المغرب الأقصى على الفاطميين؛ فجهز المعز جيشاً ضخماً، لاستعادة سلطان الخلافة الفاطمية على تلك البلاد، أسند قيادته إلى جوهر الصقلي، الذي مضى في فتح مدن المغرب حتى استرد سجلماسة وفاس. ولكنه عجز عن الاستيلاء على سبتة وطنجة^(٣).

ولما توفي عبد الرحمن الناصر سنة ٣٥٠هـ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر، استمر النزاع قائماً بين الفاطميين والأمويين بالأندلس. وكان من مظاهره تلك الحملة التي أرسلها الحكم سنة ٣٦٢هـ إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط للقضاء على الدعوة الفاطمية التي قويت شوكتها في ذلك الوقت. ولم تلبث هذه الحملة

(١) النعمان، كتاب «المجالس والمسائر» ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣٤.

(٢) نفس المرجع. ج ١ ص ٢٣٨.

(٣) السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ - ٨٧، حسن إبراهيم وطه شرف. كتاب «المعز

لدين الله» ص ٤٣ - ٤٤.

أن تمكنت من بسط سلطان الخليفة الأموي على تلك البلاد. وخرج زعماء زناتة من مغراوة ومكناسة على طاعة المعز لدين الله الفاطمي، وأقاموا الدعوة للحكم المستنصر من منابرهم^(١).

لم ينته العداء بين الفاطميين والأمويين في الأندلس بعد وفاة المعز سنة ٣٦٥هـ؛ ويتبين لنا ذلك مما رواه ابن خلكان^(٢)؛ فقد ذكر أن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، تلقى من العزيز الخليفة الفاطمي بمصر كتاباً، يسبه فيه ويهجوّه؛ فكتب إليه الحكم المستنصر: «وقد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك».

كان الأمويون في الأندلس يتحينون الفرص للقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر؛ وتجلى ذلك في الثورة التي قام بها رجل يقال له أبو ركوة^(٣) وهومن ذرية هشام بن عبد الملك بن مروان، نزع إلى برقة واستقر بين قبيلة بنى قرّة على أثر استبداد المنصور بن أبي عامر بالسلطة دون الخليفة هشام المؤيد بالله الأموي، وهناك افتتح له مكتباً يعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة، كما اجتذب الناس إليه بورعه وذلاقة لسانه ونبل أخلاقه.

ولما رأى أبو ركوة أن الفرصة قد سحت لإظهار شخصيته دعا إلى عمه هشام المؤيد الخليفة الأموي بالأندلس؛ فلقيت دعوته قبولا حسناً من نفوس البدو في أنحاء برقة، كما استجاب إليه بنو قرّة الذين كانوا ساخطين على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي لإسرافه في قتل زعمائهم وكبرائهم. ولم يلبث أن سار على رأس جيش كبير؛ وأوقع الهزيمة بجند الحاكم، ومن ثم تيسر له بسط سلطانه على برقة سنة ٣٩٥هـ، وأمر بحذف اسم الحاكم من الخطبة وتلقب بالثائر بالله، وضرب السكة باسمه، وأظهر الرفق والعدل في معاملة أهالي هذه الولاية، فهرعت إليه الوفود لتأييده.

ولما وصل إلى الخليفة الحاكم نبأ ما قام به أبو ركوة في برقة، أعد العدة لمحاربته؛ فجهز جيشاً كبيراً مكوناً من خمسة آلاف فارس تحت قيادة «ينال الطويل» - أحد قواد الأتراك-؛ غير أن هذا الجيش ما لبث أن هزم بسبب استياء

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٤ ص ١٤٦.

(٢) وفیات الأعيان ج٢ ص ١٥٢.

(٣) سمي بذلك لأنه كان يحمل ركوة (وعاء من الجلد) لوضوئه على عادة الصوفية.

الجند المغاربة من قائدهم التركي وخروجهم على طاعته، كما وقع ينال أسيراً وقتل واستولى أبو ركوّة على مائة ألف دينار كانت معه، فاستفحل بذلك أمره وزادت هيئته، وأخذ يتطلع إلى امتلاك مصر.

لم يكن يعلم الحاكم بما استقر عليه رأى أبى ركوّة من الزحف على مصر، حتى شعر بفداحة الخطر الذى يهدد ملكه، فسير لمحاربة أبى ركوّة جيشاً ضخماً قوامه الجنود الشامية والغلمان الحمدانية تحت قيادة الفضل بن عبد الله فى ربيع الأول سنة ٣٩٦هـ؛ فالتقى الفريقان بالقرب من الإسكندرية حيث دارت بينهما معارك شديدة، ارتد بعدها الفضل صوب القاهرة، ثم واصل أبو ركوّة زحفه حتى وصل صحراء الفيوم، فتبعه الفضل بقواته وأوقع به الهزيمة، وظل يطارده حتى حدود النوبة حيث ظفر به رئيس ربيعة أبو المكارم هبة الله. وانتهى أمر أبى ركوّة بقتله^(١).

(١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٤ . ص ٢١٥ - ٢١٧ .

(ب) علاقة الفاطميين بالزيريين فى المغرب

لما عزم المعز لدين الله الفاطمى على الرحيل إلى مصر سنة ٣٦١ هـ، عهد بولاية إفريقية والمغرب إلى بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى؛ وقال له^(١): «إن نسييت ما وصيتك به، فلا تنس ثلاثة أشياء، لا ترفع الجباية عن أهل البلاد، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحداً من إخوتك وبنى عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوص بالحضر خيراً».

ظل بلكين بن زيرى موالياً للفاطميين بعد رحيلهم إلى مصر؛ فلما توفى خلفه ابنه الفتح المنصور، وكان يزعم الاستقلال عن الخلافة الفاطمية، ويتجلى لنا ذلك من قوله لشيوخ القيروان الذين قاموا إليه لتهنئته بالإمارة^(٢): «إن أبى يوسف وجدى زيرى كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب^(٣)، لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى...».

ولما وقف الخليفة العزيز بالله على رغبة هذا الأمير فى الاستقلال بالبلاد التى يحكمها، عمل على إثارة قبائل البربر عليه؛ فأرسل سنة ٣٧٦ هـ داعياً من قبله يدعى أبو الفهم الخراسانى إلى قبائل كتامة ليدعوهم إلى طاعته. وكان الخليفة الفاطمى، يرمى من وراء ذلك إلى إثارة قبائل كتامة على أمراء بنى زيرى. فلما قدم عليهم هذا الداعى، التفوا حوله وكون منهم جيشاً، زوده بالسلح، فاستاء المنصور من نشاط هذا الداعى، وكتب إلى الخليفة العزيز بذلك؛ فأرسل إليه العزيز، ينهاه عن التعرض له. لكن المنصور لم يصغ لقوله وعول على محاربة كتامة، ثم زحف بجيوشه سنة ٣٧٨ هـ إلى بلادهم، واشتبك معهم فى موقعة، انتهت بانتصاره عليهم^(٤). أما فيما يتعلق بالداعى أبى الفهم فإن المنصور ظل يتعقبه حتى قبض عليه وقتله. ولما بلغ ذلك العزيز، أدرك أن خطته التى تنطوى على إضعاف شأن الأمير منصور، باءت بالفشل؛ ومن ثم أثر سياسة التودد إليه^(٥).

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١ - ص ٢٦٣، المقرئى. اتعاظ الخفاص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١ ص ٣٤٣، ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ج٩ - ص ١٢.

(٣) يعنى أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله.

(٤) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ج٩ ص ١٨.

(٥) انظر ابن عذارى. البيان المغرب ج١ ص ٤٣٩، ٣٥٣.

اتبع الخليفة الحاكم بأمر الله سياسة أبيه العزيز مع أمير زيرى فى بداية عهده. لكنه رأى- بعد أن بلغه أن الأمير نصير الدولة باديس يعمل على الاستقلال عن الخلافة الفاطمية- أن يثير الصعاب فى وجهه؛ فأمر يانس العزيزى- واليه على برقة - بالمسير إلى طرابلس سنة ٣٩٠هـ، والاستيلاء عليها- وكانت وقتذاك تابعة لباديس-، فمضى يانس فى سيره إليها. غير أن قوات باديس ما لبثت أن تصدت له؛ ودارت بين الفريقين معركة، أسفرت عن هزيمة الجيش الفاطمى وقتل يانس^(١).

رأى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى، بعد تلك الهزيمة التى لحقت بجيش يانس العزيزى أن يعمد إلى حيلة أخرى، لعله يصل من ورائها إلى إضعاف نفوذ بنى زيرى فى المغرب الأدنى؛ فأثار قبيلة زناتة ضد باديس، وحثها على التقدم إلى طرابلس والاستيلاء عليها؛ فاستجابت له، وأنفذت جيشًا إلى طرابلس. لكن باديس ما لبث أن زحف إليها على رأس جيش كبير، وتمكن من دخولها فى شعبان سنة ٤٠٠هـ، واضطر قائد زناتة إلى طلب العفو والأمان منه؛ فأجاب طلبه؛ وبذلك احتفظ باديس بسلطته على البلاد التابعة له، الأمر الذى حمل الخليفة الحاكم بأمر الله على العودة إلى سياسة التودد مع أمراء بنى زيرى التى اتبعها أبوه العزيز من قبل؛ فأرسل إلى الأمير باديس هدية سنة ٤٠٣هـ كما أمر بإضافة برقة وأعمالها إليه^(٢) : وسادت العلاقات الودية بينه وبين هذا الأمير منذ ذلك الوقت.

استمر النفوذ الفاطمى سائدًا فى إفريقية حتى ولى إمارة بنى زيرى المعز بن باديس الصنهاجى - وكان منحرفًا عن مذهب الشيعة ويعتق مذهب السنة- «فحمل جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، وحسم مادة الخلاف فى المذاهب^(٣)». وعلى الرغم من انحراف هذا الأمير عن المذهب الإسماعيلى الذى يدين به الفاطميون، فإن الخليفة الحاكم بأمر الله لم يظهر اعتراضه على سياسته المذهبية؛ بل عمل على استجلاب محبته، فخاطبه بشرف الدولة فى سجل أرسله إليه سنة ٤٠٧هـ^(٤). كما أوفد إليه رسولاً سنة ٤١١هـ ومعه بعض الهدايا.

(١) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٦٥٥.

(٢) ابن عذارى. البيان المغرب ج١، ص ٣٧٣، ٣٧٤.

(٣) ابن خلكان. وفیات الأعيان ج٢، ص ١٣٧.

(٤) ابن عذارى. البيان المغرب ج١، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

ولما جاء الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، واقتدى بأبيه الحاكم فى الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الأمير المعز بن باديس، فزاده سنة ٤١٤ هـ لقباً^(١)، وصار يعرف بشرف الدولة وعضدها، وبعث إليه بالهدايا^(٢).

على أن علاقة هذا الأمير بالفاطميين فى مصر ما لبثت أن تبدلت فى أوائل عهد المستنصر بالله، فأعلن سنة ٤٤٠ هـ خروجه على طاعة هذا الخليفة، وأمر بحذف اسمه من الخطبة والسكة والطرز، وأقام الخطبة للقائم بأمر الله العباسى^(٣) (٤٢٢-٤٦٧ هـ)؛ كما أمر بلبس السواد شعار العباسيين وأعد أعلاماً سوداً وملابس سوداء لرجال الدولة^(٤).

استاء الخليفة المستنصر بالله الفاطمى من خروج المعز بن باديس عليه وإقامته الخطبة للخليفة العباسى، وعول على الانتقام منه. فأشار عليه الوزير أبو محمد الحسن بن على اليازورى بأن يستعين بقبائل بنى هلال^(٥) الذين استقروا فى صعيد مصر- فى محاربة بنى زيرى، فإذا ما انتصروا عليهم وأصبحوا أعواناً للدعوة وعمالاً للدولة فى إفريقية، وإذا هزموا ضعف أمرهم وتخلصت الخلافة من عدوانهم. فلقى هذا رأى قبولاً من نفس المستنصر، وعهد الوزير اليازورى إلى أمير الأمراء مكين الدولة أبو على الحسن بن مهلم - الذى اشتهر بحسن رأيه وكياسته^(٦) - بالمسير إلى هذه القبائل بخلع سنينة وأموال؛ فوزعها عليهم؛ ثم أباح لهم الوزير الفاطمى إجازة النيل، وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى، العبد الآبق، فلا تفتقرون^(٧)». فسار بنو هلال إلى برقة؛ ولما نزلوا بها فتحوا أمصارها واستباحوها، ثم مضوا فى سيرهم إلى إفريقية، فالتقوا بجيوش المعز بن باديس التى كانت تضم عناصر من العرب والبربر والعبيد؛ ودارت

(١) عبد العزيز سالم. المغرب الكبير ص ٦٥٩.

(٢) ابن عذارى. البيان المغرب ج١. ص ٣٩٢.

(٣) انظر ابن الأثير الكامل فى التاريخ. ج٩ ص ١٨٠، ابن خلدون ج٦ ص ١٥٩.

(٤) ابن عذارى. البيان المغرب ص ٤١٥.

(٥) تضم هذه القبائل أحياء من جشم ورغبة ورياح وربيعة وعدى. ولم يكونوا على وفاق فيما بينهم، بل استمرت الحروب بين بعضهم مما جعل البلاد التى يقيمون فيها تتعرض لكثير من عبثهم. وفى ذلك يقول ابن خلدون «ج٦ ص ١٤» «وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم».

(٦) عبد العزيز سالم. المغرب الكبير ص ٦٦٧.

(٧) ابن خلدون ج٦ ص ١٤.

الحرب بين الفريقين في ذى الحجة سنة ٤٤٣ هـ. ولكن حدث أثناء القتال أن جند العرب الذين كانوا مع المعز استهوتهم العصبية العربية؛ فانصرفوا عنه وآثروا الانضمام إلى عرب بنى هلال، كما خذله أنصاره من زناتة وصنهاجه؛ فحلت به الهزيمة في موقعة حيدران^(١). ونجا بنفسه مع بعض أتباعه إلى القيروان^(٢).

على أن بنى هلال ما لبثوا أن تعقبوا ابن باديس؛ فقصدوا القيروان وحاصروها، وأخذوا يعيشون فيها فسادا، وخربوا عمرانها، كما أتوا على معالمها مما اضطر أهلها إلى الرحيل عنها^(٣).

ضعف منذ ذلك الوقت شأن بنى زيري؛ فأشار المعز بن باديس على رعاياه بالانتقال إلى المهديّة، واتخذها مقراً له^(٤). ولم يزل مقيماً بها حتى توفي سنة ٤٥٤ هـ، فخلفه ابنه تميم الذي تقلص في عهده ملك بنى زيري حتى لم يعد يجاوز جزءاً من الساحل يحيط بالمهديّة^(٥).

أما عن الخلافة الفاطمية فإنها لم تلبث أن واجهت كثيراً من الصعاب سواء في مصر أو أقطار الشرق الإسلامي التي امتد نفوذها إليها. لذلك تعذر عليها الاحتفاظ بسيادتها على بلاد المغرب. وظلت الخطبة تقام للعباسيين في هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين في أوائل القرن السادس الهجري وقطع أميرها عبد المؤمن بن علي الدعوة للخليفة العباسي المقتفى^(٦) وأخذ يوسع ملكه في شمال إفريقيا؛ فاستولى على مراكش سنة ٥٤٢ هـ، ثم تقدم شرقاً، فبسط سلطانه على إقليمي الجزائر وتونس، وظل يتابع رحفه حتى حدود مصر الغربية فاستولى على طرابلس وبرقة. وبعد أن تم لعبد المؤمن فتح هذه البلاد، عاد أدراجه إلى المغرب الأقصى وأدركته الوفاة سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م).

(١) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٦٦٩، ابن خلدون ج٦ ص ١٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ج٩ ص ١٩٧.

(٣) ابن خلدون. ج٦ ص ١٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ج٩ ص ١٩٧.

(٥) تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٥٤.

(٦) انظر: أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج٥ ص ٥١.

(ج) الفاطميون وجزيرة صقلية

يرجع اهتمام المسلمين بجزيرة صقلية إلى عهد معاوية بن أبي سفيان؛ فحاولوا غزوها أكثر من مرة وبخاصة في القرن الثاني الهجري دون أن يظفروا بفتحها. فلما ولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمارة الأغلبة في إفريقية في عهد الخليفة المأمون العباسي، أعد جيشاً وأسطولاً، يتألف من مائة مركب لغزوها بقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ^(١). وقد تمكن المسلمون من الاستيلاء على بعض حصون الجزيرة ومدنها، لكنهم سرعان ما كانوا يتخلون عنها تحت ضغط الروم، وظلوا على هذه الحال حتى توفي زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢٣هـ، فأخذ بعض أمراء الأغلبة من بعده في تسيير الحملات والسرايا إلى صقلية لإتمام فتحها^(٢). واستطاع المسلمون بعد أن قضوا ما يقرب من خمسين عاما في محاربة الروم في هذه الجزيرة، أن يستولوا على بعض ثغورها ومدنها، نذكر من بينها: بلرم، وقصريانه، ومسينا، وقطانيه، وطرميس^(٣). وكانت سرقوسة التى تعد من أمهات مدن صقلية، آخر معقل سقط فى أيديهم فى عهد إبراهيم الثانى بن الأغلب سنة ٢١٤هـ^(٤).

أصبحت جزيرة صقلية منذ أن تيسر للمسلمين فتحها فى مستهل القرن الثالث الهجرى، ولاية يتناوب حكمها ولاية من قبل أمراء الأغلبة، واستمر الحال على ذلك إلى أن زحف أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين ببلاد المغرب على إفريقية وتمكن من الاستيلاء على كثير من مدنها سنة ٢٩٥هـ. ثم التقت قواته بأصحاب زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغلبة، فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٦هـ؛ فأوقعت بهم الهزيمة^(٥). واضطر هذا الأمير إلى الرحيل عن إفريقية والفرار إلى مصر، بعد أن حمل معه ما خف وزنه وغلا ثمنه^(٦). وفى مستهل رجب من هذه السنة، دخل أبو عبد الله الشيعى رقادة، ونزل ببعض قصورها^(٧). وبذلك زال نفوذ بنى الأغلب فى إفريقية.

(١) انظر: أمارى: المكتبة الصقلية. ج١ ص ٤٢٧ - ٤٢٩.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص ١٦٧، ج٧ ص ٢، ١٩، ٢٠.

(٣) ابن خلدون: ج٤. ص ٢٠٠ - ٢٠٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٧، ص ١٠٥ - ١٠٦، تاريخ الإسلام السياسى. ج٣ ص ٢٧٣، ٢٧٦.

(٥) المقرئى: اتعاظ الحنفاء، ص ٨٦ - ٨٧.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ٢٠١.

(٧) المقرئى: اتعاظ الحنفاء، ص ٨٧.

ولما بلغ أهل صقلية ما أحرزه أبو عبد الله الشيعي من نصر على الأغالبة، ثاروا على واليهم السنن الحسن بن رباح وولوا بدله على بن أبي الفوارس سنة ٢٩٦هـ، وكتبوا إلى داعي الفاطميين يطلبون منه أن يقرهم على ما فعلوا، فأجاب طلبهم^(١). غير أن عبيد الله المهدي - أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب - ما لبث أن عزل هذا الوالي وعين الحسن بن محمد بن أبي خنزير الكتامي محله سنة ٢٩٧هـ. لكنه لم يستمر طويلاً في الولاية؛ فقد ثار به السنون من أهل صقلية لإساءته معاملتهم وحبسوه^(٢). فولى عبيد الله المهدي مكانه على بن عمر البلوي. ولم يكن أقل تعسفاً من سلفه، فخرج أهل الجزيرة على طاعته - وبخاصة العناصر العربية التي ساءها أن يولى عليهم الفاطميون واليا من البربر -، ووقع اختيار زعمائهم سنة ٣٠٠هـ على أحمد بن قرعب^(٣) - وكان عربياً -؛ غير أن هذا الوالي لم تطل ولايته، فقد ثار به الجند بسبب طموحه إلى تدعيم نفوذه بصقلية. ولم يلبث أن انحرف عن الفاطميين وأعلن ولاءه للمقتدر العباسي، فأقام له الخطبة بدلاً من عبيد الله المهدي ولم يكتف بذلك، بل أنفذ أسطوله لمهاجمة سواحل بلاد المغرب واستطاع في بادئ الأمر أن يوقع الهزيمة بالأسطول عند ساحل إفريقية. لكن الفاطميين سرعان ما ضاعفوا جهدهم في إعداد أسطولهم وأحلوا الهزيمة بقوات ابن قرعب حين شرعت في مهاجمة إفريقية، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى المهدي حيث قتل^(٤). وهكذا قضى على أول محاولة ترمى إلى إعادة صقلية إلى حكم العباسيين، واستعاد الفاطميون سيادتهم عليها.

لم تستقر الحالة في صقلية بعد أن ولي عبيد الله المهدي الخلافة؛ فكثيراً ما كانت تقع المنازعات بين أهلها من المسلمين، فيعزلون ولاتهم ويعينون من يشاؤون؛ ولذلك استقر رأى الخليفة على إرسال جيش مع الوالي يدفع عنه خطر الثائرين، فضلاً عن اتخاذه وسيلة لقمع الولاة إذا ما حدثتهم أنفسهم بالخروج على طاعته^(٥).

(١) انظر: أماري: المكتبة الصقلية ج١، ص ٤٣٤.

(٢) ابن خلدون: ج٤، ص ٢٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص ٢٣.

(٤) ابن خلدون: ج٤، ص ٢٠٧، حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب «عبيد الله المهدي»، ٢٠١ - ٢٠٢.

(٥) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٨، ص ٢٣ - ٢٤.

وكان الفاطميون يحرصون على الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الجزيرة، لاتخاذها قاعدة لأسطولهم في البحر المتوسط، لصدد الحملات التي يوجهها الروم نحو إفريقية^(١)؛ ومن ثم استمروا في إرسال ولايتهم إليها حتى قامت ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد فلما قضى على هذه الثورة، عين المنصور، الفاطمي الحسن ابن علي الكلبى والياً على صقلية سنة ٣٣٦هـ^(٢). وفى عهده تفاقم النزاع بينه وبين مسيحي صقلية الذين لجأوا إلى قسطنطين السابع إمبراطور الدولة البيزنطية لنجدتهم؛ فلبى طلبهم وأنفذ قواته إلى صقلية حيث اشتبكت مع قوات الحسن الكلبى وحلت الهزيمة بالجيش البيزنطى؛ واضطر الإمبراطور إلى طلب الصلح^(٣).

على أن الإمبراطور البيزنطى لم يحترم شروط الصلح الذى عقده مع الحسن الكلبى، وأرسل إلى صقلية سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م) حملة تمكنت من فتح بعض مدنها. لكن الروم لم يتمتعوا بثمار هذه الانتصارات التى أحرزوها فى صقلية، وانسحبوا إلى قلورية^(٤) (Calabria).

لم تنعم جزيرة صقلية بالاستقرار من جراء تهديد البيزنطيين لها فى عهد المعز؛ فقد قامت بها الحرب بين الجيوش الفاطمية وأنصار البيزنطيين، واستطاع واليها أحمد بن الحسن الكلبى سنة ٣٥١هـ أن يستولى على قلعة طبرمين - وهى من قلاعها المنيعه-، ثم طرد منها أهلها وأحل محلهم جماعة من المسلمين، وأطلق عليها اسم المعزية^(٥) نسبة إلى المعز لدين الله، وتبع ذلك استسلام بعض المدن للجيش الفاطمى على حين استنجدت مدن أخرى بالإمبراطور البيزنطى نقفور فوكاس؛ فجهز قوات برية وبحرية وسيرها لمحاربة الفاطميين فى صقلية. وبذل والى هذه الجزيرة من ناحيته جهوداً كبيرة فى سبيل إعداد الأسطول والجيش لصد القوات البيزنطية، كما أمده الخليفة المعز ببعض النجدة؛ ولكن البيزنطيين تمكنوا رغم ذلك من الاستيلاء على بعض مدن صقلية سنة ٣٥٣هـ^(٦) (٩٦٤م).

(١) تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٩٩.

(٢) انظر. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٨، ص ١٥٦، ابن خلدون، ج٤، ص ٢٠٨.

(٣) ابن خلدون: ج٤، ص ٢٠٩.

(٤) انظر: كتاب « المعز لدين الله » ص ٥٣.

(٥) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ، ج٨، ص ١٧٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٨، ص ١٨٣.

استمرت الحرب سجالاتاً بين قوات الفاطميين في صقلية وقوات البيزنطيين التي تفوقها في العدد. وقد تمكن الجند الفاطميون أن يشبثوا أمام تلك القوات، كما أن القائد الفاطمي الحسن بن عمار استطاع بعد أن نظم جيشه أن يلتقي بالقائد البيزنطي مانويل ويقضى عليه؛ فولى جنده هاربين؛ وبذلك حلت الهزيمة بالبيزنطيين، وأخذ المسلمون في صقلية يتعقبونهم حتى وقع في أيديهم كثير من الأسرى والسبي، وغنموا منهم مغانم كثيرة، ثم مضى أحمد بن الحسن الكلبي - والى صقلية - إلى مسينا ليقضى على فلول البيزنطيين؛ فوجدهم قد رحلوا عنها؛ فلحق بهم وانتصر عليهم في موقعة المجار^(١) سنة ٣٥٤هـ^(٢).

أما عن الحالة الداخلية في جزيرة صقلية؛ فإن المعز أبقى أحمد بن الحسن الكلبي والياً عليها حتى سنة ٣٥٨هـ، ثم ولى مكانه «يعيش» مولى الحسن الكلبي. ويظهر أن الخليفة الفاطمي كان يرى إقصاء الكلبيين عن الحكم في هذه الجزيرة حتى لا يستبدوا بأمورها. لكنه لم يلبث أن عدل عن هذه السياسة؛ فأسند إليهم بعض المناصب الكبرى، وولى أبا القاسم بن الحسن الكلبي ولاية صقلية في منتصف سنة ٣٥٩هـ^(٣)؛ فرحب به أهلها، واتفقوا على طاعته، واستقرت بذلك الأمور في الجزيرة.

ولما انتقل المعز لدين الله إلى مصر واتخذها مقراً لخلافته سنة ٣٦٢هـ، لم يجعل لوالى إفريقية والمغرب حكماً على صقلية، بل صار يلى أمورها وال مستقل من قبل الخليفة الفاطمي، وأجيز له الرجوع إليه في تصريف شئون ولايته.

أخذ النفوذ الفاطمي في جزيرة صقلية في الضعف من أواخر القرن الرابع الهجري، وغدت علاقة الخلفاء الفاطميين بهذه الجزيرة مقصورة على إرسال الولاة إليها لإدارة شئونها. لكن بعض هؤلاء الولاة مثل أحمد الأكلحل أثار الانقسام بين المسلمين من أهلها بسبب التفرقة في معاملتهم، فاضطر جماعة منهم إلى المسير إلى المعز بن باديس أمير إفريقية سنة ٤٢٧هـ، وشكوا إليه ما حل بهم، وقالوا له «نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلمنا البلاد إلى الروم^(٤)». فكان ذلك الانقسام الذي

(١) يقصد به الخليج الذي يفصل بين صقلية وإيطاليا.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص ١٨٣ - ١٨٤، كتاب «المعز لدين الله» ص ٥٨ - ٥٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص ٢٠١، كتاب «المعز لدين الله» ص ٦٣.

(٤) انظر: أماري: المكتبة الصقلية ج١ ص ٢٧٤.

طراً على مسلمى صقلية مما شجع البيزنطيين على غزوها فى عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤-١٠٤٤م) الذى أنفذ إليها حملتين: الأولى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) لم تحرر أى نجاح، أما الثانية، فكانت فى السنة التالية. وقد استطاعت هذه الحملة أن تستولى على مسينا ومعظم البلاد الواقعة على الساحل الشرقى من الجزيرة، غير أن المسلمين سرعان ما تمكنوا من استعادة أكثر البلاد التى استولى عليها البيزنطيون^(١).

على أن الاضطرابات ما لبثت أن سادت هذه الجزيرة من جراء النزاع بين أمرائها المسلمين والحروب الداخلية. وقد مهد ذلك، السبيل أمام النرمانديين لغزوها، فتمكن روجر بن تنكرد النرمندى من الاستيلاء على جميع أرجائها سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م)^(٢).

. Cambridge Med. Hist. Vol. IV. P. 150

(١)

.Hitti, History of the Arabs. P. 606

(٢)

الباب الثامن

العلاقات بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية والمدن الإيطالية

- ١- الفاطميون والبيزنطيون.
- ٢- الفاطميون والمدن الإيطالية.

(أ) الفاطميون والبيزنطيون:

واجه الفاطميون منذ تقدمت جيوشهم في بلاد الشام صعوبات كثيرة من ناحية البيزنطيين الذين أخذوا يهددون حدود سورية الشمالية بغاراتهم المتتالية، كما رحفت قواتهم على أنطاكية سنة ٢٥٨هـ (٩٦٩م)، واستطاعوا بعد ذلك بمدة وجيزة أن يدخلوا حلب، وأن يرغموا حاكمها على عقد صلح معهم^(١).

اتجهت سياسة المعز لدين الله إلى استعادة المدن التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام ليقضوا بذلك على الأخطار التي تهدد نفوذهم في تلك البلاد؛ وقام بتنفيذ هذه السياسة القائد الفاطمي جعفر بن فلاح. لكن الحملات الفاطمية التي أرسلت لإجلائهم عن أنطاكية فشلت في تحقيق هذه الغاية لانشغال الفاطميين بصد القرامطة والقضاء على ما بقى لهم من نفوذ بالشام^(٢).

اتخذ البيزنطيون من النزاع بين الفاطميين والقرامطة فرصة سانحة لمواصلة شن غاراتهم؛ فتقدم إمبراطور الروم حنا زيمسكيس (John Tzimiscēs) في سنة ٩٧٥م من أنطاكية إلى حمص، ومنها إلى بعلبك؛ واضطرت دمشق إلى التسليم ودفع الجزية له، كما سلمت له طبرية وقيسارية، ثم سار الإمبراطور شمالاً حيث استولى على بيروت وصيدا، ولما حاول الاستيلاء على طرابلس أوقعت حامية المدينة يعاونها الأسطول الفاطمي الهزيمة بقواته، ثم عادت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية وعاد الإمبراطور إلى القسطنطينية حيث توفي في أوائل سنة ٩٧٦م^(٣).

(١) Hitti, History of Syria p. 460

(٢) انظر . كتاب النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، ص ٢٢ .

(٣) Cambridge Mediaeval History Vol IV p. 148

ظل النزاع قائماً بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية حتى سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧م) حيث قدمت إلى مصر رسل الإمبراطور باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م)، تحمل هدية الخليفة العزيز وتطلب عقد صلح بين الدولتين واشتملت الهدية على ثمان وعشرين صينية من الذهب؛ فأجاب الخليفة الفاطمي طلب هؤلاء السفراء واشترط للصلح عدة شروط منها:

- ١- أن يطلق البيزنطيون سراح من عندهم من الأسرى المسلمين.
- ٢- أن يدعى للخليفة العزيز بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة.
- ٣- أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين مدة سبع سنوات^(١).

لم يكن لهذه الهدنة أثر كبير في وقف تيار الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين لأن سعيد الدولة أبا الفضائل بن حمدان أمير الحمدانيين في حلب، لما علم بتوغل الفاطميين في بلاد الشام، استنجد بإمبراطور الروم باسيل الثاني؛ فأمدّه الإمبراطور بحملة، والتقت القوات المصرية والبيزنطية على ضفاف نهر العاص، ولحقت الهزيمة بالبيزنطيين سنة ٣٨١هـ. وعاد القائد الفاطمي منجوتكين إلى دمشق لنفاد الأقوات، فاستاء العزيز لذلك، وأمره بفتح حلب، وأرسل إليه المؤن، فسار منجوتكين إليها في العام التالي، وحاصرها حصاراً شديداً حتى اضطر أميرها إلى الاستنجاد بالإمبراطور البيزنطي مرة ثانية، وكتب إليه يقول: «متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية، أخذت قسطنطينية»^(٢).

لما رأى باسيل الثاني الخطر الذي يهدد بلاده من جراء هجوم الفاطميين على حلب، عوّل على السير إليها بنفسه، فاستولى على حصن شيزر^(٣). ثم فتح حمص، وأخذ يتابع سيره حتى وصل طرابلس. ولما تعذر عليه فتحها عاد إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام^(٤). وعندما وقف العزيز على مدى تقدم البيزنطيين في بلاد الشام، واستقر رأيه على أن يسير بنفسه لصد قواتهم؛ فجهز حملة برية، كما أمر وزيره عيسى بن

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ج٤، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٢) أبو المحاسن. النجوم الزاهرة؛ ج٤، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) يقع على مقربة من معرة النعمان شمال حماه.

(٤) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ١٦٦.

نسطورس بإنشاء أسطول يسير بحراً إلى طرابلس؛ غير أن هذا الأسطول اشتعلت فيه النيران في ميناء المقس بالقاهرة وأحرقت منه ستة عشر مركباً. وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر في نفوس المصريين، فاتهموا الروم بتدبير مؤامرة إحراقه وخاصة أنهم كانوا يقيمون على مقربة من دار الصناعة بالمقس، وحملوا عليهم وقتلوا فريقاً كبيراً منهم؛ وما لبث العزيز أن قضى على الاضطرابات التي حدثت بالقاهرة، بسبب إحراق الأسطول؛ ثم شرع في جمع الأخشاب وأمر الصناع بالإسراع في إنجازه^(١). ولما تم بناؤه أبحر إلى أنطربوس^(٢)؛ غير أن معظم سفنه لم تلبث أن تحطمت في البحر على أثر هبوب عاصفة عليها، وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصري^(٣). أما الحملة البرية، فخرج على رأسها الخليفة العزيز بنفسه إلى بليس، لكن المرض اشتد عليه فجأة فتخلف بها وتوفي سنة ٣٨٦ هـ^(٤) (٩٩٦م).

ظل البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميين؛ فلما خرج أهل صور على طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٣٨٨ هـ بزعامه رجل ملاح يعرف بعلاقة، اتخذ عملة جديدة نقش عليها هذه العبارة: «عزا بعد فاقة للأمير علاقة»، وأعلن استقلال مدينته^(٥)، وأرسل برجوان الذي كان يلي إذ ذاك الوصاية على هذا الخليفة حملة كبيرة بقيادة جيش بن الصمصامة الكتامي إلى صور وكان علاقة الشائر بها قد استنجد بالإمبراطور باسيل الثاني؛ فبعث إليه بالإمدادات في البحر؛ ورأى برجوان من ناحيته أن ينفذ إلى مياه صور بعض سفن الأسطول المصري. فحوصرت المدينة من البر والبحر، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهى الأمر فيها بسقوط صور في أيدي القوات الفاطمية وهزيمة البيزنطيين وحليفهم الأمير علاقة الذي أسر وأرسل إلى القاهرة حيث قتل. وواصل جيش ابن الصمصامة الكتامي سيره إلى أفاميه^(٦) (Apamea). وهناك التقى بالبيزنطيين. فتغلب عليهم، وأخذ يطاردهم حتى أبواب أنطاكية^(٧).

(١) المقرئ، خطط، ج٢، ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) من أعمال طرابلس بلبنان تقع على ساحل البحر.

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ١٧٨.

(٤) أبو الحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ١٢٢.

(٥) حتى. تاريخ سورية، ص ٢١٣.

(٦) مدينة حصينة، وهي كورة من كور حمص.

(٧) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ج١، ص ١٨١ - ١٨٤، ابن خلدون. ج٤، ص ٥٧.

وعلى الرغم من تتابع انتصارات الفاطميين على البيزنطيين، فإن برجوان عول على مهادنتهم ليتسنى له التفرغ للقضاء على الفتن الداخلية بمصر. فأرسل إلى باسيل يقترح عليه عقد الصلح. فرحب الإمبراطور البيزنطى بهذه الدعوة، وأنفذ سفيراً إلى الخليفة الفاطمى ليتفق معه على شروط الصلح. وبينما كانت المفاوضات تدور بالقاهرة غزا باسيل بلاد الشام لوقف زحف القوات الفاطمية إلى أنطاكية. وكاد مشروع الصلح ينهار لولا الفشل الذى لحق الإمبراطور فى هجومه الجديد، فارتد مسرعاً نحو أرمينية وآثر استتباب السلم فى حدود بلاده الجنوبية حتى يتفرغ لمواجهة البلغار.

استؤنفت على أثر ذلك المفاوضات فى القاهرة بين رجال الدولة المصرية والسفير البيزنطى. ولما تم الاتفاق على شروط الصلح، انتدب برجوان أريسطيس بطريك بيت المقدس لمصاحبة السفير البيزنطى فى سفره إلى القسطنطينية لعرض هذه الشروط على الإمبراطور وإقرارها منه. فقام أريسطيس بهذه المهمة؛ وتم بذلك إبرام معاهدة صداقة بين مصر والدولة البيزنطية تقرر فيها ما يأتى:

- ١- تظل الهدنة قائمة بين مصر والدولة البيزنطية مدة عشر سنوات.
- ٢- يتمتع المسيحيون الذين يقيمون فى أنحاء الدولة الفاطمية بالحرية الدينية ويسمح لهم بتجديد كنائسهم وبنائهم.
- ٣- يتعهد الإمبراطور باسيل الثانى بإمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب.

على أن الإمبراطور البيزنطى سرعان ما قطع علاقته بالدولة الفاطمية حين وصلته أنباء سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى؛ وظل الحال على ذلك إلى أن توفى هذا الخليفة وخلفه ابنه الظاهر؛ فحاولت عمته ست الملك - التى قامت بالوصاية عليه - توطيد العلاقة بين مصر والدولة البيزنطية. وتنفيذاً لهذه الرغبة، أرسلت نيقفور بطريك بيت المقدس سفيراً إلى باسيل الثانى ليعمل على عقد أواصر الصداقة بين الدولتين، وليخبره بالإجراءات التى اتخذت فى القاهرة لرفع الحيف عن النصارى وتجديد بناء الكنائس. بيد أن هذه السفارات لم تأت بباطل؛ وظلت غارات البيزنطيين تتوالى على شمال الشام حتى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) حيث أنفذ الظاهر سفارة إلى الإمبراطور قسطنطين الثامن لعقد الصلح. فتم

الاتفاق بين الفريقين على إبرام معاهدة تضمنت شروطاً التزم تنفيذها كل من الخليفة الفاطمي والإمبراطور البيزنطي؛ وفيما يلي هذه الشروط^(١) :

١- أن يُسمح للإمبراطور البيزنطي بإعادة بناء كنيسة القيامة في بيت المقدس .

٢- أن يسمح لكافة المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم عدا التي حوّلت إلى جوامع .

٣- أن يعين الإمبراطور البيزنطي بطريقاً في بيت المقدس .

٤- ألا يقوم الفاطميون بأى عمل عدائي نحو حلب حتى تقوم بسداد الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة البيزنطية، منذ عام ٩٧٠م .

٥- ألا تمد الدولة الفاطمية يد المساعدة لأى عدو من أعداء الدولة البيزنطية وخاصة أهل صقلية الذين هددوا هذه الدولة وعاثوا في جزر بحر الأرخيبيل، وكان الإمبراطور البيزنطي يخشى انضمام الأسطول الفاطمي إلى هؤلاء، فيتعذر عليه إخضاعهم .

وفي مقابل هذه الشروط، يتعهد الإمبراطور بما يأتى :

١- أن يعمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة، في جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية .

٢- أن يعيد بناء جامع القسطنطينية .

٣- أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين في قبضة الروم .

٤- ألا يقدم الإمبراطور أية مساعدة لحسان بن مفرج بن الجراح صاحب الرملة الذي خرج على الخليفة الظاهر الفاطمي .

٥- أن يسحب الإمبراطور طلبه الخاص بالاستعاضة عن شيزر بأفامية .

على أن الأمر الذى يسترعى النظر في هذا الصلح أن الإمبراطور البيزنطي تعهد بإعادة بناء جامع القسطنطينية . وكان البيزنطيون قد أقدموا على هدمه حين بلغهم هدم كنيسة القيامة في بيت المقدس، ثم أعادوا بناءه في أيام الظاهر الفاطمي .

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

لم يلبث البيزنطيون أن نقضوا هذا الصلح سنة ٤٣٣هـ. وانضموا إلى بعض أمراء العرب بالشام الذين كانوا يعادون الفاطميين؛ فساروا مع حسان بن مفرج بن الجراح الطائى صاحب الرملة - وكان قد لجأ إليهم بعد أن هزمه جند الخليفة الظاهر الفاطمى عند طبرية -، وأغاروا على أفامية وغنموا منها مغانم كثيرة واستولوا على قلعتها وأسروا كثيراً من أهلها^(١).

تحسنت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين فى أوائل عهد المستنصر بالله، فعقد هذا الخليفة هدنة مع الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) وسمح له بإتمام إصلاح كنيسة القيامة على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، فأخلى الإمبراطور سبيل الأسرى وأرسل المعمارين إلى بيت المقدس، وأنفق كثيراً من الأموال على تجديد بناء هذه الكنيسة^(٢).

ولما ولى قسطنطين التاسع الحكم حافظ على استمرار العلاقات الودية مع الفاطميين، فبعث إلى المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٣٧هـ هدية عظيمة «اشتملت على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية»^(٣).

استغل الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على إنعاش الحالة الاقتصادية فى دولته؛ فأرسل على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ إلى الإمبراطور قسطنطين التاسع يطلب منه أن يمدّه بأربعمائة ألف أردب من القمح، فأظهر الإمبراطور استعداداً لإجابة هذا المطلب؛ لكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الإمبراطورة تيودورا، فاشتترت لتقديم هذه المساعدة أن يمدّها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أى معتد؛ غير أن المستنصر رفض الموافقة على هذا الشرط، فأجابته تيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر.

أثارت سياسة هذه الإمبراطورة غضب الخليفة المستنصر، وعول على محاربتها، فجهز حملة تحت قيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم؛ وما لبث هذا

(١) أبو الفدا. المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ١٥٨.

(٢) أبو الفدا. المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص ١٦٢.

(٣) الألبهى. المستطرف فى كل فن مستظرف، ج٢، ص ٥٤.

القائد أن نزل بالقرب من أفامية ثم تجول في أعمال أنطاكية^(١)؛ فأنفذت الإمبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة، وأسر هو وكثير من جنده سنة ٤٤٧هـ. وكان ذلك مما حمل المستنصر على أن يعهد للقاضي أبي عبد الله القضاعي بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين؛ فلم تحفل الإمبراطورة بوجوده، على حين رحبت برسول السلطان طغرل بك السلجوقي الذي قدم إذ ذاك من العراق ومعه رسالة من السلطان يلتمس فيها أن يصلى رسوله في جامع القسطنطينية، فأذنت له بذلك؛ فدخله وصلى فيه صلاة الجمعة وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي. ولا غرو فقد كان السلاجقة في ذلك الوقت أشد خطراً على البيزنطيين من الفاطميين الذين اضمحل سلطانهم في بلاد المغرب وأصبحوا يواجهون في مصر كثيراً من الصعاب.

ولما وقف الخليفة المستنصر على سياسة الإمبراطورة العدائية إزاءه والإساءة التي لحقت بسفيره، بعث في طلب كنوز كنيسة القيامة ونفائسها؛ فأرسلت إليه^(٢)؛ وازداد بذلك التوتر في العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين.

عاد العداء بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية سيرته الأولى؛ وظل الحال على ذلك إلى أن وجه الصليبيون حملاتهم إلى بلاد الشام، وأسسوا بها إمارتي أنطاكية وبيت المقدس؛ وصاروا يشتبكون من وقت لآخر في معارك حربية مع القوى الإسلامية بتلك البلاد وبخاصة في عهد نور الدين محمود أمير حلب الذي أمره الخليفة بضم دمشق إليه سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م)^(٣).

ولما أخذت الأخطار تواجه الفرنجة ببيت المقدس من جراء ازدياد نفوذ نور الدين محمود ببلاد الشام وطموحه إلى بسط سلطانه على مصر، بعث أموري ملك بيت المقدس يستنجد بملوك أوروبا لوقف الخطر الذي يهدد الإمارات اللاتينية بالشام، لكنهم شغلوا عنه؛ لذلك لم ير بداً من الاستعانة بالإمبراطور البيزنطي مانويل الذي رحب بمد يد المعونة إليه واتفق معه على المسير بحراً إلى مصر؛ وأنفذ

(١) المقریزی، ج١، ص ٣٢٥.

(٢) Staley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages P. 148.

(٣)

ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧.

(٣) انظر: ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج١١، ص ٧٤ - ٧٥.

إليه أسطولاً يعاونه حملة من الفرسان والمشاة مزودة بالمؤن والعتاد الحربى^(١). وتوجهت هذه القوات إلى دمياط حيث أحاطت بها برّاً وبحراً فى صفر سنة ٥٦٥^(٢) (١١٦٩م). وكان الإمبراطور البيزنطى يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه فى التوسع. فتصبح مصر من بين الأقطار الداخلة فى دائرة نفوذه.

ولما بلغ صلاح الدين وزير الخليفة الفاطمى العاضد مسير قوات الفرنجة والبيزنطيين إلى دمياط، عول على النهوض لصدّها، فأرسل جنده عن طريق النيل، وبعث إلى نور الدين محمود يطلب الإمداد^(٣). فأجاب طلبه، كما حرص الخليفة على مده بالأموال^(٤).

على أن هؤلاء المغيرين على دمياط من الفرنجة والبيزنطيين لم يقدموا على التوغل فى داخل البلاد المصرية، بل اضطروا إلى الرحيل عن هذه المدينة- بعد أن ظلوا يحاصرونها نحو خمسين يوماً- والعودة بجيوشهم إلى بلادهم، بسبب ما بلغهم عن شروع نور الدين فى الإغارة على بلاد الإمارات اللاتينية بالشام، فضلاً عن وقوع الخلاف بين قوادهم؛ وبذلك عجزت الحملة الصليبية التى عاونها البيزنطيون عن تحقيق أطماعها فى مصر^(٥).

(١) حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، ١٣٥.

(٢) المقرئى: خطط، ج١، ص ٢١٥.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج١، ص ١٨١.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١١، ص ١٣٢، المقرئى، خطط، ج١، ص ٢١٥.

(٥) حسن حبشى. نور الدين والصليبيون، ١٣٨ - ١٣٩.

(ب) الفاطميون والمدن الإيطالية

كانت مدينة أمالفى أولى المدن الإيطالية التى أنشأت علاقات مع مصر والشام في العصر الفاطمي؛ ومن دلائل ذلك أن أحد أثرياء هذه المدينة ويدعى Maurus، استعان بمهرة الصناع والفنانين من الإسكندرية لتزيين بعض قصوره بالفسيفساء، وما يذكر عنه أنه لما شرع فى بناء دير بيت المقدس، وكانت إذ ذلك خاضعة للسيادة الفاطمية-، اقتضت الضرورة إجراء محادثات مع الحكومة الفاطمية بمصر فى عهد الخليفة الظاهر سنة ٤١١هـ (١٠٢٠م) على منحه قطعة من الأرض بالحى المسيحى بالمدينة شيد عليها دير Marie de Latina لإيواء الحجاج والتجار من أهل أمالفى^(١).

كذلك حرصت مدينة بيزا على توثيق صلة المودة مع الخلفاء الفاطميين، فأرسلت سنة ١١٥٤ م سفيراً إلى بلاط الخليفة الظافر الفاطمي لتسوية بعض المشاكل الناجمة عن اعتداء بعض التجار من رعاياها فى إحدى السفن على فريق من التجار المصريين بالقتل والسلب، وثارت الحكومة الفاطمية لرعاياها المصريين بمعاينة التجار البيازنة المقيمين بمصر. فلما وصل سفير الحكومة البيزية استطاع أن يتفق مع رجال الحكومة الفاطمية على تسوية، تضمنت تعهداً من حكومة بيزا بالاقتصاص من المعتدين والامتناع عن تقديم أى مساعدة للصليبيين فى الشام ولغيرهم من أعداء مصر، كما تضمنت تعهداً من الحكومة الفاطمية بإطلاق سراح رعايا مدينة بيزا الذين أودعوا السجن بسبب اعتدائهم على بعض المصريين، وحماية الحجاج والتجار البيازنة الذين يسافرون فى سفن غير حربية.

وبلغ من اهتمام حكومة بيزا بتوطيد علاقاتها برجال الحكومة الفاطمية أنه عندما أسندت الوزارة فى مصر إلى طلائع بن رزيك، سارعت إلى إرسال وفد لتقديم تهنئتها إليه؛ فرحب بقدمهم وأكرم وفادتهم، ووعد بالعمل على حماية رعاياهم.

على أن حكومة بيزا لم تكن مخلصه فى تقريبها للفاطميين؛ ووضح ذلك حين أخذ أمورى ملك بيت المقدس يهدد الفاطميين فى مصر فأظهرت بيزا استعدادها لمعاونة الصليبيين، ووعداها أمورى بعض الامتيازات فى البلاد المصرية.

ولما اتضح للبيزانة أن الصليبيين لن يتييسر لهم البقاء في مصر، وأنهم في سبيل الاتفاق مع الحكومة الفاطمية للجلء عن البلاد، سارعت حكومة بيزا إلى الوساطة بين الطرفين، وأفادها هذا العمل، إذ منحها الخليفة العاضد الفاطمي امتيازات تجارية، لكنها لم تلبث أن عادت إلى إثارة مصالحها الخاصة، فاشتكت مع الصليبيين سنة ١١٧٠م في الهجوم على ثغر دمياط رغم الامتيازات التي منحتها لها الحكومة الفاطمية^(١).

وكانت مدينة جنوة تحرص أيضاً على التودد إلى الفاطميين. وقد نمت العلاقات بينهما وبين مصر في النصف الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي؛ فعقد مندوب عنها معاهدة تجارية مع الحكومة الفاطمية عام ١٠٦٣م، كما وافق بعض الخلفاء في أواخر العصر الفاطمي على حماية رعايا هذه المدينة أثناء إقامتهم بأراضي الدولة الفاطمية^(٢). وكان كثير من تجار جنوة يتوافدون إلى الإسكندرية لاستيراد بعض السلع ومن بينها الشب والنطرون التي احتكرت الحكومة الفاطمية تجارتها، واحتفظت لنفسها بحق بيعه للروم^(٣).

ولم يكن اهتمام البندقية بإقامة علاقات ودية مع الفاطميين في مصر والشام أقل من غيرها من المدن الإيطالية. ففي القرن العاشر الميلادي كانت تنقل إلي العرب الخشب اللازم لبناء السفن. ولما تعرضت لتهديدات الإمبراطور البيزنطي حنا زيمسكيس (John Zimisces) بالانتقام منها إذا لم تمتنع عن مد مصر وغيرها من البلاد الإسلامية بالخشب الذي يصلح لعمارة السفن، أصدرت أمراً بمنع تصدير هذا النوع من الخشب وسمحت بإمدادها بالخشب الذي لا يصلح لبناء السفن^(٤). وكان لهذا القرار أثر سيئ في مصر، فقد ترتب عليه أن ندر وجود السفن في مصر حتى إنه لما أراد الوزير عيسى بن نسطورس أن ينشئ أسطولاً يقوم مقام الأسطول الذي كان معداً لوقف البيزنطيين بالشام واحترق، أمرت الحكومة الفاطمية بقطع الأخشاب من مختلف جهات القطر^(٥).

(١) Heyd Hist. du Commerce de Levant au Age Tome I, pp, 392 - 396.

(٢) Stanléy Lanc. Poole A History of Egypt in the Middle Ages P. 182.

(٣) Heyd. Hist. du Commerce de Levant au Mayen Age Tome1, p. 391.

(٤) المقرئزي. خطط، ١، ص ١٠٩.

(٥) متز. الحضارة الإسلامية، جـ ٢، ص ٣٦٤.

على أن حكومة البندقية رأت ألا تضحي بمصالحها الخاصة في سبيل إرضاء أباطرة الدولة البيزنطية، فأرسلت بعثات إلى مصر حصلت على امتيازات لسفنها^(١)، كما أن تجارها عملوا على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين، وصارت سفنهم تنقل من موانئ مصر منتجات آسيا إلى أسواق أوروبا.

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ١٧٨ .

Heyd. Hist. du Commerce de Levant au Moyen Age Tome I, P. 114.

مصادر القسم الثانى

١- ابن الأثير: (ت ٦٣٠ هـ، ١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير الجزرى.

(أ) «الكامل فى التاريخ». (١٢ جزءاً)

(ب) «تاريخ دول الأتابكة».

٢- أحمد أمين .

«ظهر الإسلام» (الجزء الأول - القاهرة ١٩٤٥)

٣- الأدفوى: (ت ٧٤٨هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على الأدفوى الشافعى.

«الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد».

٤- أرنولد: سير توماس. W. Arnold : Sir Thomes.

The Caliphate (Oxford, 1924)

٥- أمارى: ميشيل - Amari; Michel

مكتبة صقلية العربية (جزءان)

Biblioteca Arabo - Sicula. 2. Vols.

٦- أولبرى دى ليسى: O'Leary, (De Lacy)

.A Short History of the Fatimid Khalifate.

٧- إيفانو: Evanow

The Rise of the Fatimids.

٨- بامخرمة: أبو محمد عبد الله بن أحمد الطيب بامخرمة.

«المختار فى تاريخ ثغر عدن» صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

٩- البغدادى: (ت ٤٢٩ هـ، ١٠٣٧م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر.

«الفرق بين الفرق» (القاهرة ١٣٢٨هـ، ١٩١٠م).

١٠- البكرى: (ت ٤٨٧هـ، ١٠٦٤م) أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكرى.

«المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب»

١١- البندارى: (توفى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى)

الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى.

«تاريخ دولة آل سلجوق» (القاهرة ١٣١٨هـ، ١٩٠٠م)

١٢- البهاء الجندى: (ت ٧٣٢هـ، ١٣٣١م) أبو عبد الله بهاء الدين بن يوسف ابن يعقوب الجندى.

«أخبار القرامطة باليمن» المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك.

١٣- ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد.

«المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم»

١٤- حتى: فيليب - Hitti Philip

History of the Arabs. (أ)

History of Syria. (ب)

١٥- حسن إبراهيم حسن

(أ) «الفاطيون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص»

(القاهرة - ١٩٣٢م)

(ب) «تاريخ الدولة الفاطمية»

(القاهرة - ١٩٥٩م)

(ج) «تاريخ الإسلام السياسى» (الجزء الثالث - القاهرة - ١٩٤٦).

١٦- حسن إبراهيم حسن وطه شرف.

(أ) «عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب»

(القاهرة - ١٩٤٧م)

(ب) «المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر»

(القاهرة - ١٩٤٨م)

١٧- حسن حبشى:

(أ) «الحرب الصليبية الأولى» (القاهرة - ١٩٤٧م)

(ب) «نور الدين والصليبيون» (القاهرة - ١٩٤٨م)

١٨- ابن حزم (ت ٤٥٦هـ، ١٠٦٤م) أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأندلسي الظاهري.
«جمهرة أنساب العرب».

(تحقيق وتعليق أ. ليفي. پروفنسال - القاهرة ١٩٤٨م).

١٩- الحمادى اليمانى: محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى

(من فقهاء السنة فى أواسط القرن الخامس الهجرى)

«كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة»

٢٠- الخطيب البغدادي: (ت ٤٦٣هـ) الحافظ أبو بكر أحمد بن على .

«تاريخ بغداد أو مدينة السلام» (١٤ جزءاً)

٢١- ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ، ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد

«العبر وديوان المبتدأ والخبر» (٧ أجزاء - بولاق ١٢٨٤هـ)

٢٢- ابن خلكان: (ت ٦٨١هـ، ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن

إبراهيم بن أبى بكر الشافعى

«وفيات الأعيان» (جزءان - بولاق - ١٢٨٣ هـ)

٢٣- دحلان: (ت ١٣٠٤هـ) أحمد زينى دحلان المكي.

«خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام»

٢٤- الديبع الشيبانى: (ت ٩٤٤هـ) الفقيه وجيه الدين عبد الرحمن بن على

ابن محمد الشيبانى الشافعى المشهور بالديبع الزبيدى.

«قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون» (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة).

٢٥- دى غويه : De Goeje M.C.

Memoire sur Les Carmathes du Bahraiu et Les Fatimides. (Leyden 1886)

٢٦- سبط بن الجوزى (ت ٦٥٤هـ، ١٢٥٧م) شمس الدين أبو المظفر يوسف ابن قزأوغلى .

« مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان »

(صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٥١ تاريخ)

٢٧- ابن سعيد: (ت ٦٧٣هـ، ١٢٧٥م) على بن موسى المغربى .
«المغرب فى حلى المغرب، والمشرق فى حلى المشرق» .

٢٨- السلاوى : أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى .

«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»

(٤ أجزاء - القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢هـ).

٢٩- السيد عبد العزيز سالم:

«المغرب الكبير» (العصر الإسلامى). (القاهرة ١٩٦٦م).

٣٠- سيدة إسماعيل كاشف:

«مصر فى عصر الإخشيديين» (القاهرة ١٩٥٠م).

٣١- السيوطى: (ت ٩١١هـ، ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين .

«تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» .

٣٢- طه شرف:

«دولة النزارية أجداد أغاخان» (القاهرة - ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠م).

٣٣- عبد العزيز الدورى:

«دراسات فى العصور العباسية المتأخرة» (بغداد - ١٩٤٥م).

٣٤- **عبد القادر الأنصارى** : الشيخ زين الدين عبد القادر بن البدرى محمد بن إبراهيم الأنصارى من علماء القرن العاشر الهجرى .

«درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة»

(مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة)

٣٥- **ابن العديم الحلبى** (ت ٦٦٠هـ، ١٢٦١ - ١٢٦٢م) كمال الدين أبو حفص أو أبو القاسم عمر بن أحمد هبة الله .

«زبدة الحلب فى تاريخ حلب» .

٣٦- **العرشى** : القاضى حسين بن أحمد العرشى الزيدى (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى)

«بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام» .

(نشر الأب أنستاس مارى الكرملى) .

٣٧- **عمارة اليمنى** (ت ٥٩٦هـ، ، ١١٧٤م) أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكيم اليمنى الملقب بنجم الدين .

(أ) «تاريخ اليمن» (نشر Henri Cassels Kay) .

"Yaman, Its Early Mediaeval History"

(ب) «النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية» .

(نشر Hartwig Derenbourg . باريس ١٨٩٧م) .

٣٨- **ابن العميد** : (ت ٦٧٢هـ، ١٢٧٣م) الشيخ المكين جرجس بن العميد

«تاريخ المسلمين» (ليدن - ١٦٢٥م) .

٣٩- **أبو الفدا** : (ت ٧٣٢هـ، ١٣٣١م) إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماء .

«المختصر فى أخبار البشر» .

٤٠- **فييت : جاستون فييت** Wiet, G.

(أ) Histoire de La Nation Egyptienne Vol IV. (L'Egypte Arabe).

(ب) Précis de L'histoire d'Egypte T. II. (L'Egypte Musulmane).

٤١- ابن القلانسي: (ت ٥٥٥ هـ، ١١٦٠ م) أبو علي حمزة .

«ذيل تاريخ دمشق»

٤٢- القلقشندي: (ت ٨٢١ هـ، ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد

«صبح الأعشى في صناعة الإنشا» (١٤ جزءاً).

٤٢- الكندي: (ت ٣٥٠ هـ، ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف

«كتاب الولاة وكتاب القضاة» (ليدن - ١٩٠٨ م).

٤٣- لامانس : Lammens: Père Henri

La Syria, Précis Historique, Tome 1.

٤٤- لينبول: ستانلي. Lane . Poole: Stanley

(أ) A history of Egypt in the Millde Ages .

(ب) The Muhammadan Dynasties .

٤٥- ابن المؤيد اليمني: (يحيى بن الحسين)

«أنباء الزمن في تاريخ اليمن» (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

رقم ١٣٤٧).

٤٦- متز : آدم Mez. Adam

Die Renaissance des Islams.

نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة بعنوان:

«الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» (جزءان - القاهرة ١٩٤٠ -

١٩٤١).

٤٧- ابن المجاور: (٦٩٠ هـ) جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب ابن

محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي .

«تاريخ ابن المجاور» (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم

٥٣٤٢).

- ٤٨- أبو المحاسن: (ت ٨٧٤ هـ ١٣٥٤م) جمال الدين يوسف بن تغبردى
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» (نشر دار الكتب المصرية
بالقاهرة).
- ٤٩- محمد جمال الدين سرور.
(أ) «النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب» (الطبعة الرابعة - القاهرة
١٩٦٤).
- (ب) «النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق» (الطبعة الثالثة - القاهرة
١٩٦٤).
- ٥٠- مسكويه: (ت ٤٢١ هـ، ١٠٣٠م) أبو على أحمد بن محمد
«كتاب تجارب الأمم»
- ٥١- المقدسى: (ت ٣٨٨ هـ، ٩٩٧م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد
ابن أبى بكر المقدسى المعروف بالبشارى.
«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» (المكتبة الجغرافية العربية - المجلد
الثالث - طبعة دى غويه ليدن ١٩٠٦م).
- ٥٢- المقرئى: (٨٤٥ هـ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على.
(أ) «السلوك لمعرفة دول الملوك» (نشر الدكتور زيادة).
(ب) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ).
(ج) «اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الخلفاء» (نشر الدكتور جمال الدين الشال.
القاهرة ١٩٤٨).
- ٥٣- ابن ميسر: (ت ٦٧٧ هـ، ١٣٧٨م) محمد بن على بن يوسف بن جلب
«تاريخ مصر» (طبعة هنرى ماسيه Heuri Masae القاهرة ١٩١٩م).
- ٥٤- النعمان: (٣٦٣، ٩٧٣م): أبو حنيفة المغربى.
«المجالس والمسائرات» (٣ أجزاء - مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة)
- ٥٥- النويرى: (ت ٧٣٢ هـ، ٩٧٣م): شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب.
«نهاية الأرب فى فنون الأدب» (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة.
رقم ٥٤٩).

- ٥٦- هبة الله الشيرازي؛ (ت ٤٧٠هـ، ١٠٧٧م) المؤيد في الدين هبة الله .
«سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة»
(نشر الدكتور محمد كامل حسين- القاهرة ١٩٤٩م).
- ٥٧- الهمداني: حسين - Al - Hamdani, (Husain)
Letters of Al - Mustansir Billah.
(Billetin of the School of Oriental Studies, Vol VII Part 2. 1934)
- ٥٨- هيد: Heyd, W.
Histoire de Commerce du Levant au Moyen Age (2 vols- Leipzig, 1923).
- ٥٩- ابن واصل: (ت ٦٩٧هـ، ١٢٩٧ - ١٢٩٨م) جمال الدين محمد بن واصل .
«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» .
(نشر جمال الدين الشيال - ١٩٥٣، ١٩٥٧م).
- ٦٠- ابن الوردي: (ت ٧٥٠هـ، ١٣٤٩م)
«تتمة المختصر في أخبار البشر» (القاهرة - ١٢٨٥هـ، ١٨٦٨م).
- ٦١- ياقوت: (ت ٦٢٦هـ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي .
«معجم البلدان» (١٠ أجزاء - القاهرة ١٩٠٦م).
- ٦٢- يحيى بن سعيد الانطاكي: (ت ٤٥٨هـ، ١٠٦٦م).
صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» (جزءان - بيروت ١٩٠٩م).
- ٦٣- اليماني: محمد بن محمد .
«سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي من سلمية ووصوله إلى سجلماسة» (نشر إيفانو . مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة - ديسمبر ١٩٣٦).

٦٤- السجلات المستنصرية.

«سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم».

(نشر وتحقيق دكتور عبد المنعم ماجد سنة ١٩٥٤).

٦٥- مجموعة الوثائق الفاطمية.

(جمعها وحققها دكتور جمال الدين الشيال- القاهرة ١٩٥٨م).

٦٦- Encyclopaedia of Islam.

٦٧- Encyclopaedia of Religion and Ethics.

٦٨- تاريخ كامبردج العصور الوسطى

Cambridge Mediaeval History Vol IV.

١- فهرس الأعلام

(أ)	
الأمير بأحكام الله الفاطمي -	أحمد بن الحسن الكلبي - ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ .	أحمد حميد الدين الكرمانى - ص ٣٢٤ (هـ) أحمد بن خاقان - ص ٤٠ . أحمد بن خالد - ص ٤١ .
إبراهيم الثانى بن أحمد الأغلب - ص ٢٣ .	أحمد بن أبى سعيد الحسن (الملقب بأبى المنصور) - ص ١٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٧٣ .
إبراهيم بن الحسين الحامدى - ص ٢٥٩ .	أحمد بن طولون - ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٧ .
إبراهيم بن خمارويه - ص ٤٩ .	أحمد بن على بن الإخشيد - ص ٥٦ .
إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الزىادى - ص ٢٣٣ .	أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير الغسانى الأسوانى - ص ٢٦٣ .
إبراهيم بن محمد الأخيضر - ص ٢٢١ .	أحمد بن قرعب - ص ٣٦٥ .
إبراهيم ينال - ص ٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ .	أحمد بن محمد بن أبى العوام - ص ٨٩ .
أنسز التركمانى - ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .	أحمد بن محمد الواسطى - ص ٣٩ .
أحمد الأكحل - ص ٣٦٧ .	
أحمد بن بويه = معز الدولة	

* تنبيه : اعتمدنا فى ترتيب الأسماء على أول الاسم دون المبالاة بأداة التعريف ولفظى الأب والابن مثال ذلك : (ابن باديس) فقد ذكرناه فى حرف الباء ، و(ابن جفتم) تجده فى حرف الجيم ، و(أبو القاسم) فى حرف القاف ، وكل اسم ورد بعد رقم يليه الحرف (هـ) فهو من أسماء الأعلام الواردة فى الهوامش .

- أسماء (قطر الندى) - ص ٤٨ .
 أسماء بنت شهاب -
 ص ٢٤٠، ٢٤٧ .
 إسماعيل بن إبراهيم بن جابر -
 ص ٢٢٧، ٢٢٨ .
 إسماعيل بن جعفر الصادق -
 ص ٢٠، ١٠٥، ١٠٨، ٢٢٢
 (هـ)، ٣١١ (هـ) - ٣٥١ .
 إسماعيل بن الخليفة القائم بأمر
 الله (المنصور الفاطمي) -
 ص ٣١، ٣٢، ٦٢، ٧٠ .
 إسماعيل بن يوسف بن محمد
 الأخضر - ص ٢٢١ .
 الأصغر بن أبي الحسن الثعلبي -
 ص ٢١٦، ٢١٧ .
 إفتخار الدولة - ص ٣٠٧ .
 أفتكين (أبو منصور التركي
 الشرايبي) -
 ص ١٠٤، ١٠٥، ٢٥٤،
 ٢٥٥، ٢٦٧، ٢٧٩، ٢٨٨، ٢٨٩،
 ٢٩٠، ٢٩١ .
 الأفضل بن بدر الجمالي (أمير
 الجيوش - الوزير) -
 ص ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤،
 ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٢٨، ١٣٧،
 ١٣٨، ١٣٩، ١٤٤، ١٥٦، ٢٥٣،
 ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٨ .
- أحمد بن المدبر - ص ٤١، ٤٣ .
 أحمد بن مرزبان - ص ٢٢٨ .
 أبو أحمد الموفق طلحة -
 ص ٣٩، ٤٣، ٤٥، ٤٦،
 ٤٧ .
 أحمد بن كيغلف - ص ٥٢ .
 الإخشيد = محمد بن طغج
 إدريس بن زيري الصنهاجي -
 ص ١٩٣ .
 إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن
 الحسن بن علي بن أبي طالب -
 ص ٢٣ .
 أرتاش - ص ٣٣٩ .
 أرتق - ص ٣٠٦ .
 أريسطيس (بطريك بيت
 المقدس) - ص ٣٧٤ .
 إسحق بن كنداج - ص ٤٧ .
 إسحق بن عسودا - ص ٢٧٦ .
 أسد الدين شيركوه (الملك
 المنصور) -
 ص ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨ .
 أسد بن الفرات (قاضي
 القيروان) - ص ١٦٤ .
 أسعد بن أبي يعفر - ص ٢٣٤ .
 أسعد بن أبي شهاب -
 ص ٢٤٦ .

باسيل الثانى (الإمبراطور

البيزنطى) -

ص ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،

٣١٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ،

٣٧٦ .

بدر (غلام عزيز الملك فاتك) -

ص ٢٩٩ .

بدر الجمالى -

ص ٧٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،

١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ،

٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

برجوان الصقلى -

ص ٧٨ ، ٨٥ ، ٢٩٢ ، ٣٧٣ ،

٣٧٤ .

بركياروق - ص ٢٠٥ .

البساسيرى = أبو الحارث

أرسلان البساسيرى - بكجور

التركى - ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

أبو بكر أحمد بن محمد بن

أيوب المعزوف بابن فورك - ص ٣٤٣ .

أبو بكر الأنطاكى - ص ٧٨ .

أبو بكر الباقلانى - ص ٣٢٠ .

أبو بكر الصديق (رضى الله

عنه) - ص ٧٧ .

أبو بكر محمد بن على الماذرائى -

ص ٣٩ ، ٤١ (هـ) ، ٥٢ .

ألب أرسلان بن طغرلبك -

ص ٩٦ ، ١٠٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ،

٣٤٧ .

إلكز - ص ٩٥ ، ٩٨ .

الإمام أبو حنيفة النعمان بن

ثابت - ص ٧٥ ، ٨٠ .

الإمام الشافعى - ص ٧٥ ، ٨٠ .

الإمام أحمد بن حنبل -

ص ٧٥ ، ٨٠ .

الإمام مالك بن أنس -

ص ٧٥ ، ٨٠ .

أملريك (ملك بيت المقدس) -

ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ،

١٤٣ ، ٣٧٩ .

أنجور بن الإخشيد (ابن محمد

بن طغج الإخشيد) -

ص ٣٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ ،

٢٧١ ، ٢٧٢ .

إيلغازى بن الأمير أرتق -

ص ٣٠٦ .

(ب)

باديس (الأمير نصير الدولة) -

ص ٣٦١ .

الباساك (والى قوص) -

ص ١١١ .

أبو بكر محمد المالكي -

ص ١٥٨ .

بلدكوز - ص ٩٨ .

ابن بلدكوز - ص ٣٠٣ .

بهاء الدولة بن عضد الدولة -

ص ٣١٨ .

بهرام الأرمني (والى الغربية) -

ص ١١٠ ، ١١١ ، ١٣٢ .

بوهمند النرماندى - ص ١٠٦ .

(٢)

تاج الدولة تتش بن ألب

أرسلان - ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

تاج الملوك شاذى -

ص ٩٥ ، ٩٧ .

أبو تغلب بن ناصر الدولة بن

حمدان - ص ٢٨٠ .

تقى الدين عمر - ص ١٢٠ .

تكين (أبو منصور) -

ص ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .

تميم بن معز بن باديس -

ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

تميم بن المعز لدين الله -

ص ١٥١ .

توزون التركى - ص ٥٤ .

(ث)

ثمال بن صالح بن مرداس -

ص ٣٠٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ .

(ج)

جعفر الحاجب -

ص ٢٣٦ ، ٢٤١ .

جعفر الصادق بن محمد الباقر

ابن على زين العابدين بن الحسين -

ص ١٩ ، ٢٠ ، ١٠٥ ، ٢٢٢ (هـ) ، ٣١١ (هـ) .

جعفر بن عبد الغفار المصرى -

ص ٤٠ .

جعفر بن عبد الفضل بن

الفرات -

ص ٣٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧١ ، ١٢٦ .

جعفر بن الفلاح الكتامى (القائد

الفاطمى) -

ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٧٤ ،

٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،

٢٨٥ ، ٣٧١ .

أبو جعفر محمد بن أحمد بن

مودود (ابن عبد كان) - ص ٤٠ .

أبو جعفر مسلم بن عبيد الله

الحسينى - ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ .

ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٥٩ ، ١٩٩ ، ٢١١ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

الحافظ السلفي (الفقيه الشافعي) -
ص ١١٢ .

الحاكم بأمر الله (الخليفة
الفاطمي) -

ص ٧١ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٤٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٤٢ (هـ) ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٧٣ .

حباسة بن يوسف -

ص ٢٧ ، ٥٩ .

حبشي بن أحمد المغربي -

ص ٦٠ .

أبو حرب طغان - ص ٢٢٤ .

حسان بن مفرج بن الجراح

الطائي -

ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

الحسن بن أحمد القرمطي -

ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ .

جعفر المفوض (ابن الخليفة
المعتمد على الله) - ص ٤٤ .

جوهر الصقلي (قائد المعز
لدين الله) -

ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٩٢ ، ٢٢٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٥٧ .

جوهر موثقن الخلافة -

ص ١١٩ .

جود فري - ص ٣٠٧ .

جياش بن النجاش - ص ٢٤٤ .

أبو الجيش إبراهيم - ص ٢٣٤ .

أبو الجيش إسحق -

ص ٣٣ ، ٢٤٣ .

جيش بن صمصامة -

ص ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٣٧٣ .

(ح)

أبو الحارث أرسلان البساسيري -

ص ٢٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

الحافظ لدين الله (الخليفة

الفاطمي) -

- حسن بن جعفر الحسيني -
ص ١٩٢ ، ٢٤٠ .
- الحسن بن سهل - ص ٢٣٣ .
- أبو الحسن الشابشتي -
ص ١٥٨ .
- الحسن بن طاهر (مهنى) -
ص ١٩٣ .
- أبو الحسن علي بن النعمان
المغربي - ص ١٥٤ .
- الحسن الكلي - ص ٢٦٦ .
- الحسن بن محمد بن أبي
خنزير الكتامي - ص ٣٦٥ .
- الحسين بن أحمد بن عبد الله
(الإمام) - ص ٢١ ، ٢٢ .
- حسين بن إسماعيل الأصبهاني -
ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
- الحسين بن علي بن أبي طالب -
ص ١٩ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٩١ ، ٢٢٢ (هـ) ،
٣١١ (هـ) ، ٣٢٠ .
- ابن الحلاج - ص ٢٢٤ .
- الحلواني (الداعي) -
ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٣٥ .
- حمدان بن الأشعث (قرمط) -
ص ٢٠٧ (هـ) .
- حسن بن حيدرة الفرغاني
(المعروف بالأخرم) - ص ٨٩ .
- الحسن بن الصباح -
ص ١٠٦ ، ١٥٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨
(هـ) ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
- الحسن أبو علي الجنابي -
ص ٢٧٩ .
- الحسن بن عبد الله بن حمدان =
ناصر الدولة بن حمدان
- الحسن بن عبيد الله بن طغج
الإخشيد -
ص ٥٦ ، ١٩١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ .
- الحسن بن علي بن أبي طالب -
ص ١٩ ، ٢٢٢ (هـ) ، ٣١١
(هـ) ، ٣٢٠ .
- أبو الحسن علي بن الخليفة الحاكم
بأمر الله = الظاهر لإعزاز دين الله
الفاطمي .
- أبو الحسن علي بن الإخشيد -
ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .
- أبو الحسن علي بن رضوان -
ص ١٥٦ ، ١٥٩ .
- حسن بن علي الزيدى -
ص ٣١٥ .
- أبو الحسن ولد بن حوشب -
ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
٢٤٢ .

أبو الدرداء محمد بن المسيب بن
رافع بن مقلد العقيلي -

ص ٣١٩ (هـ).

(ذ)

ذكا الرومي - ص ٥١ .

(ر)

الراضي بن المقتدر (ال خليفة
العباسي) -

ص ٣٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦١ ،
١٤٢ ، ١٩ ، ٣١٥ (هـ) .

أبو ربيع سليمان بن الأمير
الزواحي - ص ٢٥٠ .

ربيع أبو المكارم هبة الله -
ص ٢٥٩ .

ابن رحيم - ص ٢٤٢ .

رستم بن الحسين بن حوشب -
ص ٢٢١ ، ٢٣٥ .

ابن رشد (من زعماء الخوارج) -
ص ٢٢٥ .

الرشيد (ال خليفة العباسي) -
ص ٢١ .

رضوان بن تثن -

ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

رضوان بن ولخشي -

ص ١١١ ، ١٢٨ .

حمزة بن علي الزوزني -

ص ٨٩ .

حمزة بن وحاش بن أبي الطيب

داود - ص ٢٠٤ .

حميد الدين الكرمانى -

ص ١٥٨ .

حميد بن مصال - ص ٣٥٦ .

أبو حميد سبأ بن أحمد المظفر بن
علي الصليحي -

ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ .

حنا زيمكس - ص ٣٧١ ، ٣٨٠ .

أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله
محمد - ص ١٥٧ ، ٣٢٥ (هـ) .

ابن حوشب = أبو القاسم رستم
ابن الحسين بن فرج بن حوشب

(خ)

خمارتكين الطغرائي -

ص ٣٤٤ .

ابن الخلنجي - ص ٤٩ .

خمارويه بن أحمد بن طولون -

ص ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،

٤٨ .

(د)

داود بن عيسى بن فليته -

ص ٢٠٤ .

- ركن الدولة الحسن بن بويه -
 ص ٣١٣ (هـ).
 أبوركوه - ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
 روجر بن تنكدر النورماندى -
 ص ٣٦٨ .
 رومانوس (إمبراطور الروم) -
 ص ١٩٠ .
 ريان الخادم (والى دمشق) -
 ص ٢٨٨ .
 (ز)
 زريع بن أبى الفتح -
 ص ٢٥٢ ، ٢٦٢ .
 زكريا بن عبد الملك الأزدي -
 ص ٢٢٦ .
 زيادة الله بن إبراهيم الأغلب -
 ص ٣٦٤ .
 زيد بن على زين العابدين -
 ص ٢٣٤ .
 زيرى بن مناد الصنهاجى -
 ص ٣٢ ، ٣٣ .
 (س)
 سابور بن أبى طاهر -
 ص ٣١٣ .
 سبأ بن أحمد الصليحي -
 ص ٢٥١ - ٢٥٢ .
 ست الملك - ص ٣٧٤ .
 سعادة بن حيان المغربى -
 ص ٢٨١ ، ٢٨٥ .
 أبو سعد إبراهيم بن سهل
 التستري اليهودى - ص ٨٤ ، ١٢٨ .
 سعد الدولة أبو المعالى بن سيف
 الدولة الحمدانى -
 ص ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٦ .
 سعيد الأحول بن نجاح -
 ص ٢٤٤ ، ٢٤٧ .
 سعيد الدولة أبو الفضائل
 الحمدانى -
 ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٧٢ .
 أبو سفيان (الداعى) -
 ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٣٥ .
 سقماق بن الأمير أرتق -
 ص ٣٠٦ .
 سلمان الفارسى - ص ٢١ .
 سليمان بن داود بن الحسن
 ابن الحسن بن على بن أبى طالب -
 ص ١٨٩ .
 سليمان بن عامر الزواحى -
 ص ٢٥١ .
 سنان بن عليان (أمير الكلبيين) -
 ص ٢٩٣ .

صلاح الدين يوسف بن أيوب -
ص ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ٢٦٤ ،
٣٤١ ، ٣٥٢ ، ٣٧٨ .

(ض)

ضرغام - ص ١١٥ .

(ط)

ابن طالوت القرشي - ص ٢٩ .
أبو طاهر الذهلي - ص ٦٥ .
أبو طاهر سليمان الجنابي
القرمطي -

ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ،
٢٨٣ ، ٣١٢ ، ٣١٣ .

الطائع لله (ال خليفة العباسي) -
ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ،
٢١٤ ، ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ .

طغرل بك السلجوقي -
ص ٣٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ،
٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ،
٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧٧ .

ابن الطفيل - ص ٢٤٢ .
طلائع بن رزيك -
ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
١٢٩ ، ١٣٢ ، ٢٠٠ ، ٣٧٩ .

أبو الطيب داود بن عبد الرحمن
ابن عبد الله داود - ص ٢٠٤ .

(ظ)

ظالم بن موهوب العقيلي -
ص ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

السيدة الحرة بنت أحمد بن
محمد بن جعفر بن موسى الصليحي
(صاحبة اليمن) -

ص ١٠٤ ، ١٩٩ ، ٣٤٧ ،
٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،
٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(ش)

شاور -
ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ .
شرف الدولة مسلم بن قريش بن
بدران العقيلي - ص ٣٠١ .

الشريف أبو أحمد الموسوي -
ص ٣٢١ .

الشريف أبو طالب الحسن -
ص ١٩٧ .

شكر بن أبي الفتوح الحسن -
ص ١٩٦ .

شمس الدولة توران شاه -
ص ٢٦٤ .

شيبان بن أحمد بن طولون -
ص ٤٩ .

(ص)

صالح بن مرداس (أمير بني
كلاب) - ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ .

صدر الدين عبد الله بن درباس
الشافعي (قاضي القضاة) - ص ٣٥٢ .

صدقة بن يوسف الفلاحى -
ص ٨٤ ، ١٢٨ ، ٣٢٦ .

عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب - ص ٢٢١ .
 أبو عبد الله الدامغاني - ص ٢٤٤ .
 عبد الله الرضى - ص ٢١ .
 عبد الله بن سعد بن أبي السرح - ص ٣٧ .
 أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا المعروف بالشيعة - ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
 عبد الله بن علي العلوى - ص ٢٢٧ .
 عبد الله بن عمر بن الخطاب - ص ١٩٧ .
 عبد الله بن قحطان بن أبي يعفر - ص ٢٤٣ .
 أبو عبد الله القضاعى - ص ١٥٨ ، ٣٧٧ .
 أبو عبد الله محمد بن البطائح = مأمون البطائحى
 أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى - ص ٧٥ ، ٨٠ .
 عبد الله محمد الأخيضر - ص ٢٢١ .
 أبو عبد الله محمد بن النعمان المغربى - ص ١٥٤ .
 عبد الله بن ميمون القداح - ص ٢١ .

الظاهر لإعزاز دين الله (ال خليفة الفاطمى) -

ص ٧٩ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٥٢ ، ١٩٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٢٢ ، ٣٦٢ ، ٣٧٩ .

(ع)

العاقد لدين الله (ال خليفة

الفاطمى) -

ص ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ، ٢٠٠ ، ٣٥٢ ، ٣٨٠ .

عامر بن عبد الله الزواحي -

ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ابن عباس الشاورى -

ص ٢٤٠ .

العباس (بن عبد المطلب) -

ص ٣٣٦ .

العباس بن عمرو الغنوى -

ص ٢٠٨ .

العباس بن المكرم الهمدانى -

ص ٢٦٢ .

عبد الرحمن الناصر الخليفة

الأموى (بالأندلس) -

ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

عبد الرحمن بن إلياس (ابن عم

الخليفة الحاكم بأمر الله) - ص ١٢٥ .

عبد العزيز بن مروان -

ص ٣٨ .

أبو عبد الله أحمد الواسطى -

ص ٤٦ .

عزیز الملك فاتك الحمدانی (أمیر
الأمراء) - ص ٢٩٩ .

عسلوج بن الحسن المغربي -
ص ٧١، ١٢٧، ١٤٢ .

عضد الدولة بن ركن الدولة
البويهی -

ص ١٩٣، ٢٢٤، ٣١٦، ٣١٧،
٣١٨ .

عضد الدين أبو الحسن الجوهري
المستنصری - ص ٢٤٩ .

على بن إبراهيم بن نجيب
الدولة - ص ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩ .

على بن أبي طالب (رضی الله
عنه) -

ص ٧٦، ٨٣، ٩٢، ١٠٧،
١٤٥، ١٤٨، ١٨٧، ٢٢٢ (هـ)، ٣١١
(هـ)، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٥٠ .

أبو على أحمد بن الأفضل -
ص ١٠٨، ١٠٩، ١١٠،
١١٤، ١٩٩ (هـ)، ٢٣٧ .

على بن أحمد الماذرائی -
ص ٤١ (هـ) .

على بن بويه (عماد الدولة) -
ص ٣١٣ (هـ) .

على أبي تغلب بن ناصر الدولة
بن حمدان - ص ٢٨٠ .

على بن جعفر بن الفلاح -
ص ٢٩٣ .

أبو على الحسن بن ملهم (مکین
الدولة) - ص ٣٠٠، ٣٦٢ .

أبو عبد الله بن ناصر الدولة بن
حمدان - ص ٣٠٠ .

عبید الله بن الإمام الحسين بن
أحمد = عبید الله المهدي .

عبد المستنصر بن المكرم أحمد
الصليحي - ص ٢٤٩، ٢٥٠ .

عبد المؤمن بن علي (أمير دولة
الموحدين) - ص ٣٦٣ .

عبد النبي بن مهدي - ص ٢٦٤ .

عبد الوهاب بن أحمد بن مروان
(أمير عمان) - ص ٢٢٣ .

عبید الله المهدي (الخليفة
الفاطمي) -

ص ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨،
٢٩، ٥٩، ٦٠، ٦٩، ١٢٦، ١٨٩،
٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٣٥،
٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠،
٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٥ (هـ)،
٣٥٥، ٣٥٦ .

عروبة بن يوسف - ص ٢٧ .

عز الدولة بختيار (أمير بني
بويه) - ص ٢٧٩ .

عز الملك المعروف بالمسبحي -
ص ١٥٨ .

العزیز بالله (الخليفة الفاطمي) -
ص ٦٧، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٩٤،

١٥٤، ١٥٥، ١٥٨، ١٩٣، ٢٤٢،
٢٤٣، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٥، ٢٩٦،

٢٩٧، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٨٥،
٣٦٠، ٣٧٢، ٣٧٣ .

- أبو علي (الداعي) -
ص ٢٤ ، ٥٩ ، ٢٣٨ .
علي الرضا بن موسى الكاظم -
ص ٢٠ .
علي بن سبأ بن أبي السعد
بنذريع - ص ٢٦٣ .
علي بن السلار -
ص ١١٢ ، ٣٥٢ .
علي بن عيسى (وزير الخليفة
المقتدر بالله) - ص ٣١٢ ، ٣١٣ .
علي بن الفضل اليماني -
ص ٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ،
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ .
علي بن عبد الله بن حمدان
(سيف الدولة) -
ص ١٠٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٢ .
علي بن عمر البلوى -
ص ٣٥٦ .
علي بن أبي الفوارس -
ص ٣٥٦ .
أبو علي بن محمد بن الحسن بن
الهيثم - ص ١٥٦ ، ١٥٩ .
علي بن محمد الصليحي -
ص ١٩٦ ، ٢٢٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦٢ ،
٢٦٥ .
علي بن هطال - ص ٢٢٥ .
عمارة اليمنى - ص ٢٠٠ .
عمر بن الخطاب -
- ص ٣١١ (هـ) .
عمر بن نهبان الطائي -
ص ٢٢٤ .
عمرو بن العاص -
ص ٣٧ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٩ .
عميد الملك الكندري (وزير
السلطان طغرل بك) -
ص ٣٣٦ ، ٣٤٤ .
عنبة بن إسحق - ص ٣٨ .
عيسى بن جعفر (أمير مكة) -
ص ١٩٣ ، ٢٠٤ .
عيسى بن فليته (الأمير) -
ص ٢٠٠ ، ٢٠٤ .
عيسى بن نسطورس -
ص ٨١ ، ٢٩٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٣٨٠ .
عيسى النوشري -
ص ٤٩ ، ٥٠ .
عيسى بن الخليفة الظافر (الفائز
بنصر الله) - ص ١١٢ ، ١٢٥ .
(غ)
أبو الغارات بن مسعود -
ص ٢٦٢ .
(ف)
الفائز بنصر الله = عيسى بن
الخليفة الظافر .
فاتك (غلام ملهم) - ص ٢٧٥ .
فاتك المعتضدى - ص ٥٠ .
فاطمة الزهراء (بنت رسول الله
ﷺ) -

أبو القاسم أحمد (المستعلي

بالله) -

ص ١٠٣٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،

١٠٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٦٢ ، ٣٠٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ .

أبو القاسم رستم -

ص ٢٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ .

أبو القاسم حسن بن علي

المغربى - ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٩٢ .

أبو القاسم الطيب (ابن الخليفة

الأمير) -

ص ١٠٨ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ،

٢٢٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ .

أبو القاسم علي بن أحمد

الجزائري - ص ٢٧ .

أبو القاسم علي بن المسلمة

(رئيس الرؤساء) -

ص ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ،

٣٤١ .

أبو القاسم علي بن منجب

الصيرفي - ص ١٣٠ ، ١٥٩ .

أبو القاسم علي بن ناصر الدولة

الحسين بن مكرم (أمير عمان) -

ص ٢٢٥ .

قاسم بن محمد بن جعفر

الحسنى - ص ١٩٩ ، ٢٠٤ .

القاسم بن هاشم بن فليته -

ص ٢٠٠ ، ٢٠٤ .

القاهر بالله (الخليفة العباسى) -

ص ٦٩ ، ١٠٧ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ،

٣٢٣ ، ٢٥٠ .

أبو الفتح عثمان بن سعيد

الكلابى - ص ٢٧١ .

أبو الفتح الحسن بن جعفر

الحسنى (أمير مكة) -

ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

٢٠٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

أبو الفرج عبد الله بن محمد

البابلى (الوزير) - ص ٣٤٢ (هـ) .

الفضل بن جعفر بن الفرات -

ص ٣٩ .

الفضل بن صالح - ص ٦٥ .

الفضل بن عباس (الوزير) -

ص ١١٢ .

الفضل بن عبد الله - ص ٣٥٩ .

فهد بن إبراهيم - ص ٨٥ .

أبو الفهم الخراسانى -

ص ٣٦٠ .

أبو الفوارس أحمد بن علي

(حفيد الإخشيد) -

ص ٥٦ ، ٦٣ ، ٣٢٢ .

فيروز (الداعى) -

ص ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٥ .

(ق)

القادر بالله (الخليفة العباسى) -

ص ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،

٣٦٢ ، ٣٢٣ .

أبو القاسم بن أبى يعلى

العباسى - ص ٢٧٦ .

ابن كنداج - ص ٤٤ ، ٤٥ .
 (ل)
 ملك بن مالك - ص ٢٧٣ .
 لؤلؤ الخادم -
 ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
 الليث بن سعد - ص ٧٥ .
 (م)
 المأمون البطاحي -
 ص ١٠٨ ، ١٤١ ، ١٥٩ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٤٩ .
 المأمون العباسي -
 ص ٢٣٣ ، ٣١١ ، ٣٦٤ .
 مالك بن أنس (الإمام) -
 ص ٢٦١ .
 مانويل (القائد البيزنطي) -
 ص ٣٧٧ .
 محمد (رسول الله ﷺ) -
 ص ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٨ ،
 ١٠٧ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ٢٢٢ ،
 (هـ) ، ٢٦٠ ، ٣١١ (هـ) ، ٣١٨ ،
 ٣٣٥ .
 محمد بن إبراهيم الزياتي -
 ص ٢٣٣ .
 محمد بن أبي الساج -
 ص ٤٦ ، ٤٧ .
 محمد الأخضر - ص ٢٣٣ .
 محمد بن إسماعيل البخاري
 الدرزي -
 ص ٢٠ ، ٢١ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ .
 محمد بن تكين - ص ٥٢ .

ص ٥٢ ، ٥٣ .
 القائم بأمر الله (ال خليفة
 العباسي) -
 ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٤١ ،
 ٣٠٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
 ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،
 ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،
 ٣٥٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧٧ .
 قتلش (ابن عم السلطان
 طغرل بك) - ص ٣٣٥ .
 قرعويه - ص ٢٧٧ .
 قرواش بن المقلد (أمير بني
 عقيل) - ص ٣١٩ .
 قريش بن بدران -
 ص ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،
 ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ .
 قسطنطين السابع (إمبراطور
 الدولة البيزنطية) - ص ٣٦٦ .
 قسطنطين الثامن (إمبراطور
 الدولة البيزنطية) - ص ٣٥٦ .
 قسطنطين التاسع (إمبراطور
 الدولة البيزنطية) - ص ٣٧٦ .
 (ك)
 كافور الإخشيدي -
 ص ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٢ ،
 ٦٣ ، ٩٤ ، ١٩١ ، ٢٧٢ .
 أبو كاليجار (أمير بني بويه) -
 ص ٢٢٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

- محمد بن جعفر (أمير مكة) -
ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٣٤٦ .
- محمد الحبيب (إمام
الإسماعيلية) -
ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ .
- أبو محمد الحسن اليازدرى -
ص ٣٢٢ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ (هـ) ،
٣٦٢ .
- محمد بن الحنفية - ص ٩٢ .
- محمد بن خزر - ص ٣٩ ، ٥٥ .
- محمد بن خلف النيرمانى -
ص ٣١٢ .
- محمد بن رائق الخزرى -
ص ٥٣ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٢٦٩ ،
٢٧٠ .
- محمد بن سبأ الزريعى -
ص ٢٦٣ .
- محمد بن سليمان الكاتب -
ص ٢٥ ، ٤٨ ، ٤٩ .
- محمد شكر بن أبى الفتوح
الحسن - ص ٢٠٤ .
- محمد بن طفيج الإخشيد -
ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٦٠ ، ١٩٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ .
- محمد بن القاسم - ص ٢٢٢ .
- محمد المنتظر بن الحسن
العسكرى - ص ٢٠ ، ١٠٩ .
- أبو محمود بن جعفر الفلاح -
ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
- محمود بن صالح بن مرداس -
ص ٣٠٢ .
- محمود بن محمد بن ملكشاه
(السلطان السلجوقى) -
ص ٣٥١ (هـ) .
- محمود بن نصر بن صالح بن
مرداس - ص ٣٠٠ .
- محي الدين مهراش بن المجلى
العقيلى - ص ٣٤١ ، ٣٤٣ .
- مرداويج بن زيار الديلمى -
ص ٣١٣ (هـ) ، ٣١٥ (هـ) .
- مرزبان بن إسحق بن مرزبان -
ص ٢٢٨ .
- المسترشد بالله (الخليفة
العباسى) -
ص ١٩٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ (هـ) .
- المستضىء بأمر الله (الخليفة
العباسى) - ص ٢٦٤ ، ٣٤١ .
- المستظهر بالله (الخليفة العباسى) -
ص ١٩٩ .
- المستكفى بالله (الخليفة العباسى) -
ص ٥٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ .
- المستنجد بالله (الخليفة العباسى) -
ص ٢٠٠ .
- المستنصر بالله (معد أبو تميم)
(الخليفة الفاطمى) -
ص ٨٠ ، ٨٤ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ،
١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٣١ ،

- المعز لدين الله الفاطمي -
 ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٩٣ ، ٢١٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
- مسعود بن المكرم الهمداني -
 ص ٢٦٢ ، ٣٥١ (هـ) .
 مسلمة بن مخلد - ص ٣٨ .
 مصالة بن حبوس -
 ص ٢٨ ، ٣٥٥ .
 المطيع لله (ال خليفة العباسي) -
 ص ٥٥ ، ١٩١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ .
- معاوية بن أبي سفيان - ص ٣٧ .
 المعتز (ال خليفة العباسي) -
 ص ٤٣ .
 المعتضد (ال خليفة العباسي) -
 ص ٤٨ .
 المعتمد (ال خليفة العباسي) -
 ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ .
 معز الدولة بن بويه -
 ص ٥٥ ، ١٩١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٨٨ (هـ) ، ٣١٤ (هـ) ، ٣١٥ ، ٣١٦ .
 المعز بن باديس الصنهاجي -
 ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ .
- مفرج بن دغفل بن الجراح -
 ص ١٩٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ .
 المفضل بن أبي البركات بن
 الوليد الحميري -
 ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ .
 المقتدر بالله (ال خليفة العباسي) -
 ص ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢٧٠ (هـ) ، ٢١٣ ، ٣٥١ (هـ) ، ٣٦٥ .
 المقتدى بأمر الله (ال خليفة
 العباسي) - ص ١٩٨ ، ٣٦٥ .
 المقتضى لأمر الله (ال خليفة
 العباسي) - ص ١٩٩ ، ٣٠٣ .
 المكتفى بالله (ال خليفة العباسي) -
 ص ٤٨ ، ٢٣٦ ، ٢٧٠ (هـ) .
 المكرم أحمد بن محمد
 الصليحي -
 ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٢ (هـ) .

- مكين الدولة الحسن بن ملهم -
ص ٢٧٦ .
- ملكشاه (سلطان السلاجقة) -
ص ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
- الملك الرحيم البويهى -
ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .
- أبو المنجا القرمطى -
ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
- منجوتكين التركى -
ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٧٢ .
- منسا بن إبراهيم الفرار -
ص ١٦ .
- أبو منصور تكين - ص ٥٠ .
- المنصور بن أبى عامر -
ص ٣٥٨ .
- أبو منصور عبد القاهر -
ص ٣١٨ .
- منصور بن عبدون - ص ٨٢ .
- منصور بن لؤلؤ الخادم -
ص ٢٩٩ .
- منصور بن الفضل بن أبى البركات - ص ٢٦٤ .
- ابن منيع الخفاجى - ص ٣٤٤ .
- موسى بن أبى العافية -
ص ٢٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ .
- موسى الكاظم بن جعفر الصادق - ص ٢٠ .
- الموفق بن الحياط - ص ٢٥٨ .
- مؤنس الخادم -
ص ٥٠ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٢١٠ .
- المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى -
ص ١٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
- ميخائيل الرابع (الإمبراطور البيزنطى) - ص ٣٦٨ .
- ميمون القداح - ص ٢١ .
- (ن)
ناصر الدولة أفتكين -
ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
- ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى -
ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٦٠ ، (هـ) ، ٣٠٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
- ناصر خسرو -
ص ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ٢٠٣ .
- نجاح - ص ٢٤٤ .
- نجم الدين أيوب - ص ١١٥ .
- أبو النجم المستنصرى - ص ٢٢٧ .
- نجم الدين بن مصال -
ص ١١٢ .

- هشام المؤيد بالله - ص ٣٥٨ .
هشام بن عبد الملك بن مروان -
ص ٣٥٨ .

(و)

- ابن واسول (الشاكر بالله) -
ص ٣٣ .

(ز)

- يارجوخ - ص ٤٣ .
ياسر بن بلال -
ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .
يانس الأرمني - ص ١١٠ .
يحيى بن إدريس - ص ٢٨ .
أبو يزيد مخلد بن كيداد -
ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣١٤ .
(هـ) .

- اليسع بن مدرار - ص ٢٥ .
يعقوب بن كلس -
ص ٦٣ ، ٨١ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ،
١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ١٨٥ ، ٢٩٠ ،
٢٩٥ .

- يوسف بن الأسد -
ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
يوسف بن أحمد بن أبي الساج -
ص ٣١٢ .
يوسف بلكين بن زيري بن مناد
الصنهاجي - ص ٦٩ ، ٧٠ .
يوسف بن وجيه (أمير عمان) -
ص ٢٢٣ .
ابن يونس المنجم - ص ١٥٦ .

- نجيب الدولة علي بن أحمد
الجرجرائي - ص ٩٤ .

- نزار بن المستنصر بالله الفاطمي -
ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
١٠٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
٢٥٨ (هـ) ، ٣٠٥ .

- نصر الحاجب - ص ٣٢٧ .

- نصر الدولة أحمد بن مروان -
ص ٣٣٤ .

- نصر بن صالح بن مرداس -
ص ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ .

- أبو نصر هرون - ص ٨٤ .

- نصير الدولة باديس (الأمير) -
ص ٢٦١ .

- نور الدولة ديبس بن مزيد -
ص ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ .

- نور الدين محمود -
ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ .

(هـ)

- الهادي (ال خليفة العباسي) -
ص ٢١ ، ٢٢ .

- هاشم بن خليفة (أمير مكة) -
ص ١٩٩ .

- أبو هاشم محمد بن جعفر بن
محمد (تاج المولى) - ص ٢٠٤ .

- هارون بن خمارويه -
ص ٤٨ ، ٤٩ .

- ابن هبيرة - ص ٣٥١ .

فهرس الأمم والقبائل والعشائر والطوائف

<p>١٥٩ ، ١٩١ ، ٢١٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ .</p> <p>الأدارة - ص ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٨ .</p> <p>الإسماعيلية -</p> <p>ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٥٩ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢٠٠ ، (هـ) ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦١ .</p> <p>الأغالبه -</p> <p>ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٦٥ .</p> <p>الأفضلية - ص ١٣٢ .</p> <p>الأكراد -</p> <p>ص ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .</p> <p>الإمامية الموسوية - ص ٢٠ .</p> <p>الأمرية - ص ١٣٢ .</p> <p>الأمويون -</p> <p>ص ١٩ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٩٢ ، ١٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٥٨ .</p>	<p>(أ)</p> <p>آل البيت النبوى -</p> <p>ص ٣٢٣ ، ٣٣٥ .</p> <p>آل زريع -</p> <p>ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .</p> <p>آل الزواحي -</p> <p>ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .</p> <p>آل الصليحيين -</p> <p>ص ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ .</p> <p>الأتراك -</p> <p>ص ٣٨ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ١٤٥ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .</p> <p>الأتراك البغداديون - ص ٣٣٦ .</p> <p>الإثنا عشرية (الإمامية) -</p> <p>ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ١٠٩ ، ١١٤ .</p> <p>الإخشيديون -</p> <p>ص ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٥ ، ١٣٠ ، ١٤٥ .</p>
--	--

أهل الذمة -

ص ٤١، ٧٣، ٨١، ٨٢، ٨٣، ١٢٧.

أهل السنة (السنيون) -

ص ٦٧، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٩، ٩٤، ٩٨، ١٠٧، ١٠٩، ١١٢، ١٢٦، ١٤٨، ١٥٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٨١، ٣١٨، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١.

(ب)

الباطنية - ص ١٣١.

البربر -

ص ٢٢، ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٣١، ١٠٧، ١٣١، ٣٤٨، ٣٦٠، ٣٦٢.

بنو الأخيضر -

ص ٢٢١، ٢٢٢.

بنو الأصفر - ص ٢٨٥.

بنو البريدي - ص ٢٢٣.

بنو بويه -

ص ١٩٠، ١٩١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٧٩، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤٥.

بنو ثعلب - ص ٢١٧.

بنو رستم - ص ٢٤.

بنو مدرار - ص ٢٤.

بنو يعفر - ص ٢٢، ٢٣٥.

بنو الجراح - ص ١٩٥، ٢٦٧، ٢٨٧، ٣٠٠، ٣٠٢.

بنو الحسن بن علي بن أبي طالب - ص ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤.

بنو الحسين بن علي بن أبي طالب -

ص ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٢٢، (هـ)، ٣١١ (هـ).

بنو حمدان -

ص ٢٧٧ (هـ)، ٢٩٩، ٣١٩ (هـ).

بنو زياد - ص ٢٤٤، ٢٦٢.

بنو زيري -

ص ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣.

بنو سليمان -

ص ١٨٩، ١٩١، ١٩٧.

بنو طييء -

ص ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٣.

بنو عامر بن عوف بن عامر بن عقيل -

ص ٢١٦، ٢١٧، ٣١٩ (هـ)، ٣٣٧، ٣٤٠.

بنو العباس -

ص ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٤، ٢٨٣، ٢٨٤، ٣١٢، ٣١٨، ٣٤١، ٣٤٢.

٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ،
٣٠١ ، ٣١٩ (هـ).

(خ)

الخوارج -

ص ٣٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
٣٢١ .

الخولانيون - ص ٢٥٧ .

(د)

الدرزية - ص ٩٠ .

دولة الزيادة - ص ٢٣٥ .

دولة السليمانيين - ص ١٨٩ .

الديلم -

ص ١٣١ ، ١٤٥ ، ٢٢٥ ، ٢٩٦ ،
٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(ر)

الرافضة - ص ٣١٣ .

الروم -

ص ٩٦ ، ٢١٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ،
٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٤٧ ،
٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ .

(ز)

زناته -

ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥٥ ،
٣٦١ ، ٣٦٢ .

الزنج - ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

زويلة - ص ٩٣ .

الزيدية - ص ٣١٥ .

بنو قرة - ص ٣٥٨ .

بنو كلاب -

ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
٣٠٠ ، ٣١٩ (هـ) ، ٣٣٤ .

بنو مرداس - ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

بنو معن بن زائدة - ص ٢٦٢ .

بنو نمير - ص ٣١٩ (هـ) .

بنو هلال - ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

البيزنطيون -

ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤١ ،
١٥٨ ، ٢٧٧ ، ٣١٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،
٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،
٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،
٣٨٠ .

(تا)

التركمان - ص ٣٠٣ ، ٣٤٠ .

تغلب - ص ٢٧٠ (هـ) .

(ج)

جهينة - ص ٩٩ .

الجعافرة - ص ٩٩ .

الجودرية - ص ١٣١ .

الجوشية - ص ١٣٢ .

(ح)

الحافظية - ص ١٣٢ .

الحمدانيون -

ص ١٩٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ،
٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ .

الزيريون - ص ٣٥٣، ٣٦٠.

(س)

السلاجقة -

ص ٢٥١، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٢٤، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١ (هـ)، ٣٧٧.

السودانيون -

ص ٩٠، ٩٣، ٩٤، ٩٨، ٩٩، ١٠٤، ١١١، ١١٩، ١٣١.

(ش)

الشيعة -

ص ٢٠، ٢٣، ٣٠، ٦٩، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٩٠، ١٠٩، ١٢١، ١٩٧، ٢٠١، ٢٢٢ (هـ)، ٢٥٧، ٢٧٤، ٢٨١، ٣١٥، ٣٢٠، ٣٤٠، ٣٥١، ٣٦١.

(ص)

الصليبيون -

ص ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٧٧، ٣٨٠.

(ط)

الطولونيون -

ص ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ١٣٠، ١٥٩.

(ظ)

الظافرية - ص ١٣٢.

(ع)

العاضدية - ص ١٣٢.

العباسيون -

ص ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٧٠، ٧٥، ٨٠، ٨١، ٩١، ٩٣، ٩٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٥، ٢٦٤، ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٦٢.

عبدقيس - ص ٤٤

العرب -

ص ٣٠، ٣٧، ٣٨، ١٩٤، ٢٢٢، ٢٨٢، ٢٩٩٠، ٢٩٩٢، ٢٩٩٣، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣٢٨، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٨، ٣٦٢، ٣٧٦، ٣٨٠.

العززية - ص ١٤٥.

العلويون - ص ٢٨، ٩١، ١٨٥، ١٩١، ١٩٢، ٢١٢، ٢١٣، ٣١٥، ٣١٨، ٣٢١.

(غ)

الغز - ص ٣٠٢ .

الغلمان الحمدانية - ص ٣٥٩ .

(ف)

الفاطميون -

ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٩ ،

٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٨ ،

٨٩ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،

١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،

١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ،

٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،

٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،

٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ،

٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،

٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،

٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،

٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،

٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،

٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،

٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،

٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،

٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،

٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ،

٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،

٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،

٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ،

٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ،

٣٨٠ .

الفرس - ص ٣٢٥ .

(ق)

القرامطة -

ص ٦٥ ، ٩١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،

٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،

٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،

٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،

٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،

٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٤ ،

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ .

(ك)

الكافورية - ص ١٤٥ ، ٢٨٢ .

الكتاميون -

ص ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ،

٧٧ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٤ ،
 ١٢٦ ، ١٣١ ، ٢٥٥ ، ٢٦٧ ، ٢٨٠ ،
 ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ،
 ٣٥٧ .

الملكانيون - ص ٨١ .

الموحدون - ص ٢٢٩ .

(ج)

النزارية -

ص ١٠٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٨ ، ٣٠٨ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(هـ)

الهاشميون -

ص ٢١ ، ١٩٦ .

٣٢ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٢٧ ،
 ١٣١ ، ٣٦٠ .

المأذرائيون - ص ٤٢ .

المرداسيون -

ص ٢٦٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

المشاركة - ص ٩٩ .

المصامدة - ص ١٣٢ .

المصريون -

ص ٤١ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٧ ،
 ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٠ ،
 ٩٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ ،
 ٢٩٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

المغاربة -

ص ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٥٩ ، ٧١ ،

فهرس البلاد والمدن والمواضع والجبال والأنهار

(أ)

الأحساء -

ص ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ .

أخميم - ص ١٣٦ .

أذربيجان - ص ٣٠٢ .

أرجان - ص ٣١٤ (هـ) .

الأردن - ص ٤٣ .

أرض الطبالة - ص ٣٤٢ .

أرمينية -

ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٣٠٣ ، ٣٧٤ .

الإسكندرية -

ص ٤١ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠ .

إسنا - ص ١٣٦ .

أسوان -

ص ٤١ ، ٩٩ ، ١٣٦ ، ١٤٠ .

أسيوط - ص ١٣٦ .

الأشمونين -

ص ٥٩ ، ١٣٦ ، ١٣٩ .

أصبهان - ص ١٠٦ ، ٣٢٤ .

أفامية - ص ٣٧٥ .

إفريقية -

ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٧ ، ٧٠ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ ، ٣٦٠ .

إقليم البحيرة -

ص ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٢ .

ألموت - ص ٣٤٩ .

أمالفى - ص ٣٧٩ .

الأنبار - ص ٣١٩ ، ٣٢٩ .

الأندلس -

ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

أنطاكية -

ص ٢٧٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ .

أنطوطوس - ص ٢٩٨ ، ٣٧٣ .

الأهواز -

ص ٢١ ، ٢٢٢ ، ٣١٣ (هـ) ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ .

(ب)

بابل - ص ٢١٢ .

البابين - ص ١١٥ .

بالس - ص ٣٣٧ .

بانياس - ص ١٤٠ .

بلاد الجبل - ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

بلاد الحجاز -

ص ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
 ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦٢ ،
 ٣٠١ ، ٣٣٦ .

بلاد الديلم - ص ٣١٥ (هـ) .

بلاد الروم - ص ١٤١ .

بلاد السواد - ص ٣١١ .

بلاد الشام -

ص ٨٢ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١١ ،
 ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢١٣ ،
 ٢١٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
 ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ .

بلاد العراق -

ص ٤٠ ، ٤٣ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٩٦ ،
 ٩٨ ، ١٤١ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٩ ،
 ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ .

بخارى - ص ٣٠٢ .

برقة -

ص ٢٢ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ،
 ١٣٢ ، ٢١٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٣ .

البصرة -

ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٢٠٩ ، ١١٠ ،
 ٢٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٥١ ،
 (هـ) .

بعلبك - ص ٣٧١ .

بغداد -

ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
 ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
 ٦٢ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١٣٣ ،
 ١٥١ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
 ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ،
 ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
 ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ،
 (هـ) .

بلاد البحرين -

ص ٢٢ ، ١٨٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ،
 ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،
 ٢٩٠ ، ٣١٢ .

بلاد الفرس -

ص ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٤٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

بلاد الكرج - ص ٣١٣ (هـ)

بلاد ما وراء النهر - ص ٣٣٨ .

بلاد المشرق -

ص ٢٥٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٧ ، ٣٥٢ .

البلاد المصرية -

ص ٣٨ ، ٤٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ٢١٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٧٩ .

بلاد المغرب

ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٥٧ ، ١٩١ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٣١١ ، ٣١٣ (هـ) .

بلاد المغرب الأقصى -

ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٦٣ .

بلييس -

ص ٦٠ ، ٢٩٨ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ .

بلرم - ص ٣٦٤ .

البندقية -

ص ١٣٤ ، ١٤٠ ، ٢٨١ .

البهنسا - ص ١٣٦ .

بيت المقدس -

ص ٨١ ، ٨٣ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ .

بيروت - ص ٢٧١ .

بيزا - ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

بين القصرين - ص ١٢٠ .

(قا)

قاهرت -

ص ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

قذمر - ص ٢٧٦ .

تركستان - ص ٣٠٢ .

تعز - ص ٢٦٤ .

تنيس -

ص ٤١ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧١ ، ٩٥ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ٢٨٢ .

تهامة - ص ٢٨٢ .

توزر - ص ٢٩ .

تونس - ص ٣٦٣ .

تونة - ٧١ .

(ج)

جبل المقطم -

ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ .

جرجان - ص ٣٠٢ .

الجزائر - ص ٣٦٣ .

الجزيرة -

ص ٤٧ ، ٣١٩ (هـ) ، ٣٦٥ ،

٣٦٧ ، ٣٦٨ .

جزيرة أورال - ص ٢١٤ .

جزيرة الروضة (جزيرة مصر) -

ص ١٣٣ ، ٣٥٠ .

جزيرة صقلية -

ص ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ،

٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٥ .

جزيرة العرب -

ص ١٣٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ،

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٣١٣ (هـ) ،

٣١٤ ، ٣٤٧ .

جناب - ص ١٢٧ .

جنوه - ص ١٤١ ، ٣٨٠ .

الجيزة -

ص ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٩٥ ،

١١٩ ، ١٣٦ .

(ح)

حارة برجوان - ص ٩٩ .

الحبشة - ص ٨٣ .

الحرمان (الحرم المكي والحرم

المدني) -

ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٩٣ ،

١٩٥ ، ١٩٨ ، ٣٢١ .

حصن بابليون - ص ٦٦ .

حصن شيرز -

ص ٢٩٧ ، ٣٧٣ .

حصن الكرك - ص ١٢٠ .

حصن مسار - ص ٢٤٤ .

حضر موت - ص ٢٣٣ .

الحضرة - ص ٢٢١ .

حلب -

ص ٤٩ ، ٦١ ، ١٠٦ ، ٢٧٠ ،

٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،

٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ،

٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،

٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٧١ ،

٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ .

حلة بني مزيد - ص ٣٣٠ .

حلوان - ص ٣٣٧ .

حماء -

ص ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ .

حمص -

ص ٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣٣٣ ، ٣٧٢ .

١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
٣٤٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

الدلتا - ص ٣٠٣ .

دهلك - ص ٢٤٧ ، ٢٥٧ .

ديار بكر - ص ٢٧١ .

ديار ربيعة - ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

ديار كندة - ص ٢٣٣ .

(ج)

رشيد - ص ٤١ .

رقادة - ص ٢٦ ، ٢٩ .

الرقعة -

ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٤ .

الرملة -

ص ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦١ .

الرها - ص ٣٠٤ ، ٣٠٦ .

الرى -

ص ٢١ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣١ .

(ج)

زبيد -

ص ٢٠٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،

٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ،
٢٦٤ .

(س)

سامرا -

ص ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ .

حوران - ص ٢٧٦ .

حيدران - ص ٢٨٤ .

الحيرة - ص ٣١٧ .

(خ)

خراسان -

ص ٣٠٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨ .

خزانة البنود - ص ١٣٩ .

خزانة الخيام - ص ١٣٣ .

خزانة السلاح - ص ١٣٣ .

خوزستان - ص ١٠٦ .

(د)

دار الحكمة -

ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٠ .

دار الملك - ص ١٤٤ ، ١٤٨ .

دبيق - ص ١٣٩ .

الدكة - ص ٢٨٠ .

دمشق -

ص ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٦٢ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ٢١٤ ،

٢١٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،

٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ،

٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،

٣٣٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ .

دمياط -

ص ٤١ ، ٤٩ ، ٧١ ، ٩٦ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٠ ،

سبته - ص ٢٨ ، ٣٩ ، ٢٥٧ .

سجل ماسة -

ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٢٥٧ .

سرقوسة - ص ٣٦٤ .

سلمية -

ص ٢١ ، ٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٣٧ ، ٣١١ .

سملا - ص ٢١ .

سنجار -

ص ٢٧٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ .

السند - ص ٢٢ .

سورية -

ص ٢٩١ ، ٣٧١ .

(ش)

الشام -

ص ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٧٠ ،

٩٠ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٤٢ ،

١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ،

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ ،

٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،

٣١٨ ، ٣١٩ (هـ) ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ،

٣٣٨ ، ٣٤٤ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٦٧ ،

٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

شطا - ص ١٤٠ .

شمال إفريقية - ص ٣٦٣ .

شيراز -

ص ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٢٦ ،

٣٧٥ .

(ص)

صحار - ص ٢٢٤ .

صعدة - ص ٢٣٤ .

الصعيد -

ص ٩٤ ، ٩٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٢٩ ، ١٣٦ .

صنعاء -

ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ .

صيدا - ص ٢٧١ .

الصين - ص ١٤٠ .

(ط)

الطائف - ص ٢٠٩ .

الطاحونة - ص ٢٥ .

طبرستان - ٣٠٢ .

طبرية -

ص ٤٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٩١ ،

٢٩٤ ، ٣٧١ .

طرابلس -

ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ،

٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٦١ ،

٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ .

طرسوس - ص ٤٦ .

طرميس - ص ٣٦٤ .

٦٥ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ،
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٩ ،
١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٣٣١ ،
٣٤٨ .

فلسطين -

٤٣ ، ٥٢ ، ١١٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ،
٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ .

الفيوم -

٥٩ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ٢٥٩
(هـ) .

(ق)

القاهرة -

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٨ ،
٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ،
١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٢٢ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ،
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ،
٣١٤ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،
٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ .

قرطبة - ص ٣٠ .

قسنطينية -

٢٩٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،
٣٧٥ .

قسطانية - ص ٣٦٤ .

طنجة ص - ٣٣ ، ٣٥٧ .

(ع)

العباسة - ص ٤٩ .

عدن -

ص ٢٦٢ ، ٢٦٤ .

العريش -

ص ٥٣ ، ٢٦٩ .

عسقلان -

ص ٢٨٢ ، ٣٠٨ ، ٩٨ ، ١٠٧ .

عكا - ص ٩٨ ، ١٠٧ .

عمان -

ص ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
٢٤٢ ، ٢٥٣ .

(غ)

غار ثور - ص ٧٧ .

غدير خم - ص ٧٦ .

غزة - ص ٥٠ ، ٣٠٣ .

(ف)

فارس -

٦٦ ، ١٥٨ ، ٣٠٥ ، ٣٢٤ ،
٣٢٧ ، ٣٥٦ .

فاس -

ص ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ .

الفسطاط -

ص ٢٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

القصر الشرقي (القصر الفاطمي) -

ص ٧٠، ١١٢، ١٤٧، ١٥٤.

قصر يانة - ص ٣٦٤.

القطائع - ص ٤٩.

القطيف - ص ٢٠٩.

قلعة أفاميه - ص ٣٠٥.

قلعة طبرمين - ص ٣٦٥.

قلعة عرفة - ص ٣٠٥.

قلعة ألموت - ص ٢٥٨.

قلنسرين - ص ٢٧١، ٢٧٢.

قليوب - ص ٩٨، ١٤٠.

قوص - ص ١١١، ١٣٧.

القيروان -

ص ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٥٩، ٦٣، ٢١١، ٣١٤.
(هـ)، ٣٧١.

القيس - ص ٩٧.

قيسارية - ص ٣٧١.

(ك)

كربلاء - ص ٧٦.

كرمان -

ص ٣٠٢، ٣٢٤، ٣٢٧.

الكعبة -

ص ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٠، ٢١٢.

كنيسة القيامة -

ص ٨٢، ٣٧٥، ٣٧٨.

الكوفة -

ص ٢١٠، ٢١٥، ٢٨٠.

٣١٢، ٣١٩، ٣٤٤.

(ل)

لحج - ص ٢٣٣.

(م)

مازندران - ص ٢١.

المجاز (خليج يفصل بين صقلية وإيطاليا) - ص ٣٦٧.

المدائن - ص ٣١٩.

المدينة المنورة - ص ٢١، ٦٧.

مريوط - ص ١٣٦.

مشتول - ص ٥٩.

مصر -

ص ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٠.

٣٢، ٣٣، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠.

٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧.

٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣.

٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٠.

٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٩.

٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦.

٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢.

٨٣، ٨٤، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤.

٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٥.

١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢.

١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧.

٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٩٢ ،
٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ .

مكناسة - ص ٢٨ .

المنصورية -

ص ٣١ ، ٣٢ ، ٦٥ ، ٦٩ ،
١١٩ ، ٣١٤ هـ .

المنيا - ص ١١٦ .

منية شلقان - ص ٦٤ .

المهدية -

ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣١٤ ،
٣٥٦ ، ٣٦٣ .

الموصل -

ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٢٧١ ،
٢٨٠ ، ٣٠١ ، ٣١٩ (هـ) ، ٣٢٩ ،
٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

ميافارقيان - ص ٣٣٣ .

(ج)

نصيبين -

ص ٢٧٠ ، ٣٣٩ .

نهر العاصي -

ص ٢٧١ ، ٣٣٣ ، ٣٧٣ .

نهر الفرات -

ص ٢١٦ ، ٢٧١ ، ٢٩٥ ، ٣٥٥ .

نهر النيل -

ص ٦٤ ، ٩٦ ، ١٠ ، ١٣٦ ،
١٣٩ .

١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ،
١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
١٩٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ،
٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ،
٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،
٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ،
٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ،
٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،
٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ،
٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،
٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،
٣٨١ .

معرة النعمان - ص ٣٠٧ .

المغرب -

ص ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٧٤ ،
٣٢١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،
٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ .

مكة -

ص ٢٢ ، ٤٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ .

ص ٢٢٣ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٧ .

(ك)

يازور - ص ٢٣٢ (هـ) .

يافا - ص ٢٨٢ ، ٢٨٥ .

اليمامة -

ص ٢٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ .

اليمن -

ص ٢٢ ، ٢٤ ، ٥٤ ، ١٩٦ ،

١٩٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ،

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،

٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،

٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ .

النهروان - ص ٣٤٤ .

النوبة -

ص ٣٧ ، ٧٦ ، ١٤٠ .

نيسابور - ص ٣٠٢ .

(هـ)

همذان -

ص ٢٤٤ ، ٣١٣ (هـ) ، ٣٣٧ ،

٣٣٩ ، ٣٥١ (هـ) .

الهند -

ص ٢٢ ، ١٤٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ،

٢٥٣ .

(و)

واسط -